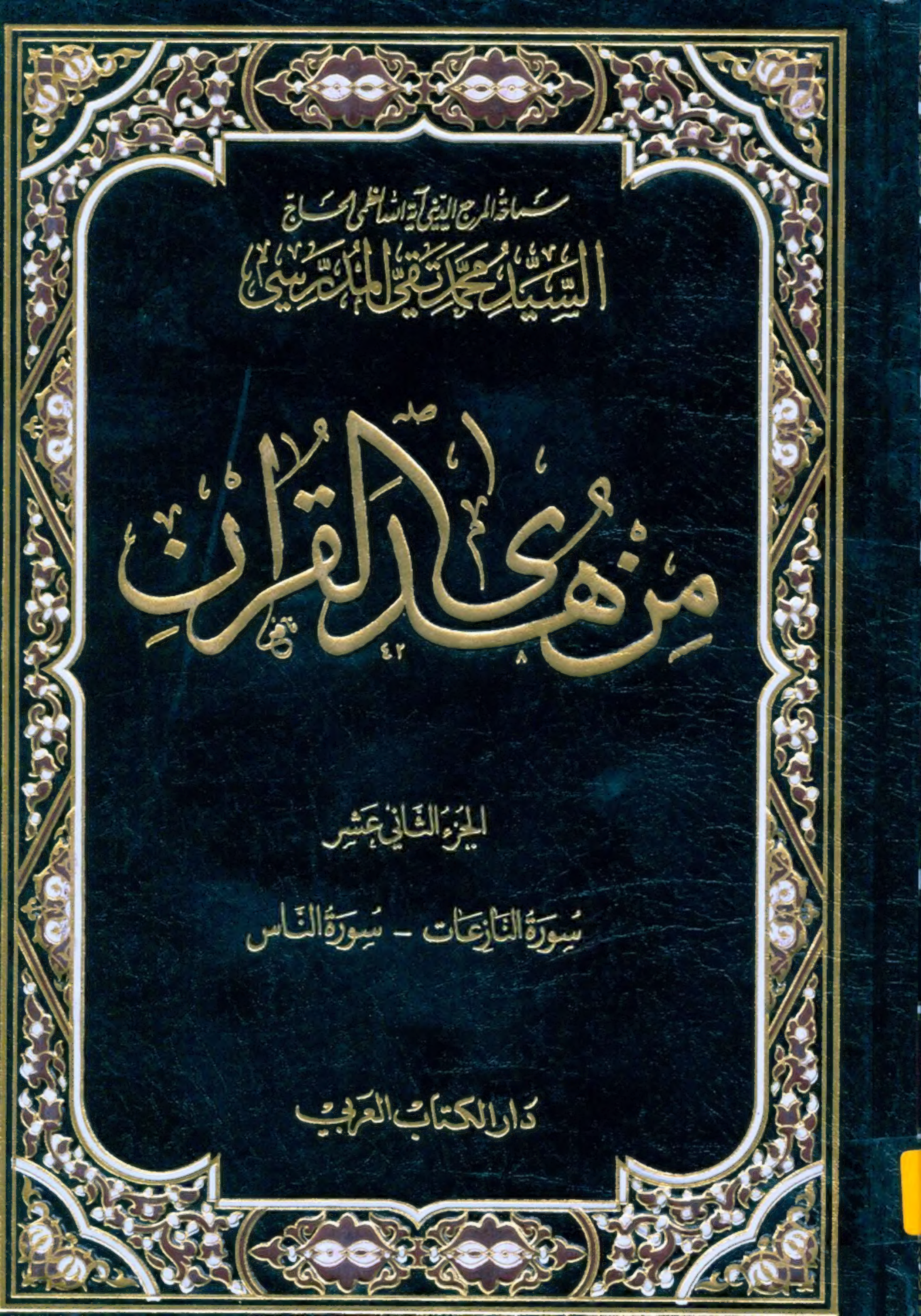

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء الثاني عشر
سورة النازعات - سورة الناس
دار الكتاب العربي


والكاظمين الغيظ
الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة


من هدى القرآن
١٢

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرّسي



الجزء الثاني عشر

سورة النازعات - سورة الناس

دار القارئ

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/ ٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله رَبِّ الْعالَمِينَ وَ صَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ الطَّاهِرِين

سُورَةُ النَّازِعَات

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٤٦.

* ترتيبها النزولي: ٨١.

* ترتيبها في المصحف: ٧٩.

* نزلت بعد سورة النبأ.

فضل السّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ لَمْ يَمُتْ إِلَّا رَيَّاناً [رَيَّانَ] ولَمْ يَبْعَثْهُ اللهُ إِلَّا رَيَّاناً [رَيَّانَ] ولَمْ يُدْخِلْهُ الجَنَّةَ إِلَّا رَيَّاناً [رَيَّانَ]».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٧)

الإطار العام

من أجل معالجة الطغيان والغرور

يبدو أن سورة النازعات تنزع من نفس المهتدين بها طغيانها، ولكن كيف؟.

أولاً: بتلاحق كلمات القسم الصاعقة، وبما هو مجهول عندنا، من ملائكة الموت أو حالة الموت أو خيل الغزاة. (الآيات: ١-٥).

ثانياً: تنذر بيوم الراجفة ويوم الرادفة، حيث تكون القلوب واجفة، أبصارها خاشعة، من هم أولئك؟ إنهم الذين يقولون في الدنيا: إنا لمردودون إلى الحياة كما نحن الآن حتى ولو كنا عظاماً نخرة. فيقول لهم القرآن: بلى؛ وبزجرة واحدة تخرجكم الأرض إلى ظهرها المستوي، لا ترون فيها أمتاً ولا عوجاً. (الآيات: ٦-١٤).

ثالثاً: تقص علينا حديث موسى وفرعون، وكيف أن فرعون طغى ولم يستمع إلى إنذار رسول الله إليه، فأخذه الله نكال الآخرة والدنيا. (الآيات: ١٥-٢٥).

رابعاً: ترينا آيات الله في السماوات والأرض، وحكمته البالغة التي تتجلى في نظام الخلقة، كيف مسك السماء وسواها، كيف أغطش ليلها وأخرج ضحاها، وكيف دحا الأرض وأخرج منها ماءها ومرعاها، وكيف أرسى جنباتها.. كل ذلك لحياة الإنسان، والبهائم التي تساعد الإنسان.(الآيات: ٢٦-٣٣).

خامساً: بعد ذلك يذكرنا بالطامة الكبرى حيث يتذكر الإنسان ما سعى، ويبين أن حكمة الخلق تتجلى في الجزاء النهائي، عندما يلقى في الجحيم من طغى، وتكون الجنة مأوى الخائفين مقام ربهم. (الآيات: ٣٤-٤١).

وفي خاتمة السورة يذكرنا السياق بتبرير يتشبث به الجاحدون عبثًا، حيث يتساءلون عن

الساعة: أيان مرساها؟ ولكن أين أنت والساعة؟ إنَّ علمها عند الله وإليه منتهاها، إنها أنت منذر.. دعنا نخشاها، ففي ذلك اليوم تعم الحسرة كل أبعاد وجودنا، لأننا نحتسب عمرنا في الدنيا عشية أو ضحاها. (الآيات: ٤٢-٤٦).

وهكذا تحقق آيات السورة هدفها لمن يشاء، وهو معالجة طغيان النفس وغرورها.

قلوب يومئذ واجفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا[1] (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا
(٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ[2] (٦)
تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ[3] (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ[4] (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ
(٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ[5] (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً[6]
(١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ[7] وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم
بِالسَّاهِرَةِ[8] (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ

---

(١) والنازعات غرقاً: قيل: هم الملائكة ينزعون أرواح الكفار عن أبدانهم بالشدة كما يغرق النازع في القوس فيبلغ بها غاية المدى، وقيل: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق أي تطلع وتغيب، قال البعض: تنزع من مطالعها وتغرق في مغاربها.. وهناك معانٍ أخرى للآية.

(٢) الراجفة: قيل هي النفخة الأولى التي يموت فيها جميع الخلائق، والراجفة صيحة عظيمة فيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمخض.

(٣) الرادفة: قيل هي النفخة الثانية تعقب النفخة الأولى وهي التي يُبْعَث معها الخلق.

(٤) واجفة: شديدة الاضطراب، والوجيف: سرعة السير، وأوجف في السير: أسرع وأزعج الركاب فيه.

(٥) الحافرة: الطريق التي مر فيها الإنسان، تسمى بذلك لأنه حفرها بتأثير أقدامه فيها، فالكافرون يتساءلون: هل نحن نعود إلى الحياة بعد الموت كالسابق؟

(٦) نخرة: بالية، وفي مفردات الراغب: نخرت الشجرة أي بليت فهبّت بها نُخرةُ الريح أي هبوبها، والنخير: صوتٌ من الأنف. وهذا يوافق ما قيل من أن الناخرة من العظم ما فرغت وخرج منها صوت بسبب هبوب الرياح.

(٧) زجرة: هي صيحة الصور، وسميت بذلك لأنها تزجر وتردع المخاطب عن سيره الأول إلى نحو السير الثاني.

(٨) بالساهرة: هي وجه الأرض، والعرب تسمّي وجه الأرض من الفلاة ساهرة أي ذات سهر لأن من يريد النوم عليها يسهر خوفاً مما فيها من العدو والحيوانات الوحشية. وهنا إشارة: أن المحشر يكون في أرض مستوية كالفلات لا اعوجاج فيها ولا بناء ولا شجر ولا كهوف ولا مغارات يفلتون إليها من يد العدالة.

طُوًى[1] ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾
وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾
ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ
ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لكيلا تغمر النفس الغفلة عن ذكر الله يذكرنا السياق بما يتنظرنا من حالات النزع والنشط والسبح والسبق، ثم بيوم القيامة حيث الصيحة التي تفنى بها الخلائق، والصيحة التي تحيا بها. في ذلك اليوم تتسارع نبضات القلوب، وتخشع الأبصار، لماذا؟ لأنهم كانوا لا يرجونه، وكانوا يقولون: هل نعود كما نحن اليوم، أو بعد أن نصبح عظاما نخرة؟! ثم قالوا: تلك إذن كرة خاسرة. بلى، إنهم يعودون وبصيحة واحدة تنقلهم من رحم قبورهم إلى ظاهر الأرض المستوية.

ثم ينقلنا السياق إلى حديث موسى الذي ناداه ربه وأمره بإنذار فرعون الطاغية لعله يتذكر أو يخشى، ولكنه أبى وتحدى حين حشر الناس ونادى فيهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فأهلكه الله في الدنيا بعذاب وألحقه بعذاب الآخرة. كل ذلك ليبقى عبرة لمن يخشى.

وهكذا تواصلت رسالات الله لإنذار البشر بذلك اليوم الرهيب الذي ينتظر الجميع.

بينات من الآيات:

[١] في حياة المرء لحظات حاسمة لو وعاها ونظم مسيرته وفقها تجاوز خطرها، ومن أبرزها عند نزع الروح، عندما يودع حياة طالما عمل لها، ويدخل في حياة مجهولة تماما لديه، وعندما يقسم القرآن بمثل هذه اللحظات فلكي نعيد النظر في تصوراتنا عن أنفسنا، ونكبح منها جماح الغرور والطيش. ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ قسما بتلك القوى التي تنزع الأرواح من أبداننا بقوة كما ينزع القوس فيغرق فيه حتى يبلغ غاية مداه. ويبدو أن المراد منها الملائكة الذين يقومون بهذا الدور.

[٢] ثم قسما بالقوى التي تنشط في هذا الأمر نشطا ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ قالوا: النشط هو الجذب بسهولة ويسر، فالمعنى هنا أن الملائكة تنشط أرواح المؤمنين، كما ينشط العقال من

(١) طوى: اسمٌ للوادي الذي كلّم الله فيه موسى، وقيل: طوي بالتقديس مرتين.

يد البعير إذا حل عنها. من هنا يعتقد أن القسمين هما بملك الموت وأعوانه في حالتين: عند نزع أرواح الكفار غرقا أي بقوة وشدة، وعند نزع أرواح المؤمنين بنشط ورفق. وقد روي عن الإمام علي عليه السلام معنى معاكس في هذه الآية حيث قال إنها: «**الْمَلَائِكَةِ تَنْشَطُ أَرْوَاحَ الكُفَّارِ مَا بَيْنَ الجِلْدِ وَالأَظْفَارِ حَتَّى تُخْرِجَهَا مِنْ أَجْوَافِهِمْ بِالكَرْبِ وَالغَمِّ**»[1].

[٣] ثم تحمل الملائكة أرواح المؤمنين إلى السماء فتسبح فيها سبحا.. كما تسبح النجوم في أفلاكها ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾.

[٤] ثم تتسابق بسرعة لتبلغ غاية الروح النار أو الجنة.. فقسما بأولئك الكرام ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾.

[٥] وقسما بأولئك الملائكة الذين يدبرون أمر الأرواح وغيرها من أمور عالمنا بإذن ربهم ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ قسما بهم جميعا: إن يوم الفصل آت، وإن الجزاء واقع لا ريب فيه.

كان هذا أحد التفاسير في معنى هذه الآيات، وهناك تفسيرات أخرى:

١- أن المراد بالنازعات إنها تنزع من أفق لآخر، وتنشط في سيرها، وتسبح في الفضاء، وتساءلوا عن معنى تدبيرها الأمر فقالوا معناه أن الله يدبر الأمر بها.

٢- أن النازعات هي الأرواح التي تنزع كما يقال: لابن وتامر لمن يملك اللبن والتمر، وهي أيضا التي تنشط أي تخرج ثم تسبح في الفضاء، وتساءلوا مرة أخرى عن تفسير المدبرات أمرا فقالوا: إن أرواح بني آدم تدبر عبر الأحلام لبعض الأمور بعد فراقها من الدنيا، وهذا تفسير غريب.

٣- وقال بعضهم: إنها صفة خيل الغزاة أو الغزاة أنفسهم، لأنها تنزع في أعناقها نزعا تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها لأنها عراب، وهي ناشطات لأنها تخرج من دار الأمان إلى جبهات الحرب، وهي سابحات لأن العرب تشبّه الخيل الأصيل بالسفينة التي تجري بيسر وسرعة، وقالوا: إنها تدبر أمر الغلبة والنصر.

وإن هذا التفسير يبدو مقبولا إذا لاحظنا أن ربنا أقسم بخيل الغزاة أو عموما بالخيل في قوله سبحانه: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ [العاديات: ١-٢][2]، وكانت للعرب علاقة حميمة مع الخيل، كما أنه كان رمزا للشجاعة والفروسية. إلا أن تفسير ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾

(١) بحار الأنوار: ج٥٦، ص١٦٨.
(٢) التفسير الكبير: ج ٣١، ص ٣١.

بها يبقى غريبا، لذلك قال بعضهم: إنه لا خلاف في تفسير هذه الآية بالملائكة أنى فسروا سائر الآيات، ويبدو أن المراد بكل هذه الكلمات نوع واحد من الخلائق أي الملائكة، والله العالم.

[٦] وأنى كان تفسير هذه الكلمات الصاعقة فإنها تهز الضمير، بل ويزداد المرء هلعا حين لا يعلم المراد منها بالضبط، وهنا يقول الرب: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ حين تزلزل الأرض زلزالها، حين تعم الصيحة أرجاء الكون، حين تهتز كل الثوابت فلا يبقى ما يعتمد عليه الإنسان سوى الحق. وسواء كانت الرجفة بمعنى الحركة كقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، أم بمعنى الصيحة كما قال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨]، فإنها تخلع القلوب هلعا، وتبعثنا نحو التفكير الجدي فيما يفعل بنا غدا.

[٧] وبعد الرجفة هناك صاعقة أخرى يدعها السياق مجهولة ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ الرادفة الشيء يقع بعد شيء آخر، فهل هي الصيحة الثانية التي يُحيي بها الله الناس بعد أن يميتهم بالأولى، أم أن عند الأولى يموت أهل الأرض في حين يموت عند الثانية أهل السماوات؟! أنى كانت فإنها صاعقة فظيعة تبعث الهيبة في أنفسنا.

[٨-٩] تتسارع نبضات قلوب الفجار فأنى لهم الفرار من أهوال الساعة وقد ضيعوا فرصهم في الدنيا فلم يدخروا لأنفسهم ما ينجيهم منها؟ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ أما المؤمنون فإنهم آمنون من فزع يومئذ، لأنهم قد وفروا لأنفسهم من صالح الأعمال ما يبعث في أنفسهم السكينة.

[١٠] طالما كفروا بالنشور، وبنوا كل مواقفهم على أساس هذا الكفر، فإذا بهم يكتشفون خطاهم ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ قالوا: رجع فلان في حافرته أي في طريقته التي جاء فيها فحفرها أي أثر فيها بمشيه. وهكذا يبعدون البعث لأنفسهم حتى لا يتحملوا مسؤولياته.

[١١] ويحاولون تبرير استبعادهم للبعث بأنه كيف يمكن إعادة هذه الأعظم البالية التي تنخر فيها الرياح لما فيها من ثقوب كثيرة. ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ قال الخليل: «نخرت الخشبة إذا بليت فاسترخت حتى تفتت إذا مست، وكذلك العظم الناخر»[1]، وقيل: الناخرة من العظم ما فرغت وخرج منها صوت بسبب هبوب الرياح.

[١٢] ثم عادوا إلى الواقع وقيّموا موقفهم الجاحد فقالوا: إذا كانت القيامة حقًّا فإنهم الخاسرون لكفرهم بها ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ولعل هذا القول كان اعترافا منهم يدانون به

(١) كتاب العين: الخليل الفراهيدي: ج٤، ص٢٥١.

يوم القيامة، أو جحودا بعد اليقين وعنادا بعد الإذعان. وقيل: إنما هو استهزاء وسخرية.

[١٣] دعهم يقولوا ما يشاؤون فإن القيامة واقعة، وبزجرة واحدة تراهم قياما في الساهرة ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ زجر البعير إذا صاح عليه، ويبدو أن المراد منها النفخة الثانية التي يُحيي بها الله من في القبور.

[١٤] ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ الساهرة الأرض المستوية سميت بذلك لأن سالكها لا ينام فيها خوفا منها. ويبدو أن الساهرة هي وجه الأرض في مقابل باطنها حيث إنهم كانوا في باطن الأرض فتحولوا إلى ظاهرها.

[١٥] حقيقة كيوم القيامة، عندما تدق ساعة الحساب الرهيب، جديرة بأن نتذكرها، بل نجعلها نصب أعيننا أبدا حتى نكيّف على أساسها كل أبعاد سلوكنا وكل جوانب تفكيرنا، ومن أجل هذا بعث الله الرسل لكي ينذروا الطغاة لعلهم يخشون من تلك العاقبة، ولكنهم تمادوا في غيهم حتى أهلكهم الله وعجل بهم الله إلى النار، فهل لنا أن نعتبر بتاريخهم المأساوي؟ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ بلى، ولكن هل اعتبرت بهذا الحديث؟ فإن لم تكن اعتبرت به فكأنك لم تسمعه أبدا.

[١٦] لقد بدأت قصته بدعاء ربه، عندما صار في الوادي المقدس طوى ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ لقد تقدست تلك الأرض بالوحي. ولعل اسمها كان طوى أو أن هذه صفة الأرض من الطي كأنها طويت بالقداسة أو طويت بموسى حيث قربته إلى الرسالة. ولعل طوى صفة لكل أرض مباركة حيث أن سالكها يتمتع بالسير فيها حتى وكأنها تطوى له.

[١٧] ثم أمره الرب بأن يذهب إلى رأس الطغيان والفساد فرعون ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ وبالرغم من طغيانه لم يدعه الله بلا نذر، ولم يهلكه قبل أن يبعث إليه رسولا، ليتم الحجة عليه.

[١٨] وتلخصت رسالة الوحي إليه في دعوته إلى التزكية وإصلاح نفسه، وعدم هلاكها بالاستمرار في الطغيان. سبحانك يا رب ما أرحمك بعبادك، وكيف تريد لهم الفلاح ويأبون إلا التمادي في الفساد ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾.

[١٩] فإذا تزكى المرء، وتطهر من العناد والغرور والكبر، كانت نفسه مهيأة لاستقبال نور الإيمان عبر رسول الله، فإذا هداه الله إليه بالرسول خشعت نفسه وتخلص جذريًا من حالة الطغيان ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

[٢٠] وطالب فرعون موسى بالآية، لعله يتهرب عن الهداية عندما لا يأتيه بها لحكمة بالغة، ولكن الله أظهر له الآية على يد نبيه إتماما لحجته ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ متمثلة في العصا واليد البيضاء.

[٢١] وإذا نزلت الآية الواضحة ثم كفر المرء فإن العقوبة تُعجَّل له، لأن الكفر آنئذ يكون تحديًا صارخاً لسلطان الرب، ولعله يكون أيضاً سبباً لضلالة سائر الناس، وهكذا تتابعت حلقات النهاية ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ كذب بالآية، وعصى الرب تعالى حين عصى موسى نبيه عليه السلام.

[٢٢] وتمادى في التكذيب والعصيان حين راح يسعى في الأرض فسادا ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾.

[٢٣] وأخذ يضلل الناس، ويجند الضالين ضد رسالة الله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أي جمع الناس ونادى فيهم بضلالاته.

[٢٤] وأعظم تلك الضلالات دعوته بأنه الرب الأعلى، واستكباره في الأرض، وفرض قانونه الوضعي على الناس في مقابل شريعة الله سبحانه. روي عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام أنه قال: قَالَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام: «نَازَلْتُ رَبِّي فِي فِرْعَونَ مُنَازَلَةً شَدِيْداً فَقُلْتُ: يَا رَبُّ تَدَعُهُ وَقَدْ قَالَ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؟ فَقَالَ: إِنَّمَا يَقُولُ هَذَا عَبْدٌ مِثْلُكَ»[1]، وفي رواية أخرى قال ربنا «إِنَّمَا يَقُولُ هَذَا مِثْلُكَ مَنْ يَخَافُ الفَوْتَ»[2]. ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ جاء عن ابن عباس «أن جبرئيل قال لرسول الله: لو رأيتني وفرعون يدعو بكلمة الإخلاص ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، وأنا دفنته في الماء والطين لشدة غضبي عليه مخافة أن يتوب فيتوب الله عليه، قال له رسول الله: وَمَا كَانَ شِدَّةِ غَضَبِكَ عَلَيْهِ يَا جِبْرَائِيْلَ؟ قال لقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهي الكلمة الآخرة منه، وإنما قال حين انتهى إلى البحر، وكلمة ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، فكان بين الأولى والآخرة أربعين سنة، وإنما قال ذلك لقومه ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ حين انتهى إلى البحر فرآه قد يبس فيه الطريق فقال لقومه: ترون البحر قد يبس من فرقي فصدقوه لما رأوا ذلك فذلك قوله: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]»[3].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٣، ص١٢٨.

(٢) المصدر السابق: ص١٢٩.

(٣) سعد السعود: علي بن طاووس الحلي: ص٢١٨.

[٢٥] وجاءت النهاية المريعة حيث أخذه الله أخذا وبيلا، وألزمه عذاب الدنيا فالآخرة ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ قالوا: النكال من النكل وأصله الامتناع، ومنه النكول عن اليمين، والنكل: القيد، ومعناه هنا: العاقبة السيئة للعمل والتي تبقى عبرة لمن بعده، لأن النكال اسم لما جعل نكالا للغير أي عقوبة له حتى يعتبر به. ثم قالوا: إنه بمعنى أخذه الله أخذا وبيلا فجعل النكال محل ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦]، وهذا كثير في العربية حيث يوضع مصدر آخر قريب من مصدر الكلمة محل مصدرها، وقال بعضهم: إنه بمعنى: أخذه بنكال الآخرة والأولى. ويبقى السؤال: ما هو معنى نكال الآخرة؟ يبدو لي أن معناه نكالا (أي عقوبة على عمل سيئ) يوجد في الحياة الآخرة، وعقوبة وجدت في الحياة الدنيا.

[٢٦] وهذا النكال -عاقبة العمل السيئ وجزاؤه- بقي عبرة لكل معتبر، فمن هو المعتبر؟ الذي يخشى، ولا يخشى إلا من اهتدى، ولا يهتدي إلا من تزكى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

إنما أنت منذر من يخشاها

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا(١) فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾
وَأَغْطَشَ(٢) لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ(٣) ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ
﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ(٤) ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾
وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ
ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ
﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا(٥) ﴿٤٢﴾ فِيمَ
أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ(٦) ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) سمكها: سقفها، والسَّمْك هو الارتفاع، وهو مقابل العمق لأنه ذهاب الجسم بالتأليف إلى جهة العلو وبالعكس العمق، والمسموكات السماوات لارتفاعها.

(٢) أغطش: أظلم، والغطش الظلمة، والأغطش الذي في عينيه شبه العمش، وفلاة غطشاء لا يُهتدى فيها.

(٣) دحاها: بسطها، من الدحو وهو البسط.

(٤) الطامة: العالية الغالبة، يقال: هذا أطمّ من هذا أي أعلى منه، وطمّ الطائر الشجرة: علاها، وتسمّى الداهية التي لا يستطاع دفعها طامّة.

(٥) أيّان مرساها: أي متى يكون قيامها، من الإرساء وهو الثبوت والاستقرار.

(٦) فيم أنت من ذكراها: أي في ماذا أنت يا رسول الله من تذكّر الساعة فإنك لا تعلم وقت قيامها، كأن الإنسان إذا كان داخلاً في شيء علم مزاياه، أما إذا كان خارجاً لا يعلم خصوصياته. و﴿فِيمَ أَنتَ﴾ للإنكار أي لستَ من ذكراها في شيء حتى تعلمها. وقيل: معناه ليس هذا مما يتصل بما بعثت لأجله، وقيل: إنها من حكاية قولهم والمعنى أنك قد أكثرت من ذكراها حتى تكون.

هدى من الآيات:

لكي نتقي طغيان النفس ننظر مرة إلى تاريخ الغابرين، ونتساءل: ما الذي أرداهم؟ أليس طغيان فرعون على موسى أوجب له تلك العاقبة السوأى؟ وننظر مرة أخرى إلى الخليقة فنرى السماء كيف بناها ربنا المقتدر الحكيم، وكيف رفع سمكها فسواها، وكيف ألزمها قوانينها من اختلاف الليل والنهار، والغطش والضحى، ثم ننظر إلى الأرض كيف سواها، وأجرى فيها روافد الماء العذب، وأودعها مواد الزراعة، ووتد ميدانها بالجبال الراسيات، لتتهيأ لحياة البشر والأنعام، أفليس الله بقادر على أن يعيدنا؟ بلى، وهو حكيم لم يخلق كل هذا سدى، فلا بد إذن من يوم الحساب، في ذلك اليوم الرهيب يتذكر الإنسان سعيه، ويرى كل ذي عين الجحيم تلتهب، وتدعو الطغاة الذين آثروا الحياة الدنيا، في حين أن الخائفين مقام ربهم يؤويهم ربهم في الجنة لأنهم خالفوا أهواءهم.

وفي نهاية السورة يعالج القرآن الكريم التشكيك في وقت الساعة، بأن وقتها عند الله، وأن المهم تذكرها، وليس معرفة وقتها.

بينات من الآيات:

[٢٧] لماذا يطغى الإنسان؟ أوليس لأنه لم يستوعب أو يعترف بالنشور والحساب؟ ولكن كيف يؤمن بذلك ووساوس الشيطان تبعده عنه وتطرح في روحه التساؤلات المتلاحقة: كيف ومتى وأنى؟ من أجل أن يتجاوز الإنسان هذه الوساوس ولا يقع في شرك الشيطان يذكّره الرب سبحانه بما يحيط به من خلق السماوات والأرض، وذلك لأمرين:

أولاً: لكي نؤمن بعظيم قدرة الله التي تتجلى في هذا الخلق مما يهدينا إلى أنه لا يعجزه شيء.

ثانياً: لكي نزداد وعيا بحكمة الخلق، وأن له هدفا محددا، وأن الإنسان لن يشذ عن هذه السنة العامة.

وإذا وعى الإنسان هاتين البصيرتين فإنه يستطيع مقاومة وساوس الشيطان. ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ فقدرة الرب التي بنت هذه الأجرام التي لا يبلغ حتى خيال أعظم العلماء مداها لا تعجزه إعادة الإنسان إلى الحياة مرة أخرى، وقال الله سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

[٢٨] وإذا كان خلق السماوت شاهدا على قدرة الرب فإن نظامها الدقيق شاهد على حكمته. انظر إلى السماء كيف ارتفعت بلا عمد نراها، وكيف استوت ضمن سلسلة لا تحصى من السنن والأنظمة الحكيمة. ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ قالوا: إذا نظرت من فوق الجبل إلى الوادي قلت: عمق الوادي، وإذا نظرت من الوادي إلى قمة الجبل قلت: سمك السماء، هكذا رفع الله السماء وجعلها عالية، وألزم أجرامها وغازاتها وأشعتها قوانين لا تحيد عنها قيد شعرة، ولعل هذا معنى التسوية.

[٢٩] وتهيئة نظام الطبيعة للحياة بدوره شاهد على مدى القدرة والحكمة في الخلق، فاختلاف الليل والنهار، وبالتالي الظلام والنور والسبات والحركة يهدينا إلى مدى عمق الحكمة التي وراء الخلق. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ قالوا: الغطش: الظلام. والضحى: وقت انتشار نور الشمس، هكذا دبر القدير الحكيم أمر الأرض والسماء لتتوافر فرصة الحياة على الأرض بما لا نجد مثيلا لها في الكرات القريبة منا. أو كان كل ذلك بلا هدف؟.

[٣٠] وبعد خلق السماء والأرض تم دحو الأرض وتمهيدها وتسويتها.. ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ قالوا: إن ذلك إشارة إلى العوامل الطبيعية التي تتابعت على الأرض حتى تهيأت للعيش، ثم تعرضها للأمطار الغزيرة والسيول العظيمة، ثم انحسار المياه عن بعض المناطق دون غيرها.

[٣١] ثم أَعَدَّ الله الأرض بما أودع فيها من مواد تساعد على زراعتها، وبما جعل في باطنها وظاهرها من مخازن ومجارٍ للمياه لسقيها طوال العام ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ ولذلك فإن المناطق القاحلة لا تصلح للزراعة، إما بسبب فقر التربة أو قلة الماء.

[٣٢] ولأن الزلازل والبراكين وجاذبية القمر والعواصف الهوج التي قد تعترض الأرض كانت تهدد حياة الإنسان فوق البسيطة خلق الله الجبال وأرسى بها دعائم الأرض ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي أثبتها بقدرته، وجعلها درعا حصينة للأرض، يقول الإمام علي عليه السلام بعد أن تحدث عن السماوات والأرض وكيف أنهما دليل على اقتدار جبروت ربنا وبديع لطف صنعته: «وجَبَلَ جَلَامِيدَهَا (أي الأرض) ونُشُوزَ مُتُونِهَا وأَطْوَادِهَا فَأَرْسَاهَا فِي مَرَاسِيهَا وأَلْزَمَهَا قَرَارَاتِهَا فَمَضَتْ رُؤُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ، ورَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ، فَأَنْهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا، وأَسَاخَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا ومَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا، فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا وأَطَالَ أَنْشَازَهَا، وجَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَاداً وأَرَّزَهَا فِيهَا أَوْتَاداً، فَسَكَنَتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا أَوْ تَسِيخَ بِحِمْلِهَا أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٥٤، ص٣٨.

[٣٣] كل ذلك لكي تتوافر فرص الحياة للإنسان والبهائم التي تخدم الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ أوليس كل ذلك دليلا على أن لوجودنا حكمة بالغة، فلماذا ننكر المسؤولية؟.

[٣٤] إن للكفر بيوم المعاد سببًا نفسيًّا هو التمادي في الغفلة، والقرآن يخرق بآياته الصاعقة حجب الغفلة لمن تدبر فيها. ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فأي شيء ينقذنا من تلك الطامة؟ هل الغفلة تبرر عدم الإعداد لها؟ والطامة من الطم بمعنى ردم الفجوة، وتسمى المآسي المروعة بها لأنها تملأ النفس رعبا أو لأنها قد بلغت منتهى المأساة. والقرآن يضيف كلمة ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ لعلنا نتصور تلك الساعة التي ثقلت في السماوات والأرض ونحن عنها غافلون.

[٣٥] في ذلك اليوم يمر شريط أعمال المرء أمام عينيه. أوليس يرى جزاء كل صغيرة وكبيرة من أعماله؟ أولا يقرؤها في طائره الذي عُلِّق في رقبته، فلا أحد يستطيع التكذيب أو الفرار من مغبة أعماله؟ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ وفي يوم القيامة تتساقط الحجب من عين الإنسان وعقله فإذا هو يتذكر وباستمرار كل مساعيه.

[٣٦] كما أن الجحيم التي هي معتقل الطغاة والمجرمين تبرز أمام الجميع بما فيها من نيران تكاد تتميز من الغيظ، ومن عقارب وحيات تتربص بالقادمين، ومن شياطين وعفاريت ينتظرون الفتك بقرنائهم. ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ فكل ذي عين بصيرة يرى الجحيم بلا حجاب، فيكون المذنبون في حسرة عظمى وخوف لا يوصف.

[٣٧] هنالك الجزاء الأوفى للطغاة، الذين كفروا بالنشور، واغرقوا في شهوات الدنيا، ولم يخافوا ربهم. ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ وأعظم الطغيان مخالفة القيادة الشرعية، فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام علي عليه السلام: «**وَمَنْ طَغَى ضَلَّ عَلَى عَمْدٍ بِلَا حُجَّةٍ**»[1]. وإنما تطغى النفس باتباع الهوى لأنه يصد الإنسان عن الحق، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ**»[2].

[٣٨] ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فقدمها على الآخرة.

[٣٩] ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ إنها النهاية التي اختارها بنفسه، ويبدو أن هذه الجملة هي جواب ﴿فَإِذَا﴾ الشرطية في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ﴾ كما هي جواب لقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ فيكون

---

(١) الكافي: ج٢، ص٣٩٣.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة: ٤٢.

الأمر مركّباً على شرطين، كما لو قال أحدهم: إذا كان رمضان وكنت حاضرا صمت.

[٤٠] كيف نَتَّقي طغيان النفس وغرورها؟ بمخافة الله، ويبدو أن السورة تعالج هذه الحالة المتجذرة في نفس البشر. ولكن من ذا الذي يخشى ربه؟ الذي يعرف مقامه. أولم يقل ربنا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. إن معرفة أسماء الله، وأنه أحاط بنا علما وقدرة، وأنه مليك السماوات والأرض، وأنه الجبار المقتدر.. إنها تجعل أقسى القلوب خاشعة، ومن هنا تزيغ وساوس الشيطان بنا عن معرفة ربنا سبحانه. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ ليتقي طغيان نفسه. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ لكيلا يؤثر على الآخرة شهوات الدنيا الزائلة، ولا يذهب طيباته في الحياة الأولى، ولكي ينظر لما قدمت يداه لغده ولدار إقامته التي هي الحيوان حقًّا.

[٤١] ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ يعود إليها، لأنه أصبح في الدنيا من أهلها، وكل امرئ يعود إلى مأواه الأصيل ووطنه الدائم. فالميزان إذن ثمة ليس الانتماءات الظاهرة في الدنيا، وليس التسجيل في حفيظة التقوى إنما مخالفة الهوى، واتباع الحق، أرأيت كيف أصبح مصعب بن عمير -الذي قيل أن الآية نزلت فيه- من صفوة أهل الجنة، في حين كان أخوه عامر بن عمير في الدرك الأسفل من النار؟ بماذا؟ أليس لأن عامراً طغى وخالف الحق واتبع هواه، في وقت اتبع مصعب رسول الله ﷺ، وجاهد بين يديه، وقيل: إنه قتل أخاه في أحد، ووقى الرسول ﷺ بنفسه حتى نفذت المشاقص في جوفه؟.

[٤٢] وحين يقرر الإنسان الكفر بشيء يبرر ذلك لنفسه بالتشكيك فيه وبأنه لا يعرف كيف يقع وبأية صورة ومتى.. وهكذا طفق الكفار يرتابون في الآخرة، ويتساءلون: كيف يبعث الله العظام البالية، ومتى، ولماذا تأجلت هذه المدة الطويلة؟ لماذا لم يبعث حتى الآن الذين ماتوا في أول الزمان؟ وهكذا.. ولكن كل هذه التساؤلات لا تنفي حقيقة الساعة، وإنها واقعة لا ريب فيها. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى تستقر كما تستقر السفينة في النهاية على شاطئها؟.

[٤٣] ولكن الله أخفى علمها عن العالمين، بل لم يحدد لها وقتا إنما يقررها متى ما شاء، وحسب حديث مروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا بِغَضْبَةٍ يَغْضَبُهَا رَبُّكَ**»(١). ولكن معرفة ميعاد الساعة أو الجهل بها لا يغيرّ من واقعها شيئا. إنها عظيمة إلى درجة تشفق السماوات من وقعها! أفلا نتذكرها ونُعِدُّ لها عدة؟ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ يبدو لي أن

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٩، ص٢٠٩.

معنى هذه الآية: أين أنت من قصتها وحديثها، ولماذا لا تتذكرها، وليس معناها كما قالوا: ليس لك السؤال عنها، أو فيم أنت من ذلك حتى يسألونك بيانه، ولست ممن يعلم. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون الوقف عند ﴿فِيمَ﴾ وكأنه قيل: فيم تسأل وأنت من ذكراها أي أن رسول الله ﷺ، من أشراط الساعة[1]. بيد أن تفسيرنا أقرب إلى السياق الذي يهدف التذكرة بالساعة وأهوالها.

[٤٤] الله سبحانه الذي يأمر بها متى شاء وكيف شاء. إنها مما لم يُطْلِعْ عليه الرب أحدا من خلقه. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ﴾ فإليه المرجع في أمرها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

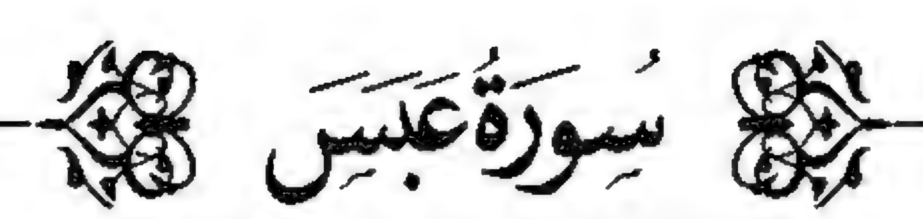
[٤٥] بلى، حري بنا أن نترك السؤال عن الساعة إلى العمل من أجلها، وإلى تذكرها لحظة بلحظة لأنها آتية لا ريب فيها، وقد توافرت أشراطها، ومن أشراطها النذير المبين رسول الله ﷺ. ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ فبدل أن نعاود السؤال عن وقت الساعة تعالوا نخشاها بعد أن جاءنا النذير.

[٤٦] وماذا ينفع المجرمين لو تأخرت الساعة عنهم، هل يخفف عنهم شيئا من عذاب ربهم؟ كلا.. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ ما قيمة سبعين عاما من العمر جُلُّها سبات النوم وغفلة الجهل والانشغال بالدنيا وضروراتها، ما قيمتها إذا قيست بخمسين ألف عام مدة اليوم الأول من أيام الآخرة؟! هناك يتذكر الإنسان أن عمره في الدنيا كان يوما أو بعض يوم، وأنه قَصَّرَ فيه تقصيرا كبيرا حيث لم يستعد ليوم الأهوال. ولعل معنى ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾: النهار الذي يتصل بالعشية أو ينصرم بالضحى، وذلك على عادة العرب في قولهم: آتيك العشية أو غداتها.. فأهل القيامة قالوا في البدء: كأننا عشنا في الدنيا نهارا كاملا، ثم أكثروا النهار فقالوا: بل نصف نهار، كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣] وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤] وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا ممن وعى رسالة النذير، واستعد للرحيل ولم ينس الساعة وأهوالها.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ج ١٩، ص ٢٠٩، التفسير الكبير: ج ٣١، ص٥٢.



سورة عبس

* مكية.

* عدد آياتها: ٤٢.

* ترتيبها النزولي: ٢٤.

* ترتيبها في المصحف: ٨٠.

* نزلت بعد سورة النجم.

فضل السورة

عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ عَبَسَ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٦)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وَ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ كَانَ تَحْتَ جَنَاحِ الله مِنَ الْجِنَانِ، وفِي ظُلَلِ الله وكَرَامَتِهِ فِي جِنَانِهِ، ولَا يَعْظُمُ ذَلِكَ عَلَى الله إِنْ شَاءَ اللهُ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٨)

الإطار العام

لكي يصلح الإنسان نظرته إلى نفسه

لكي تصلح نظرة الإنسان إلى نفسه جاءت رسالات الله. وقبل أن يكون الإنسان غنياً أو فقيراً، شريفاً في النسب أووضيعاً، عربياً في اللغة والعنصر أو أعجمياً، أبيض أو أحمر أو أسود.. قبل كل ذلك فهو إنسان، ومن نظر إليه من خلال ملابساته المادية فقد كفر بلبه وجوهرته السامية.

و هنا تتميز الجاهلية عن الإسلام، دين الفطرة السليمة والعقل المستنير. فالجاهلية تقيِّم الناس على أساس الملابسات المادية، والدين الحق يقيِّمهم على أساس درجات إيمانهم مما يتصل بكل واحد منهم كإنسان، أوليس أصل الإنسان عقله؟.

وحامل رسالات الله لا يجوز أن يتنازل عن هذه الميزة الهامة، فإذا به يميز الناس على أسس مادية، فما قيمة الرسالة إذن، وكيف يمكنه إصلاحهم يومئذٍ وتغيير مفاهيمهم الخاطئة وهو الذي يخضع لها!.

ويبدو أن هذه السورة الكريمة تبصِّرنا بهذه الحقيقة، فاذا بفاتحتها عتاب شديد، لمن عبس وبسر في وجه الأعمى وتولّى، بينما تصدّى لمن استغنى (الآيات: ١-١٠).

ثم يبين السياق سمو قيمة الإيمان، وقيمة القرآن، ويهدينا إلى صفات حَمَلَتِهِ بحق، وهم الكرام البررة الذين ينبغي أن يصبحوا محور التجمع الإيماني؛ لا أصحاب الغنى والجاه والشرف الزائف (الآيات: ١١-١٦).

ثم ينعطف السياق نحو التذكرة بالإيمان عبر تعداد نعم الله على الإنسان وتقلباته منذ أن كان نطفة إلى أن أصبح بشراً سوياً، وتيسر لسبل الخير والسلام وحتى يموت فيدفن (الآيات: ١٧-٢٣).

ويذكرنا بواحدة من أعظم نعم الله علينا، وهي نعمة الطعام، ويدعونا إلى النظر فيها، كيف يوفرها الله لنا بالغيث. كل ذلك لأن الإيمان بالله ونبذ الكفر -بكل ألوانه- هو السبيل لبناء مجتمع القيم الذي يسمو على الخضوع لأصحاب المال والجاه. (الآيات: ٢٤-٣٢).

و في الختام ينذرنا الرب بيوم الصاخة، ويذكّرنا بأنه في ذلك اليوم لا تنفع هذه العلاقات المادية؛ فحتى الأرحام تنقطع، إنما القيمة الحق يومئذٍ هي العمل الصالح، ألا نجعله أيضاً قيمة تجمعنا اليوم؟ (الآيات: ٣٣-٤٢).

عبس وتولى أن جاءه الأعمى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ
يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ
أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ
إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ (١٤)
بِأَيْدِى سَفَرَةٍ[1] (١٥) كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ (١٦)﴾.

هدى من الآيات:

القران: ﴿كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة٧٨-٧٩]، وحملة هذا الكتاب هم كرام برره.

وليس من شأنهم أبداً احترام الغني لغناه والتصدي له وترك الأعمى ذلك لأن غايتهم التذكرة. وأولى الناس بالدعوة إلى الكتاب هو من يتزكى أو يذكر (فإذا تزكى فقد بلغ الدرجة الأسمى أما إذا تذكر فان الذكرى تنفعه).

بينات من الآيات:

[١] أثارت الآيات الأولى في هذه السورة المباركة التساؤل فيمن نزلت؟ علماً بأن مثل القرآن مثل الشمس، وأنه لا ينبغي البحث عن أسباب نزول أية آية منه، فلم يكن القرآن كتاب

(١) سفرة: الكتبة لأسفار الحكمة، والواحد منها سافر، والأسفار الصحف المقدسة، وأصلها الكشف من قولهم: سفرت المرأة إذا كشفت عن وجهها.

حقبة خاصة من الزمن حتى نفتش فيها عن تطبيقاته، بل لعل تأويل آية كريمة لا يتأتى إلا بعد قرون وقرون. بلى؛ كانت آيات كثيرة تجد تطبيقها في حياة الرسول ﷺ، ومن هنا قد اعتقد غالب أهل التفسير أنها نزلت في تلك الموارد، والحقيقة أنها تأولت فيها فقط ولم تكن سوى مصداق من مصاديق القرآن. ولعل التعبير التالي عند المفسرين الأوائل «نزلت في فلان مثلاً» كان يعني أنها طبقت عليه وأولت فيه وليس نزولها لهذه الحادثة، والدليل على ذلك أننا نجد آيات كثيرة ذكر لها المفسرون موارد متأخرة عن نزولها أو متقدمة، مثلاً: نجد آيات مكية يذكر المفسرون من الجيل الأول أنها نزلت في أشخاص لم يكونوا في مكة (ولعل الآيات الأولى من سورة عبس منها) أو بالعكس أو حتى أنهم يؤولونها فيمن لم يكن في عهد الرسول ﷺ[١]. بلى؛ عند الأجيال التالية من المفسرين أصبح التعبير «نزلت في كذا» يوحي بأن الآية نزلت بتلك المناسبة.

وفيما يتصل بالآيات في هذه السورة فقد قال القرطبي: «روى أهل التفسير أجمع: أن قوما من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ وقد طمع في إسلامهم فأقبل عبد الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عبد الله عليه كلامه، فأعرض عنه، ففيه نزلت الآية»[٢].

وقال الشيخ ناصر المكارم في تفسيره (الأمثل) ما يلي: «المشهور بين المفسرين (السنة والشيعة) ذلك». ولكنه روى حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «**أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ..**»، وأضاف بلسان الشريف المرتضى رحمه الله: «أن العبوس ليس من صفاته مع أعدائه، فكيف به مع المؤمنين المسترشدين!.. وهو ليس من أخلاقه ﷺ الكريمة، بدلالة الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤]»[٣].

ويبدو لي أن الآية لم تنزل في شان النبي، وأن المفسرين ذهبوا إلى ذلك بسبب ما توهموه من دلالة الآية، ومن بعض الروايات المتشابهة المختلفة، فمثلا: نجد في بعضها: أن النبي كان مع الوليد بن المغيرة، وفي بعضها أنه كان مع أمية بن خلف، وقال مجاهد: كانوا ثلاثة: عتبة وشيبة -ابني ربيعة- وأُبي بن خلف، وقال سفيان الثوري: كان النبي مع عمه العباس. وعلى افتراض أن القصة كانت صحيحة، فمن يقول إن المراد أن النبي قد عبس، فلعل واحدا من المسلمين كان حاضرا وهو الذي فعل ذلك، والشاهد أنه لم يقل ربنا: عبست وتوليت، بلغة الخطاب، وإنما قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ بلغة الغائب، ثم تحوَّل السياق إلى لغة

---

(١) وإلى مثل هذا الرأي ذهب الدهلوي في كتابه (الفوز الكبير في أصول التفسير)، ص: ١٠٧-١٠٨ الطبعة الثانية دار البشائر الإسلامية.

(٢) تفسير القرطبي: ج ١٩، ص ٢١١.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٩، ص٤١١، بتصرف.

الخطاب، ومن الممكن أن يكون ذلك من باب تحويل الكلام إلى الخطاب بعد ذكر الغائب، وكأنه قد أصبح بذكره حاضرا كما نجد في سورة الحمد، حيث تحول الخطاب إلى الحضور بعد ذكر الله سبحانه وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ثم إن السورة مكية بالاتفاق وكان ابن أم مكتوم في المدينة حسب ما يقول ابن العربي على حسب ما نقل القرطبي: «أما قول علمائنا: إنه الوليد بن المغيرة، فقد قال آخرون: إنه أمية بن خلف، والعباس، وهذا كله باطل، وجهل من المفسرين الذين لم يتحققوا من الدين، ذلك أن أمية بن خلف والوليد كانا بمكة، وابن أم مكتوم كان بالمدينة، ما حضر معهما ولا حضرا معه، وكان موتهما كافرين، أحدهما قبل الهجرة، والآخر ببدر، ولم يقصد قط أمية المدينة، ولا حضر عنده منفردا ولا مع أحد»(١).

وينبغي أن نتساءل: إذا كان ابن أم مكتوم في المدينة فكيف نزلت السورة بمكة تروي قصته؟!. وأيًّا كان سبب نزول الآية، فإن الكلام الفصل هو تنزيه النبي ﷺ مما لا يليق بكمالاته الخُلقية وعظيم مرتبته، وصرف الكلام للتدبر في كلماتها المشعة، والتعرض لأمواج نورها المتدفق.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ لقد بسر بوجهه، فانعكست حالته النفسية تجاه الرجل على ملامح وجهه التي.تفضح تقلبات فؤاده أنى حاول إخفاءها، ثم تولى بركنه عنه عمليًّا، وهكذا تكاملت ملامح الموقف السلبي.

[٢] ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ أي بسبب زيارة الأعمى له، وهذا يتنافى مع ما ذكر في بعض النصوص: أن الرسول ﷺ إنما انزعج عندما سأله ابن أم مكتوم وليس من زيارته.

[٣] لقد جاءه الأعمى زائرا وربما ساعيا نحو الهداية، وإذا عوَّض الأعمى أو أي معوق آخر نقص جوارحه بتزكية نفسه فإنه يسمو فوق كل بصير وسليم. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ وهكذا تكون تزكية النفس أهم غاية يسعى نحوها الإنسان.

[٤] وقد لا يسمو الفرد إلى التزكية ولكنه يبلغ مستوى التذكرة التي تنفعه في إصلاح بعض جوانب سلوكه وهكذا الأعمى الفقير الذي تقدم إلى ذلك المجلس، وعموما فالتذكر سبيل للتزكية ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾.

[٥] الغنى مطلوب ولكن الاستغناء مرفوض، فالغني المتواضع الذي يمتلك الثروة

(١) تفسير القرطبي: ج ١٩، ص٢١٢.

دون أن تمتلكه قريب من الله، قريب من الناس، ولكن الذي تقوده ثروته، بل يذوب في ثروته إلى درجة العبادة فإنه بعيد عن الله، بعيد عن الناس، قريب من النار. ولا بد أن تتخذ القيادة الإلهية موقفا حازما منه قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ ومعروف أن الاستغناء يؤدي إلى الطغيان، أولم يقل ربنا الحكيم: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧].

[٦] مثل هذا الإنسان ينبغي طرده لكيلا يتسلل إلى قيادة المجتمع عبر ثروته. إن مثله مثل قارون الذي خرج على الناس بزينته، فانبهر الناس بها؛ فإذا خضع رجال الدعوة لهم أو مالؤوهم فمن ينقذ الناس من شرورهم واستطالتهم على الفقراء والمحرومين، ومن يأخذ حق المستضعفين والبؤساء منهم؟ لذلك يعيب السياق على صاحب الدعوة ترك الفقير الأعمى والتوجه تلقاء المستغنين. ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ قالوا: التصدي: الإصغاء، ويبدو أن معناه: الإقبال عليه، والاهتمام به.

[٧] وقد يزعم حملة الدعوة وأمناء الرسالة أنهم مسؤولون عن الأغنياء، وأن عليهم أن يجتذبوهم بأية وسيلة ممكنة، فيقدمون لهم التنازلات، في الوقت الذي يحرمون فيه الفقراء من عطفهم وحنانهم، والحال أن مسؤولية الداعية تنتهي عند إبلاغ الرسالة ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ فهو -ولست أنت- المسؤول عن تزكية نفسه، وإنما على الرسول التذكير.

[٨-٩-١٠] من الذي يتصدى له صاحب الدعوة؟ هل الذي يتولى بركنه؟ كلا.. حتى ولو كان شريفا في قومه، غنيًّا قويًّا. لماذا؟ لأن الرسالة الإلهية جاءت لإصلاح نظرة الإنسان إلى نفسه من خلال مركزه أو ماله أو لغته أو ما أشبه، فإذا تأثرت الرسالة بهذه القيم المادية فإنها لا تستطيع إصلاحه، لذلك جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْعَالِمَ مُحِبّاً لِدُنْيَاهُ فَاتَّهِمُوهُ عَلَى دِينِكُمْ فَإِنَّ كُلَّ مُحِبٍّ لِشَيْءٍ يَحُوطُ مَا أَحَبَّ**»(١).

والرسالة تنظر إلى الإنسان بوصفه إنساناً بعيداً عن سائر الاعتبارات المادية، فمن سعى إلى الرسول بلا تردد ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ نحو الهداية أو تعلم الدين ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ التذكرة هي بلورة واستثارة -عبر الانتباه والإثارة- كوامن العقل الذي يهدي به الله من يشاء إلى صراط مستقيم. وهكذا يتذكر ذوو العقل فإنهم وحدهم الذين يستثيرون عقولهم ويبلورون فطرتهم،

(١) بحار الأنوار: ج٢، ص ١٠٧.

ويجلون بآيات القرآن بصائرهم. والتذكر أحد مفاتيح الهدية وسابق للتعلم، وتعده النصوص الأساس للكثير من المزايا والمعارف.

فالتوحيد، الذي هو جوهر القرآن الكريم، إنما يتم فهمه ووعيه بالتذكرة، والتذكرة تتم بالعقل. يقول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [إبراهيم:٥٢]. كما أن الرسالة الإلهية والتي نزلت على قلب الرسول ﷺ إنما يعي حقيقتها أولو الألباب عبر التذكرة والتذكر، يقول الله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩]. كذلك وعي أهمية الكتاب، وأنه مبارك وأنه جاء للتدبر والتذكر -وعي هذه الحقيقة- بحاجة إلى التذكرة والتذكرة تتم بالعقل، يقول الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩]. وبالرغم من أن التذكرة أبسط مرحلة من مراحل المعرفة، إلاّ أن الكثير من الناس يعرضون عن التذكرة، بسبب مواقف سابقة لديهم، -وبالتالي- ليس كل من ذُكّر يتذكر. إن من أبرز شروط التذكرة، الخشية، فمن خشي الرحمن تذكر، وقد تواترت الآيات الكريمة حول ذلك، يقول الله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:٦-١٣]. ويبدو أن الخشية تمهد لجملة من شروط التذكر مثل: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧]. و﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه:٤٢-٤٥].

فإذن الخشية هي التي تساعد الإنسان على قبول الدين حيث إن أساس الجحود هو النفس الطاغية.

﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ تنشغل عنه وكأنه لا يهمك ولا يعنيك أمر هدايته.

[١١-١٢] قيم الوحي، وجاهلية المادة في صراع قديم، ولا يجوز المهادنة مع الباطل لكسب المزيد من الأتباع؛ لأن حكمة الوحي ضبط المادة، فإذا خضع له لم يبق للرسالة مبرر، ومن هنا لا ينظر الرسول إلى الأشخاص إلا من زاوية رسالته. ﴿ كَلَّآ ﴾ فإن للغنى اعتبار زائف. والمبلّغ إنما يختار لدعوته الذين يجد فيهم أرضاً طيبة لكلمته المباركة، ويترك الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ

شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٧٠].

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ آيات الله تذكرة لكل الناس، ولا يختلف الناس إلا بقدر استجابتهم للوحي. ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ العقل أصل الإنسان، أوليس به يتميز عن سائر الأحياء، أولم يُكرِّمه الله به على كثير ممن خلق؟! إن العقل يغطُّ في سبات الغفلة فلا ينتفع به صاحبه، وتأتي آيات القرآن توقظه من سباته. أذلك خير أم بعض الدراهم والدنانير، كلا.. أنى كانت الثروة كبيرة فإن العقل أسمى ؛ لأن الثروة لا تحصل إلا بالعقل، وإذا لم يكتمل العقل فإن الثروة تضر صاحبها قبل أن تنفعه، وقد تكون الثووة وسيلة لتكريس التخلف، والفقر، وبسط الفساد، ونشر الرذيلة، بيد أن العقل يجعل الإنسان على طريق ثروة نافعة كما يوفر له سائر عوامل السعادة كالخلق الرفيع، والحرية، والسلام.

ولا تعني التذكرة أن الناس يهتدون بها حتى ولو لم يشاؤوا ذلك كلا.. إن التذكرة لا تتم دون أن يشاء الإنسان نفسه، وهكذا جعل الله حرية الإنسان أصلا ثابتا في شريعته وفي سننه الحاكمة على الخليقة، وحتى الإيمان به جعله منوطا بإرادة الإنسان ولم يجعله كرها عليه. فالتذكرة لا تتم إلاّ لمن أراد التذكرة، فالإرادة شرط ضروري للتنبه لذلك يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤-٥٥]. نعم المشيئة البشرية هي الأخرى مشروطة بمشيئة الله، فالإنسان لا يملك القدرة على المشيئة إلاّ بتوفيق الله تعالى فإنها كانت إرادته، وحرية الاختيار عنده بتلك الموهبة الإلهية التي يؤتيها الله لمن يشاء، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٢٩-٣٠].

[١٣-١٤] وبعد أن ينسف السياق القيم الجاهلية يرسي دعائم قيم الوحي التي ينبغي ترسيخها في المجتمع، فيشرع في بيان عظمة القرآن حتى يكون القرآن هو محور المجتمع، وميزان التفاضل بين الناس، ثم يبين كرامة السفرة الذين يحملونه، وبذلك يوحي بأن عليكم أن تعظموا القرآن والدعاة إليه وليس المال والجاه وأصحابها.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ قالوا: إن كتاب الله مكتوب في ألواح تكرَّمت به، وتسامت مجدا، وقال البعض: بل المراد أنه كان مكتوبا في اللوح المحفوظ قبل أن يتنزل على قلب الرسول ﷺ. وأنى كانت الصحف فإن الآية تدل على أن القرآن محفوظ في صحف لا تنالها أيدي التحريف والتزوير ولا يسمو إليها الكذب والدجل، كما تدل على أن الله أكرم هذه الصحف بأنها تكشف الحق، وأكرمها بإعلاء درجة من يتبعها في الدنيا والآخرة، ذلك أن كرامة كل شيء بحسبه، وكرامة الصحيفة صدقها، وسمو مجدها، وتعاليها عمن يريد بها عبثا، ولذلك قال ربنا بعدئذ: ﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ وهذا في الواقع تفسير لكرامة الصحيفة، فإن الله يرفع بها

من يعمل بها ويحمل رسالتها أولم يقل ربنا: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ.. ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، وقال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١]. ثم إنها مطهرة من الباطل والكذب، ومن دس الدجالين والمنافقين وقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وقال: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]. وهي مطهرة عن نيل أصحاب الهوى والبدع، والرياء والشرك وحملة الدعوات الضالة، والثقافات الجاهلية. إن هؤلاء جميعا لا يبلغون فقه الكتاب ولا يحصلون على علمه ومعارفه.

[١٥-١٦] وهكذا يكون حملة القرآن هم فقط السفراء الصادقون، المكرمون من الهوى والنفاق، واتباع المصالح، وعبادة الطغاة. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ السفرة هم حملة الكتاب، والداعون إليه. ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ كرام لأنهم أكرموا أنفسهم عن الإثم والفحشاء، واتباع أولي الثروة والقوة، والسعي وراء شهوات الدنيا الزائلة. وهم بررة يبرون بالناس ويؤثرون المؤمنين على أنفسهم، ويسارعون إلى الخيرات. وهذه الآيات توضح لنا الفئة التي يجب أن نرفعها ونتبع هديها، وهم حملة القرآن الصادقين، الزاهدين في درجات الدنيا، والمكرمين من أوساخها، ومن الأهواء والبدع والثقافات الدخيلة، ولا يجوز اتباع كل من يدعو بلسانه إلى كتاب الله في حين تراه قد ولغ في الشبهات، وسعى نحو الجاه والشهرة وتقرّب إلى السلاطين، وقرّب إليه المترفين والمستكبرين.

قتل الإنسان ما أكفره

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ[1] مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ
فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢)
كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا
(٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا[2] (٢٨) وَزَيْتُونًا
وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلْبًا[3] (٣٠) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ
(٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥)
وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا[4]
قَتَرَةٌ (٤١) أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ (٤٢)﴾.

هدى من الآيات:

نعم الله تتوالى على الإنسان، وتراه -لغفلته وقصر نظره- يرزح تحت آصار الشيئية فيخضع لمتع الدنيا ولأسبابها الظاهرة، وتصبح غايته وقيمته وميزان تفكيره؟!.

---

(١) قتل الإنسان: أي أن من يتصدى لمحاربة الله ويكفر به فهو مقتول، ومن غالبه فهو مغلوب.

(٢) قضباً: قيل: هو العلف للدواب يقضب مرة بعد أخرى، وفي المفردات: أي رطبة، والقضيب يستعمل من فروع الشجر، والقضب يستعمل في البقل، والقضب قطع القضب، وروي أن النبي ﷺ إذا رأى في ثوب تصليباً قضبه، وسيف قاضب وقضيب أي قاطع، ويقال لكل ما يهذّب مقتضب ومنه الكلام المقتضب أي المهذّب.

(٣) غلباً: إضافة على السياق نقول: الأصل في الغلب في الوصف الرقبة، فاستعير الغلب للشجر الغلاظ الضخام.

(٤) ترهقها قترة: يعلوها سوادٌ وكسوف عند معاينة النار، وقيل: إن "الغبرة" ما انحطت من السماء، والقترة ما ارتفعت من الأرض، وقيل: القتر دخان الشواء.

إن نعم الله تحيط بالإنسان منذ أن كان نطفة -لا يكاد يبين- إلى أن أصبح بشراً سوياً، وتيسر لسبل الخير والسلام -وهذا من غايات النعم- وحتى يموت فيدفن.

ويذكرنا القرآن بواحدة من أعظم نعم الله علينا، وهي نعمة الطعام، ويدعونا إلى النظر فيها،كيف يوفرها الله لنا بالغيث. كذلك الهداية نعمة وفرها الرب، فالإيمان هو السبيل لبناء مجتمع القيم الذي يسمو عن الخضوع لأصحاب المال والجاه.

هذه النعم المتواترة التي أسبغها الرب على الإنسان تجعله الكائن المسؤول -وحجب الشيئية تُصَيِّرُها مدعاة للبطر-. وهكذا يبعث بعد موته للحساب والجزاء في يوم الصيحة الكبرى.

ويوم الصاخة تتهاوى النعم المادية إلا ما استثمره الإنسان في الصالحات، ولا تنفع العلاقات المادية؛ فحتى الأرحام تنقطع، إنما القيمة الحق يومئذٍ هي العمل الصالح.

بينات من الآيات:

[١٧] نعم الله تترى على الإنسان، ولكنه لا يزال يطمع لما في أيدي الآخرين، بدل أن يسلم وجهه لله الذي أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، تراه يروح يعبد الطغاة، أو يخضع للمترفين لما يعطونه من فتات الرزق. لماذا لا يطرق باب رحمة الله التي وسعت كل شيء؟!. أوغيَّرَ عليه الرب عادات امتنانه وتفضله؟! أوليس الله بقادر على أن يغنيه عما في أيدي العباد؟!.

إنه أعظم نعم الله الكتاب الذي يُذكره سبيل سعادته، ويغنيه ليس في أموال الدنيا فحسب، بل في كل شيء من الدنيا إلى الآخرة، ولكنه لا يزال يكفر، قتله الله بكفره!.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ وكلمة ﴿قُتِلَ﴾ لعنة عليه، وتعبير عن منتهى الغضب، وفي الوقت نفسه فيها إيحاء بأن الكفر يقتل الإنسان، يقتل مواهبه وفضائله وفرص سعادته، وحتى ينتهي بقتله تماما! أليس القتل درجات، والكفر بأية نعمة إلهية يؤدي إلى قتل فرصة من فرص الحياة عند الإنسان، وبالتالي فهو يعتبر درجة من القتل ومستوى منه؟! أرأيت الذي يملك رصيدا عظيما في البنك ولكنه لا يؤمن بذلك، وكلما قيل له عنه كَذَّب وأبى! أليس يعدم موهبة إلهية؟! كذلك الذي يملك رصيدا عظيما في القرآن يستطيع أن يتخذه لنفسه سعادة وفلاحا ثم يكفر به. والتعبير بـ ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ يوحي بمدى كفره ؛ إنه كفر واسع المدى، متعدد الأبعاد، ومن هنا قال بعضهم: الكفر هنا جاء بمعناه اللغوي الذي يعني الستر، ويشمل الكفر بالله أو بنعمه أو حتى الكفر بنعمة واحدة، ولذلك فإن كلمة ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ هنا تسع كل الناس لأنه ما من إنسان

إلا ويكفر بقدر ما بنعمة الله.

[١٨-١٩] ثم يعدد السياق نعم الله على الإنسان التي يقابلها بالكفر وأولها نعمة خلقه من النطفة ويقول: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ هذه القطرة من الماء التي تخرج من الصلب وتلك القطرة التي تتدفق من الترائب، تلتقيان فيخلق الله بهما الإنسان في ظلمات الأرحام، حيث لا يعرف حتى أبواه ماذا يجري هنالك، فلا تزال عين الله ترعاه، ويده تقلبه من طور إلى طور، حتى يخرج إنساناً سويًّا، كيف قدر الله مواد جسمه من أنواع العناصر، وبعض من هذه العناصر استقدمه الرب من نجوم تبعد عنا آلاف البلايين من الأميال، ثم قدر حجم كل عنصر ومقداره في بنيته، ويصوره بأحسن تصوير، وقدر جوارحه بأنظمة معقدة لا نزال لا نعرف إلا جانبا منها هو الذي نجده في الغدد المنظمة لنمو الأعضاء، وقدر مجمل وزنه، فلا يصبح أطنانا ولا يبقى عند الوزن الذي أُخرج عليه من بطن أمه إنما يتراوح بين الستين والتسعين غالبا، كما يحدد طوله فلا نجد من ارتفع أمتارا متطاولة، كما لا نجد الأقزام إلا قليلا. كما يقدر رغبات نفسه، وشهوات جسده، ويكيفها وفق ظروفه، كل ذلك لا يهديه إلى ربه ولا يجعله يسلم وجهه إليه! بلى ما أكفره ما أكفره!.

[٢٠] وهداه إلى ما ينفعه وما يضره، وإلى ما يسعده ويشقيه، وإلى رزقه من أين يأتيه وكيف يصرفه. إن الإنسان مزود بفطرته وعقله، بمنظومة من الغرائز والأفكار تهديه إلى سبل العيش. ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ بلى، ألهمه فجوره وتقواه، وأرسل الأنبياء ليُذكِّروه بتقواه، وينذروه من الفجور، وزودهم بشرائع تفصيلية تبين له سبل السلام.

[٢١] وبعد أن انقضت دورته قهره بالموت ليكون عبرة لمن بعده، وينقله إلى حياة أخرى، ويسعده فيها إن عمل صالحا، ولم يدع جسمه عرضة لنهش الحشرات والجوارح والسباع، وإنما هيَّأ له قبرا يوارى فيه كرامة له ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾.

[٢٢] وإن الله الذي قلَّب الإنسان بين يدي قدرته في مختلف الأطوار قادر على أن يعيده متى شاء ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾.

[٢٣] ولكن الإنسان الذي أسبغ عليه الرب كل هذه النعم لا يزال متحديا قدرته وسلطانه، ولا يزال يتمرد على أوامره ولا يقضيها ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾. ماذا تعني ﴿كَلَّا﴾؟. يبدو أن معناها هنا وفي سائر مواقع استخدامها الإيذان بوقوع ما لا ينبغي، ولا يتوقع العقل بعد سرد تلك النعم إلا أن يكون الإنسان في منتهى التسليم لربه وفاء لبعض دينه، ولكن العكس تماما هو الذي يقع. أما كلمة ﴿مَا﴾ فتعني النفي مع التوقع، أو نفي ما كان متوقعا،

وكلاهما صحيح في هذا السياق، إذ يرجى تطبيق الإنسان لأوامر الرب، كما أن عدم التطبيق خلاف ما كان منتظرا.

[٢٤] ويعود السياق إلى جملة نعم الله على الإنسان التي تهديه إلى قدرته وحكمته ورحمته، فهذا الماء تحمله سحب الخير إلى عنان السماء ثم تصبه على الأرض بسهلها وحزنها ليسقيها، ثم تنشق الأرض عما يطعم الإنسان من ألوان الحبوب والثمار. ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ ليس فقط يعرف كيف وفره الله له، وإنما أيضا ليتعلم من مدرسة الخليقة كيف يستفيد منه. أليس هذه الطبيعة كلها مسخرة لإطعامك، إلا ترى في ذلك حكمة بالغة، وقدرة قاهرة، أوَلا يعني أن وراء هذه الطبيعة تقديرا وتدبيرا وحكمة، وأن مراد ربك أن يسعدك ثم يهديك ثم يُعِدَّك لجنته؟! بلى، فإذا نظرت إلى الطعام بهذه الرؤية فإنك تسمو من درجة التهام الطعام بشهية حيوانية إلى مستوى التمتع به براحة نفسية، وبشكر وامتنان، وآنئذ لا يتغذى به جسدك فقط، وإنما روحك ونفسك أيضا. أليس الشكر والرضا غذاء النفس؟ وقد سن الإسلام آداب الطعام لهذا السبب، فإنك من قبل الطعام تقول: «**الْحَمْدُ لله الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، ويُجِيرُ ولَا يُجَارُ عَلَيْهِ، ويَسْتَغْنِي ويُفْتَقَرُ إِلَيْهِ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا رَزَقْتَنَا مِنْ طَعَامٍ وإِدَامٍ فِي يُسْرٍ وعَافِيَةٍ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ مِنِّي ولَا مَشَقَّةٍ**». وبعد الانتهاء من الطعام تقول: «**الْحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنِي فَأَشْبَعَنِي، وسَقَانِي فَأَرْوَانِي، وصَانَنِي وحَمَانِي. الْحَمْدُ لله الَّذِي عَرَّفَنِي الْبَرَكَةَ والْيُمْنَ بِمَا أَصَبْتُهُ وتَرَكْتُهُ مِنْهُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَنِيئاً مَرِيئاً لَا وَبِيّاً ولَا دَوِيّاً، وأَبْقِنِي بَعْدَهُ سَوِيّاً قَائِماً بِشُكْرِكَ مُحَافِظاً عَلَى طَاعَتِكَ، وارْزُقْنِي رِزْقاً دَارّاً، وأَعِشْنِي عَيْشاً قَارّاً واجْعَلْنِي نَاسِكاً بَارّاً، واجْعَلْ مَا يَتَلَقَّانِي فِي الْمَعَادِ مُبْهِجاً سَارّاً بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ**»[١].

وحين ينظر الإنسان إلى الطعام نظراً عميقاً يعرف أن ليس كل الطعام صالحا لكل وقت، فلا بد أن يميز بين الضار منه والنافع، الجيد والرديء، والحلال والحرام، فلا يأكل إلا ما ينفعه وما يحل له، وبقدر انتفاع جسده منه، لذلك قال رسول الله ﷺ: «**لَا تُمِيتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ والشَّرَابِ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تَمُوتُ كَالزَّرْعِ إِذَا أَكْثَرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ**»[٢]. وفي الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**مَنْ أَكَلَ الطَّعَامَ عَلَى النَّقَاءِ وَأَجَادَ الطَّعَامَ تَمَضُّغاً وَتَرَكَ الطَّعَامَ وَهُوَ يَشْتَهِيهِ وَلَمْ يَحْبِسِ الْغَائِطَ إِذَا أَتَاهُ لَمْ يَمْرَضْ إِلَّا مَرَضَ الْمَوْتِ**»[٣]. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا رَأَى الْفَاكِهَةَ الْجَدِيدَةَ قَبَّلَهَا ووَضَعَهَا عَلَى عَيْنَيْهِ وفَمِهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ كَمَا أَرَيْتَنَا أَوَّلَهَا فِي عَافِيَةٍ فَأَرِنَا آخِرَهَا فِي عَافِيَةٍ**»[٤]. وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**النَّفْخُ فِي الطَّعَامِ**

(١) مستدرك الوسائل: ج٣، ص٩٣.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١٦، ص٢٠٩.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٣، ص٤٢٢.
(٤) وسائل الشيعة: ج٢، ص١٧٠.

يَذْهَبُ بِالْبَرَكَةِ»[١].

وهناك عشرات الآداب الأخرى للطعام يبينها الإسلام وغيرها في الكتب الفقهية، وإذا كان الطعام وهو غذاء البدن أولاه الدين هذا الاهتمام فكيف بالعلم، أوليس هو غذاء الفكر، فهل يجدر أن يأخذه من أي مصدر؟! كلا.. لا بد أن ننظر ممن نتعلم، وما هي مصادر المعلومات التي توجهنا فإن كثيرا منها خاطئة ووراءها الجُناة الذين لا هم لهم سوى تضليل الإنسان عن الصراط السوي. إن هذه المعلومات أشد ضررا على الإنسان من السم الزعاف. كذلك جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة: «**عِلْمُهُ الَّذِي يَأْخُذُهُ عَمَّنْ يَأْخُذُهُ**»[٢].

[٢٥] كيف وفر الله لك الطعام؟ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ فجاء الماء أمل الحياة من فوق وبانصباب ووفرة، حتى يكفينا النظر إلى نظام الغيث إيمانا بربنا العزيز.

[٢٦] والأرض كيف جعلها الله صالحة للزراعة! بأن لم يجعلها صلبة قاسية، ولا رخوة مائعة (كالرمل المتحرك) وأودع فيها مواد الزراعة. ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ما أروع انفلاق الأرض عن النبتة التي تشق طريقها إلى الظهور، ربما عبر الصخور الصلدة، وقال بعضهم: الآية تشير إلى العصور الأولى من عمر الأرض، حيث كانت قشرتها صماء لا تصلح للزراعة فذللها الرب بفعل السيول المستمرة والله العالم. عن أبي جعفر عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: «**فَإِنَّ قَوْلَ اللهِ جَلَّ وعَزَّ ﴿كَانَتَا رَتْقًا﴾ يَقُولُ كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقاً لَا تُنْزِلُ الْمَطَرَ وكَانَتِ الْأَرْضُ رَتْقاً لَا تُنْبِتُ الْحَبَّ فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى الْخَلْقَ وبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ فَتَقَ السَّمَاءَ بِالْمَطَرِ والْأَرْضَ بِنَبَاتِ الْحَبِّ**»[٣].

[٢٧] ثم أعد ربنا الأرض للزراعة، وأودع فيها ألوفا من أنواع النبات التي يقوم كل نوع منها بدور عظيم في تكاملية الخلقة. ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ قال بعضهم إنها الحنطة والشعير، وقال آخرون: بل سائر أنواع الحبوب كالذرة والفاصوليا والعدس والحمص، ومعروف أن الحب لا يزال يشكل المصدر الأول للطعام في العالم وهو الطعام الطبيعي المناسب، الذي لا ينافسه غذاء آخر لما فيه من السلامة والتكاثر والفائدة، وبالرغم من تضاعف سكان الأرض عدة مرات خلال القرون الأخيرة فإن الأرض لا تزال تفي بواجبها في إطعام المزيد من الأفواه الفاغرة، وإذا رأينا مجاعة هنا، ونقصا في المواد الغذائية هناك فإنها بسبب كوارث الطبيعة أو سوء

(١) مكارم الأخلاق: ص١٤٦.
(٢) الكافي: ج١، ص٤٩.
(٣) الكافي: ج٨، ص٩٤.

في التوزيع، أو سوء في الإدارة، وإلا فإن ما في الأرض من القمح يكفي لأهلها ويزيد حسب الإحصاءات الدقيقة.

[٢٨] ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ يشير القرآن إلى نوعين آخرين من الطعام ميسورين وأساسيين للغذاء يتدرجان معا من فصيلة الخضروات والنباتات الأرضية، وهما العنب والقضب، والقضب: هو النبتة التي تجزر وتقطع كأنواع الخضروات والبقليات كالباذنجان والطماطم واليقطين واللفت وما أشبه، مما تحمل إلينا أعظم الفوائد ولعل هذا الترتيب يدل على التدرج في الفائدة، وقد كشف العلم عما في الخضروات من منافع عظيمة.

[٢٩] ومن نعم الله الزيتون الغني بمواد غذائية، وبالدهن والذي يكون عادة صبغا للآكلين، وهكذا النخل التي يستفاد من جذعه وسعفه وليفه في مختلف الصناعات، أما ثمره ففيه غذاء كامل لا يدانيه طعام ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾.

[٣٠] والأشجار التي تلتف إلى بعضها وتتغالب للوصول إلى أشعة الشمس وتغلظ سيقانها، وتتحدى الأعاصير والآفات. إنها نعمة إلهية أخرى يسبغها علينا الرب بالغيث ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ قال البعض الأغلب ذا الرقبة الغليظة، وقيل: إنه من التغالب والالتفاف إلى بعضها، كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٦]. إن هذه الحدائق تضيف إلى أرضنا بهجة وصفاء، وتلطف الجو، وتصلح البيئة، وتستمطر السماء، وتساهم في تكون أحواض طبيعية في الأرض لحفظ المياه، وتعطي الثمرات المختلفة، وتربى الطيور الجميلة في أحضانها، وتؤوي الحيوانات الأليفة إليها، فقد جعلت ضرورة لبقاء الإنسان وسعادته[١].

[٣١] ومن ثمار هذه الحدائق يتمتع الإنسان بفواكه كثيرة تختلف ألوانها وأحجامها ومتعتها وفائدتها، وهي جميعا تنتزع من حديقة واحدة تسقى بماء واحد، هل لاحظت الفرق بين الفستق واللوز والجوز وبين الطلح (الموز) والأناناس وجوز الهند، إن واحدةً من جوز الهند تكون بحجم مئات الحبات من الفستق، على أن كلا منهما لذيذ ومفيد ورائع الجمال سبحان الله. وبالإضافة إلى الفاكهة خلق الله علف الحيوانات الأهلة ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ قالوا: الأب علف الحيوانات سمي بذلك لأن الحيوان يعود إليه، وقيل: بل الأب هي الفواكه اليابسة، وقال ابن عباس: الأبّ ما تنبت الأرض مما يأكل الناس والأنعام.

---

(١) أكتب هذه الكلمات في يوم ربيعي متميز وفي ظل أشجار بالغة الجمال، ومنظر خلاب لشتيلات الأزهار المنظمة، وفي حديقة زاهية تمتد على مسافة ٢٤٠ هكتارا إلى جنب بحيرة رائعة في مدينة بنكلور الهندية وأرى واحدا من تجليات الجمال الإلهي على الأرض وأقول: «سبحانك ما أعظمك، سبحانك ما أرحمك، غفرانك اللهم وإليك المصير».

ورد: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَى الْأَبِّ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي؟ أَمْ أَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي؟ أَمْ كَيْفَ أَصْنَعُ إِنْ قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى بِمَا لَا أَعْلَمُ؟ أَمَّا الْفَاكِهَةُ فَنَعْرِفُهَا وَأَمَّا الْأَبُّ فَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ. فَبَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَقَالُهُ، وَفِي ذَلِكَ قَالَ: **يَا سُبْحَانَ اللهِ أَمَا عَلِمَ أَنَّ الْأَبَّ هُوَ الْكَلَأُ وَالْمَرْعَى وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ اعْتِدَادٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِإِنْعَامِهِ عَلَى خَلْقِهِ بِمَا غَذَّاهُمْ بِهِ وَخَلَقَهُ لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ مِمَّا يَحْيَا بِهِ أَنْفُسُهُمْ وَتَقُومُ بِهِ أَجْسَادُهُمْ**»[1].

[٣٢] والذي خلق الفاكهة خلق في الإنسان الحاجة إليها، والتلذذ بها والاستفادة منها، والذي خلق الأب (علف الحيوانات) خلق في الأنعام ما ينسجم معه، أوتدري مثلا: أن جسد الأنعام قادرة على استخراج بروتين الحشائش، في حين لا يستطيعه جسم الإنسان، ولذلك ترى الحيوانات تحول ما لا ينتفع الإنسان به من قشور الفاكهة وبقايا النبات إلى بروتين ولحم ليعود بالتالي طعاما للإنسان؟ ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

[٣٣] كل هذه النعم المتواصلة التي أسبغها الرب على الإنسان بين سائر الأحياء والنبات تحمله مسؤولية إضافية، فهو المسؤول الوحيد بين سائر الأحياء، وهكذا يبعث بعد موته للحساب والجزاء في يوم الصيحة الكبرى. ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ قالوا: الصاخة: الصيحة، وإنها النفخة الثانية، تصخ الأسماع أي تصمها، وقيل: بل تصخ لها الأسماع، وهي بالتالي مأخوذة من صخه بالحجر أي صكه، ومن هذا الباب قالت العرب: صختهم الصاخة ونابتهم النائبة وهي الداهية.

[٣٤] يومئذ تكاد تصم الصيحة آذان الخلائق بقوتها، ولكن الآذان يومئذ غيرها في الدنيا فإن الله جعلها بحيث تستوعب المزيد من الإثارة، كما أن الأجسام تستوعب الآلام وأسباب الموت دون أن تعدم. يومئذ تنقطع الأرحام، وتنفصم عرى العلاقات، وتتلاشى الأحساب والأنساب التي كانت وسيلة للتفاخر في الدنيا، ولا يبقى أثر لهذه القيم البتة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ والأخ هو أقرب معين للإنسان وقد قال الشاعر:

أخاك أخاك فمن لا أخ له   كساع إلى الهيجاء بغير سلاح

ولكن الإنسان يهرب منه. لماذا؟ لأنه يخشى أن يلحق به عذابه، أو يطالبه بحق له في الدنيا، أو يستعين به على العذاب فلا يستطيعه. بل إنه يفر منه لأن مجرد رؤيته تشكل له حرجا فكيف بالتعاون معه، وهذه لا تكون إلا عند أعظم الشدائد حيث يركز فكر الإنسان في نفسه

(١) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ٢٤٧.

دون أحد سواه. وقد جاء في الروايات: أن الذي يفر من أخيه: قابيل من هابيل، وقيل: بل هابيل يفر من قابيل لكيلا يطلب منه الشفاعة، ولعلهما جميعا يفران من بعضهما.

[٣٥] وبعد العلاقة الأخوية تأتي علاقة الولد بوالديه والتي تنفصم يومئذ إلى درجة ترى المرء يهرب من والديه فكيف يستطيع الوالدان الاعتماد عليه يومئذ. ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ أفلا ينبغي إلا نترك ديننا لرضا آبائنا الذين قد لا ينفعوننا في الدنيا فكيف بالآخرة وكم منا من تنازل عن قيمه ولم يميز الحلال والحرام من أجل أبويه فهل ينفعونه غدا شيئا؟!.

[٣٦] أما صلة الإنسان بزوجته أو أبنائه فهي الأخرى لا تغنيه يومئذ عن عذاب الله فلا يهلك نفسه اليوم لهذه الصلة الزائلة. ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ قالوا: الذي يفر من صاحبته لوط، ومن ابنه نوح. عن الرضا عليه السلام من قصة الشامي مع أمير المؤمنين عليه السلام في مسجد الكوفة قال: «**كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام بِالْكُوفَةِ فِي الْجَامِعِ إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسَائِلَ فَكَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ مَنْ هُمْ؟ فَقَالَ: عليه السلام قَابِيلُ يَفِرُّ مِنْ هَابِيلَ، وَالَّذِي يَفِرُّ مِنْ أُمِّهِ مُوسَى، وَالَّذِي يَفِرُّ مِنْ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمُ، وَالَّذِي يَفِرُّ مِنْ صَاحِبَتِهِ لُوطٌ، وَالَّذِي يَفِرُّ مِنِ ابْنِهِ نُوحٌ يَفِرُّ مِنِ ابْنِهِ كَنْعَانَ**»[1].

[٣٧] لماذا يفرون من بعضهم؟ إنها لهول الحساب وخشية العذاب، لذلك فإن كل همهم في إنقاذ أنفسهم. ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ وإنما يصرف الإنسان المزيد من جهده للآخرين، أما في الآخرة فلا يبقى لفكره وجهده ووقته فضل حتى يوفر لغيره حتى ولو كانوا الأقربين.

[٣٨-٣٩] وهكذا الإنسان أكرم في الدنيا بهذه الكرامة العظيمة ليحاسب غدا بذلك الحساب العظيم، وتكون عاقبته -لو تحمل مسؤوليته كاملة هنا- النعيم، تنعكس على روحهم بالبشارة، وعلى ملامح وجوههم بالبشر والبشاشة. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ قالوا يعني: مضيئة متهللة، من أسفر الصبح إذا أضاء، ويبدو لي أن معناه: منشرحة منبسطة، وقيل: كل ذلك من صلاة الليل، بل وأيضا من سائر أعمالهم الصالحة. ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ وانبساط وجوه المؤمنين انعكاس لانعدام الهم، أما ضحكهم فدليل انبهارهم بالنعم، في حين أن استبشارهم يعكس رجاءهم في نعيم ربهم أو بشاشتهم برضوان ربهم، وهو أغلى منى يبحث عنه المؤمنون.

[٤٠] أما الذين لم يتحملوا مسؤولياتهم فإنهم يصابون بإحباط شديد، تعلو وجوههم

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص١٠٥.

سيئاتهم في صورة غبار الذل والهوان ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾.

[٤١] وإلى جانب الغبار ترى الدخان الأسود على وجوههم جزاء تقصيرهم في تطهير أنفسهم وتزكيتها في الدنيا. ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ قالوا: ﴿تَرْهَقُهَا﴾ تدركها عن قرب كقولك: رهقت الجمل إذا لحقته بسرعة، أما القتار فقالوا: سواد كالدخان.

[٤٢] بلى، غبار الكفر يعلو وجوههم بما ستروا من الحق، وقتار الفجور يلحقهم بما عملوه من الفواحش. ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ فلا ينفعهم المال والسلطان، ولا تشفع لهم العلاقات الحميمة.

أعاذنا الله من هذه العاقبة السوأى.

سُورَةُ التَّكوير

* مكية.

* عدد آياتها: ٢٩.

* ترتيبها النزولي: ٧.

* ترتيبها في المصحف: ٨١.

* نزلت بعد سورة المسد.

فضل السورة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلْيَقْرَأْ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص ٣٥٦)

***

عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أَعَاذَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَفْضَحَهُ حِينَ تُنْشَرُ صَحِيفَتُهُ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٦).

***

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ وَ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ كَانَ تَحْتَ جَنَاحِ اللهِ مِنَ الْجِنَانِ وَفِي ظِلِّ اللهِ وَكَرَامَتِهِ فِي جِنَانِهِ».

(ثواب الأعمال: ص١٢١)

***

عنه عليه السلام قال: «وَمَنْ قَرَأَ ﴿عَبَسَ﴾ وَ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ كَانَ فِي أَمْنٍ مِنَ الْخِيَانَةِ وَفِي ظِلِّ اللهِ وَكَرَامَتِهِ وَجِنَانِهِ».

(أعلام الدين: ص٣٨١)

روى أبو بكر قال: قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَا رَسُولَ اللهِ أَسْرَعَ إِلَيْكَ الشَّيْبُ قَالَ: «شَيَّبَتْنِي هُودُ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلاتُ وَ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وَ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٢٤٢)

الإطار العام

وإذا القلوب تحجّرت

عندما تغور النفوس في لجة عميقة من السبات، وعندما تتحجر القلوب فتمسي أشد قسوة من الجلاميد، وحينما ينساب الإنسان بلا وعي ولا إرادة مع التقاليد الباطلة، فلا يرضى تطويراً ولا تحويلاً.. هنالك تشتد حاجة الإنسان إلى صعقات النذر، كما الرعود الهادرة توقظ القلب من سباته، وتستثير العقل من تحت ركام الخرافات.

وجاء الوحي يصدع به النبي النذير ﷺ إضاءات متواصلة في محيط من الظلام الدامس، وصعقات بالغة الشدة في مستنقع السكوت والجمود، وبراكين حارقة للمقدسات المزيفة، والخرافات الجاهلية المتوارثة.

وسورة التكوير واحدة من تلك الصعقات، فإذا انفتح عليها القلب كاد يتصدع هولاً، لأنها تفتح نافذة واسعة على جيشان الحقيقة، وطوفان التطورات فيها، إنها مفتاح التطوير والإبداع في القلب والعقل والسلوك.

وتحدثنا آياتها الفاتحة عن الشمس إذا كورت.. بلى؛ الشمس التي هي محور منظومتنا هي الأخرى تتكور في يوم رهيب، فلماذا الاسترسال مع السكون القاتل، والنجوم كذلك تنكدر، والجبال تُسيَّر، والعشار تتعطل، وتمضي آياتها الصاعقة ترسم صورة رهيبة لذلك اليوم، لعل قلوبنا تتساءل: ماذا عنّا في ذلك اليوم؟ فيأتي الجواب مهولاً: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ عظيم حقاً أن نعود إلى أعمالنا التي تتجسد أمامنا ونعلم بها، إنها المسؤولية بكل ثقلها (الآيات:١-١٤).

وتنقلنا الصورة فوراً إلى النجوم اذ تخنس، والكواكب إذ تكنس، والليل إذ يعسعس، والصبح إذ يتنفس.. أوليست تلك آيات الله الأكثر إثارة لنفوسنا، والتي تهدينا إلى حكمة الرب وقدرته؟ بلى؛ فإن القرآن قول رسول كريم، لأنه -وبشهادة العقل والضمير- تعبير عن تلك

الآيات ؛ إنه كتاب ينطق عن رب الكائنات، وتنطق الكائنات بحقانيته (الآيات: ١٥-٢٢).

و أخيراً؛ يصور القرآن لنا تنزل الوحي عبر أفق مبين، ويتساءل: فأين تذهبون عن هذا الوحي الحق؟ إنه ذكر من الله للعالمين، لمن شاء أن يستقيم (الآيات: ٢٣-٢٩).

إنها ثلاث صور عظيمة؛ صورة رهيبة عن الساعة، وصورة جذابة عن الطبيعة، وصورة رائعة عن الوحي.. سبحان الله الذي أنزل هذه السورة سبحانه سبحانه!.

إن هو إلا ذكر للعالمين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ[1] ۝٢ وَإِذَا
ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ
۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ
سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ
كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ
أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ[2] ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ
۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ
مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ
ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ
تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨
وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

---

(١) انكدرت: الانكدار: انقلاب الشيء حتى يصير أعلاه أسفله بما لو كان ماءً لتكدّر، وأصله الانصباب، وفي المفردات: والانكدار: تغيّر من انتشار الشيء، وانكدر القوم على كذا إذا قصدوا متناثرين عليه، وفي المنجد: انكدر في السير: أسرع، وانكدر عليه القوم: انصبوا، وانكدرت النجوم: تناثرت، والكدراء: السيل الشديد.

(٢) الخنس الكنّس: جمع كانس، وأصلها الستر، والشيطان خنّاس لأنه يخنس إذا ذكر الله تعالى: أي يذهب ويستتر، وكنّاس الطير والوحش: بيت يتّخذه ويختفي فيه، والكواكب تكنس في بروجها كالظباء تدخل في كناسها.

وقيل: "الخنس" هي زحل والمشتري والمريخ لأنها تخنس في مجراها: أي ترجع وتستتر.

بينات من الآيات:

[١] عند الساعة تحدث تغييرات رهيبة وهائلة في الطبيعة. أليست الطبيعة قد سُخِّرت للإنسان؟ فها هو الإنسان يجر للحساب الدقيق، فلا كرامة إذن للشمس، ولا مبرر لوجودها، فماذا يصنع بها؟ إنها تفقد ضياءها، وتلف على بعضها (كما العمامة إذ تكور) ويرمى بها في نار جهنم مع من كان يعبدها من البشر.

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ قالوا: أصل التكوير من الجمع، يقال: كار العمامة على رأسه يكورها: أي لاثها وجمعها. ماذا يصنع بهذه الكرة العملاقة التي هي أكبر من أرضنا زهاء مليون مرة؟ هل تفقد عمرها الطبيعي الذي هي في منتصفه حسب ما يقول العلماء الذين يقولون: إنها اليوم في عمر الكهولة، فنحن البشر إذا في منتصف المسافة بين أصل تكونها ويوم تكورها، أم أنها تصاب بآفة كونية فيمحى ضوؤها، كما الشمعة إذا غمست في ماء المحيط أو تعرضت لإعصار شديد؟ فلا يبقى لها إلا أن تنطوي على نفسها، وتلملم امتدادات ضوئها، وزفرات شعلتها، وانسيابات أشعتها، من هنا جاء في لسان العرب: كورت الشمس جمع ضوؤها، ولُفَّت كما تلف العمامة. أيًّا كان الأمر فإنها ساعة رهيبة.

[٢] هل القيامة ساعة المنظومة الشمسية أم المجرة أم العالم كله؟ لا أدري، ولكن الآية تؤكد أن النجوم تنكدر وتؤكد آية أخرى أنها تنتثر فهل هي تنصبُّ وتتساقط في اتجاهات متباعدة، أم أنها تعود كما كانت أول الخلق كتلة واحدة متراصة، أم ماذا؟ أم لا يكون كل ذلك، وإنما بسبب اختلال نظام منظومتنا فإننا نرى النجوم بهذه الصورة؟ الله العالم. ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ قالوا: يعني تهافتت وتناثرت، وقال بعضهم انصبت كما ينصب العقاب، وحكي عن الخليل قوله: انكدر عليهم القوم: إذا جاؤوا إرسالا فانصبوا عليهم.

[٣] وأما الجبال الراسيات التي اعتمد عليها الإنسان فإنها تسير ثم تتبدد ثم تتلاشى فتكون سرابا ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾.

[٤] أما الإنسان فيلهو عما حوله، وحتى عن أنفس ما يملك ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قالوا: العشار جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء، وهي الإبل التي أتى على حملها عشرة أشهر ثم هو اسمها إلى أن تضع لتمام السنة، وهي أنفس ما يكون عند أهلها وأعزها عليهم. أما تعطيلها فبمعنى الالتهاء عنها وتركها؛ لأن للإنسان يومئذ شأنا آخر يغنيه عما حوله. إنه يريد التخلص من أهوال الساعة المتلاحقة عليه. وقال بعضهم: العشار هي السحب تُعَطَّل، وقيل: إنها الأراضي المزروعة تترك.

[٥] في ذلك اليوم تتجمع الوحوش من كل ناحية، كأنها تحس بالوحشة من شدة الهول فتلوذ ببعضها، وتقترب من بني آدم دون أن تنفر منهم أو ينفر بعضها من بعض. ما أعظم ذلك اليوم على قلب الكائنات! ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ والحشر -حسب هذا التفسير- بمعنى الجمع، وقيل: أن الحشر بمعنى إعادتها إلى الحياة حتى يتم إجراء العدالة عليها حسب مستواها الشعوري، فإذا كانت القرناء طعنت الجماء أعيدتا حتى يقتص للجماء من القرناء ثم تموتا معا. والله العالم. عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**وأَمَّا الذَّنْبُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَمَظَالِمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، إِنَّ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى إِذَا بَرَزَ لِخَلْقِهِ أَقْسَمَ قَسَماً عَلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: وعِزَّتِي وجَلَالِي لَا يَجُوزُنِي ظُلْمُ ظَالِمٍ ولَوْ كَفٌّ بِكَفٍّ ولَوْ مَسْحَةٌ بِكَفٍّ ولَوْ نَطْحَةٌ مَا بَيْنَ الْقَرْنَاءِ إِلَى الْجَمَّاءِ، فَيَقْتَصُّ لِلْعِبَادِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ حَتَّى لَا تَبْقَى لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ مَظْلِمَةٌ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ لِلْحِسَابِ**»[1].

[٦] وماذا عن البحار وهذه المحيطات العظيمة؟ هل يمكن أن يلوذ بها الناس خشية النيران؟ كلا.. إنها بدورها تسجر كما يسجر التنور، وتشتعل نارا لاهبة. ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ وكان المفسرون سابقا يبحثون عن تفسير لهذه الآية حتى قال بعضهم: تكون جهنم في قعر البحار فيأذن الله لها أن تحرق البحار بنيرانها، وقال آخرون: إن الله يلقي بالشمس والقمر وسائر الإجرام في البحار فتسجر، أو أنه يخلق فيها نيرانا عظيمة فيحرقها، وقال الرازي بعد نقل هذه الأقوال وغيرها: «هذه الوجوه متكلفة، لا حاجة إلى شيء منها، لأن القادر على تخريب الدنيا وإقامة القيامة لا بد أن يكون قادرا على أن يفعل بالبحار ما شاء، من تسخين ومن قلب مياهها نيرانا، من غير حاجة منه إلى أن يلقي فيها الشمس والقمر أو أن يكون تحتها نار جهنم»[2] وكيف لبحار الأرض أن تسع حجم الشمس؟!.

بلى، وقد أثبت العلم أن في الماء مادتين (أوكسجين + هيدروجين) وهما شديدا الاشتعال لو انفصلا، وقد اخترعوا سيارات تعمل على الماء بعد تجزئته، فهل تعجز قدرة الرب عن فصلهما يوم القيامة بفعل ضغط جوي هائل أو ما أشبه حتى تتسجر؟! إن عدم معرفة البشر بكيفية وقوع الشيء قد يدعوه إلى الكفر بوقوعه رأسا، وهذا من أعظم تبريرات الكفار بيوم القيامة، ولكن هل أحاط البشر بكل شيء علما، حتى ينكر أي شيء لا يعلم تفصيل وقوعه؟! أليس في هذا جهل مركب؟! ولعل الكفار بيوم البعث كانوا يسخرون من كيفية تحول البحار نيرانا، ويقولون: أن الماء يطفئ النار فكيف يشعلها؟! ولكن ثبت علميا أن الماء أساسا مركب من نارين. أولا يهدينا ذلك إلى أن جهلنا بكثير من الحقائق لا يبرر كفرنا بها رأسا؟!.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٤٣.
(٢) التفسير الكبير: ج٣١، ص٦٨.

[٧] في ذلك اليوم لا تترك النفوس وشأنها، بل وتقارن بأعمالها، ثم تُلحق -حسب مقياس العمل- بأقرانها، فأصحاب الميمنة مع أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة مع أصحاب المشأمة، والسابقون مع السابقين ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾، وقيل: تقرن نفوس المؤمنين بأزواجها من الحور العين، في حين تقرن نفوس الكفار بالشياطين والجن، والله العالم.

[٨] وحيث يُنصب الميزان العدل يرفع المظلوم ظلامته أمام الملأ، ويسمح الحاكم العدل بأن تتحدث الموؤودة عن نفسها حين يسألها: بأي ذنب قتلت؟! ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ أليس قد جعل الله للمظلوم سلطانا على الظالم في محكمة العدل، وهو أول من يُستنطق فينطق، فلذلك هي التي تُسأل حتى تشرح ظلامتها، وقرأ بعضهم (سَأَلَتْ) ويحتمل أن يكون ذلك نوعا من التفسير، وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ: «**أَنَّ المَرْأَةَ الَّتِي تَقْتُلُ وَلَدَهَا تَأْتِي يَومَ القِيَامَةِ مُتَعَلِّقاً وَلَدُهَا بِثَدْيَيهَا مُلَطَّخاً بِدِمَائِهِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! هَذِهِ أُمِّي وَهَذِهِ قَتَلَتْنِي**»[١]. ويبدو من هذا الحديث ومن نصوص وآيات عديدة ووثائق تاريخية أن عادة الوأد كانت منتشرة في العرب، وقد حاربتها الرسالة الإلهية بقوة حتى أقلعوا عنها، ولعل الحديث الثاني يكشف جانبا من تلك العادة الخبيثة، فقد روي: «أنه جاء قيس بن عاصم إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني وأدت ثمان بنات كن لي في الجاهلية، قال: **فَاعْتِقْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً**، قال: يا رسول الله! إني صاحب إبل، قال: **فَاهْدِ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بُدْنَةً إِنْ شِئْتَ**»[٢].

[٩] ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ وهذا التساؤل العريض يجعل الجاهلية كلها في أزمة حادة، فهب أنها بررت كفرها بالرسالة، أو سكوتها عن ظلم الأغنياء للفقراء، أو حروبها الداخلية، فهل لقتل البنات وبهذه الصورة البشعة أي تبرير؟! إن هذا العمل القبيح يكشف زيف الفلسفة التي وراءه، وبالتالي زيف كل القيم الجاهلية، وذلك لأن فطرة الإنسان قد تحجب عن معرفة بعض الحقائق الخفية، ولكنها لا يمكنها أن تتغافل عن مثل هذه الحقيقة الواضحة إنه لا يجوز المخاطرة بحياة الطفلة التي وهبها الله لوالديها، وجعلهما حماة لها، وأودع في أنفسهما الحنان والعطف نحوها، بل جعلها حاجة نفسية ملحة لهما، فكيف يجوز لهما دسها في التراب، بل كيف مسخت شخصية هذا الأب أو تلك الأم اللذين يقومان بوأدها، وكيف يسمح المجتمع لهما بارتكاب هذه الجريمة، وأين ضمير المجتمع عنهما، أين دعاة الخير والصلاح، أين أهل الدين والتقوى، أين الرحمة والحب والحنان، أين أهل الثقافة والفكر؟!.

إن وقوع هذه الجريمة النكراء في المجتمع الجاهلي كان شاهدا على أنه قد هبط إلى أسفل

---

(١) تفسير القرطبي: ج ١٩ ص ٢٣٤.

(٢) تفسير الدر المنثور: ج ٦ ص ٣٢٠.

درك، وهكذا نطقت الموؤودة حين سئلت بإدانة كل المجتمع الجاهلي، وكل قيمه الزائفة. وقصة وأد البنات من أشد قصص الجاهلية بشاعة وألما معا، وهي كما قلنا تكشف عن جوانب عديدة من الضعف في الفكر الجاهلي، فقد حكي عن ابن عباس.. كانت المرأة في الجاهلية إذا حملت حفرت حفرة، وتمخضت على رأسها، فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة، ووارتها التراب، وإن ولدت غلاما حبسته، وكان بعضهم يفتخر بذلك فيقول قائلهم[١]:

سـميتها إذ ولـدت تمـوت	والقـبر صهر ضامن زميت

وقد كان في الجاهلية من يمنع الوأد، ويسعى لنجاة الموؤودات، مثل صعصعة جد الفرزدق حيث يقال إنه كان يشتري البنات من آبائهن، وجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موؤودة، حتى افتخر حفيده الشاعر المعروف[٢] بذلك فقال:

ومنـا الذي منـع الوائدات	فأحيـا الوئيـد فلـم يـوأد

وجاء في الدر المنثور: «عن صعصعة بن ناجية المجاشي وهو جد الفرزدق، قال: قلت: يا رسول الله! إني عملت أعمالا في الجاهلية فهل لي من أجر، قال: **وَمَا عَمِلْتَ**؟ قال: أحييت ثلاثمائة وستين موؤودة، أشتري كل واحدة منهم بناقتين عشراوين وجمل، فهل لي في ذلك من أجر، فقال النبي ﷺ: **لَكَ أَجْرُهُ إِذْ مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ بِالإِسْلَامِ**»[٣].

حقًّا إن تردي البشر إلى هاوية الفساد والجريمة رهيب ولولا أن تداركه رحمة الله فإنه يبلغ مستوى من الرذالة أن يدفن أبناءه أحياء، ولعل الإشارة إلى البنات في هذه الآية ليست للحصر بل لأنهن الحلقة الأضعف والأكثر إثارة للشفقة، إذ تدل آيات أخرى على أن الأولاد أيضا كانوا يُقتلون حيث يقول ربنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. وإذا كنا نرى اليوم القوانين الرادعة لقتل الأولاد، بل العواطف الرقيقة التي تحوط الأولاد بسياج من الرعاية الفائقة فإنما هو بفضل تعاليم الرسالات الإلهية، ولولاها لعادت البشرية إلى سابق جاهليتها، إذ ليست عاقبة الفلسفات المادية التي تقيم كل شيء بمنطق الفائدة والخسارة إلا مثل هذه الجرائم.

ولازال بعض الناس متورطين في مثل هذه الجرائم، وأضرب لكم ثلاثة أمثلة:

المثال الأول: ما يجري في العالم وبشكل واسع من المتاجرة بالأولاد، لاستعبادهم

(١) أي سماها تموت بإزاء ما يسمى الأولاد بـ (يحيى)، والزميت بمعنى: الوقور والمتزمت.
(٢) ديوان الفرزدق: ج١، ص٢٨٣.
(٣) تفسير الدر المنثور: ج٦، ص٣٢٠.

أو استخدامهم في تصدير أفلام جنسية بالغة الفحش والخلاعة، أو حتى قتلهم واستخدام أجسادهم لصناعة مواد معينة. وبالرغم من التستر الواسع على مثل هذه الجرائم فإن العالم يطَّلع بين الفينة والأخرى على بعض الأرقام المذهلة.

وإليك طائفة مما تناقلته بعض الصحف ووكالات الأنباء:

نشرت صحيفة كيهان العربي (الجريدة الإيرانية الصادرة في طهران) في عددها: (١٦٩١) ما يلي:

* كشف مندوبون في مؤتمر عن استعباد الأطفال (أوائل عام ١٩٨٥م) النقاب عن أن أكثر من سبعة ملايين طفل يعملون كعبيد في دول جنوب آسيا وأن بعضهم اختطفوا وتم وسمهم ليبقوا عبيدا ويعيشوا حياة أسوأ من «حياة البهائم».

* وقال سوامي اجنيفيش رئيس جبهة تحرير العمال الأرقَّاء أمام المؤتمر: «يختطف الأطفال بين سن السادسة والثانية عشرة وينقلون إلى مصانع السجاد. إنهم يحملون علامات على أجسادهم بعد وسمهم بقضبان الحديد الملتهب».

* وقد رأست جبهة تحرير العمال الأرقاء المؤتمر الذي انعقد في نيودلهي وحضره مندوبون من الهند وبنغلادش وباكستان ونيبال وسريلانكا.

* ووصف ب. ن. باغواتي كبير القضاة السابق في الهند هؤلاء الأطفال بأنهم لا يعيشون كآدميين بل يحيون حياة أسوأ من حياة البهائم، فالبهائم حرة على الأقل في أن تسوم كيف شاءت أو تسرق طعامها متى شعرت بالجوع.

* وحضر المؤتمر أيضا الأطفال الذين تم تحريرهم من العبودية.

* وقال اجنيفيش أن منظمات دولية للإغاثة تعتقد أنه يوجد حوالي ٧٥ مليون طفل على الأقل تحت سن الرابعة عشر يعملون في جنوب آسيا وأن عشرة في المئة عبيد.

* وقد ألغت الهند نظام العمل العبودي في عام ١٩٧٦م.

* ويعمل أكثر من: ١٠٠,٠٠٠ طفل من العبيد في صناعة السجاد وحدها وهي مصدر رئيسي للهند في الحصول على العملات الصعبة.

* يوجد في سيريلانكا ١٤٦ منظمة تتاجر في بيع وشراء الأطفال الأجانب وقد باعت عام ١٩٨٥م، وحده ٥٣٤٣ طفلا. نقلاً عن وكالة الأنباء الفرنسية ٢٥/ ١١/ ١٩٨٥م.

* ونشرت جريدة الوطن الكويتية عدد: ٤١٣٨، أنه يتم المتاجرة بما لا يقل عن مليون طفل بعضهم في الثالثة والرابعة من أعمارهم، يباعون في سوق الفن الإباحي الدولية، ويقتل بعضهم بالمرض أو الانتحار أو تمثيل الأفلام.

* ونشرت جريدة السفير في عددها: ٤٧٨٢، نائب وزير الداخلية الباكستاني اتهم بعض الآباء الباكستانيين ببيع أبنائهم إلى دول الخليج من أجل استخدامهم في سباقات الهجن (الجمال)، ويقول مربو الهجن: أن السبب في استخدام الأطفال المربوطين على ظهور الجمال يعود إلى كون صرخات الأطفال مهيجة للجمال مما يجعلها تعدو بسرعة.

* ونشرت الوطن في عددها ٣١٣٧ ما مضمونه: أن امرأة سيريلانكية تعمل عند أحد أمراء دولة الإمارات عرضت طفلها للبيع بمبلغ ١١٢٢ دولارا.

المثال الثاني: سوء التغذية الذي يؤدي إلى وفاة الأطفال بأعداد غفيرة، دون أن يسعى أحد لإنقاذهم بالرغم من سهولة ذلك لعالمنا المتقدم تقنيًا وماديًا:

* كشف رئيس وزراء السودان (السابق) النقاب عن أن ٢٠ ألف طفل قضوا جوعا في إقليم «كردفان» وسط البلاد. حيث يعاني ٢٥٠ ألف شخص من سوء التغذية.

* وذكرت الأمم المتحدة أن نصف سكان السودان ربما يتعرضون لخطر المجاعة بسبب الجفاف.

* ويقول مسؤولو إغاثة غربيون أن (١٠٠) شخص معظمهم من الأطفال يموتون كل أسبوع في معسكر يضم ٥٠ ألف من ضحايا الجفاف في إقليم (دارفور).

* ويقول خبراء الأمم المتحدة أن ١٥ مليون سوداني -ثلثا العدد من الأطفال- يطالهم الجوع، وأن الأطفال أصبحوا هياكل عظمية في الجزء الغربي من السودان، إذ فقدوا ٨٠٪ من أوزان أجسامهم الطبيعية.

* يموت ٥٠٪ من الأطفال في (هاييتي) قبل أن يصلوا إلى سن الرابعة، والذين عبروا مرحلة الخطر يصابون بالهزال، حيث تصبح أوزانهم أقل من الحد الطبيعي بنسبة ١٠ إلى ٢٠٪.

* أوضح تقرير صادر من إفريقيا أن ١٠ آلاف طفل يموتون يوميًا عام ١٩٨٥م.

* ذكرت منظمة اليونيسيف أن أربعة ملايين طفل يموتون كل عام في الدول النامية.

* بلغت جبال الأطعمة الفائضة لدى السوق المشتركة حوالي ٨,٥ مليار دولار أمريكي، منها ١٧ مليون طن من القمح، و١,٢ مليون طن من الزبد، ٧٩,٠٠٠ طن من لحم البقر، و٤٨٧ طناً من مسحوق الحليب.

* وفي الوقت الذي يتعاظم الفائض الغذائي في أوروبا، وأمريكا الشمالية، في الوقت ذاته يخشى أن يلقى ٣٤ مليون شخص حتفهم، أكثرهم من الأطفال من جراء سوء التغذية في إفريقيا. هذا وقد تنبأ مدير مسؤول في هيئة الأمم المتحدة ويدعى (مورث) بأن ٢٠ مليون شخص معظمهم من الأطفال مهددون بالموت في إفريقيا بسبب المجاعة.

* بلغ معدل موت الأطفال في الصومال بسبب سوء التغذية ٢٠٠ في الألف، أي خمس المواليد، وفي الغابون ١٤٠ طفلاً في الألف.

ونقلت وكالة الأنباء الفرنسية هذه الإحصائيات الغريبة:

* ٤٠,٠٠٠ طفل في العالم يذعنون لحتمية الموت لسوء التغذية بصورة منتظمة.

* ٢٠ مليون طفل ما بين ٦-١٢ سنة يحرمون من حق التعليم لسبب أو لآخر وأهمها الفقر المدقع.

* ٧٥ مليون طفل ما بين ٨-١٥ سنة في العالم الثالث يعملون لتوطئة الظروف المعيشية القاسية.

* نسبة وفيات الأطفال في العالم النامي تزداد عشرة أضعاف عما هو عليه في العالم الصناعي.

* أعلى المعدلات لوفيات الأطفال في العالم في إفريقيا، فقد هلك نحو خمسة ملايين من الأطفال عام ١٩٨٤م، وأصيب مثلهم بعاهات مختلفة نتيجة المرض وسوء التغذية، وهذا يتوافق مع رقم نشرته وكالة الأنباء الفرنسية بأن عدد الموتى من الأطفال ما بين عام ٨٣-٨٥ يبلغ ١٠ ملايين طفل.

* قال تقرير منظمة الصحة العالمية: أن ١٥ مليون طفل يموتون سنويًّا بسبب سوء التغذية وهم دون الخامسة، وهناك الكثير من الأطفال يصابون بأمراض مرتبطة بسوء التغذية كالحصبة والسل والإسهال والعمى، وأضافت مجلة (اطّلاعات الإيرانية الأسبوعية في عددها ٢٢٢٥): يوجد في الهند ٩ مليون مكفوف، وفي بنغلادش يفقد ٢٠٠ ألف طفل بصرهم كل عام بسبب سوء التغذية وفيتامين (أ).

* وعن بنغلادش أضافت كيهان الإيرانية في عددها ١٢٤٣٥: يموت ٤٠٠ ألف طفل بسبب الإسهال والسعال والدفتريا والكزاز وهي مرتبطة بسوء التغذية، وإن ٥٠٪ من أطفال بنغلادش يعانون من سوء التغذية.

وجاء في جريدة كيهان عدد (١٢٣٢٢):

* في كل دقيقة و٤٢ ثانية يموت طفل في البرازيل بسبب الجوع.

* أعلنت وزارة الصحة في البرازيل أن ٣٠٠ ألف طفل ممن هم أقل من السنة وبسبب سوء التغذية لهم أو لأمهاتهم، ولسوء الحالة الصحية فإنهم يواجهون الموت بحلول الشهر الأول من السنة القادمة.

* وحسب أقوال اليونيسيف إن ٨٠ مليوناً من أصل ١٢٠ مليوناً من سكان البرازيل يعانون من سوء التغذية.

المثال الثالث: ما نسمعه من فضائح تهز الضمير، منها ما نُقِل لي شخصياً من مأساة شابة هندية أحرقت مع زوجها بناء على عادات جاهلية، وقد أثار حرقها ضجة كبيرة في هذا البلد[١].

ولعل قرى كثيرة في الهند لا تزال تدفن الأرملة مع زوجها الميت رضيت أم أبت.

وعن وأد البنات في الهند إليك بعض الحقائق:

* يقتل في الهند كل عام ٦٥ ألف طفلة جديدة في منطقة (مادوراي) في (تاميل نادو) جنوب الهند.

* ويقوم الأهالي بإعطاء السم المأخوذ من ثمرة الدفل للمواليد الإناث بعد ولادتهم مباشرة، وهذه الطريقة ليست محصورة في مجتمع (كالار) الهندوكي، بل وتمارس عند مجموعات هندوكية أخرى مثل (ثيغارس) في (مدراس) و(جاتس) في (راجبوتس) و(ليغا كاتبي باتبدراس) في (جوجارات).

* ومن الطرق الشائعة في وأد البنات أن تقوم الأم بوضع السم على حلمة ثديها، وتسد أنف طفلتها، وفي (راجبوتس) تلف الأم طفلتها بقماشة سميكة ثم تغرقها في النهر أو البحر.

---

(١) المؤلف كان يومه في الهند.

* ومن أسهل الطرق لوأد البنات التخلص من الطفلة برميها في أوعية الزبالة أو رميها في الصحراء.

* والوأد هو الطريقة التي يتبعها فقراء الهند للتخلص من مهر البنت، إذ إن أقل مهر هو خمسون ألف روبية، أي ما يعادل أربعمائة وخمسة عشر دولارا، بالإضافة إلى المجوهرات حال الزواج، وفي حال كون الزوج متعلما أو موظفا حكوميًّا يزداد المهر على أب البنت.

* الآباء يفرقون بين الذكور والإناث في المأكل والملبس والعناية والتعليم، إذ يرسل ٨٤٪ من الذكور إلى المدارس في مقابل ٤٥٪ من الإناث.

* المرأة التي تلد طفلة أو أكثر تظل عرضة للملاحظات خاصة إذا لم تنجب ذكرا، والمرأة التي تلد طفلتين أو ثلاث يجهض حملها إذا كانت حاملا، أو تعقم إذا كانت غير حامل.

* ويستعين الآباء الفقراء بالطب في واد البنات بالإجهاض، وإن اختيارات تحديد النسل مستخدمة بشكل واسع في معظم مدن الهند.

* وهناك إعلانات في كل مكان: في القطارات والجدران والسيارات تقول: «نحن نعقم...» أو «لكي تتخلص ادفعي ٥٠٠ روبية بدل أن تدفعي ٥٠ ألف روبية» و «تخلصي من هم البنت» أو «اعرفي جنس طفلك».

* وبسبب الإجهاض تموت ما بين ٤٠٠-٥٠٠ امرأة في المئة ألف، وهي ثاني نسبة في العالم.

* وبسبب الوأد والإجهاض يموت ربع عدد مواليد الإناث سنويًّا البالغ ١٢ مليونا، وعلى حسب ما جاء على لسان المجلس الهندي للأبحاث الطبية فإن عدد مواليد الإناث أقل من الذكور ففي عام ٨١ كان لكل ألف ذكر ٩٩٣ أنثى، وفي عام ٨٦ وصل إلى ٩٣٥ لكل ألف ذكر.

[١٠] لكل واحد منا صحيفة منشورة يكتب فيها ملائكة الله ما نقدم أو نؤخر من عمل، وإذا مات ابن آدم طويت صحيفته ليوم الحشر حيث تنشر من جديد، فإذا بها لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها، فتعلق في عنقه، ويقال له: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء: ١٤].

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ في ذلك اليوم تبلو الخفايا والجنايا، ولا أحد قادر على إنكار ما فعله، فيُلزم كل بما في طائره، ويُخرج له كتابه منشورا حسب ما روي عن رسول الله ﷺ عن

أم سلمة أنه قال: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً**، قالت: فقلت: يا رسول الله! فكيف بالنساء؟ قال: **شُغِلَ النَّاسُ يَا أُمَّ سَلَمَةَ**، قلت: وما شغلهم؟ قال: **نَشْرُ الصُّحُفِ، فِيهَا مَثَاقِيلُ الذَّرِّ وَمَثَاقِيلُ الخَرْدَلِ**»(١).

[١١] وكما تنكشف سريرة البشر، وتسقط الحجب التي وضعت عليها ؛ فإن غلاف السماء يكشط عنها كما يكشط جلد البعير عن جسده ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾، قالوا: قلع عن شدة التزاق، وكشطت البعير كشطا نزعت جلده. ماذا يحدث ذلك اليوم؟ هل يطوى الغلاف المحيط بالأرض لتتعرض لكل واردة وشاردة، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعلى هذا فالسماء هي السقف المباشر الذي يحفظ الأرض، أم أن الحجاب الذي لا يدعنا نرى الملائكة أو عرش الله يسقط، فإذا بأبصار الناس ترى العالم الأعلى كما ترى العالم المحيط؟ لعل التفسير الأول هو الأولى، واختار بعضهم التفسير الثاني، وقال بعضهم: إن معناه أن كل أجرام السماء تطوى، ولكن التعبير بالكشط في هذا الحال لا يبدو مناسبا، وأنى كان فإن الأمن الكوني يفقد نهائيًّا في ذلك اليوم الرهيب.

[١٢] إذا كُشطت السماء وطُويت تبينت الجنة والنار، أما النار فقد أعدت لأهلها إعدادا تاما إذ أوقدت حتى اسودت وزمجرت وكادت تميز غيظا. ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، روي عن رسول الله ﷺ: «**أُوْقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوْقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ**»(٢). والسؤال هل هذه من سني الدنيا أم من سني الآخرة التي يعادل كل يوم منها ألف سنة؟ الله أعلم.

[١٣] أما الجنة فقد زينت لأهلها كما العروس حين تزف إلى زوجها، تلألأت أنوارها، وتهيأت الحور لأزواجهن، واستعد الغلمان والجواري للخدمة، وأعدت الموائد الطيبة التي هي الأشهى والألذ. ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي قُرِّبت ودنت للمتقين، فهل تتقرب الجنة إلى أرضنا كما لو كانت كرة أخرى، أم أن أهل الجنة يقتربون منها؟ لا ندري.

[١٤] ذلك يوم الجزاء الأكبر، حيث المحكمة العادلة، وحيث السجن الكبير يتمثل -في جهنم- والجائزة العظمى في الجنة يمثلانه أمام كل ناظر، فيرى الإنسان أعماله ماثلة أمامه، لا يستطيع من أعماله السيئة فرارا أو إنكارا، إنها حقًّا لمسؤولية وعين المسؤولية. ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ قالوا: هذه الجملة جواب الآيات المتواصلة: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ وما بعدها، وهي اثنتا عشرة آية صنعت الإطار العام لصورة مسؤولية الإنسان عن كل أعماله، والتعبير

---

(١) تفسير القرطبي: ج ١٩ ص ٢٣٤.

(٢) تفسير القرطبي: ج ١٩ ص ٢٣٥.

بـ ﴿عَلِمَتْ﴾ للتأكيد على أن القضية يقين وليست مجرد تخمين، أما قوله: ﴿نَفْسٌ﴾ فلأن النفس مركز الشعور والإحساس، فهو أبلغ مما لو قال: علم الإنسان، وإذا قلنا: رأت العين كان أبلغ مما لو قلنا: رأى الإنسان. وقوله: ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ ذروة البلاغة. أولسنا نعمل ونكدح حتى نحضر شيئا لذلك اليوم الموعود، كما يدرس التلميذ ليوم الامتحان، ويتدرب الرياضي ليوم المباراة، ويستعد الجيش ليوم الحرب، وهكذا البشر يكدحون ليوم لقاء الله، حيث يقول ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

[١٥] قسما بالنجوم التي تختفي وتظهر، وبالليل حيث يخيم ظلامه، وبالصبح حين يبسط نوره على الأفق.. إن القرآن وحي الله الذي أنزله جبرائيل على الرسول الكريم. هذه الحقائق تتواصل في جو تلك الصورة المؤثرة لتكون أبلغ أثرا، وأعظم وقعا. ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ إن القسم يهدف إلقاء ظلال من العظمة على الموضوع، وسوف يحقق هذا الهدف نفيه أو إثباته لدى الحكيم، وقد يكون نفي القسم يوحي بأهمية ما يحلف به مما يبالغ في العظمة، ولذلك قال المفسرون: إن «لا» هنا زائدة. والأقرب أن ﴿فَلَآ﴾ ليست بزائدة، حيث تكون لا أقسم لعدم الحاجة للقسم، فهو بمعنى القسم، أو لتأكيد معنى القسم. أليس معناه التهويل؟ فإذا نفي القسم دل على عظمة ذلك الشيء الذي يتحرز المتحدث عن القسم به، وهذا أشد وقعا في النفس، فما هو الخنس؟ قالوا: خَنُس بالضم خنوسا: تأخر، وأخنسه غيره: إذا خلفه ومضى عنه.

[١٦] ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ والجوار جمع جارية، والكنس جمع الكناس أي الغيَّب. وروي عن الإمام علي عليه السلام: **«هِيَ النُّجُومُ تَخْنِسُ بِالنَّهَارِ وَتَظْهَرُ اللَّيْلَ، وَتَكْنِسُ فِي وَقْتِ غُرُوبِهَا»**[١]، وروي عنه عليه السلام: **«هِيَ الكَوَاكِبُ الخَمْسَةُ الدَّرَارِي: زُحَلُ وَالمُشْتَرِي وَعُطَارِدُ وَالمَرِّيخُ وَالزُّهْرَةُ»**[٢]. وقيل: المراد من ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ البقر الوحش، و﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ الظباء. وكما ذكر في اللغة: أن كلمة ﴿بِٱلْخُنَّسِ﴾ تشابه معنى ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ وربما يفترقان في المعنى قليلا، وأورد الرازي الفرق بين الخنس والكنس فقال: روي عن علي عليه السلام وعطاء ومقاتل وقتادة: أنها هي جميع الكواكب، وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر في النهار، وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل، أي تظهر في أماكنها كالوحش في كنسها[٣]. ويبدو لي أن الفرق: أن هناك نجوما وكواكب ثابتة على مدار السنة، وهناك نجوم وكواكب فصلية ربما تبقى ليلة أو حتى جزءاً من ليلة أو فصل كامل. ولكن من ظاهر الآيتين: أن قوله: ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ تفسير للخنس، فعلى

(١) تفسير القرطبي: ج١٩، ص ٢٣٧.
(٢) تفسير القرطبي: ج١٩، ص ٢٣٦.
(٣) التفسير الكبير: ج ٣١، ص ٧١.

هذا التفسير نستطيع أن نفهم لماذا كلمة ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾ تشابه كلمة ﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾.

[١٧] ألا ترى كيف تهجم جحافل الظلام جند النور فتهزمه دون أن يكون لنا سلطان به نمنع ورود الليل أو نحافظ على بقية ضياء من نهار، أفلا نتذكر آنئذ أننا مربوبون، وأن لهذا العالم ربًّا حكيماً يدبر أمره وأمرنا، وأنه لا بد قد خلقنا لأمر عظيم، وأنه باعث إلينا رسولا من عنده ينبئنا بذلك الأمر؟! ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ قالوا ﴿عَسۡعَسَ﴾: أدبر بظلامه، وقال بعضهم: إذا أقبل، واللفظ من الأضداد، والسبب أن العسعس هو الظلام الخفيف الصادق في أول الليل وفي آخره.

[١٨] فإذا استرخت الطبيعة فوق سرير الليل، وأخذت نصيبا كافيا من الراحة، وتجمعت قواها للوثبة الجديدة تنفس عليها الصبح بضيائه، كما وانبلج الفجر من رحم الأفق كما تنبلج الرسالة الإلهية في أفق الوحي. ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قالوا: امتد حتى يصير نهاراً واضحا، وكذلك الموج إذا نضح الماء. ومعنى التنفس: خروج النسيم من الجوف.

[١٩] حين ينفتح القلب على بصائر الحقيقة في الخلق يهتدي إلى واقع الرسالة بغير حجاب: إن الرب الذي جعل الليل والنهار، وسخر بقدرته النجوم والكواكب لن يترك عباده سادرين في غي الجاهلية، يلفهم ظلام الجهل، ويسوقهم سيف البغي، ويغرقهم الفساد موجة بعد موجة. كلا.. إنه يبعث إليهم رسولا هاديا. يهديهم إلى ما انطوت عليه ضمائر قلوبهم، ودلهم إليه نور عقولهم. بربك أليست رسالة القرآن كذلك؟! ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ إنه قول واضح الحدود، واضح الكلمات، وليس مجرد تموجات في الفكر، وأحاسيس في القلب، والذي جاء به رسول كريم، تعالى عن الكذب وقول الزور.

[٢٠] وهل يكذب الإنسان إلا من إحساس بالضعف، والرسول الذي ينبئ عن الله قوي بقوة الله، لأن الله سبحانه لا يبعث سفيرا إلا إذا كان مُقرَّبا منه ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ وقد تجلت قوة الملك المقرب جبرائيل عندما حمل مدائن قوم لوط بقوادم جناحه، وحينما ضرب بجانب من ريشه إبليس فرماه من بيت المقدس إلى جزيرة سرنديب. وهو مكين عند الله ذي العرش سبحانه، وأقرب منزلة، وهو حاكم على كثير من ملائكة الله.

[٢١] ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ وقد أوكله الله بإدارة الملأ الأعلى، فهو مطاع هنالك، كما أنه أمين فلولا أمانته لم يوكل إليه هذا الأمر العظيم، وكان من أمانته عليه السلام أنه لم يعص الله في شيء، كيف وهو ممن قال عنهم الرب: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. ولعل في هذا التأكيد ردًّا على من يزعم أن الملائكة هم بنات الله، وبالتالي ليسوا بمسؤولين عن

أفعالهم، كما كان يعتقد الجاهليون العرب قبل الإسلام، ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله، وكان ذلك منشأ عبادتهم للأصنام التي كان بعضها يرمز إلى الملائكة.

[٢٢] وإذا كانت الرسالة من الله وعبر رسول كريم تتجلى كرامته في قوته وأمانته، فإن من يتلقاها يكون في ذروة الحكمة والمعرفة، وهذا تفسير ما يقوله الرسول مما لا يحتمله الناس من حقائق مغيبة، فيزعمون أنه مجنون كلا.. إنه رسول عظيم، رفيع المجد، سني المقام، والذين كفروا به لا يفقهون. ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ وفرق كبير بين الرسول والمجنون، فالمجنون يترك عادات مجتمعه إلى الفوضى، والرسول يتركها لما هو أحسن منها، والمجنون يتحدى سلطات مجتمعه لغير هدف، والرسول يتحداها لصنع مجتمع أفضل، والمجنون لا يتبع مصالحه بغير هدى، والرسول يتركها للصالح العام. ثم أليس الرسول صاحبهم الذين عرفوه منذ نعومة أظفاره حكيما راشدا صادقا أمينا، أفلم يعلموا أنه ليس بمجنون؟! بلى، ولكن الأمم جميعا اتهمت رسلها بالجنون حسب ما يبين القرآن الكريم ويقول: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

[٢٣] ولم تكن العلاقة بين الرسول ﷺ وجبرائيل عليه السلام غامضة أو مشوشة. كلا.. إنه رآه وبوضوح كاف عبر الأفق المبين ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وما زاغ عن البصر وما طغى، وما كانت وسوسات القلب، أو أحلام اليقظة أو ما أشبه، لقد كان النبي في قمة وعيه، وكامل عقله حين تلقى الوحي من عند الله. قالوا: الأفق المبين بمطلع الشمس قبل المغرب، ويبدو أن المراد الجهة الصافية التي لا حجاب فيها ولا غبار. وقال البعض: إن النبي ﷺ رأى جبرائيل في صورته الأصيلة، قد سد بين المشرق والمغرب، رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فلم يحتمل رؤيته، فقال له جبرائيل: «فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَ إِسْرَافِيلَ وَرَأْسَهُ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ وَرِجْلَاهُ فِي تُخُومِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ، وَإِنَّ الْعَرْشَ عَلَى كَاهِلِهِ، وَإِنَّهُ لَيَضَاءَلُ أَحْيَاناً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الْوَصْعِ -يعني العصفور- حَتَّى مَا يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ إِلَّا عَظَمَتُهُ»(١).

[٢٤] ومن علائم الرسل أنهم واضحون مع الأمم يفصحون لهم عن علومهم ومعارفهم، دون أن يطالبوهم بأجر وليسوا كما السحرة والكهنة ممن يبخلون عن الناس بما يعلمون حتى يتفضلوا عليهم، وليسوا كما سائر العلماء الذين يطالبون على عملهم أجرا. ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ قالوا: ضننت بالشيء أضن: أي بخلت، وقرأ بعضهم بالظاء، وقالوا معناه: بمتهم.

[٢٥] يختلف قول الشيطان عن وحي الرحمن اختلافا كبيرا في الأهداف والوسائل، فبينما

(١) انظر تفسير القرطبي: ج ١٩ ص٢٤١.

يدعونا الشيطان إلى الفحشاء والمنكر والبغي وينهانا عن التواد والتعاون، وعلى البر والتقوى، ويثير الضغائن والأحقاد، ويدفعنا نحو الشهوات العاجلة و.. و.. نجد وحي الرحمن المنبعث حينا من داخل الضمير وحينا من فم الرسول يأمر بالعدل والإحسان، وأداء الأمانة، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ويحبذ التوبة والقصد، ويدعونا إلى التعاون على البر والتقوى، وهكذا يهتدي القلب إلى صدق الرسول برسالته التي يحملها والتي لا يجد العاقل صعوبة في فرزها عن الدعوات الضالة. ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾.

[٢٦] وحين يترك الإنسان نداء الرحمن لا بد أن يتخطفه الشيطان بغروره وأمانيه، فهل نذهب إليه؟! ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ قد يرفض الإنسان دعوة الخير دون أن يفكر في البديل أو حتى في العاقبة، بل لمجرد غفلته عن عواقب كفره بها، وعما يضطر إليه من الباطل حينما يرفض الحق، ويبدو أن هذه الكلمة إشارة إلى ذلك، كما هي صعقة عنيفة للنفوس السادرة في الغفلة والجهل لعلها تعود إلى ذاتها وتفكر في أمرها.

[٢٧] وفي القرآن صفتان تشهدان على صدقه:

الأولى: أنه يتوافق مع نور العقل لأنه يقوم بإيقاظه من سباته، فإذا بالعقل يكتشف الحقيقة بنفسه، ويكون مثله مثل من كان يعرف شيئا فنسيه، فإذا ذكر به عاد يعرفه، فمعرفته آنئذ تكون بذاته وإنما دور المذكر تنبيهه وتبصيره، وإذن لا يحتاج إلى حجة لكي يعرف أن الذي ذكره كان ناصحاً له ومحقًا. ومثل آخر إذا كنت تبحث عن الهلال فلا تجده فأشار صاحبك إليه، فلما نظرت إليه رأيته فهل تحتاج إلى دليل يهديك إلى صدق صاحبك؟ كلا.. إن أكثر برهان على أنه حق هو أنه هداك إلى الحق فعرفته بنفسك، كذلك القرآن ذكر، ومعنى الذكر: أنه ينبه العقل إلى مكنوناته فإذا به يكتشفها بنفسه، فيعرف أنه حق.

الثانية: عالمية القرآن التي تهدينا إلى أنه من رب العالمين، ذلك أن الشيطان يفرق الناس بألوانهم ولغاتهم وقومياتهم؛ لأنه يدعو إلى المصالح المادية -وهي مختلفة ومتضاربة- والوحي الإلهي يساوي بين عباد الله، أوليسوا جميعا خلقه، وهو يدعو إلى الحق، وهو غير مختلف من أرض لأرض أو قوم لآخر؟! هكذا قال ربنا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٢٨] ومن صفات الوحي تأكيده على حرية الإنسان في اختياره. أولم يقل ربنا: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؟! والحرية تبدأ من حرية العقيدة، وإنه سبحانه أبى أن يفرض الحق على البشر فرضا، وأبى لعباده أن يكرهوا بعضهم عليه، أولم يقل سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟

مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وإنما يكرم الإنسان ويستحق الجزاء الأوفى إذا آمن بحريته أما إذا أكره على الإيمان فلا جزاء له ولا كرامة. ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ على الطريقة، استقامة تتحدى ميول النفس، وضغوط المجتمع، وتضليل الشيطان وأبواقه، وإرهاب السلطات وإغرائها.

[٢٩] والمشيئة أنفس جوهرة عند الإنسان، وهي موهبة إلهية، ولولا أن الله وهبه هذه الموهبة لم يكن البشر إلا واحدا من هذه الأحياء المتواجدة على الأرض، وهكذا فلا أحد يستطيع أن يفتخر بهذه الموهبة، ويزعم أنه مقتدر من دون الله، ومن جهة ثانية: إن الإيمان نور إلهي يقذف في القلب بعد أن يشاء الفرد ذلك، ويزكي قلبه لاستقبال نور الإيمان. ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهكذا تذكرنا هذه الآية بأن لا جبر ولا تفويض، إنما أمر بين الأمرين، فالإنسان حر مختار بما وهب الله له من قوة المشيئة، ولكنه لا يختار الحق بالتالي إلا بتوفيق الله سبحانه.

سُورَةُ الانفِطَار

* مكية.

* عدد آياتها: ١٩.

* ترتيبها النزولي: ٨٢.

* ترتيبها في المصحف: ٨٢.

* نزلت بعد سورة النازعات.

فضل السورة

عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَهَا -أيْ سُورَةَ الإنْفِطَارِ- أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْأَجْرِ بِعَدَدِ كُلِّ قَبْرٍ حَسَنَةً وَ [بِعَدَدِ] كُلِّ قَطْرَةٍ مِائَةَ حَسَنَةٍ وَأَصْلَحَ اللهُ شَأْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٧).

***

عن أبي عبدالله عليه السلام قال «مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ وجَعَلَهُمَا نُصْبَ عَيْنِهِ فِي صَلَاتِهِ الْفَرِيضَةِ وَالنَّافِلَةِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ وَ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ لَمْ يَحْجُبْهُ مِنَ اللهِ حَاجِبٌ ولَمْ يَحْجُزْهُ مِنَ اللهِ حَاجِزٌ ولَمْ يَزَلْ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ».

(بحارالأنوار: ٨٩، ص٣٢٠)

الإطار العام

صور مباشرة عن القيامة

تنساب فاتحة السورة في بيان أشراط الساعة حيث تنهار أنظمة الخليقة، فإذا بالسماء تنفطر، والكواكب تنتثر، والبحار تتفجر، والقبور تتبعثر... ويكفي القلب الواعي ذلك واعظاً ويتساءل: لماذا كل ذلك؟ فيكتشف بنور إلهي - أنه لكي يُحاسَب الإنسان ويُجازي، وأن أول من يحاكم الفرد يومذاك نفسه، حيث تعلم ما قدمت وأخرت من خيرٍ أو شرٍ.

ولكي تنمو شجرة التقوى في النفس فتؤتي أكلها من الصالحات، تذكِّرنا آيات هذه السورة بالساعة وأشراطها، ثم بتضاؤل البشر أمام قدرة الخالق الذي خلقه فسواه، ثم تبين أن سبب غرور الإنسان هو تكذيبه بالجزاء، في حين الجزاء واقع، وأعمال الإنسان مسجلة عليه بدقة ثم يُوفَّى أجوره عليها، باستضافة الأبرار في النعيم الخالد، وسَوْق الفجار إلى الجحيم.

وينذر القرآن في الختام بيوم الدين؛ حيث لا تملك نفس لنفس شيئاً، وإنما الأمر يومئذٍ لله الحكم العدل الذي لا بد أن نتقيه اليوم حق تقاته.

يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ[1] (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ[2] (٢) وَإِذَا
ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ[3] (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ
فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ
بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ
(١٢) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ[4] (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ
(١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ (١٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ
ٱلدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)﴾.

بينات من الآيات:

[١] كما سورة التكوير تنساب فاتحة السورة في بيان أشراط الساعة حيث تنهار أنظمة الخليقة، فإذا بالسماء تنفطر، والكواكب تنتثر، والبحار تتفجر، والقبور تتبعثر.. ويكفي القلب الواعي ذلك واعظا ويتساءل: لماذا كل ذلك؟ لكي يحاسب الإنسان ويجازى، وأول من يحاكم الإنسان يومئذ نفسه حيث تعلم ما قدمت وأخرت من خير أو شر.

---

(١) انفطرت: انشقت، وجاء في مفردات الراغب في معنى هذه الكلمة: أصل الفطرة الشق طولًا.
(٢) انتثرت: الانتثار تساقط الشيء في مختلف الجهات، وقال الراغب في مفرداته: نثر الشيء نشره وتفريقه.
(٣) بعثرت: قُلِبَ ترابها لخروج الأموات منها، وبعثرت الحوض وبعثرته إذا جعلت أسفله أعلاه.
(٤) جحيم: الجحمَة شدة تأجج النار، جحم وجهه من شدة الغضب استعارةٌ من جحمة النار.

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ قالوا: أي تشققت بأمر الله وتنزلت الملائكة، كما قال ربنا العزيز: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

ويبدو أن الأمر أعظم من ذلك، فالسماء التي جعلها الله سقفا محفوظا لم تعد بناء متقنا. أوليس انتهى يوم الامتحان وجاء يوم الحساب؟ أوليس امتحان البشر هو حكمة الخلق والآن ذهبت الحكمة فليذهب ما يتصل بنا. وإذا انفطرت السماء تقاطرت الصخور العملاقة التي جاءت من تفتت النجوم على الأرض، فويل لمن لا يحتمي اليوم بظل التقوى حتى يكون ذلك اليوم محميًّا بظل العرش!

[٢] حوادث عظيمة في تاريخ العالم، كالانفجار الهائل الذي ترى بعض النظريات العلمية أنه وقع قبل حوالي (١٥) مليار سنة، والذي تلتقط بعض الأجهزة العلمية الحساسة صداه في أطراف الكون.. ولا ريب أن هذه الحوادث تتكرر لأن عواملها قائمة، ولكن متى وكيف؟ لم يبلغ علمنا حتى اليوم معرفة ذلك، بيد أن الوحي ينبئنا بأن نظام وجود المنظومة التي نعيشها ينهار، فهل ينهار أيضا نظام سائر المنظومات والمجرات؟ يستوحي بعض المفسرين ذلك من هذه الآية التي تقول: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ قالوا: الكواكب كل النجوم، ومعنى انتثارها تبددها، لأن انتثرت بمعنى الانتثار والتساقط. ولكن يحتمل أن يكون الأمر خاصًّا بهذه المنظومة وكواكبها لأن الحديث يتعلق بها فيها، والله العالم.

[٣] وما هي علاقة انتثار الكواكب بانفطار السماء؟ هل أن ضغطا هائلا تتعرض له منظومتنا تتسبب في تبدد السماء وانتثار النجوم، أم أن انعدام الجاذبية يسبب فقدان التوازن الدقيق الذي تعيش عليه الأرض، أم شيء آخر؟ لا نعلم إنما الذي يبدو لنا من خلال النصوص أن هزة عنيفة تصيب صميم الخليقة، حيث إن البحار تتفجر بعد أن تسجر نارا ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾، وقال بعضهم: إن معنى ﴿فُجِّرَتۡ﴾ تداخل بعضها في بعض حتى يكون بحرا واحدا، كما فسروا كلمة ﴿سُجِّرَتۡ﴾ في السورة السابقة بالامتلاء، بيد أن المناسب لانفطار السماء، وانتثار النجوم فيها تفجر البحار، والله العالم.

[٤] وتتماوج البسيطة كما مياه البحر، وتخرج الأرض أثقالها التي في بطنها، ومنها أجساد بني آدم التي تقذف منها بعد أن يحييها الله سبحانه ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، قالوا: بمعنى قلبت وأخرج ما فيها من أهلها.

[٥] في مثل هذا الجو يجد الإنسان أعماله ماثلة أمامه، حيث لا سماء تظله، ولا جبال تُكِنُّه، ولا بحر ولا بر يمكنه الفرار فيه.. الله أكبر ما أصعب موقف الإنسان ذلك اليوم! ﴿عَلِمَتۡ

نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ قالوا: ما قدمت في حياته، وما بقيت منه بعد وفاته كالسنة الحسنة الباقية أو البدعة المستمرة من بعده، وقال بعضهم: ما تقدم أول عمره، وما تأخر في سني حياته الأخيرة.. وربما التأخير بمعنى التضييع للتعامل مع ﴿قَدَّمَتۡ﴾ الواردة في أكثر من آية بمعنى العمل، ومناسبة استخدام هذا التعبير للعلم تكشفه ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]. ويبدو هذا التفسير أقرب إذ لا خير في العمل المتأخر فكلٌ في رصيد الإنسان، أما آثار العمل فهو وإن كان في سجل الإنسان إلا أن ظاهر الآية التقسيم لصنفين على أساس العمل الذي هو استعداد للآخرة وترك الاستعداد والعمل.

وأنى كان فإن هذه هي المسؤولية التي تتجسد ذلك اليوم، فقد يقدم الإنسان بين يدي أفعاله السيئة بعض الأعذار، وقد يلقيها على غيره أو ينساها أو يتناساها ويخفيها في الدنيا ولكنه في الآخرة يجدها أمامه بلا نقصان، ولا يستطيع منها فرارا ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ [آل عمران: ٣٠]، أفليس من العقل أن يراقب الإنسان نفسه لكيلا يصدر منه علم سيئ، وأن يلغي الأعذار والتبريرات فلا يتشبث بها في الدنيا ما دامت لا تنفعه شيئا في تلك الدار، وأن يتخذ من التقوى حجابا بينه وبين أهوال ذلك اليوم الرهيب؟.

[٦] وتنتفض النفس من أعماقها حينما يناديها الرب بكل حنان وعطف وكبرياء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ لماذا تتمرد عليه؟ هل لأنك استغنيت عنه فطغيت؟ أو لم يخلقك من ماء مهين؟ أولم يسوِ خلقك حتى أصبحت متكاملا متعادل الوجود؟ أم أنك تنكر هيمنته عليك؟ أوليس هو الذي اختار صورتك التي أنت عليها من قصر وطول وقوة وضعف وبياض أو سواد أو سمرة و.. ؟ أم أنك اغتررت بكرمه الذي واتر عليك به نعمه ظاهرة وباطنة؟ أفلم يهدك قلبك أن تتقي غضبة الحليم؟ أولم تبعثك مروءتك أن تجازي إحسانه بالإحسان أم ماذا؟ يبدو أن الإجابة عن هذا السؤال متفاوتة من شخص لآخر، ولكن ليس هنالك أي تبرير مقبول، ذلك لأن الغرور حالة مرفوضة أساسا بأي سبب كان.

وقد جاء في حديث مأثور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «غَرَّهُ جَهْلُهُ»[١] بلى، غرهم بربهم تواتر نعمه، وتتابع آلائه، قال الإمام السجاد عليه السلام: «أَذْهَلَنِي عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابُعُ طَوْلِكَ»[٢]. بيد أن ذلك ليس من مصلحة الإنسان، إنما عليه أن يحارب الغرور بيقظة الضمير، وسلاح التقوى. كذلك أوصانا إمامنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال بعد تلاوته للآية:

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٩٤.
(٢) الصحيفة السجادية: مناجات الشاكرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾: «أَدْحَضُ مَسْؤُولٍ حُجَّةً، وأَقْطَعُ مُغْتَرٍّ مَعْذِرَةً. لَقَدْ أَبْرَحَ جَهَالَةً بِنَفْسِهِ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا جَرَّأَكَ عَلَى ذَنْبِكَ ومَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ومَا آنَسَكَ بِهَلَكَةِ نَفْسِكَ، أَمَا مِنْ دَائِكَ بُلُولٌ أَمْ لَيْسَ مِنْ نَوْمَتِكَ يَقَظَةٌ؟ أَمَا تَرْحَمُ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَرْحَمُ مِنْ غَيْرِكَ فَلَرُبَّمَا تَرَى الضَّاحِيَ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فَتُظِلُّهُ أَوْ تَرَى الْمُبْتَلَى بِأَلَمٍ يُمِضُّ جَسَدَهُ فَتَبْكِي رَحْمَةً لَهُ، فَمَا صَبَّرَكَ عَلَى دَائِكَ وجَلَّدَكَ عَلَى مُصَابِكَ وعَزَّاكَ عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى نَفْسِكَ وهِيَ أَعَزُّ الأَنْفُسِ عَلَيْكَ؟ وكَيْفَ لَا يُوقِظُكَ خَوْفُ بَيَاتِ نِقْمَةٍ وقَدْ تَوَرَّطْتَ بِمَعَاصِيهِ مَدَارِجَ سَطَوَاتِهِ فَتَدَاوَ مِنْ دَاءِ الْفَتْرَةِ فِي قَلْبِكَ بِعَزِيمَةٍ، ومِنْ كَرَى الْغَفْلَةِ فِي نَاظِرِكَ بِيَقَظَةٍ، وكُنْ للهِ مُطِيعاً وبِذِكْرِهِ آنِساً وتَمَثَّلْ فِي حَالِ تَوَلِّيكَ عَنْهُ إِقْبَالَهُ عَلَيْكَ يَدْعُوكَ إِلَى عَفْوِهِ ويَتَغَمَّدُكَ بِفَضْلِهِ وأَنْتَ مُتَوَلٍّ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ فَتَعَالَى مِنْ قَوِيٍّ مَا أَكْرَمَهُ وتَوَاضَعْتَ مِنْ ضَعِيفٍ مَا أَجْرَأَكَ عَلَى مَعْصِيَتِهِ! وأَنْتَ فِي كَنَفِ سِتْرِهِ مُقِيمٌ، وفِي سَعَةِ فَضْلِهِ مُتَقَلِّبٌ. فَلَمْ يَمْنَعْكَ فَضْلَهُ ولَمْ يَهْتِكْ عَنْكَ سِتْرَهُ، بَلْ لَمْ تَخْلُ مِنْ لُطْفِهِ مَطْرَفَ عَيْنٍ فِي نِعْمَةٍ يُحْدِثُهَا لَكَ أَوْ سَيِّئَةٍ يَسْتُرُهَا عَلَيْكَ، أَوْ بَلِيَّةٍ يَصْرِفُهَا عَنْكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ لَوْ أَطَعْتَهُ.

وايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ كَانَتْ فِي مُتَّفِقَيْنِ فِي الْقُوَّةِ مُتَوَازِيَيْنِ فِي الْقُدْرَةِ لَكُنْتَ أَوَّلَ حَاكِمٍ عَلَى نَفْسِكَ بِذَمِيمِ الأَخْلَاقِ ومَسَاوِئِ الأَعْمَالِ.

وحَقّاً أَقُولُ مَا الدُّنْيَا غَرَّتْكَ ولَكِنْ بِهَا اغْتَرَرْتَ، ولَقَدْ كَاشَفَتْكَ الْعِظَاتِ وآذَنَتْكَ عَلَى سَوَاءٍ وهِيَ بِمَا تَعِدُكَ مِنْ نُزُولِ الْبَلَاءِ بِجِسْمِكَ والنَّقْصِ فِي قُوَّتِكَ أَصْدَقُ وأَوْفَى مِنْ أَنْ تَكْذِبَكَ أَوْ تَغُرَّكَ ولَرُبَّ نَاصِحٍ لَهَا عِنْدَكَ مُتَّهَمٌ وصَادِقٍ مِنْ خَبَرِهَا مُكَذَّبٌ ولَئِنْ تَعَرَّفْتَهَا فِي الدِّيَارِ الْخَاوِيَةِ والرُّبُوعِ الْخَالِيَةِ لَتَجِدَنَّهَا مِنْ حُسْنِ تَذْكِيرِكَ وبَلَاغِ مَوْعِظَتِكَ بِمَحَلَّةِ الشَّفِيقِ عَلَيْكَ والشَّحِيحِ بِكَ، ولَنِعْمَ دَارُ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِهَا دَاراً ومَحَلُّ مَنْ لَمْ يُوَطِّنْهَا مَحَلّاً. وإِنَّ السُّعَدَاءَ بِالدُّنْيَا غَداً هُمُ الْهَارِبُونَ مِنْهَا الْيَوْمَ، إِذَا رَجَفَتِ الرَّاجِفَةُ وحَقَّتْ بِجَلَائِلِهَا الْقِيَامَةُ ولَحِقَ بِكُلِّ مَنْسَكٍ أَهْلُهُ وبِكُلِّ مَعْبُودٍ عَبَدَتُهُ وبِكُلِّ مُطَاعٍ أَهْلُ طَاعَتِهِ فَلَمْ يُجْزَ فِي عَدْلِهِ وقِسْطِهِ يَوْمَئِذٍ خَرْقُ بَصَرٍ فِي الْهَوَاءِ ولَا هَمْسُ قَدَمٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَكَمْ حُجَّةٍ يَوْمَ ذَاكَ دَاحِضَةٌ وعَلَائِقِ عُذْرٍ مُنْقَطِعَةٌ! فَتَحَرَّ مِنْ أَمْرِكَ مَا يَقُومُ بِهِ عُذْرُكَ وتَثْبُتُ بِهِ حُجَّتُكَ وخُذْ مَا يَبْقَى لَكَ مِمَّا لَا تَبْقَى لَهُ وتَيَسَّرْ لِسَفَرِكَ وشِمْ بَرْقَ النَّجَاةِ وارْحَلْ مَطَايَا التَّشْمِيرِ»(١).

وقد نظم بعضهم بعض هذه البصائر شعرا فقال(٢):

يـا كاتـم الذنـب أما تستحي والله في الخـلـوة ثانيـكا

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٢٢٣.

(٢) للشاعر: محمد ابن السماك. راجع: تفسير القرطبي: ج١٩، ص٢٤٦.

غـرك مـن ربـك إمهالـه وسـتره طـول مساويكا

وقال آخر[١]:

يا مـن عـلا في العجب والتيه وغـره طـول تمـاديـه
أمـلى لـك الله فبارزتـه ولـم تخف غـب معاصيـه

وللمحقق الحلي رحمه الله شعر بديع يقول فيه[٢]:

يـا راقـدا والمنايـا غـير راقـدة وغافـلا وسـهام الليـل ترميـه
بـم اغـترارك والأيـام مرصدة والدهر قد ملأ الأسماع داعيه
أما أرتـك الليالي قبـح دخلتها وغدرها بالـذي كانت تصافيه
رفقـا بنفسـك يا مغـرور إن لها يوما تشيب النواصي من دواهيه

[٧] حينها يعي الإنسان نفسه، ويعرف بدايته، وكيف تقلب في يد القدرة طورا فطورا، وتذكر أنه كان نطفة مهينة، يقذفها مبال في مبال، ويستقذرها صاحبها أيما استقذار، ثم جعل الله تلك النطفة التي خلقها بعظمته رجلاً سويًا ذا أعضاء يكمل بعضها بعضا، وفي نظام عظيم لم يسع العلم الإحاطة به، بالرغم من الموسوعات الكبيرة التي كتبت حوله.. هذا التكامل الذي يبدأ من تكامل اليد والرجل والأذن وسائر الجوارح ومدى تناسق أدوارها، وينتهي بتكامل كل خلية في الجسم مع سائر الخلايا، ضمن قيادة حازمة من أعصاب المخ وخلاياه ومن الغدد المنتشرة في أطرافه. ثم مضافا إلى الخلق يجد الإنسان ذلك التناسق بينه وبين الخليقة من حوله، كيف يتكيف جسمه مع الحر والبرد، والخشونة والليونة، ومع مختلف الطعام والشراب، وكيف يتعامل مع سائر الأحياء ابتداء من الوحوش الضارية وانتهاء بالجراثيم الفتاكة.. وقد جعل الله للإنسان القدرة على التكيف والتفوق ثم تسخير الطبيعة.

أقول: حينها نعي كل ذلك أولسنا نرى كرم ربنا وحكمته؟ فلماذا الغرور والتمادي في معصيته؟! ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ أفلم نكن عدما فأنشأنا لا من شيء كان، بلا تعب ولا لغوب، ولا مثل سابق يحتذى، وخريطة تنفذ؟ ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ فلم يجعل تقدير خلقك ناقصا، بل زودك بما تحتاجه بأفضل ما تحتاجه. ألم يجعل لك عينين ولسان وشفتين؟ وإذا أنعمنا النظر رأينا هذه

(١) الشاعر: أبو بكر الأبهري، راجع: تفسير القرطبي: ج١٩، ص٢٤٦.
(٢) أمل الآمل للحر العاملي: ج٢، ص٥١.

التسوية في الخلق نافذة في كل أعضاء الجسد، حتى قال ربنا عن البنان: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]، ويأتي العلم الحديث ويقول: إن لكل إنسان بصمات مختلفة عن أي بشر آخر في العالم، ويعتقد أن صورة بصمات بنانه منسجمة مع مجمل كيانه، حتى أنهم بدؤوا يكتشفون بعض الأمراض من صفحة كف الإنسان أوليس ذلك دليل الحكمة في الخلق؟.

وقال بعضهم في معنى التسوية: إنه سوى بين طرفي جسد الإنسان في كل شيء (بما يتناسب ووجوده). وقال البعض: إنه سبحانه جعل كل عضو يتعامل مع سائر الأعضاء. وقال آخر: إنه سبحانه سخر له المكونات، وما جعله مسخرا لشيء، ثم انطلق لسانه بالذكر، وقلبه بالعقل، وروحه بالمعرفة، وسره بالإيمان، وشرفه بالأمر والنهي، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا. وإن كل ذلك لمن بعض تجليات الاستواء في الخلق.

وقد بلغت درجة الاستواء منتهاها في خلقة البشر فكانت عدلا لا نجد فيه ثغرة أو زيغا ﴿فَعَدَلَكَ﴾. ويبدو لي أن الصفات الثلاث (الخلق والتسوية والتعديل) درجات في حالة واحدة، فالخلق بمعناه اللغوي هو التقدير، والاستواء تكامل الترتيب، والعدل تناسق التكامل بين حاجات الشيء والحكمة منه، فقد سُوِّي الإنسان بحيث يستطيع أن يقوم بالدور المحدد له تماما. وقد قال بعضهم: المراد من التعديل: أن الله جعله معتدلا سوي الخلق، وقال آخر: إن معناه أن الله أماله وحرفه في أي صورة شاء، ويبدو أن المعنى الأول أنسب والسياق. فيكون معنى الخلق التقدير، ومعنى الاستواء التناسب بين أعضائه، ومعنى العدل التناسب مع المحيط.

[٨] وبعد أن تكاملت خلقته واستوت على أساس الحكمة والعدل اختار الرب لها الصورة حسب مشيئته، وحسب حكمة بالغة يصعب معرفة كنهها ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾. لكل واحد منا صورة ظاهرة جميلة أو ذميمة أو مقبولة اختارها الله لنا حسب تقسيم الأرزاق الذي يتبع حكمته عليها، قد لا يرضى ببعض مفرداتها هذا أو ذاك لما في البشر من الحرص والطمع والاستئثار، ولكنها من حيث المجموع مقبولة حسب شهادة فطرة كل إنسان وعقله. وكما الصور الظاهرة هناك صورة داخلية ركبت على الإنسان. أو لا ترى كيف فضل الله كل إنسان بميزة، وأودع في ضميره رغبة تختلف عن الآخرين، مما يجعل كل شخص يختار طريقا مختلفا في الحياة، يلتقي بالتالي في إيجاد حالة من التكامل في المجتمع، فترى البعض يختار الطب ويصلح له، والثاني يرغب في الهندسة وتتناسب شخصيته معها، والثالث يطمح للقيادة أو الإدارة وهو لها أهل، في حين لا يرغب البعض إلا في الأعمال اليدوية.. وهكذا قال ربنا سبحانه: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]. وهذا لا يعني أن هذه الرغبات

حتمية، فإن الإنسان يستطيع تحويلها، ولكن أغلب الناس يرضون بها مما يحقق الحكمة الإلهية من توزيعها على البشر.

[٩] ماذا ينبغي أن تكون علاقاتك بربك؟ هل التمرد والطغيان أم التسليم؟ حقًا: إن أغلب الناس ينحرفون نحو الطغيان الذي يبدأ من التكذيب بالجزاء، وهو أعظم أسباب الغرور، فمن آمن بالجزاء اتقى غضب الرب ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ وإن هذا التكذيب لا يتناسب أبدا وتلك النعم الإلهية التي تهدينا إلى قدرة الرب وحكمته.

[١٠] وهل يتخلص الإنسان بالتكذيب من أهوال الساعة أو مسؤولية أفعاله؟ بتعبير آخر: هل إني لو كذبت بالموت لا أموت، أو كذبت بوجود المرض أعافى منه؟ بالعكس التكذيب بذاته جريمة كبرى قدر لها عقاب عظيم، وهو مفتاح لأبواب الشر، لأنه يخدع الإنسان فيسترسل في سلسلة من المعاصي دون رادع من ضمير أو ناصح من عقل.. وكلها تسجل عليه فيحاسب عليها حسابا عسيرا ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ يحفظون كل عمل يرتكبه الإنسان أو قول يتفوه به أو هاجسه بقلبه، قال ربنا سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. هكذا قال أكثر المفسرين، ويحتمل أن يكون المراد من الحافظين الذين يحفظون البشر من المهالك حتى يأتي أمر الله، كما قال الله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

[١١] وهؤلاء الحفظة كرام عند ربهم: تساموا عن الكذب أو الغفلة أو السهو، وهم بالإضافة إلى ذلك يكتبون ما يصدر من الإنسان. ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾.

[١٢] ولا يمكن للإنسان أن يخفي عنهم شيئا من أعماله لأنهم حضور شهود ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَا تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ ولَا يُكِنُّكُمْ مِنْهُمْ بَابٌ ذُو رِتَاجٍ»[١]. وروي عنه عليه السلام أنه مر برجل وهو يتكلم بفضول الكلام، ويخوض في أحاديث لا نفع فيها ولا طائل وراءها، فقال: «يَا هَذَا إِنَّكَ تُمْلِي عَلَى كَاتِبِيكَ كِتَاباً إِلَى رَبِّكَ فَتَكَلَّمْ بِمَا يَعْنِيكَ وَدَعْ مَا لَا يَعْنِيكَ»[٢].

وجاء في كتاب سعد السعود لابن طاووس: «دَخَلَ عُثْمَانُ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَقَالَ:

(١) بحار الأنوار: ج ٥، ص ٣٢٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص٣٢٧.

أَخْبِرْنِي عَنِ الْعَبْدِ كَمْ مَعَهُ مِنْ مَلَكٍ؟. قَالَ ﷺ: مَلَكٌ عَلَى يَمِينِكَ عَلَى حَسَنَاتِكَ وَوَاحِدٌ عَلَى الشِّمَالِ، فَإِذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً كَتَبَ عَشْراً وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً، قَالَ الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ لِلَّذِي عَلَى الْيَمِينِ: أَكْتُبُ، قَالَ: لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ وَيَتُوبُ، فَإِذَا قَالَ: ثَلاثاً، قَالَ: نَعَمْ اكْتُبْ أَرَاحَنَا اللهُ مِنْهُ فَبِئْسَ الْقَرِينُ مَا أَقَلَّ مُرَاقَبَتَهُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا أَقَلَّ اسْتِحْيَاءَهُ مِنْهُ يَقُولُ اللهُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ وَمَلَكَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ وَمَلَكٌ قَابِضٌ عَلَى نَاصِيَتِكَ، فَإِذَا تَوَاضَعْتَ للهِ رَفَعَكَ، وَإِذَا تَجَبَّرْتَ عَلَى اللهِ وَضَعَكَ وَفَضَحَكَ. وَمَلَكَانِ عَلَى شَفَتَيْكَ لَيْسَ يَحْفَظَانِ إِلَّا الصَّلَاةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَلَكٌ قَائِمٌ عَلَى فِيكَ لَا يَدَعُ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَّةُ فِي فِيكَ وَمَلَكَانِ عَلَى عَيْنَيْكَ. فَهَذِهِ عَشَرَةُ أَمْلَاكٍ عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ، وَمَلَائِكَةُ اللَّيْلِ سِوَى مَلَائِكَةِ النَّهَارِ فَهَؤُلَاءِ عِشْرُونَ مَلَكاً عَلَى كُلِّ آدَمِي»[1].

وإن وعي الإنسان حضور هذا الحشد من ملائكة الله عنده أفضل وسيلة لتعميق روح المسؤولية. وتساءل البعض عن الحكمة في توكيل هؤلاء الحفظة بالإنسان، فقال: ما علة الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم ولهم والله عالم السر وما هو أخفى؟ فأجاب الإمام الصادق عليه السلام: «قَالَ اسْتَعْبَدَهُمْ بِذَلِكَ وَجَعَلَهُمْ شُهُوداً عَلَى خَلْقِهِ لِيَكُونَ الْعِبَادُ لِمُلَازَمَتِهِمْ إِيَّاهُمْ أَشَدَّ عَلَى طَاعَةِ اللهِ مُوَاظَبَةً وَعَنْ مَعْصِيَتِهِ أَشَدَّ انْقِبَاضاً، وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ يَهُمُّ بِمَعْصِيَةٍ فَذَكَرَ مَكَانَهَا فَارْعَوَى وَكَفَّ فَيَقُولُ: رَبِّي يَرَانِي وَحَفَظَتِي بِذَلِكَ تَشْهَدُ. وَإِنَّ اللهَ بِرَأْفَتِهِ وَلُطْفِهِ أَيْضاً وَكَّلَهُمْ بِعِبَادِهِ يَذُبُّونَ عَنْهُمْ مَرَدَةَ الشَّيَاطِينِ وَهَوَامَّ الْأَرْضِ وَآفَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَ بِإِذْنِ اللهِ إِلَى أَنْ يَجِيءَ أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[2].

[١٣] وتتجلى المسؤولية عندما يستقبل رب الرحمة عباده الصالحين في النعيم الخالد ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

[١٤-١٥] أما الذين خرقوا ستر الفضيلة، وأوغلوا في الفضائح فإنهم يدخلون النار ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾. هل هم اليوم في الجحيم أم غدا؟ عندما يموتون أم عندما تقوم الساعة؟ بلى، إنهم اليوم في الجحيم. أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤]؟ ولكنهم اليوم محجوبون عنها، وغدا عندما يموتون وبعد الحشر يجدون أنفسهم في وسطها يصلونها مباشرة، لأن الذي سترهم عنها اليوم طبيعة الدنيا التي هي دار امتحان، فإذا نقلوا إلى دار الجزاء فما الذي يستر أجسامهم الناعمة عن النار اللاهبة؟ ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ لأن ذلك اليوم فعلا يوم الجزاء الأكبر، فالجحيم تحرقهم وتلهب جلودهم نارا. وقال

---

(١) سعد السعود: ص٢٢٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٥، ص ٣٢٣.

بعضهم: إن معنى الآية أن الفجار يدخلون الجحيم يوم الدين، وإنما ذكر ذلك بصورة قاطعة وكأنه واقع اليوم لأن الوعيد يأتي من السلطان المقتدر والذي لا يعجزه شيء ولا يحجزه عما يريده أحد.

[١٦] ولا يقدر أحد منهم أن ينتقل من الجحيم أو حتى يغيب عنها ساعة ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾. قال بعضهم: الآية تدل على خلودهم في جنهم، فإذن معنى الفجار -هنا- المعاندون. والآية ليست صريحة في هذا المعنى بل في أنهم عند دخلوهم الجحيم ومدة مكثهم فيه لا يغيبون عنها، والله العالم. ونقل الرازي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ما يلي: «**النَّعِيمُ المَعْرِفَةُ وَالمُشَاهَدَةُ، وَالجَحِيمُ ظُلُمَاتُ الشَّهَوَاتِ**»(١) وهذا ينطبق على التفسير الأول.

[١٧] ليست قدراتنا العلمية في مستوى الإحاطة علما بأحداث ذلك اليوم الرهيب، لأنه يوم يختلف كل شيء فيه تقريبا عن هذا اليوم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ إنه يوم رهيب، لابد أن نسعى جاهدين لنتصوره عسانا نتقي اليوم أهواله، وحينئذ نعرف أن الفائزين هم الذين انخلعت قلوبهم عن شهوات الدنيا وأحداثها، وعاشوا ذلك اليوم، وعملوا له ليل نهار.

[١٨] قد يغيب علم شيء عنا بسبب قلة ظهوره أو عدم الالتفات إليه، إلا أن غياب الإنسان عن علم الآخرة بسبب آخر، هو: تسامي مستواه عن مستوى إدراكنا، ولعل هذا هو المراد بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ ما بالك بيوم تهابه السماوات، وتشفق منه الجبال، وتضج من هوله الأرض، ويخشاه حتى الملائكة المقربون، ويحذره الأنبياء والصديقون! أولا ينبغي أن نتقيه؟.

[١٩] في ذلك اليوم يقف الإنسان منفردا أمام رب السماوات والأرض، ولا أحد بقادر على الدفاع عنه، أو الشفاعة له إلا بإذنه ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾، بل الإنسان مسؤول عن عمله. ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فهناك لا يخول الله أحدا شيئا كما خولهم اليوم، ولا يملك أحدا من عباده أمرا، بل الأمر كله له ظاهرا وباطنا. وفي ذلك اليوم يظهر التوحيد الإلهي لكل إنسان، فلا أحد يستطيع أن يفكر في أن غير الله يملك من أمره شيئا كما هو يزعم ذلك في الدنيا. روي عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام أنه قال لجابر بن يزيد الجعفي: «**إِنَّ الْأَمْرَ يَوْمَئِذٍ وَ الْيَوْمَ كُلَّهُ لِلَّهِ. يَا جَابِرُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَادَتِ الْحُكَّامُ فَلَمْ يَبْقَ حَاكِمٌ إِلَّا اللهُ**»(٢).

---

(١) التفسير الكبير: ج ٣١، ص ٨٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٧ ص٩٥.



* مدنيّة/ مكيّة (مختلف فيها).

* عدد آياتها: ٣٦.

* ترتيبها النزولي:٨٦.

* ترتيبها في المصحف: ٨٣.

* نزلت بعد سورة العنكبوت.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ فِي الْفَرِيضَةِ بـ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ أَعْطَاهُ اللهُ الْأَمَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّارِ، ولَمْ تَرَهُ، ولَمْ يَرَهَا، ولَمْ يَمُرَّ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ ولَا يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٨)

الإطار العام

دور الإنصاف في مصير الإنسان

حينما تتماثل صور القيامة وأهوالها، وميزانها الحق، وحسابها الدقيق، وجزاؤها العادل والعظيم، تتماثل كل تلك الصور والمشاهد في القلب، ويتحسس الإنسان حينئذ المسؤولية التي تحيط بحياته إحاطة السوار بالمعصم، ويتجلى ذلك الإحساس عنده في إنصاف الناس من نفسه، ويكون الحق الميزان المستقيم بينهم وبينه، لا الأثرة والشح، والتطفيف.

ويبدو أن ذلك هو إطار هذه السورة التي جبهت المطففين بنذير الويل في يوم البعث -الذي لا يتصورونه- ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، ولو أنهم ظنوا ذلك وعرفوا أن حسابات أعمالهم مسجلة في كتاب مرقوم لارتدعوا ولكن لا يرتدعون.

ويل للمطففين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢)
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ
(٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ
لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
(١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)
كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا
الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾.

هدى من الآيات:

الحق وليس الهوى ميزان الهدى، والمطفف الذي يجعل مصلحته أبدا ميزانه، يصيبه الويل لأنه يعتدي على حقوق الناس لنفسه (عندما يكيل بمكيالين) فإذا اكتال لنفسه استوفى وإذا اكتال لغيره أعطاهم اقل من حقهم.

(وإذا تجاوز الفرد الحق في الدنيا فلن يفلت من جزاءه في الآخرة). ألا يظن هذا المطفف أنه سيقف وسائر الناس إمام ربه في يوم عظيم (حيث الحساب والميزان الحق).

(وظلمه للناس وتطفيفه مكتوب) فلا يحسب انه يضيع في زحمة الحياة. فكتاب الفجار (ومنهم هذا المطفف) في سجين حيث يحافظ عليه جيداً وهو كتاب مرقوم (واضح فلكل شخص كتابه ولا يختلط بكتب غيره).

(أما تكذيب هؤلاء المطففين بالحساب فلن يجديهم نفعاً بل يزيدهم عذابا) فويل للمكذبين (الذين لا حجة لهم إلا إن يقولوا) إذا تليت عليهم آيات الرحمن إنها أساطير الأولين (لعلهم تعودوا عليها فلم يتأثروا بها) إن قلوبهم قد أحاطت بها الخطيئة، فإذا بها قد ران عليها ما كانوا يكسبون كما الصدأ يحيط بالحديدة) كلا.. (لن ينفعهم تكذيبهم، ولن تنفعهم توبتهم لأنهم) عن ربهم يومئذ محجوبون (ومن حجب عن بحار رحمة الله فما الذي ينفعه). وهكذا فهم سوف يصلون الجحيم وآنئذ يرون جزاء تكذيبيهم حيث يقال لهم هذا الذي كنتم به تكذبون.

بينات من الآيات:

[١] هل أنا مؤمن؟ بلى، أولست أصلي وأصوم وأنفق من أموالي في سبيل الله؟ كلا.. هذه وحدها لا تكفي، فلنحذر من خداع الذات، أوليس كل الناس حتى أعتى الطغاة والمجرمين يبرئون ساحة أنفسهم؟! فما الميزان إذن؟ إنه القرآن، هكذا قال الإمام أبو جعفر (الباقر) عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفي: «**وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا تَكُونُ لَنَا وَلِيّاً حَتَّى لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقَالُوا: إِنَّكَ رَجُلُ سَوْءٍ؛ لَمْ يَحْزُنْكَ ذَلِكَ، وَلَوْ قَالُوا: إِنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ؛ لَمْ يَسُرَّكَ ذَلِكَ. وَلَكِنِ اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللهِ فَإِنْ كُنْتَ سَالِكاً سَبِيلَهُ زَاهِداً فِي تَزْهِيدِهِ رَاغِباً فِي تَرْغِيبِهِ خَائِفاً مِنْ تَخْوِيفِهِ فَاثْبُتْ وَأَبْشِرْ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ مَا قِيلَ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ مُبَايِناً لِلْقُرْآنِ فَمَا ذَا الَّذِي يَغُرُّكَ مِنْ نَفْسِكَ**»[١].

وها هو القرآن يصف لنا واحداً من الموازين الحق التي نستطيع أن نعرف بها أنفسنا: إنه الإنصاف. كيف ذلك؟ هناك من يرى في نفسه أنه الحق فيعامل الناس على هذا الأساس، فلذلك يغش ويسرق ويستولي على حقوق الآخرين، وعلامة هذا الفريق من الناس أنهم إذا أرادوا استيفاء حق من حقوقهم من الناس أخذوه وافيا، وإذا طلب منهم أداء حق للناس انتقصوا منه، ويجري هذا في كافة شؤون حياتهم. إن لهؤلاء الويل لأنهم ليسوا منصفين ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾. قالوا: الويل بمعنى: الشر والحزن والعذاب أو الهلاك، وهو بمعنى اللعنة، أما المطفف فإنه من الطف أي جانب الشيء، والتطفيف تنقيص الشيء من جوانبه. وقال بعضهم: الويل واد في جهنم يجري فيه صديد أهل النار.

[٢] من هم هؤلاء المطففون؟ هناك مثل بارز لهم في أولئك الذين ينقصون المكيال لغيرهم، أما إذا اكتالوا لأنفسهم أخذوا حقهم وافيا ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾. قالوا: ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى اللام، ويبدو لي أن على تعطي هنا أيضا ظلالها العام الذي يوحي

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص١٦٢.

بالضرر، إذ إن الاستيفاء يتم على الناس أي في ضررهم. وقال بعضهم: إنه بمعنى إذا كالوا ما على الناس.

[٣] ولكنهم إذا اكتالوا لغيرهم تراهم يعطونهم أقل من حقهم ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾، قالوا: معناه كالوا لهم أو وزنوا لهم، ثم حذف اللام، واستشهدوا بقول الشاعر:

ولقد جنيتك أكمؤا وعساقلا		ولقد نهيتك عن بنات الأوبر

حيث كان في الأصل جنيت لك، ويبدو لي أن حذف اللام هنا من بديع بلاغة القرآن، حيث إن اللام توحي بالفائدة والنفع، في حين أنه لا منفعة لمن يكال لهم لأنهم يخسرونهم.

والتطفيف في المكيال والميزان كان شائعا -حسب التواريخ- في يثرب قبل هجرة النبي ﷺ، وكانت هذه السورة أول سورة نزلت على قلب النبي ﷺ في المدينة، وأثرت فيهم أثرا بالغا فأقلعوا عن هذه العادة وأصبحوا من أحسن الناس مكيالا، هكذا روي عن ابن عباس، حيث أضاف: «فلما نزلت هذه السورة انتهوا فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا»[1]. وقد حاربت رسالات الله الفساد الاقتصادي في المجتمع بكل ألوانه، والتطفيف واحد من أسوأ أنواع هذا الفساد. وقد حكى ربنا عن شعيب عليه السلام قوله: ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣]. ولكن هل الفساد الاقتصادي خاص بالتطفيف في الوزن والمكيال أم أنهما مجرد مثلين لما هو أعم وأشمل؟ فالغش والاحتكار واستغلال طاقات الضعفاء، واستثمار ثروات البلاد المتخلفة، والابتزاز وسائر أساليب الكسب اللامشروع كل تلك من ألوان الفساد الاقتصادي. ثم إن التطفيف في الميزان لا يخص الجانب الاقتصادي، بل يتسع للجوانب السياسية والاجتماعية أيضا، فلا يجوز أن تطالب الناس بكامل حقك، ثم إذا طالبوك بحقوقهم بخستهم. جاء في الحديث عن الصادق عليه السلام: «لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ مُطَالَبَةُ الْإِخْوَانِ بِالْإِنْصَافِ»[2]. لا بد أن نتعامل مع الناس بمثل ما تحب أن يتعاملوا معنا. إن أفضل ميزان للعدل هو أن تضع نفسك دائما في موضع الآخرين وتتساءل: ماذا كنت انتظر منهم لو كنت في موقعهم، هكذا هم ينتظرون وعلي أن أفي بحقهم. هكذا توالت نصوص الدين فلنتأمل بعضها:

١ - عن أبي عبد الله عليه السلام: «أَحِبُّوا لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّونَ لِأَنْفُسِكُمْ»[3].

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٢٩١.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٢٧.
(٣) الكافي: ج٢، ص٦٣٥.

٢- عن الصادق عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: وأَعْدَلُ النَّاسِ مَنْ رَضِيَ لِلنَّاسِ مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ وكَرِهَ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ»(١).

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما كتبه لمحمد بن أبي بكر: «وَأَحِبَّ لِعَامَّةِ رَعِيَّتِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ، وَاكْرَهْ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَوْجَبُ لِلْحُجَّةِ وَأَصْلَحُ لِلرَّعِيَّةِ»(٢).

٤- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَا نَاصَحَ اللهَ عَبْدٌ فِي نَفْسِهِ فَأَعْطَى الحَقَّ مِنْهَا وأَخَذَ الحَقَّ لَهَا إِلَّا أُعْطِيَ خَصْلَتَيْنِ: رِزْقاً مِنَ اللهِ يَسَعُهُ، ورِضًا عَنِ اللهِ يُغْنِيهِ»(٣).

٥- وجاء في نهج البلاغة في وصية أمير المؤمنين لابنه الحسن عليهما السلام: «يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَ غَيْرِكَ؛ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، واكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، ولَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، واسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، ولَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، ولَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ»(٤).

٦- ونختم حديثنا برواية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «خَمْسٌ بِخَمْسٍ: مَا نَقَضَ الْعَهْدَ قَوْمٌ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَمَا ظَهَرَ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَلَا طَفَّفُوا الْكَيْلَ إِلَّا مَنَعُوا النَّبَاتَ وَأَخَذُوا بِالسِّنِينَ، وَلَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا حُبِسَ عَنْهُمُ الْقَطْرُ»(٥).

[٤] من الذي يطفف؟ إنه الذي لا يعترف بالقيامة، حيث يقف أمام رب العالمين للحساب، فلو كان الواحد يظن مجرد ظن بذلك لما تجاوز حقه، واعتدى على حقوق الناس. ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ قال بعضهم: إن الظن هنا بمعناه المعروف وهو ضد اليقين، ذلك أن مجرد الظن بالبعث يكفي العاقل تحرزا واتقاء منه، ألا ترى أنك لا تسلك طريقا تظن الهلاك فيه، ولا تشرب ما تخشى أن يكون سُمًّا، وتحتاط من عمل تخاف منه الهلاك؟ وقال آخرون: بل الظن هنا بمعنى اليقين، لأن أصل معنى الظن ما يحدث في ذهن الإنسان من الشواهد الخارجية، فإن كانت تامة أحدثت يقينا وإلا أثارت الظن، من هنا يعبر عن اليقين

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٤، ص٣٩٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٣، ص٥٨٨.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٨٦.
(٤) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٣١١.
(٥) بحار الأنوار: ج٧٠ ص٣٧٠.

أيضا بالظن. وقد استشهدوا بالحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال في تفسير هذه الآية: «أَيْ يُوْقِنُونَ أَنَّهُمْ مَبْعُوْثُوْنَ»(١). وكذلك بالنص المروي عنه أيضا حيث يقول عليه السلام: «وَالظَّنُّ ظَنَّانِ ظَنُّ شَكٍّ وَ ظَنُّ يَقِينٍ فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ مِنَ الظَّنِّ فَهُوَ ظَنُّ يَقِينٍ وَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا فَهُوَ ظَنُّ شَك»(٢). ولعل الإمام يشير إلى حقيقة بينها الإمام الرضا عليه السلام بصيغة أخرى، حين قال: «مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَقِيناً لَا شَكَّ فِيهِ أَشْبَهَ بِشَكٍّ لَا يَقِينَ فِيهِ مِنَ الْمَوْتِ»(٣).

ذلك أن كل الحقائق تشهد بأن الإنسان ميت ولكنه لا يتصوره، لماذا؟ لأن مثل هذا التصور يفرض عليه الحذر والاتقاء، وهو لا يريد ذلك فيبقى حائرا بين شواهد علمية تكشف له حقيقة الموت، وأهواء نفسية تحجب عنه هذه الحقيقة، تماما كمن مني بهزيمة في المعركة يظل لفترة مترددا بين قبولها وفقا للمعلومات الصادقة أو رفضها استرسالا مع هواه وغروره. ويبدو أن الإيمان بالآخرة هو الآخر يصطدم بأهواء النفس وشهواتها، فتتحول إلى ظن لا لقلة الشواهد عليها بل لصعوبة التصديق بها.. والله العالم.

وقد سبق أن قلنا وبتكرار أن معنى الظن -فيما يبدو- هو: التصور، وفسرنا الآية التالية بذلك حيث قال ربنا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]. حيث إن تصور البعث وما يعقبه من القيام للحساب أمام رب العالمين يكفي الإنسان رادعا عن كل سيئة، وربما يوحي إلى ذلك قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الإيمان حيث سئل عنه فقال: «الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الصَّبْرِ والْيَقِينِ والْعَدْلِ والْجِهَادِ، والصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الشَّوْقِ والشَّفَقِ والزُّهْدِ والتَّرَقُّبِ، فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ ومَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ»(٤).

[٥] ثلاث حقائق متصلة ببعضها لو تمثلت أمام عين العاصي لارتدع واتقى: البعث والساعة، والقيامة. إن حياة الإنسان سجل، يطوى اليوم ويكتب فيه بقلم الطبيعة ما يفعله، فإذا نشر نشر معه سجله بالكامل، فيا للفضيحة الكبرى يومئذ! ثم الساعة وأشراطها يوم تبدل الأرض غير الأرض، وتطوى السماوات كطي السجل للكتب، فإذا لم يعمل اليوم لبلوغ الأمان من أهوالها فيا للخسارة العظمى! أما قيام الناس أمام رب العالمين فإنه رهيب عظيم، لا يسع الفكر تصور تلك اللحظة التي يتمثل هذا المخلوق المتناهي في الضعف والمسكنة أمام

(١) بحار الأنوار: ج٩٠ ص١١٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٢٦٧.
(٣) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٩٤.
(٤) الكافي: ج٢، ص٥٠.

جبار السماوات والأرض، أولم تقرأ أن إسرافيل أعظم ملائكة الله يتضاءل أمام هيبة الرب حتى يصبح كالوصع (العصفور) -كما ذكر في سورة التكوير آية ٢٣-، فمن أنا غير هذا العبد المسكين المستكين الضعيف الحقير أمام رب العزة والعظمة؟!.

هكذا يذكرنا القرآن بهذه الحقائق، فبعد أن يقول: ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ يذكرنا بالساعة فيقول: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ عظمت آثاره في السماوات والأرض حتى أشفقت منه، فلولا اتقاء أهواله بالعمل الصالح أنى نحصل فيه على أمان، والسماوات تنفطر والجبال تكون سرابا والأرض تزلزل زلزالها؟!.

[٦] وأعظم من كل تلك الأهوال قيام الناس أمام رب العالمين.. ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يكاد القلب البشري يتصدع حينما يحمله الله شيئا من نور عطفه وحنانه، فكيف يصمد هذا القلب أمام عقاب الله وزجره؟! جاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ: «فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ العَرَقُ كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ حِقْوَيْهِ، وَمِنْهِم مَنْ يَبْلُغُ صَدْرَهُ، وَمِنْهِمْ مَنْ يَبْلُغُ أُذُنَيْهِ حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ يَغِيبُ فِي رَشْحِهِ كَمَا يَغِيبُ الضِّفْدَعُ»[١]. بيد أن المؤمنين في أمان من أهوال القيامة، هكذا ورد في حديث مأثور عن النبي ﷺ «إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَنِ الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونُ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةِ المَكْتُوبَةِ، يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا»[٢].

وكلمة أخيرة: إن المؤمن ليقوم في الدنيا لله قياما يساعده في قيامه في الآخرة، أولم يأمره ربنا سبحانه بذلك حين قال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ..﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقال: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ [سبأ: ٤٦].

[٧] ولكن هؤلاء المجرمين لا يظنون ذلك حتى يأتيهم بغتة، ولذلك فإن كتابهم محفوظ في سجين، حيث لا يمكن تغييره، وهو كتاب واضح لا لبس فيه ولا تزوير. ﴿كَلَّآ﴾ يبدو أن معنى ﴿كَلَّآ﴾ في الأصل النفي المؤكد، كأن تقول: أبدا لا، ولكن تعطي في مثل هذا السياق معنى الردع والزجر، كما توحي بتأكيد الحقائق التي ذكرت آنفا، وكأنه نفي للتكذيب بها، ومن هنا قال بعضهم: إن معنى ﴿كَلَّآ﴾ هنا حقًّا، ونقل عن ابن عباس: أن معناه ألا تصدقون. ﴿إِنَّ كِتَـٰبَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ ما هو سجين؟ يبدو أنه مبالغة في السجن، أي المحل الذي لا تناله أيدي السرقة أو التزوير. فما هو الكتاب؟ بالرغم من أن هناك كتبا كثيرة تسجل فيها أعمال العباد، الأرض تكتب، والسماوات تصور، وأشياء الطبيعة تحفظ آثار العمل، وحتى أعضاء الجسد

(١) تفسير القرطبي: ج ١٩، ص٢٥٥.
(٢) المصدر السابق: ص٢٥٥.

تشهد، إلا أن الظاهر من الكتاب هو ما يسجل على الفرد من أقواله وأفعاله، وحتى نياته مما ذكره الله بقول: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

ثم يطوى هذا الكتاب، ويحفظ في خزانة محكمة هي سجين، فأين تقع هذه الخزانة؟ لقد حدد هذا النص التالي محلها: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ المَلَكَ يَرْفَعُ العَمَلَ لِلْعَبْدِ يَرَى أَنَّ فِي يَدَيْهِ مِنْهُ سُرُوراً، حَتَّى يَنْتَهِي إِلَى المِيقَاتِ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ لَهُ، فَيَضَعُ العَمَلَ فِيهِ فَيُنَادِيهِ الجَبَّارُ مِنْ فَوْقِهِ: ارْمِ بِمَا مَعَكَ فِي سِجِّينَ، وَسِجِّينٌ الأَرْضُ السَّابِعَةُ، فَيَقُولُ المَلَكُ: مَا رَفَعْتُ إِلَيْكَ إِلَّا حَقًّا، فَيَقُولُ: صَدَقْتَ، ارْمِ بِمَا مَعَكَ فِي سِجِّينٍ**»(١). وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**السِّجِّينُ الأَرْضُ السَّابِعَةُ، وَعِلِّيُّونَ السَّمَاءُ السَّابِعَةُ**»(٢).

وقال بعضهم: سجين: صخرة في الأرض السابعة، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: «**سِجِّينٌ جُبٌّ فِي جَهَنَّمَ، وَهُوَ مَفْتُوحٌ**»(٣)، وقال عكرمة: «سجين خسار وضلال»(٤)، كقولهم لمن سقط قدره: قد زلق بالحضيض.

ويبدو لي أن أصلها السجن كما ذكرنا، وإنما سائر التفاسير تحديد لموقع السجن أو ملابساته، لذلك قال أبو عبيدة(٥)، وغيره في تفسير الآية: لفي حبس وضيق شديد، فعيل من السجن كما يقول: فسيق وشريب.

[٨] وهناك افتراض آخر: أن يكون سجين اسما لتلك السجلات التي تحفظ الكتب، وأن يكون معنى الكتاب هنا ما يكتب من أعمال، فيكون المعنى هكذا: إن أعمال الفجار مكتوبة في سجين وهو كتاب مرقوم، ويؤيد هذا المعنى السياق التالي: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ وهذه الكلمة تأتي للإيحاء بعظمة ذلك الكتاب -حسب هذا المعنى- بلى، الكتاب الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، الكتاب الذي يسجل حتى أنفاس الخلق ووساوس أفئدتهم، ونيات أفعالهم، الكتاب الذي يحيط بكل أفعال الفجار أنى كانوا، وأنى عملوا. إنه كتاب عظيم.

[٩] ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ وهكذا تكون هذه الآية تفسيرا للآية السابقة: أي سجين كتاب مرقوم، كما قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١-٣]، والمرقوم بمعنى متجلٍ بوضوح، لأن أصل معنى

(١) الدر المنثور: ج ٦، ص٣٢٥.
(٢) نور الثقلين: ج ٥، ص٥٣٠.
(٣) تفسير القرطبي: ج١٩، ص٢٥٨.
(٤) الدر المنثور: ج٦، ص٣٢٥.
(٥) التبيان في تفسير القرآن: ج١٠، ص٢٩٨.

الرقم الكتابة الغليظة، وقيل: معناه مختوم، وقيل: مكتوب كالرقم في الثوب لا ينسى ولا يمحى، كل هذا التفسير قائم على أساس الافتراض بأن السجين اسم للكتاب المسجل، ويؤيده أن بعضهم قال: إن أصل سجين سجيل. أما في غير هذا الافتراض فيكون تفسير هذه الآية: إن الكتاب الذي هو في سجين كتاب مرقوم، لا تتشابه خطوطه ؛ لأنه كتاب واضح، والله العالم.

وينبغي أن نختم حديثنا عن السجين بحديث يفيض عبرة ونصحا، مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام في معنى السجين والأعمال، والأشخاص الذين يهوون إليه، قال عليه السلام: «مَرَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عليه السلام عَلَى قَرْيَةٍ قَدْ مَاتَ أَهْلُهَا وطَيْرُهَا ودَوَابُّهَا فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَمُوتُوا إِلَّا بِسَخْطَةٍ ولَوْ مَاتُوا مُتَفَرِّقِينَ لَتَدَافَنُوا. فَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ: يَا رُوحَ الله وكَلِمَتَهُ ادْعُ الله أَنْ يُحْيِيَهُمْ لَنَا فَيُخْبِرُونَا مَا كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فَنَجْتَنِبَهَا، فَدَعَا عِيسَى عليه السلام رَبَّهُ، فَنُودِيَ مِنَ الْجَوِّ أَنْ نَادِهِمْ، فَقَامَ عِيسَى عليه السلام بِاللَّيْلِ عَلَى شَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ، فَأَجَابَهُ مِنْهُمْ مُجِيبٌ: لَبَّيْكَ يَا رُوحَ الله وكَلِمَتَهُ.

فَقَالَ: وَيْحَكُمْ مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ؟ قَالَ: عِبَادَةُ الطَّاغُوتِ وحُبُّ الدُّنْيَا مَعَ خَوْفٍ قَلِيلٍ وأَمَلٍ بَعِيدٍ وغَفْلَةٍ فِي لَهْوٍ ولَعِبٍ، فَقَالَ: كَيْفَ كَانَ حُبُّكُمْ لِلدُّنْيَا؟ قَالَ: كَحُبِّ الصَّبِيِّ لِأُمِّهِ، إِذَا أَقْبَلَتْ عَلَيْنَا فَرِحْنَا وسُرِرْنَا وإِذَا أَدْبَرَتْ عَنَّا بَكَيْنَا وحَزِنَّا، قَالَ: كَيْفَ كَانَتْ عِبَادَتُكُمْ لِلطَّاغُوتِ؟. قَالَ: الطَّاعَةُ لِأَهْلِ الْمَعَاصِي، قَالَ: كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِكُمْ؟ قَالَ: بِتْنَا لَيْلَةً فِي عَافِيَةٍ وأَصْبَحْنَا فِي الْهَاوِيَةِ، فَقَالَ: ومَا الْهَاوِيَةُ؟ فَقَالَ: سِجِّينٌ، قَالَ: ومَا سِجِّينٌ؟ قَالَ: جِبَالٌ مِنْ جَمْرٍ تُوقَدُ عَلَيْنَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»(١).

[١٠] يتلقى الجاهل الموقف الصعب بتكذيبه، ويزعم أنه لو دفن رأسه في التراب فإن الآخرين لا يرونه، كلا.. إن الشمس لا تتلاشى إذا أغلقت نافذة غرفتك عنها، كذلك حقيقة المسؤولية لا تنهار إذا أنكرتها، بل كلما جحد الجاهل المسؤولية بنبرة أقوى وصلافة أشد ازداد بعدا عن تحملها وقربا من العذاب، ذلك أن التكذيب جريمة، كما أنه علة لسائر الجرائم، وتبلو عاقبة التكذيب عند قيام الساعة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

[١١] هكذا القرآن يغلق أمام النفس أبواب التبرير لعلها تعي المسؤولية وتتحملها، وأعظم التبرير التكذيب، ولا سيما التكذيب بيوم الدين الذي يهدم أساس الفكر ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ لهؤلاء الويل واللعنة والثبور لمجرد تكذيبهم، فكيف بسائر الجرائم التي ارتكبوها؟!.

(١) الكافي: ج٢، ص٣١٨.

[١٢] ولكن لماذا يكذبون بيوم الدين؟ هل لنقص في شواهده؟ كلا.. بل لقرار اتخذوه حاليًّا، وجرائم ارتكبوها سابقا، أما قرارهم فهو الاستمرار في الاعتداء على حقوق الآخرين، والتواصل في ارتكاب الإثم. ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ إنهم الفجار الذين لم يلتزموا لا بحقوق الآخرين فاعتدوا عليها وأكلوا أموال الناس بالباطل، ولا بحق الله عليهم فأثموا وارتكبوا الفواحش.

[١٣] ويقارن التكذيب في ألسنة هؤلاء -البذيئة- بالاستهزاء، ومحاولة حرف الآخرين عن آيات الله، فتراهم إذا تتلى عليهم آيات الله رموها بالرجعية، وزعموا أنها: ليست سوى الخرافات السابقة. ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ يبدو أن الذين يتلون عليهم هذه الآيات هم الدعاة إلى الله، والآيات تهديهم إلى الله ورسالاته وشرائعه، ولكنهم ينكرونها رأسا دون أن يتفكروا قليلا، خشية أن يتأثروا بها، فيفقدوا نعيمهم الزائل، وموقعهم الزائف القائم على الإثم والعدوان، ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ولعل مرادهم من هذا الحديث بيان أنهم لن يتأثروا بها مستقبلا، كما أنهم لم ينتفعوا بها سابقا، ذلك لأنها مجرد تكرار لدعوات سابقة، وهذه الآية نظير قولهم كما في آية أخرى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥].

[١٤] لماذا يقف بعض الناس موقف الجاحد المعاند وبهذه الدرجة من آيات الله البينات، أولا يحبون أنفسهم، أولا يحكم العقل بضرورة الاستماع إلى النذير فلعله يكون صادقا فيقعون في خطر عظيم؟! يجيب السياق عن هذا التساؤل: بأن للذنب أثرا سيئا على القلب البشري، وكلما تراكمت الذنوب تراكمت آثارها. ﴿كَلَّا﴾ ليست أساطير الأولين، بل إنها حقائق من عند الله. ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ قالوا: «ران بمعنى غلب»[١]، واستشهدوا على ذلك باستخدام مفرداته، مثل: رانت به الخمرة، وران عليهم النعاس، ويقال: «قد رين بالرجل رينا إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه»، ولكن -يبدو لي- أن الأصل في الرين الصدأ، وهو الغلالة الخفيفة التي تحيط بالحديدة وما أشبه وتدل على فسادها. ولعل الفارق بينه وبين الصدأ أن الصدأ قد يكون في جزء، في حين أن الرين يستخدم إذا أحاط الصدأ بالقلب تماما، لذلك قال بعضهم: الرين أن يسود القلب من الذنوب، ونقل عن ابن عباس: «ران على قلوبهم بمعنى غطّى على قلوبهم»[٢].

ولكن كيف يرين الذنب على القلب؟ أن في قلب الإنسان قوى تتنازعه، وإرادة الإنسان

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٢٩٣.
(٢) التفسير الكبير: ج٣١، ص٩٤.

فوقها، فإذا استسلم الإنسان لقوة الشهوات ضعفت إرادته، وكسف نور عقله، فلا يزال كذلك حتى يخبو عقله، وتنهار إرادته فيسترسل كليا مع الشهوات، ومن جهة أخرى: عندما يرتكب البشر جريمة أو ذنبا يتهرب من وخز ضميره بتبريرهما، ولا يزال يبرر لنفسه ما يرتكبه حتى يقتنع بذلك التبرير، بل يتحول عنده إلى ثقافة متكاملة، فلا يكاد يعرف الحقيقة، ومن جهة ثالثة: الخير عادة والشر عادة، ومن عوَّد نفسه على الشر كيَّف سلوكه وسائر تصرفاته مع تلك العادة، وكان كدودة القز تنسج حول نفسها ما يقتلها.. أرأيت الذي يكتسب الحرام، إما بالسرقة أو الغش أو التطفيف أو التعاون مع الظالمين أو العمل كجاسوس محترف للطغاة أو الأجانب، أرأيته يتخلص من هذه المهنة وقد كيف نفسه معها، واعتمد عليها في رزقه اليومي؟!.

لذلك ينبغي للرشيد ألا يتبع الشيطان منذ الخطوة الأولى، ولا يرتكب حتى الذنب الأول، وإذا مر به طائف من الشيطان فخدعه عن دينه، وارتكب ذنبا فعليه أن يتوب عن قريب، ولا يتابع مسيرة الذنب ؛ فإن الذنب بعد الذنب يفسد القلب، ويبعد عن الإنسان توفيق التوبة. هكذا روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**مَا شَيْءٌ أَفْسَدَ لِلْقَلْبِ مِنَ الْخَطِيئَةِ إِنَّ الْقَلْبَ لَيُوَاقِعُ الْخَطِيئَةَ فَمَا تَزَالُ بِهِ حَتَّى تَغْلِبَ عَلَيْهِ فَيَصِيرَ أَسْفَلُهُ أَعْلاهُ وأَعْلاهُ أَسْفَلَهُ**»[١] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَودَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ مِنْهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ فَذَلِكَ الرَّيْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**»[٢]. من هنا ينبغي التوبة إلى الله في كل يوم بل وفي كل ساعة حتى يمحى أثر الذنوب التي لازلنا نمارسها قبل أن تترسخ في القلب فتفسده، كما ينبغي التلاقي والتواصي بالحق والصبر، والتناصح حتى تجلى الأفئدة من رينها، هكذا أوصانا رسول الله صلى الله عليه وآله فيما روي عنه أنه قال: «**تَذَاكَرُوا وتَلَاقَوْا وتَحَدَّثُوا فَإِنَّ الْحَدِيثَ جِلَاءٌ لِلْقُلُوبِ، إِنَّ الْقُلُوبَ لَتَرِينُ كَمَا يَرِينُ السَّيْفُ جِلَاؤُهَا الْحَدِيثُ**»[٣].

[١٥] هذه القلوب التي ترين بالذنب لا تتشرف بلقاء ربها يوم القيامة، ذلك أن هذه الذنوب تصبح حجبا كثيفة تمنع عنه أنوار الله البهية. ﴿**كَلَّآ**﴾ فليرتدعوا عن الاسترسال مع الذنوب وما يسبب لهم رين القلب ؛ لأن لذلك عاقبة سوأى، وهي: ﴿**إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ لقد حجبهم الذنب عن رحمة الله وعطفه ورعايته، كما حجبهم الذنب عن نور لقائه ومشاهدته بحقيقة الإيمان، أليس أعظم نعم الله على المؤمن رضاه عنه ومناجاته له، ولقاء قلبه بنوره؟ إن هذا لهو النعيم المقيم الذي يسعى إليه المؤمن، إنه أعظم جائزة يتوقعها من ربه، فقد جاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «**وَاللهِ إِنَّ أَرْوَاحَنَا وَ أَرْوَاحَ النَّبِيِّينَ لَتُوَافِي الْعَرْشَ**

(١) مستدرك الوسائل: ج١١، ص٣٢٨.
(٢) روضة الواعظين: ج٢ ص ٤١٤.
(٣) الكافي ج١، ص٤١.

كُلَّ لَيْلَةِ جُمُعَةٍ فَمَا تَرِدُ فِي أَبْدَانِنَا إِلَّا بِجَمٍّ الْغَفِيرِ مِنَ الْعِلْمِ»[(١)]. وقد عبر الإمام زين العابدين عليه السلام عن هذا اللقاء العاصف بالشوق والوله بين العبد والرب بقوله في مناجاته: «فَقَدِ انْقَطَعَتْ إِلَيْكَ هِمَّتِي وَ انْصَرَفَتْ نَحْوَكَ رَغْبَتِي، فَأَنْتَ لَا غَيْرُكَ مُرَادِي، وَلَكَ لَا لِسِوَاكَ سَهَرِي وَسُهَادِي، وَلِقَاؤُكَ قُرَّةُ عَيْنِي، وَوَصْلُكَ مُنَى نَفْسِي، وَإِلَيْكَ شَوْقِي، وَفِي مَحَبَّتِكَ وَلَهِي، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي، وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرُؤْيَتُكَ حَاجَتِي، وَجِوَارُكَ طَلِبَتِي، وَقُرْبُكَ غَايَةُ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ أُنْسِي وَرَاحَتِي، وَعِنْدَكَ دَوَاءُ عِلَّتِي وَشِفَاءُ غُلَّتِي وَبَرْدُ لَوْعَتِي وَكَشْفُ كُرْبَتِي.. إلى أن يقول: وَلَا تُبْعِدْنِي مِنْكَ يَا نَعِيمِي وَجَنَّتِي، وَيَا دُنْيَايَ وَآخِرَتِي، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»[(٢)]. وإذا كان لقاء الله أعظم نعم المؤمنين فإن حرمان الفجار منه يعد أعظم عذاب لهم، ولا يعرفون عمق هذه المأساة إلا في يوم القيامة، لذلك ترى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يجأر إلى ربه خشية فراقه ويقول: «فَهَبْنِي يَا إِلَهِي وَسَيِّدِي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ، وَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلَى حَرِّ نَارِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلَى كَرَامَتِكَ»[(٣)].

[١٦] والعذاب الآخر تصلية النار، فلا حجاب بينهم وبينها، ولا ستر، أوليسوا لم يستروا أنفسهم منها في دار الدنيا، ولم يتقوا حرها ولهيبها؟! فهاهم اليوم يصلونها ويذوقون مسها مباشرة ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾. أما المؤمنون فقد تزودوا من الدنيا بزاد التقوى فسترهم عن النار في الآخرة كما استتروا بها عن الذنوب في الدنيا ؛ لأنهم عرفوا أن الذنوب تصحبهم من هناك إلى هناك، حيث تتحول نيرانا لاهبة، وحيات وعقارب وظلمات وآلاما، فتحصنوا عنها بحصن التقوى.

[١٧] أما العذاب الثالث فهو الإذلال والتحقير والإهانة والتبكيت أوليسوا قد استهزؤوا بالرسالات، وقالوا: إن هي إلا أساطير الأولين، فاليوم يُشمت بهم حتى يذوقوا العذاب الروحي الذي كانوا يُذيقونه الدعاة إلى الله بتكذيبهم والاستهزاء بهم ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص١٥٢.
(٢) الصحيفة السجادية: مناجاة المريدين.
(٣) البلد الأمين: ص١٩٠، من دعاء كميل لأمير المؤمنين عليه السلام.

هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ
﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن
رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ
﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا
كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

(الفجوة بين الجنة والنار تكاد تكون غير متناهية، وبذات النسبة تكون المسافة بين الأبرار والفجار. وهكذا فمصير الإنسان خطير ومسئوليته عظيمة).

كلا (لا تشك فأنها الحق)؛ إن كتاب الأبرار (الذين لا يبخسون الناس أشياءهم) لفي عليين (انه مقام رفيع فيه) كتاب مرقوم (فلا تختلط فيه الأوراق) يشهده (يجيزونه) المقربون، (لأنهم -أي الأبرار- في الدنيا وفروا شرط الولاية لأعمالهم فقبلت).

(والسؤال أين يستقر الأبرار) إن الأبرار يحيط بهم النعيم (وهم في مكان رفيع يجلسون) على الأرائك ينظرون (وينتظرون رحمة ربهم) تعرف في وجوههم نضرة النعيم (مما تدل على

عظيم النعمة التي تحيط بهم) ومن النعم المحيطة بهم يسقون من رحيق مختوم.

(ولا يشترك معهم غيرهم لما عليه من ختم) ختامه مسك (فشرابه طيب ورائحته طيبة) ومزاجه من تسنيم (وهو عين يختص بالمقربين) عيناً يشرب بها المقربون (ولعل ذلك الشراب جزاء ولايتهم لأولئك المقربين).

(وكانت الدنيا بعكس الآخرة حيث كان المجرمون يضحكون من الذين آمنوا و يتغامزون فيها بينهم استهزاءً بهم) وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين (فهم في الدنيا في أمن ظاهر وفرح ومرح) أما في الآخرة فالأمر مختلف بل ينعكس إذ المؤمنون سوف يجلسون ويتفرجون على مصير الكفار.

بينات من الآيات:

[١٨] من هم الأبرار؟ إنهم الذين كان البر صبغة حياتهم، ويبدو من مقابلة كلمة الأبرار لكلمة الفجار أن المراد من البر الذي يتبع سبيل المعروف ولا يتجاوزه، وأن كتاب هؤلاء ومجمل أعمالهم محفوظ عند الله في مقام عليّ، حيث يجتمع المقربون. ﴿كَلَّآ﴾ لا تكذب بيوم الدين، بل اجتهد حتى تصبح من الأبرار. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ وهو ديوان أعمالهم، أو ذات أعمالهم محفوظة عند الله ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، قالوا: الكلمة هذه جاءت بصيغة الجمع ولا واحد لها من لفظها مثل ثلاثين وعشرين، وقال بعضهم: بل إنها من عليّ وهو فعيل من العلو، ثم قالوا: معنى جمع هذه الكلمة والعلو والارتفاع بعد الارتفاع، كأنها أعلى الأعالي، وقمة القمم، فأين هذا المقام؟ جاء في حديث مأثور عن النبي ﷺ أنه قال: «**فِي عِلِّيِّينَ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ**»[١] وروي عنه ﷺ أيضا أنه قال: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَرَونَ أَهْلَ عِلِّيين كَمَا يُرَى الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ**»[٢]. وقال بعضهم: إنه عند سدرة المنتهى. وأنى كان فإنه مقام كريم، يتواجد فيه المقربون، وهم النبيون والصديقون والخلص من أولياء الله. وإنما يصعد العمل إلى هذا المقام الكريم إذا كان صالحا خالصا لوجه الله حسب الحديث التالي: روي عن الإمام الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ الْمَلَكَ لَيَصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ فَإِذَا صَعِدَ بِحَسَنَاتِهِ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: اجْعَلُوهَا فِي سِجِّينٍ إِنَّهُ لَيْسَ إِيَّايَ أَرَادَ بِهَا**»[٣].

[١٩] أين هذا المقام الأسمى، وماذا يجري فيه، وكيف يتواجد فيه المقربون؟ وأين

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٥١.
(٢) المصدر السابق: ص٥٢.
(٣) الكافي: ج٢، ص٢٩٤.

توضع أعمال الأبرار منه؟ إن معرفتنا بهذه الحقائق محدودة لأنها فوق مستوانا نحن البشر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾، يرى المفسرون في مثل هذا الخطاب: أنه موجه إلى شخص الرسول ﷺ. ولكن يبدو لي أنه موجه إلى كل تال للقرآن ؛ فإن القرآن نزل على الرسول ولكن للناس جميعا، وأمر الناس بتلاوته والتدبر في آياته، وفي خطابات لهم جميعا، كقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أو للمؤمنين وحدهم، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وقد جاء في الحديث: عن الصادق عليه السلام: «نَزَلَ الْقُرْآنُ بِإِيَّاكِ أَعْنِي واسْمَعِي يَا جَارَةُ»(١). فهذه الآية لا تدل على أن النبي ﷺ لم يكن يعرف ما العليون، كيف وقد فسره لنا، بل إن هذه الجملة لا تدل على نفي العلم بهذا المقام بقدر دلالتها على أنه مقام عظيم، والله العالم.

[٢٠] في ذلك المقام الشامخ يوجد: ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ قالوا: إن هذه الجملة بيان لكتاب الأبرار، وأنه كتاب مرقوم واضح لا لبس فيه، ويحتمل أن تكون الجملة تفسير للعليين، باعتبار أن الكتاب هو الأعلى والأسمى، لما يحمل من صالح الأعمال، والله العالم.

[٢١] والمقربون عباد الله شهود عند ذلك الكتاب الكريم، فيستبشرون به، ويستغفرون للصالحين لينالوا المزيد من الحسنات ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، إن مجرد حضور المقربين عند الكتاب كرامة وشهادة منهم عليه، ولذلك فإن الشهادة هنا تأتي بمعنى الحضور والتقرير بشأن صحائف الأعمال وإجازتها، أما المقربون فهم -حسب الآية التالية- طائفة من البشر يأكلون ويشربون، وهم الذين ذكرتهم آيات سورة الواقعة ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[الواقعة: ١٠-١١] وقد بيّن القرآن شهادتهم بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]. وقال بعضهم: «إنهم الملائكة المقربون»، وقيل: «إسرافيل عليه السلام خاصة»، بيد أن التفسير الأول أقرب إلى السياق، وهو يوحي بكرامة المقربين عند ربهم، حيث جعلهم شهودا على كتاب الصالحين.

[٢٢] الكتاب مظهر بارز لمسؤولية الإنسان عن أفعاله، أما المظهر الأجلى فإنه النعيم المقيم للأبرار، والجحيم الأليم للفجار. ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ تحيط بهم آلاء الله، قالوا: لأن كلمة ﴿نَعِيمٍ﴾ جاءت بصيغة فعيل (صفة مشبهة) فإنها تفيد الاستمرار، ولأنها جاءت نكرة فهي تفيد الكثرة والتنوع، ويبدو أن التعبير بـ ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ هو الآخر يدل على الكثرة والتنوع.

[٢٣] لأن الإنسان روح وجسد فإن روحه تتطلع إلى لذات خاصة بها بعد أن يتشبع الجسد بالنعم، فما هي لذة الروح في الجنة؟ يبدو أنها تتمثل في مجالس المؤانسة والمعرفة، فالحديث

(١) الكافي: ج٢، ص٦٣٠.

مع الإخوة الأصفياء يعطي النفس لذة عظيمة، كما أن العلم غذاء شهي للروح والعقل. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ جلوسهم على الأرائك مع إخوانهم المتقابلين لذة للنفس، ونظرهم إلى خلق الله وتجليات رحمته وقدرته لذة للعقل، وروي عن النبي ﷺ: «يَنْظُرُونَ إِلَى أَعْدَائِهِمْ فِي النَّارِ»[1]. قالوا: «الأرائك جمع أريكة، أي السرير»، وقيل: «أصلها فارسية»، وقيل: «إنها مشتقة من اسم شجرة يسمى بـ (أراكة)».

[٢٤] عندما يصفو عيش المرء من الأكدار، وقلبه من الضغائن والطمع والحرص، يتلألأ وجهه بآثار النعم، كما يزهر النبات ويتنور، كذلك أهل الجنة تفيض على وجوههم الجميلة آثار النعم نضارة ونورا. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ ولعل التعبير بـ ﴿تَعْرِفُ﴾ يوحي بأنك تعرف مدى النعيم الذي هم مستقرون فيه بنظرة إلى وجوههم، ومدى نضارتها؛ فإن النضارة درجات وأنواع، وهي تعكس ما وراءها من عوامل النعيم ودرجاتها.

[٢٥] وجلسات الإنس لا تكتمل إلا بشراب يزيدهم نشاطا وسرورا ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾، قالوا: «الرحيق: صفوة الخمر»، وقال بعضهم: «إنها الخمرة العتيقة البيضاء الصافية من الغش النيرة، وأما المختوم فإنه يوحي بكرامة الشارب ألَّا تسبق إلى الشراب يد غيره».

[٢٦] وإذا كان ختم الشراب عادة قطعة طين لازب، فإن ختم رحيق الجنة المسك الأذفر ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ فيزيده عطرا وجمالا، ولنا أن نتصور آماد هذه النعم فنسعى إليها بكل همة ونشاط ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ في ضمير الإنسان نزعة راسخة تدعوه إلى التسابق والتقدم على الآخرين، وكثير منا يستثير هذه النزعة الفطرية في التسابق على الدنيا ونعيمها الزائل، بينما العقل يهدينا إلى أن التنافس ينبغي أن يكون على المكرمات والجنة، والآية هذه واحدة من عدة آيات قرآنية تستثير هذه النزعة المباركة في الطريق القويم، وهو التسارع إلى الخيرات، والتنافس في المكرمات، قال ربنا سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وإذا كان الإنسان يتنافس على شيء، فإن أفضل ما يتنافس عليه ذلك الرحيق المختوم، الذي يأتي مكملا لسلسلة من النعم المتواصلة، ولعل هذا هو السر في ذكر هذه الجملة عند بيان

---

(١) تفسير القرطبي: ج١٩، ص٢٦٤.

هذه النعمة، لأنها مكملة لسائر النعم، أو لبيان عظمة هذه النعمة وما فيها من لذة عظيمة لا تقاس بسائر اللذات حتى لذات الآخرة ونعيمها، أو لأن من آداب الشرب عند أهله في الدنيا تنازع الكؤوس بينهم وتنافسهم فيها. وأنى كان فإن التنافس في الرحيق المختوم في ذلك اليوم يتم اليوم في الدنيا بالتسارع في الخيرات، والتنافس فيها، وقد جاء في الأثر أن ترك الخمر في الدنيا ثمن الرحيق المختوم في الآخرة، كما أن ثواب سقاية المؤمن وإطعامه هو الرحيق المختوم.

جاء في وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام أنه قال: «**يَا عَلِيُّ مَنْ تَرَكَ الْخَمْرَ لِغَيْرِ اللهِ سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ. فَقَالَ عَلِيٌّ** عليه السلام: **لِغَيْرِ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. واللهِ صِيَانَةً لِنَفْسِهِ يَشْكُرُهُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ**»[1]. وروي عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «**مَنْ أَطْعَمَ مُؤْمِناً مِنْ جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ ومَنْ سَقَى مُؤْمِناً مِنْ ظَمَإٍ سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ**»[2]. وروي: «**مَنْ صَامَ للهِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ سَقَاهُ اللهُ عَلَى الظَّمَإِ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ**»[3].

[٢٧] قيل: إن في الجنة عينا تجري في الهواء ثم تصب في كؤوس الأبرار، وقالوا: إنها تجري من تحت العرش وتسمى بالتسنيم، لأنها في أعلى الجنة، وهي شراب المقربين خالصا، ويضاف شيء منه إلى شراب الأبرار فيعطيه نكهة خاصة ليس فقط لأنه عظيم اللذة، بل ربما أيضا لأن فيه أثرا من روح المقربين وريحهم، وعبق درجاتهم المتسامية، وقالوا: إنه أشرف شراب في الجنة، قال الله سبحانه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قال الرازي: «تسنيم عَلَم لعين بعينها في الجنة، سميت بالتسنيم الذي هو مصدر سنمه إذا رفعه، إما لأنها أرفع شراب في الجنة، أو لأنها تأتيهم من فوق على ما روي: أنها تجري في الهواء مسنمة فتنصب في أوانيهم، وإما لأنها لأجل كثرة مائها وسرعته تعلو على كل شيء تمر به وهو تسنيمه، وإما لأنها عند الجري يرى فيه ارتفاع وانخفاض فهو التسنيم أيضا، وذلك لأن أصل هذه الكلمة للعلو والارتفاع ومنه سنام البعير، وتسنمت الحائط إذا علوته»[4]. وقال بعضهم: «إن كل عين تجري من الأعالي تسمى بالتسنيم»، وبالرغم من أن هذا أقرب المعاني إلى سياق الآية إلا إني لم أجد مصدراً لغويًّا يُصَرِّح بذلك وإن كان مساق التحليل اللغوي يؤيد ذلك.

[٢٨] وللجنة درجات تتعالى حتى تتصل بعرش الله، فعنده جنات عدن حيث منازل المقربين من عباده الأنبياء والصديقين، وقد بينت سورة الواقعة جانبا من الفرق بين درجات المقربين السابقين ودرجات أصحاب اليمين، وفي هذه السورة إشارة إلى جانب منه، حيث إن

---

(١) الكافي: ج٦، ص٤٣٠.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٠١.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١١٤.
(٤) التفسير الكبير: ج٣١، ص١٠٠.

مزاج شراب الأبرار التسنيم، بينما يرتوي منه المقربون، فهو شرابهم الخالص، و﴿بِهَا﴾ لتأكيد معنى الارتواء. ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ولعل في شراب التسنيم آثار معنوية، حيث يكسب شاربه قربا إلى الله ورضوانا، وهكذا خمرة الجنة تزيد العقل، وتنشط الفكرة، وتلهم الروح إيمانا وعرفانا، فأين هي من خمرة الدنيا التي تزيل العقل، وتخمل الفكر، وتبعد الروح من مقام ربها؟!.

[٢٩] تلك كانت مجالس الإنس والمصافاة، وشرب الرحيق والسلسل؛ يجازي الرب بها عباده الذين عانوا الآلام الروحية، فكم ضحك منهم المجرمون وكم تفاخروا، وكم سرقوا منهم لقمة العيش فتفكهوا بها وتركوهم يتضورون جوعا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ ذكروا في تنزيل الآية سببين:

الأول: أن المجرمين هم أكابر قريش كانوا يضحكون من عمار وصهيب وبلال وغيرهم من فقراء المسلمين ويستهزئون بهم.

الثاني: أنه: «جاء علي عليه السلام في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتفاخروا، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا رأينا اليوم الأصلع، فضحكوا منه، فنزلت هذه الآية قبل أن يصل علي عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله»[1]. والظاهر أن سبب النزول الثاني أقوى لأن السورة مدنية.

[٣٠] أول شهادة تسجل ضد المجرم هي شهادة ضميره الذي لا يني يلومه ويؤنبه على جريمته، لذلك تراه يسعى جاهدا للتخلص منه فماذا يفعل؟ إنه ينتقم من أهل الصلاح وينتقص منهم ويستهزئ بهم لعله يخفف من وطأة اللوم الذي يتعرض له داخليًا. كلا... إنه يزداد وخزا وألما لأن الاستهزاء بالمؤمنين جريمة أخرى ارتكبها واستحق عليها لوم ضميره، وهكذا يزداد استهزاء وسخرية دون أية فائدة. ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي يشيرون إليهم بأعينهم وأيديهم استهزاء، وقيل: الغمز بمعنى العيب. والله يدري كم تكون جراحة اللسان أليمة بالنسبة إلى المؤمن الشريف الذي لا يزال يجتهد من أجل تزكية نفسه. وإذا كان الغمز في الجاهلية بالعين واليد فإنه أصبح اليوم بالأقلام والأفلام وسائر وسائل التشهير التي امتلكها أعداء الإنسان، أعداء الله والدين، وإن صمود المجاهدين اليوم أمام هذه الدعايات المضللة يزيدهم عند الله أجرا وزلفا، لأنهم يصبرون على أذى عظيم، وآلام نفسية لا تحتمل.

[٣١] وبينما يعيش المؤمنون والمجاهدون أشد حالات الألم والخوف وتنتفض أطفالهم

---

(١) التفسير الكبير: ج ٣١، ص١٠١.

ونساؤهم في المخابئ والمهاجر خشية مداهمة جنود إبليس المعسعسين ترى المجرمين ينقلبون إلى بيوتهم في أمن ظاهر، يتبادلون نخب الانتصارات الزائفة، ويرتادون مجالس اللهو والعربدة. ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ قالوا: أي معجبين بما هم عليه من الكفر، متفكهين بذكر المؤمنين، ولعل المراد من الأهل هنا أصحابهم وأهل مؤانستهم.

[٣٢] ويحاول أعداء الرسالة إلصاق تهمة الضلالة إلى المؤمنين لعلهم يعزلونهم عن المجتمع ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، ويبدو أن هدف هذه التهمة إثارة حساسية الناس ضدهم، لأنهم يخالفون الخرافات الشائعة التي ينصب المجرمون أنفسهم مدافعين عنها، في حين يسعى المؤمنون نحو إنقاذ المجتمع من ويلاتها.

[٣٣] وهؤلاء المجرمون الذين هم عادة أصحاب الثروة والقوة والجاه العريض يزعمون أنهم الموكلون بأمر الناس فتراهم يوزعون التهم يمينا ويسارا، في حين أنهم بشر كسائر الناس لم يجعل لهم ميزة وسلطانا على أحد ﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ بل كل امرئ مسؤول عن نفسه، وبهذه الكلمة الحاسمة سلب القرآن الشرعية المزيفة التي تدعيها السلطات والمترفون لتسلطهم على الناس. كلا.. السلطة إنما هي لله ولمن يخوله الله، أما أولئك المجرمون فإنهم غاصبون، وأن على المؤمنين ألّا يأبهوا بأحكامهم الجائرة عليهم، لأنه لا شرعية لها أبدا.

[٣٤] بسبب تلك المعاناة الشديدة والآلام المبرحة التي ذاقها المؤمنون المجاهدون في سبيل الله من أيدي المجرمين تنقلب الصورة تماما في يوم الجزاء ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، قال بعضهم: «إنه يفتح للكفار في أطراف النار باب إلى الجنة، فإذا سعوا إليها ووصلوه بعد عناء عظيم أغلق دونهم فيثير ذلك ضحك المؤمنين عليهم»[١].

[٣٥] والمؤمنون جالسون على الأرائك فرحين بما آتاهم الله، وينظرون إلى ما يجري هناك في نار جهنم ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾.

[٣٦] ماذا ينظرون؟ إنهم ينظرون إلى مجريات جزاء الكفار اليومية، وعقابهم المتتابع الذي يتصل بجرائمهم المتتالية في الدنيا. ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي ينظرون لكي يروا هل أنهم ثوبوا وجوزوا؟ وبالطبع: إنهم يجدون هذا الجزاء لحظة بلحظة، ولا ينتهي جزاؤهم لأنه مستمر، ذلك أن كل فعلة خاطئة قاموا بها تجازى بمئات السنين، فيستمر النظر ويستمر الجزاء. أعاذنا الله من مثل هذه العاقبة السوأى، وجعلنا من أهل جنته ورضوانه. آمين.

(١) مجمع البيان: ج١، ص١٠٩.

سُورَةُ الانشِقَاق

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٢٥.

* ترتيبها النزولي: ٨٣.

* ترتيبها في المصحف: ٨٤.

* نزلت بعد سورة الإنفطار.

فضل السورة

عَنْهُ صلى الله عليه وآله قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿انْشَقَّتْ﴾ أَعَاذَهُ اللهُ أَنْ يُعْطِيَهُ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٥٧).

***

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ وجَعَلَهُمَا نُصْبَ عَيْنِهِ فِي صَلَاتِهِ الْفَرِيضَةِ والنَّافِلَةِ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ لَمْ يَحْجُبْهُ مِنَ اللهِ حَاجِبٌ ولَمْ يَحْجُزْهُ مِنَ اللهِ حَاجِزٌ ولَمْ يَزَلْ يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٣).

الإطار العام

دعوة لإصلاح النفس

قبسان من نور تشع بهما سورة الانشقاق:

١- قبس يرشه على واقع الإنسان عسى أن يعرف نفسه ويضعها في المقام الأسمى الذي خُلِقَت له. فالإنسان كادح إلى ربه كدحاً فملاقيه.. وهو يركب بالتأكيد طبقاً عن طبق.

فهو إذن ذلك الإنسان المسؤول الذي سُخِّرت له الأرض وأجرام السماوات العلى، وأمامه عقبات كأداء لابد أن يتحداها حتى يصل إلى دار المقامة عند رب العزة، وإلا فيكون من أصحاب الشمال، يؤتى كتابه وراء ظهره، ويساق إلى جهنم ليصلى سعيراً. (الآيات:١-١٥).

٢- قبس يضيء به الطبيعة.. إنها خليقة الله، وتستجيب لمشيئته النافذة؛ فالسماء حين تنشق، والأرض حين تمتد، تأذنان لربهما العظيم، وحق لهما ذلك، أوليستا مخلوقتين! ويلتقي شعاع هذا القبس بذلك عندما يستنكر السياق كفر هذا الإنسان، فما لهم لا يؤمنون، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون؟ أولم يُخلقوا كما خُلِقت السماوات والأرض، أهم أعظم خلقاً أم تلك؟.

وكما في سائر السور القصار؛ تفتح آيات السورة منافذ القلب على الحقيقة.. ولكن قلب من؟ إنما قلب الذين استجابو الربهم، فآمنوا به و عملوا الصالحات، فتبشرهم بأجر متصل غير منقطع. (الآية: ٢٥).

إنك كادح لربك كدحاً فملاقيه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ
﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ
إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾
فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ
أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ[1] ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا
﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ
﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ
بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] هل تستطيع أن تتصور السماء كيف تنشق، والنجوم كيف تنتثر، وهذه السلاسل الجبلية التي تزن ملايين الأطنان من الصخور العملاقة كيف تندك اندكاكا؟ أرأيت البحر حين يهيج فإذا بأمواجه كالجبال تتلاطم فوق سطحه. هل لك أن تتصور لو أن بحار الأرض كلها

(١) يحور: كلّمته فلم يحر جواباً: أي ما رد جواباً، وحار الماء في الغدير تردد فيه، وحار في أمره تحيّر. ومعنى آخر ذكره أرباب اللغة: وهو التردد.

سُجِّرت. إنها أعظم من ألوف ملايين من القنابل الهيدروجينية حين تنفجر معا.. إنني اعترف بعجز قدرة الخيال عندي من أن تتصور كل هذه الأحوال.. فكيف بنا ونحن لا بد أن نشاهدها عن كثب؟ عظيم إذن شأن هذا الإنسان الذي يستضاف لمثل هذا البرنامج بل المهرجان الكوني، لا أن الإنسان ليس يومئذ ضيف شرف، بل متهم يساق إلى المحاكمة، ويوقف للسؤال. حقا إنه ذو شأن عظيم، وإن مسؤوليته التي يتحملها اليوم عظيمة جدًّا. تعالَ -يا أخي- نرتفع لحظات إلى مستوى تصور الساعة كما يصفها ربنا. وإني لعلى يقين أن مجرد تصورها يجعلنا ننظر إلى الأمور بطريقة مختلفة، ونعرف آنئذ أننا لازلنا في ضلال بعيد لازلنا لا نعرف قيمة أنفسنا. من نحن، ما هي حكمة وجودنا، وإلى أي مصير نساق؟ لمحكمة الرب جو رهيب. إنها ليست في قاعة مفروشة بالسجاد. إنها في الفضاء الرحب.. وأجرامها تصدع قلوب الجلاميد. السماء يومئذ تنشق. ولعل النيازك السماوية تتساقط من خلال شقوقها فوق الأرض، ولا نعرف ماذا تحدث من دمار وصعقات، أما الأرض فإن جبالها تندك، وبحارها تتسجر، وتمتد إلى ما شاء الله حتى تصبح كأديم مبسوط ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾، وإذا كانت قاعة المحكمة في الدنيا محاطة بجنود محافظين، فإن جنود السماوات والأرض تقف يومئذ مستعدة لتنفيذ أوامر الرب فورا.

[٢] ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ وهل تستطيع أن تتمرد السماوات عن أمر ربها؟ كلا.. بل حق لها أن تأذن لربها، أي تقف انتظارا لأوامره الصارمة.

[٣] ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ فلا جبال ولا آكام ولا روابي ولا بناء ولا أشجار.. إنها في ذلك اليوم قاع صفصف.

[٤] ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾ فلا معادن ولا مقابر كلها اليوم فوق الأرض.. فلا يستطيع أحد أن يبحث داخل الأرض عن مخبأ أو خندق.

[٥] ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ وكيف لا تنتظر أوامر الرب وهي مخلوقة مدبرة. أفلا يحق لها الخضوع؟!. بلى.

[٦] يومئذ وفي هذه الأجزاء المرعبة يلقى الإنسان ربه ليسأله عما فعله، وليعطيه جزاءه الأوفى، ولكن بينه وبين ذلك اليوم الرهيب عقبات وصعوبات تكون بمثابة إرهاصات وأشراط لما قد يلقاه الإنسان يومئذ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا﴾ الولادة ساعة كدح لك ولأمك. تحديك للأمراض منذ نعومة أظفارك والأخطار. وتعرضك لأعراض الجوع والعطش، والحر والبرد، والألم والشدائد. وتواصل الإحباط والحرمان عليك منذ أن ميزت يمينك من شمالك، ثم

حينما نموت وترعرعت واجهت ألوان الضغوط الجسدية والنفسية. ودخلت معترك الحياة التي كلها صراع وصعوبات. إن كل هذه ألوان من الكدح في حياة الإنسان. ولكن يا ليت كانت هي النهاية؟ كلا.. بعد كل ذلك يأتي يوم اللقاء مع من؟ مع رب العزة، ولم؟ للسؤال، وفي أي يوم؟ في يوم الطامة.

إن كل ذلك يجعلنا ننظر إلى أنفسنا باحترام بالغ. إنها ليست كالشجرة التي تنبت في مزرعتنا ثم تمضي لشانها بعد عمر محدود دون عناء التحديات، وليست كالأنعام أو أي حي آخر يمضي دورته الحياتية برتابة ودون تحديات أو كدح. إنها النفس التي أكرمها الله وسخر لها الشمس والقمر وما في الأرض جميعا، ولهدف عظيم. إن ذلك الهدف هو لقاء الرب للمحاكمة فالجزاء، وهذه الحياة بما فيها من كدح شاهد على ذلك المصير بما فيه من جزاء. ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ وإذا كانت الحياة سلسلة متواصلة من الكدح والنصب فلماذا السرور واللهو إذن؟ ولماذا يبيع الإنسان الآخرة بالدنيا ما دمنا جميعا كادحون. أهل الصلاح والمفسدون كل في طريقه؟ ولعل المفسد يتعرض لكدح أكبر، لأنه يفقد أمل المستقبل وتوكل المؤمن على ربه، ويبدو أن الإمام زين العابدين يشير إلى ذلك حين يقول فيما روي عنه: «**الرَّاحَةُ لَمْ تُخْلَقْ فِي الدُّنْيَا وَ لَا لِأَهْلِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا خُلِقَتِ الرَّاحَةُ فِي الْجَنَّةِ وَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَ التَّعَبُ وَ النَّصَبُ خُلِقَا فِي الدُّنْيَا وَ لِأَهْلِ الدُّنْيَا، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ مِنْهَا حَفْنَةً إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الْحِرْصِ مِثْلَيْهَا، وَ مَنْ أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا أَكْثَرَ كَانَ فِيهَا أَشَدَّ فَقْراً؛ لِأَنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى النَّاسِ فِي حِفْظِ أَمْوَالِهِ وَ يَفْتَقِرُ إِلَى كُلِّ آلَةٍ مِنْ آلَاتِ الدُّنْيَا، فَلَيْسَ فِي غِنَى الدُّنْيَا رَاحَةٌ وَ لَكِنَّ الشَّيْطَانَ يُوَسْوِسُ إِلَى ابْنِ آدَمَ أَنَّ لَهُ فِي جَمْعِ ذَلِكَ رَاحَةً وَ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَى التَّعَبِ فِي الدُّنْيَا وَ الْحِسَابُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. ثُمَّ قَالَ** عليه السلام: **كَلَّا مَا تَعِبَ أَوْلِيَاءُ اللهِ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا بَلْ تَعِبُوا فِي الدُّنْيَا لِلْآخِرَةِ**»(١).

[٧] وشتان بين لقاء المؤمن ربه وغيره. إن المؤمن يلقى ربه ليستلم جائزته بيمينه ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾.

[٨] يأخذه بفرح بالغ. لقد انتهى الكدح وإلى الأبد. إنها ولادة جديدة، ومستقبل زاهر. ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فالحساب لا بد منه لكل إنسان إلا عدد محدود من الصدِّيقين والصابرين، بيد أن حساب أصحاب اليمين يسير، فإذا مروا بحسناتهم قبلت. وإذا وجدوا بينها هفوات غفرت، ولكن الحساب العسير يعني عدم قبول حسناتهم، وعدم التجاوز عن سيئاتهم.وفي الخبر المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ حَاسَبَهُ اللهُ حِسَاباً يَسِيراً وَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ. قَالُوا: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: تُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ،**

(١) بحار الأنوار: ج٧٠، ص٩٢.

وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ»(١). ولعل السبب في ذلك سلامة خطهم العام مما يشفع لهم في الانحرافات الجانبية.

[٩] ويجتمع المؤمنون تحت ظل عرش الله، ينظرون إلى ساحة المحكمة، وينتظرون رفاقهم الذين ينتهون من الحساب ويلتحقون بجمعهم المبارك، فإذا أخذ المؤمن كتابه أسرع إليه مسرورا ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾. إن هذا السرور يلازمه منذ خروجه من قبره بسبب صفاته الحميدة، ولعل أبرزها رضاه عن ربه، فقد جاء في الحديث عن الصادق عليه السلام: «وَمَنْ رَضِيَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْمَعَاشِ رَضِيَ اللهُ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْعَمَلِ»(٢). وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِذَا بَعَثَ اللهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ قَبْرِهِ خَرَجَ مَعَهُ مِثَالٌ يَقْدُمُ أَمَامَهُ كُلَّمَا رَأَى الْمُؤْمِنُ هَوْلاً مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ لَهُ الْمِثَالُ: لَا تَفْزَعْ وَلَا تَحْزَنْ وَأَبْشِرْ بِالسُّرُورِ وَالْكَرَامَةِ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُحَاسِبُهُ حِسَاباً يَسِيراً وَيَأْمُرُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمِثَالُ أَمَامَهُ، فَيَقُولُ لَهُ الْمُؤْمِنُ: يَرْحَمُكَ اللهُ نِعْمَ الْخَارِجُ خَرَجْتَ مَعِي مِنْ قَبْرِي وَمَا زِلْتَ تُبَشِّرُنِي بِالسُّرُورِ وَالْكَرَامَةِ مِنَ اللهِ حَتَّى رَأَيْتُ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا السُّرُورُ الَّذِي كُنْتَ أَدْخَلْتَ عَلَى أَخِيكَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا، خَلَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ لِأُبَشِّرَكَ»(٣).

[١٠] أما الكافر والمنافق والفاسق فإنه يستلم كتابه من وراء ظهره إما بعد أن تخلع يسراه وتوضع إلى ظهره، وإما لأن يديه مغلولتان وراء عنقه، فيوضع الكتاب في يسراه من خلف. وعموما فإنه يصبح معروفا عند الناس بسوء العاقبة ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ وتتلاحق لعنات الملائكة والناس عليه، ويشدد عليه في الحساب، ولا تقبل حسناته، ولا تغفر سيئاته، وأهم من كل ذلك تسقط عنه الأستار التي تَزَمَّل بها في الدنيا حتى لا يعرف على حقيقته، ويعلن للناس أسراره وخبايا نفسه الخبيثة.

[١١] أليس من الأفضل أن نسعى جميعا لإصلاح أنفسنا اليوم ولا نستمر في خداع الذات حتى لا نبتلى بتلك الفضيحة الكبرى؟! ماذا يكون موقف هذا البئيس؟! إنه يصيح: وأنفساه واثبوراه!! ولكن هيهات حيث لا ينفعه الندم، ولات حين مندم. ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ والثبور هو الهلاك، ودعاؤه به اعترافه بالجريمة واستسلامه للهلاك، ولو عرف الإنسان هذه العاقبة وهو في الدنيا واتقاها بصالح الأعمال لما ابتلي بهذا المصير الأسود.

[١٢] ولا تنفعه دعوته للهلاك واعترافه بالثبور لأنه سوف يدخل النار ويصلى حرارتها

(١) بحار الأنوار ج٧، ص٩٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٦، ص٤٠٦.
(٣) الكافي: ج٢، ص١٩٠.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ نارا مستعرة متقدة ذات أوار ولهب.

[١٣] لماذا هذا المصير؟ لأنه كان في الدنيا مسرورا، لاهيا عما يراد به، مستهزئاً بالدعاة إلى الله. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ والسرور هو إحساس الإنسان بأنه قد بلغ أهدافه. والدنيا غاية علم الكافرين، ولذلك تراهم يفرحون بما أوتوا فيها، وتغلق آفاق طموحهم دون الحياة الآخرة، فلا يقدمون لها شيئا.

[١٤] كيف يتجاوز المؤمنون ظاهر الدنيا إلى غيب الآخرة؟ إنما بإيمانهم بالنشور، وغيرهم يظن أنه لا يعود. ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي يعود إلى الآخرة للحساب. قالوا: الحور: الرجوع، وقيل: كلّمتة فلم يحر جوابا: أي ما أرجع قولا، ولا رد كلاما، جاء في الدعاء: «نَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ»[1] أي من العودة إلى النقصان بعد الزيادة، وسميت البكرة بـ «بالمحور» لأنها تدور حتى ترجع إلى محلها.

[١٥] وكان ظنه باطلا. فإنه ليس يحور فقط، وإنما أيضا يحاسب بهذه من لدن رب بصير بشأنه، محيط علما بظاهر فعله وغيب نيته. ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ ولأن الإنسان يبرر جرائمه وضلاله عادة ؛ فإن السبيل الوحيد لإصلاحه هو تحسسه برقابة الله عليه، وأنه بصير بخبايا قلبه أنى برر أو نافق.

[١٦] هل راقبت يوما الغروب: كيف تسقط الشمس في الأفق، وينبسط عليه الشفق، ويلملم الظلام شمل الطيور في أوكارها، والوحوش والهوام في بيوتها وجحورها، والناس في مساكنهم، وإذا بالقمر يطلع علينا بنور هادئ. إنه مثل للأطوار التي يتحول عبرها الإنسان منذ أن كان نطفة في صلب أبيه، وإلى أن يضمه التراب في رحمه. إنه في رحلة متواصلة يركب فيها طبقا بعد طبق، أفلا نؤمن بأننا لسنا مالكي أنفسنا، وأن من يملك أمرنا أنشأنا لحكمة، فأين تلك الحكمة لو لم تكن في القرآن؟! أفلا نسجد لربنا حين نتلو آياته؟! حقًا.. إنها حكمة الخلق التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ لغروب الشمس هيبة في النفوس، وجلال عظيم، وإن منظر الشمس حين تغرب يثير فينا أكثر من إحساس ؛ إنه يرسم على الأفق لوحة متحركة، بارعة الجمال، ذات ألوان تبهر الألباب، ولكنه لا يلبث أن يثير فينا الحزن على ينبوع النور الذي بلعه المغيب ولو بصورة مؤقتة، مما يجعلنا نتساءل: ألسنا نحن أيضا ننتظر الغروب عندما يحين أجلنا. ومتى يأتي الأجل؟ لا ندري. وأخيرا يصل الإنسان إلى قناعة: لا بد من الرضا بالواقع؟ تعالوا

(١) بحار الأنوار: ج٣٤، ص٢٠٠.

نرجع إلى بيوتنا. وقال المفسرون عن الشفق: إنه امتزاج ضوء النهار بظلام الليل، وقيل: إن أصل الشفق الرقة، وإنما سمي المغيب بالشفق لأنه ينتشر في الأفق ضياء رقيقا.

وقالوا عن (لا) في ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾: إنها زائدة للتأكيد، وقيل: بل معناها تعظيم الشفق أن يقسم به، أو تعظيم الحقيقة حتى لا تحتاج إلى قسم، وقد سبق منا: أن النفي هنا يفيد تأكيد معنى القسم لعدم الحاجة إليه.

[١٧] وبعد أن يلملم الشفق بقايا خيوط الضياء، يسوق ظلام الليل الناس ليهجعوا، والأشياء لتنكمش، ذلك أن الضوء يبسط الطبيعة، في حين أن الظلام يجمعها.. أرأيت أسراب الطيور عند الشفق كيف تعود إلى أوكارها، وقطعان الأنعام تروح إلى مرابضها، والناس أيضا يعودون إلى دورهم ومساكنهم ؛ إنه منظر رائع حقًا. ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ قالوا: الوسق: الجمع، وطعام موسوق أي مجموع.

[١٨] ويطلع القمر، ويندفع إلى كبد السماء، ويتجلى بنوره الفضي كسفينة من فضة تسير في بحر من الظلام، ويبعث من أفق السماء بنوره الهادئ فوق الآجام والروابي بما لا يزاحم نوم النائمين، وفي الوقت ذاته يكون سراجا للسارين ليلا وأنيسا للشعراء والواهين، وآية مبصرة لمن يحيي الليل من المتهجدين. ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ قالوا: «اتسق: مشتقة من الوسق، بمعنى تجميع أطراف الشيء مما يوحي بكماله»، وقالوا: «إنه كناية عن القمر عندما يكتمل بدرا». ويبدو لي أنه أعم منه والمراد من اتساقه ارتفاعه في كبد السماء، وبعيدا عن كدر الأفق، والله العالم.

[١٩] إن الإنسان ينتقل من حال إلى حال.. تلك هي الحقيقة التي لا بد أن يعيها الإنسان بعمق، وإلا فإنه يخشى عليه أن يضل سبيله. ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ ما هو المراد من الطبق؟ قالوا: الطبق في اللغة بمعنى الحال، ثم ساقوا أمثلة لذلك، فذكروا أن الدواهي تسمى أم طبق، وبنات طبق، واستشهدوا بقول الشاعر:

الصبر أحمد والدنيا مفجعة ... من ذا الذي لم يذق من عيشه رنقا

إذا صفا لك من مسرورها طبق ... أهدى لك الدهر من مكروهها طبقا

ويقول الأقرع بن حابس[١]:

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره ... وساقني طبق منه إلى طبق

ولعل أصل معنى الطبق التطابق، وإنما سميت التحولات الأساسية والمنعطفات

(١) روح المعاني، الألوسي: ج١٥، ص٢٩٠.

الحساسة من الزمن بالطبق ؛ لأنهم تصوروا الزمان طبقات كما الأرض طبقات أو العمارة طوابق، فسموا كل مرحلة طبقا، كما سموا كل طبقة من الأرض أو طابق من البيت، ولذلك قالوا: أتاني طبق من الناس أو طبق من الجراد، أي جماعة كأنهم قسم من الناس، وطبقة منهم، ومشهور في أدبنا اليوم مصطلح الطبقات الاجتماعية، ويسمى القرن من الزمان أيضا طبقا، كما قال العباس في مدح النبي ﷺ[1]:

تنقل من صلب إلى رحم   إذا مضى عالم بدا طبق

ويقال لهزيع الليل وطرف النهار طبق، فيقولون مضى طبق من الليل أو طبق من النهار. وإذن فإن ظاهر الآية يدل على أن الإنسان يتدرج في طبقات الزمان، ومراحله، وتحولاته طبقا بعد طبق. بلى، إنه لا يملك التحولات الكبيرة التي تجري عليه. بالرغم من وجود هامش بسيط من الاختيار عنده، فهو يولد في عصر لا يختاره، وفي مصر لم ينتخبه، ومن والدين قُدِّرا له دون دخل له فيهما، وعشرات التقديرات الحتمية تصوغ حياته دون أن يكون له فيها صنع، ثم يتحول من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى خلق سوي، يولد ليجتاز سبعة وثلاثين مرحلة منذ الرضاعة حتى يكون هرما فيموت، حسب الأسماء التي وضعتها العرب لمراحل حياة البشر. وخلال هذه الفترة يتقلب عبر المرض والعافية، والفقر والغنى، والخوف والأمن، والجوع والشبع، وترمي به حوادث الزمان من حزن إلى سرور، ومن قلق إلى سلام، ومن شدة إلى رخاء وهكذا.. وقد تحمله الدواهي من أرض لأرض، ومن قوم إلى قوم، ومن دين إلى دين. إن كل هذه التحولات جزء من الكدح الذي كتب على الإنسان في هذه الدنيا، ولكنها لا تنتهي بالموت فما بعد الموت أعظم وأدهى.

وهكذا نقرأ في رواية مأثورة عن النبي ﷺ طائفة من هذه المراحل التي يمر بها الإنسان. فقد روي عن جابر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ ابْنَ آدَمَ لَفِي غَفْلَةٍ عَمَّا خَلَقَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، إِنَّ اللهَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِذَا أَرَادَ خَلْقَهُ قَالَ لِلْمَلَكِ: اكْتُبْ رِزْقَهُ وَأَثَرَهُ، وَأَجَلَهُ، وَاكْتُبْ شَقِيًّا أَوْ سَعِيداً، ثُمَّ يَرْتَفِعُ ذَلِكَ الْمَلَكُ، وَيَبْعَثُ اللهُ مَلَكاً آخَرَ فَيَحْفَظُهُ حَتَّى يُدْرِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكَيْنِ يَكْتُبَانِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ.**

فَإِذَا جَاءَهُ الْمَوْتُ ارْتَفَعَ ذَانِكَ الْمَلَكَانِ، ثُمَّ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام فَيَقْبِضُ رُوحَهُ، فَإِذَا أُدْخِلَ حَضْرَتَهُ رَدَّ الرُّوحَ فِي جَسَدِهِ، ثُمَّ يَرْتَفِعُ مَلَكُ الْمَوْتِ، ثُمَّ جَاءَهُ مَلَكَا الْقَبْرِ فَامْتَحَنَاهُ، ثُمَّ يَرْتَفِعَانِ، فَإِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ انْحَطَّ عَلَيْهِ مَلَكُ الْحَسَنَاتِ وَمَلَكُ السَّيِّئَاتِ فَأَنْشَطَا كِتَاباً مَعْقُوداً فِي

---

(١) روح المعاني، الألوسي: ج١٥، ص٢٩٢.

عُنُقِهِ، ثُمَّ حَضَرَا مَعَهُ: وَاحِدٌ سَائِقٌ وَالآخَرُ شَهِيدٌ، ثُمَّ قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قَالَ: حَالًا بَعْدَ حَالٍ. ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ قُدَّامَكُمْ أَمْراً عَظِيماً فَاسْتَعِينُوا بِاللهِ العَظِيمِ»(١).

وإذا تأملنا سياق سورة الانشقاق وتدبرنا آية الكدح فيها، ولاحظنا هذه الرواية أيضا تبين لنا أن الجملة الأخيرة في هذه الرواية هي العبرة التي ينبغي أن نعيها من السورة، ذلك أن عدو الإنسان هو حالة اللهو واللعب التي تنزع إليها نفسه، فتسول له العبثية والغفلة أو الهروب من مواجهة الحقائق؛ وإنما ينساق البشر إلى هذه الحالات بسبب غفلته عن نفسه وعما يراد بها، وعن الأخطاء التي تنتظره. أفلا يفكر هذا المسكين أن الظلام يلف الضياء، ويتسق القمر في السماء بدل قرص الشمس، وأن التحول سنة يخضع لها كل شيء، فهل يبقى بعيدا عنها؟ وإذا لم نعتبر بالطبيعة حولنا أفلا نعتبر بتاريخنا الحافل بالتطورات، فهذه الأمم كيف دار بها الزمن دورته ولعبت بها رياح التغيير طبقا عن طبق، وحالا من بعد حال إننا أيضا سائرون في الدرب ذاته، وعلى هذا جاء في تأويل هذه الآية حديث مأثور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً بِشِبْرٍ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ، لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟! قَالَ: فَمَنْ؟»(٢). وفي حديث عن أبي جعفر عليه السلام رواه أبو الجارود، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ وَهِيَ النَّقِمَةُ، ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ فَتَحِلُّ بِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ فَيَرَوْنَ ذَلِكَ وَيَسْمَعُونَ بِهِ، وَالَّذِينَ حَلَّتْ بِهِمْ عُصَاةٌ كُفَّارٌ مِثْلُهُمْ، وَلَا يَتَّعِظُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ وَلَنْ يَزَالُوا كَذَلِكَ ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ الَّذِي وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّصْرِ وَيُخْزِي الكَافِرِينَ»(٣). وهكذا ينبغي للإنسان أن يعي آيات الطبيعة وعبر التاريخ، ثم ينظر إلى نفسه عبرهما حتى يعرف قدرها، ولا يضيع فرصتها بالغفلة واللهو والانشغال بالتوافه.

[٢٠] عن محمد بن يعقوب الكليني بإسناده... «أَنَّ ابْنَ أَبِي الْعَوْجَاءِ حِينَ كَلَّمَهُ أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام عَادَ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَجَلَسَ وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَنْطِقُ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: كَأَنَّكَ جِئْتَ تُعِيدُ بَعْضَ مَا كُنَّا فِيهِ؟!. فَقَالَ: أَرَدْتُ ذَاكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: مَا أَعْجَبَ هَذَا تُنْكِرُ اللهَ وَتَشْهَدُ أَنِّي ابْنُ رَسُولِ اللهِ!. فَقَالَ: الْعَادَةُ تَحْمِلُنِي عَلَى ذَلِكَ،

---

(١) تفسير القرطبي: ج ١٦ ص٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق: ص٢٧٩.

(٣) بحار الأنوار: ج ٦، ص٥٥، تفسير القمي: ج ١، ص٣٦٥.

فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ عليه السلام: **فَمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْكَلَامِ؟**.

قَالَ: إِجْلَالًا لَكَ وَمَهَابَةً مَا يَنْطِقُ لِسَانِي بَيْنَ يَدَيْكَ، فَإِنِّي شَاهَدْتُ الْعُلَمَاءَ وَنَاظَرْتُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَمَا تَدَاخَلَنِي هَيْبَةٌ قَطُّ مِثْلُ مَا تَدَاخَلَنِي مِنْ هَيْبَتِكَ. قَالَ عليه السلام: **يَكُونُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ أَفْتَحُ عَلَيْكَ بِسُؤَالٍ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ**. فَقَالَ لَهُ: **أَمَصْنُوعٌ أَنْتَ أَوْ غَيْرُ مَصْنُوعٍ**.

فَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ: بَلْ أَنَا غَيْرُ مَصْنُوعٍ، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ عليه السلام: **فَصِفْ لِي لَوْ كُنْتَ مَصْنُوعاً كَيْفَ كُنْتَ تَكُونُ**. فَبَقِيَ عَبْدُ الْكَرِيمِ مَلِيّاً لَا يُحِيرُ جَوَاباً وَوَلَعَ بِخَشَبَةٍ كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: طَوِيلٌ عَرِيضٌ عَمِيقٌ قَصِيرٌ مُتَحَرِّكٌ سَاكِنٌ كُلُّ ذَلِكَ صِفَةُ خَلْقِهِ، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ عليه السلام: **فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَعْلَمْ صِفَةَ الصَّنْعَةِ غَيْرَهَا فَاجْعَلْ نَفْسَكَ مَصْنُوعاً لِمَا تَجِدُ فِي نَفْسِكَ مِمَّا يَحْدُثُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ**.

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْكَرِيمِ: سَأَلْتَنِي عَنْ مَسْأَلَةٍ لَمْ يَسْأَلْنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ وَلَا يَسْأَلُنِي أَحَدٌ بَعْدَكَ عَنْ مِثْلِهَا»[1]،... إلى أن اعترف أخيرا بأن له صانعا... والحديث طويل أخذنا الشاهد منه.

وقد صاغ المتكلمون الحجة التالية من هذه الحقيقة فقالوا: العالم متغير، وكل متغير حادث، فالعالم حادث. حقّاً إن تطورات الخليقة من حولنا، وتطورات حياتنا، وتقلبنا حالا بعد حال (طبقا عن طبق) أفضل سبيل لمعرفة الرب وحكمة خلقه لنا، ولكن ليس كل الناس يسلكون هذا السبيل لأن بعضهم تراه يكذب ويبني حياته على أساس التكذيب، فلا تنفعه الحجج ولا المواعظ والعبر. ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وتأتي هذه الآية في سياق بيان تلك الحقائق المفزعة لعلها تنفض من فؤاد الإنسان رواسب الغفلة والتهاون.

[٢١] حين يتصل قلب الإنسان بشلال النور لا تملك جوارحه إلا الاستجابة لمؤثرات الوحي، فأي قلب واع لا يخضع لهذا الوحي الذي كاد يصدع الجبال الراسيات، أم أية جبهة لا تخر ساجدة على التراب أمام هذه الصعقات المتتالية التي تنبعث من ضمير القرآن. ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ قالوا: السجود هنا بمعنى التسليم والخضوع للقرآن، وقال بعضهم: إنه السجود المعهود الذي ينبأ عن التسليم النفسي، وقد اعتبر أئمة أهل البيت عليهم السلام السجود عند قراءة هذه مندوبا.

[٢٢] أنى كانت الحجج الإلهية بالغة فإن الجاحد يظل يعاند ويكذب، لأنه قد قرر سلفا عدم التصديق بها، لذلك فإن موقفه لا يعكس ضعفاً في الحجة بل انحرافا في نفسه. ﴿بَلِ الَّذِينَ

(١) الكافي: ج١، ص ٧٥.

كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾.

[٢٣] وتكذيبهم الظاهر لا يعكس واقعهم ومدى تأثرهم بالحجة، إذ إنهم بالتالي بشر، وتنفذ البراهين الواضحة في أعماقهم، ولكنهم يخدعون أنفسهم ويكذبون بها طلبا لحطام الدنيا، وبحثا عن لذاتها، والله سبحانه عليهم بأنفسهم، ويحاسبهم على ما فيها، وليس على مجرد ما يدعون من أنهم لم يقتنعوا بالحجة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ والوعي بمعنى الحفظ، ويسمى الإناء: وعاء، لأنه يحفظ الطعام، وقال المفسرون في معنى الآية: الله أعلم بما يضمرون.

[٢٤] وعلى أساس ما يظهرون يحاسبهم الله، لأن الكافر يشهد قلبه على كذبه قبل أي شخص آخر. ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ صدقوا بالحساب أم كذبوا.

[٢٥] وإنما يستثنى من هذا التعميم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم وحدهم الذين يعطيهم الله أجرا، دائما غير منقطع ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، قالوا في معنى الاستثناء إنه منقطع إذ إن الكفار غير المؤمنين، فلا معنى لاستثنائهم منهم، وقال بعضهم: إن معنى ﴿إِلَّا﴾ هنا العطف، ولعل الأفضل أن يقال: بل الاستثناء متصل، ولكن المستثنى منه محذوف بدليل الاستثناء ذاته، أي إن الإنسان أنى كان مبشر بعذاب أليم إلا المؤمنون. ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ صحيح أن الأجر بقدر المشقة، ولكن أجر الآخرة دائم، فلو أتيت على آية ذكر فيها بيت الجنة فإن هذا البيت ليس كبيوت الدنيا، يتهدم بعد حين، بل هو بيت دائم لا يزول، وكذلك سائر أجر الآخرة. رزقنا الله ذلك بفضله. قالوا: «معنى كلمة ﴿مَمۡنُونِۭ﴾ أنه بمعنى القطع، وقد سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ فقال: غير مقطوع، فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قال: نعم. قد عرفه أخو يشكر حين يقول:

فترى خلفهن من سرعة الرجـ ـع مع منينا كأنه أهباء

وقال المبرد: المنين: الغبار، لأنها تقطعه وراءها»[1].

---

(١) تفسير القرطبي: ج ١٩ ص٢٨٢.

سُورَةُ البُرُوج

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٢٢.

* ترتيبها النزولي: ٢٧.

* ترتيبها في المصحف: ٨٥.

* نزلت بعد سورة الشمس.

فضل السّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ فِي فَرَائِضِهِ فَإِنَّهَا سُورَةُ النَّبِيِّينَ كَانَ مَحْشَرُهُ ومَوْقِفُهُ مَعَ النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ والصَّالِحِينَ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٩).

الإطار العام

الإيمان يقاوم تحديات الكفر

جبارٌ سفيه، تُطغيه سلطة محدودة في بلد متواضع، فيتخذ قراراً خاطئاً بإعدام جماعي لطائفة وعت الحقيقة فآمنت بالله،فيلقيهم في نار في الأخاديد، وتشهد الجماهير سطوته لكي يكونوا لهم عبرة.. وينتهي في زعمه كل شيء.

كلا؛ إن السماوات والأرض وجنودهما وسكانهما ينتظرون محاكمة هذا السفيه في اليوم الموعود، وأن سنن الله في الخليقة التي تمتد من السماء ذات البروج في عمق المكان، إلى اليوم الموعود في أفق الزمان، وإلى الشاهد والمشهود تحيط بهذا الإنسان العاجز المسكين، فأين المفر؟!.

وهكذا تتواصل آيات سورة البروج التي تُفْتَتَح باليمين، وتُختم بأن الله من ورائهم محيط، وأن القرآن المجيد مصون في اللوح المحفوظ، و فيما بينهما الحديث عن أصحاب الأخدود الذين بالغوا في الجريمة فأوقدوا النار في حفر، ثم ألقوا المؤمنين فيها وجلسوا يتفرجون على مشهد احتراقهم!.

وهكذا ابتلي المؤمنون -وربما بصورة مكررة وفي بلاد مختلفة- بهذا البلاء العظيم، دون أن ينال من إيمانهم مثقال ذرة، بل ازداد إيمانهم صلابة وصفاءً. أما أعداؤهم، فماذا كانت عاقبة جرائمهم؟ هل بلغوا هدفهم؟ وماذا استهدفوا من هذا العمل الوحشي الموغل في الجاهلية؟ أوليس كسر مقاومة المؤمنين؟ فهل أفلحوا؟ كلا؛ فقد انتشر الدين بسبب مقاومة المؤمنين، ونزل على الجبارين العذاب الأليم، كما أنزل الله على فرعون وثمود العذاب الأليم.

وكلمة أخيرة: إن هذه السورة الكريمة تتميز بإعداد المؤمنين لاجتياز أصعب الامتحانات ومقاومة أكبر التحديات.

قتل أصحاب الأخدود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(١) ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ(٢) ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ
﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ
يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا(٣) الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ
يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ
بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو
الْعَرْشِ الْمَجِيدُ(٤) ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ
وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ
هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) البروج: القصور، وسميت بذلك لأنها ظاهرة لعلوّها، وجاء في مفردات الراغب: ثوبٌ مبرّج صوّرت عليه بروج فاعتبر حسنُه، وقيل: تبرّجت المرأة أي تشبّهت به في إظهار المحاسن، وعلى ذلك تكون بروج السماء هي الأجرام والمجرات الضخمة الظاهرة في الآفاق.

وقال البعض: هي منازل الشمس والقمر والكواكب وهي اثنا عشر برجاً، يسير القمر في كل برج منها يومين وثلاث وتسير الشمس في كل برج شهراً.

(٢) الأخدود: الشقّ العظيم في الأرض، ومنه الخدّ لمجاري الدموع، وتخدّد لحمه إذا صار فيه طرائق كالشقوق.

(٣) فتنوا: أي أحرقوا، والفتين حجارةٌ سود كأنها محرقة، وأصل الفتنة الامتحان ثم يستعمل في العذاب، وقال الراغب في مفرداته: أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته.

(٤) المجيد: المجد السعة في الكرم والجلال، وأصل المجد من قولهم: مجدتِ الإبل إذا حصلت في مرعىً كثير واسع وقد أمجدها الراعي، ووصف الله نفسه بذلك لسعة فيضه وكثرة جوده، وعِظَم قدره.

بينات من الآيات:

[١] الكائنات والزمان والإنسان ثلاثة شهود عظام على مسؤولية البشر، فأنى له الهروب، وأنى له التبرير! وأعظم الكائنات حسب علمنا السماوات بما فيها من وحدات من بناء عظيم يسميها القرآن البروج. ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ ما هي البروج؟ يبدو أنها طبقات السماء المتمثلة في مجاميع المجرات، كل مجرة فيها أعداد هائلة من الشموس. قالوا: أصل معنى البروج الظهور، ولأن البناء العالي ظاهر سمي القصر برجا، كما سمي موقع الدفاع عن المدينة بالبرج. ولعل انتخاب هذه الكلمة هنا كان لأن في السماء حرسا اتخذوا مواقع لرصد حركات الإنس والجن والشياطين، مما ينسجم مع السياق الذي يجري فيه الحديث عن جزاء الطغاة على جرائمهم بحق المؤمنين، فإذا تحصن الطغاة ببروجهم الأرضية فإن للسماء بروجا لا يستطيعون مقاومة جنودها. وقال بعضهم: البروج هي منازل الشمس والقمر والكواكب وأفلاكها التي لا تستطيع أجرام السماء على عظمتها تجاوزها قيد أنملة، مما يشهد على أنها كائنات مخلوقة مدبرة.

[٢] يوم القيامة رهيب ترتعد السماوات والجبال والبحار وسائر الكائنات خشية منه وإشفاقا، وأعظم ما فيه مواجهة الإنسان لأفعاله، بلا حجاب من تبرير، ولا قوة ولا ناصر.. وهكذا يحلف السياق به على ما يجري الحديث عنه من مسؤولية الطغاة أمام ربهم عن جرائمهم بحق المؤمنين. ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ إنه يوم لا مناص منه، لأنه وعد الله، ووعد الله غير مكذوب، وليس الإنسان وحده بل الكائنات جميعا موعودة بذلك اليوم، فأي يوم عظيم ذلك اليوم؟.

[٣] ثم يقدم الإنسان للمحاكمة، فقد حضر الشهود. كل مكان عاش فيه يشهد عليه، وكل زمان مر به يشهد عليه، وكل جارحة استخدمها تشهد عليه، وكل إنسان عايشه يشهد عليه، وفي طليعة الشهود الأنبياء والأوصياء والدعاة إلى الله، يشهدون عليه أن قد بلَّغوه رسالات ربه فلم يقبلها. أي مسكين هذا الطاغية الذي تجتمع عليه الشهود من كل موقع وكل حدب؟! ثم تراه في الدنيا غافلا لاهيا سادرا في جرائمه وكأنه لا حساب ولا عقاب. ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال بعضهم: الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة، وروي ذلك عن الإمام علي عليه السلام، وقال البعض: بل كل يوم يشهد على الإنسان بما يفعل، وروي عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله: «لَيْسَ مِنْ يوم يَأْتِي عَلَى العَبْدِ إِلا يُنَادَى فِيْهِ: يَا بْنَ آدَمَ أَنَا خَلْقٌ جَدِيْدٌ، وَأَنَا فِيْمَا تَعْمَلُ عَلَيْكَ شَهِيْدٌ، فَاعْمَلْ فِيَّ خَيْراً أَشْهَدْ لَكَ بِهِ غَداً، فَإِنِّي لَوْ قَدْ مَضَيْتُ لَمْ تَرَنِي أَبَداً، وَيَقُولُ اللَّيْلُ مِثْلَ ذَلِكَ»[1].

[٤] أرأيت الذي خلق السماء ذات البروج فلم يدع فيها ثغرة ولا فطوراً، وجعل للناس

(١) تفسير القرطبي: ج ١٩، ص٢٨٤.

اليوم الموعود ليجمعهم ويُشهدهم على أنفسهم، أرأيته سبحانه يترك الإنسان يعبث في الدنيا ويقتل عباده المؤمنين بطريقة شنيعة ثم لا يجازيه؟ كلا.. ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ الذين شقوا في الأرض أخاديد كالأنهر العريضة، وملؤوها نيرانا تستعر. قال بعضهم: تلك لعنة أبدية تلاحق الظالمين، فالقتل هنا كناية عنها. وقال البعض: بل إن أولئك الظالمين قد قتلوا فعلا إذ خرجت شعلة من نيران أخدودهم وأحرقتهم. وربما قتلوا بعدئذ بطريقة أخرى. المهم أنهم لم يفلتوا من عذاب الآخرة، وإن أمهلوا في الدنيا لعدة أيام، ذلك أن نظام الخليقة قائم على أساس العدالة، ولن يقدر الظالم على الانفلات من مسؤولية جرائمه.

[٥] كانت نيران تلك الشقوق التي صنعوا في الأرض مشتعلة تلتهم الضحايا بسرعة. ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وكم هي فظيعة جرائم الطغاة، وكيف يتوسلون بأبشع الأساليب في سبيل بقائهم عدة أيام أخر في سدة الحكم.. أفلا يستحق مثل هؤلاء نيران جهنم المتقدة؟.

[٦] رهيب ومثير منظر الإنسان البريء الوادع وهو يحترق بالنار ويجأر للمساعدة دون أن يستجيب له أحد، وقد يكون شيخا كبيرا أو شابا يافعا أو امرأة ضعيفة أو حتى طفلة بعمر الورد. ما أقسى قلوب الطغاة وأتباعهم وهم يتحلقون حول النار ينظرون إلى المؤمنين يُلقون في النار فيحترقون! حقًّا: إن الكفر يمسخ صاحبه، والطغيان يحوله إلى ما هو أسوأ من وحش كاسر. ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾.

[٧] لقد دعوا الجماهير إلى حفلة إعدام جماعية، ليشهدوا عذاب المؤمنين، وليكون عذابهم عبرة لمن بعدهم لكيلا يفكر أحد بمخالفة دين السلطان ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ جريمة بشعة تقع في وضح النهار وبعمد وقصد وبتحدٍّ سفيه لملكوت الرب حيث يستشهد على وقوعها المجرم الناس.. لا أظن أن جريمة تستكمل شروط الإجرام كهذه.. فماذا ينتظر المجرم غير القتل وملاحقة اللعنة؟ من هم أصحاب الأخدود؟ وفي أي بقعة كانوا؟. قال مقاتل: «إن أصحاب الأخدود ثلاثة: واحد بنجران، والآخر بالشام، والثالث بفارس، أما من بالشام فأنطياخوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذي نواس»[١]. وحسب هذا القول يحتمل أن تكون جريمة الحرق بالنار عبر الأخدود شائعة في الجاهلية في أكثر من بلد، ولا يهمنا من كان يفعلها، إنما العبرة منها. وجاء في بعض الأحاديث: «أن القصة وقعت في الحبشة حيث بعث الله إليهم نبيا فآمنت به طائفة فأخذوه وإياهم والقوهم في النار»[٢].

---

(١) تفسير القرطبي: ج ١٩ ص ٢٩١.

(٢) راجع بحار الأنوار: ج ١٤، ص ٤٣٨، تفسير القمي: ج ٢، ص ٤١٣.

إلا أن النصوص استفاضت بقصة طريفة للاعتبار، ولا يهمنا ذكر الاختلاف في تفاصيلها:

روى مسلم في الصحيح عن هدية بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب عن رسول الله ﷺ قال: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا مَرِضَ السَّاحِرُ قَالَ: إِنِّي قَدْ حَضَرَ أَجَلِي فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَاماً أُعَلِّمُهُ السِّحْرَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَاماً وَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ السَّاحِرِ وَالْمَلِكِ رَاهِبٌ، فَمَرَّ الْغُلَامُ بِالرَّاهِبِ فَأَعْجَبَهُ كَلَامُهُ وَأَمْرُهُ فَكَانَ يُطِيلُ عِنْدَهُ الْقُعُودَ فَإِذَا أَبْطَأَ عَنِ السَّاحِرِ ضَرَبَهُ وَإِذَا أَبْطَأَ عَنْ أَهْلِهِ ضَرَبُوهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا اسْتَبْطَأَكَ السَّاحِرُ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا اسْتَبْطَأَكَ أَهْلُكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذَا بِالنَّاسِ قَدْ غَشِيَتْهُمْ دَابَّةٌ عَظِيمَةٌ فَظِيعَةٌ فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرُ السَّاحِرِ أَفْضَلُ أَمْ أَمْرُ الرَّاهِبِ، فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ فَرَمَى فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ الرَّاهِبُ فَقَالَ: أَيْ بُنَيَّ إِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِذَا ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، قَالَ: وَجَعَلَ يُدَاوِي النَّاسَ فَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ عَمِيَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ فَأَتَاهُ وَحَمَلَ إِلَيْهِ مَالاً كَثِيراً فَقَالَ: اشْفِنِي وَلَكَ مَا هَاهُنَا، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَداً وَلَكِنْ يَشْفِي اللهُ فَإِنْ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، قَالَ: فَآمَنَ فَدَعَا اللهَ لَهُ فَشَفَاهُ، فَذَهَبَ فَجَلَسَ إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ: يَا فُلَانُ مَنْ شَفَاكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: أَنَا، قَالَ: لَا رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، قَالَ: أَوَ إِنَّ لَكَ رَبّاً غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّهُ عَلَى الْغُلَامِ، فَبَعَثَ إِلَى الْغُلَامِ فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ أَنْ تَشْفِيَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ؟ قَالَ: مَا أَشْفِي أَحَداً وَلَكِنْ رَبِّي يَشْفِي، قَالَ: أَوَ إِنَّ لَكَ رَبّاً غَيْرِي؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّهُ عَلَى الرَّاهِبِ، فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَيْهِ فَنَشَرَهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّيْنِ، وَقَالَ لِلْغُلَامِ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَأَرْسَلَ مَعَهُ نَفَراً فَقَالَ: اصْعَدُوا بِهِ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَدَهْدِهُوهُ مِنْهُ، قَالَ: فَعَلَوْا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَ شِئْتَ، قَالَ: فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَتَدَهْدَهُوا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ: مَا صَنَعَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَأَرْسَلَ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى قَالَ: انْطَلِقُوا بِهِ فَلَجِّجُوهُ فِي الْبَحْرِ فَإِنْ رَجَعَ وَإِلَّا فَغَرِّقُوهُ.

فَانْطَلَقُوا بِهِ فِي قُرْقُورٍ فَلَمَّا تَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ قَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ قَالَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ وَجَاءَ حَتَّى قَامَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، فَقَالَ: مَا صَنَعَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، اجْمَعِ النَّاسَ ثُمَّ اصْلِبْنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعْهُ عَلَى كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ بِاسْمِ رَبِّ الْغُلَامِ فَإِنَّكَ سَتَقْتُلُنِي، قَالَ: فَجَمَعَ النَّاسَ وَصَلَبَهُ ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ فَوَضَعَهُ عَلَى كَبِدِ الْقَوْسِ، وَقَالَ: بِاسْمِ رَبِّ الْغُلَامِ وَرَمَى فَوَقَعَ

السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ وَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَخَافُ قَدْ نَزَلَ وَاللهِ بِكَ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فَخُدِّدَتْ عَلَى أَفْوَاهِ السِّكَكِ ثُمَّ أَضْرَمَهَا نَاراً فَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ وَمَنْ أَبَى فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا، فَجَعَلُوا يَقْتَحِمُونَهَا وَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا فَقَالَ لَهَا: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»(١).

وروى سعيد بن جبير قال: «لَمَّا انْهَزَمَ أَهْلُ إِسْفَنْدَهَانَ [إِسْفِيذْهَانَ] قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا هُمْ بِيَهُودَ وَلَا نَصَارَى وَلَا لَهُمْ كِتَابٌ وَكَانُوا مَجُوساً، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: بَلَى، قَدْ كَانَ لَهُمْ كِتَابٌ وَلَكِنَّهُ رُفِعَ. وَذَلِكَ أَنَّ مَلِكاً لَهُمْ سَكِرَ فَوَقَعَ عَلَى ابْنَتِهِ، أَوْ قَالَ: عَلَى أُخْتِهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ لَهَا: كَيْفَ الْمَخْرَجُ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ؟ قَالَتْ: تَجْمَعُ أَهْلَ مَمْلَكَتِكَ وَتُخْبِرُهُمْ أَنَّكَ تَرَى نِكَاحَ الْبَنَاتِ وَتَأْمُرُهُمْ أَنْ يُحِلُّوهُ فَجَمَعَهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُتَابِعُوهُ، فَخَدَّ لَهُمْ أُخْدُوداً فِي الْأَرْضِ وَأَوْقَدَ فِيهِ النِّيرَانَ وَعَرَضَهُمْ عَلَيْهَا فَمَنْ أَبَى قَبُولَ ذَلِكَ قَذَفَهُ فِي النَّارِ، وَمَنْ أَجَابَ خَلَّى سَبِيلَهُ»(٢).

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أَرْسَلَ عَلِيٌّ عليه السلام إِلَى أُسْقُفِّ نَجْرَانَ يَسْأَلُهُ عَنْ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ فَأَخْبَرَهُ بِشَيْءٍ فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: لَيْسَ كَمَا ذَكَرْتَ، وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكَ عَنْهُمْ، إِنَّ اللهَ بَعَثَ رَجُلاً حَبَشِيّاً نَبِيّاً وَهُمْ حَبَشِيَّةٌ فَكَذَّبُوهُ فَقَاتَلَهُمْ فَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ: وَأَسَرُوهُ وَأَسَرُوا أَصْحَابَهُ، ثُمَّ بَنَوْا لَهُ حَيْراً ثُمَّ مَلَؤُوهُ نَاراً، ثُمَّ جَمَعُوا النَّاسَ فَقَالُوا: مَنْ كَانَ عَلَى دِينِنَا وَأَمْرِنَا فَلْيَعْتَزِلْ، وَمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ هَؤُلَاءِ فَلْيَرْمِ نَفْسَهُ فِي النَّارِ مَعَهُ فَجَعَلَ أَصْحَابُهُ يَتَهَافَتُونَ فِي النَّارِ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا ابْنُ شَهْرٍ فَلَمَّا هَجَمَتْ عَلَى النَّارِ هَابَتْ وَرَقَّتْ عَلَى ابْنِهَا فَنَادَاهَا الصَّبِيُّ: لَا تَهَابِي وَارْمِي بِي وَبِنَفْسِكِ فِي النَّارِ، فَإِنَّ هَذَا وَاللهِ فِي اللهِ قَلِيلٌ، فَرَمَتْ بِنَفْسِهَا فِي النَّارِ وَصَبِيِّهَا، وَكَانَ مِمَّنْ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ»(٣).

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «وَقَدْ كَانَ قَبْلَكُمْ قَوْمٌ يُقْتَلُونَ وَيُحْرَقُونَ وَيُنْشَرُونَ بِالْمَنَاشِيرِ وَتَضِيقُ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِرُحْبِهَا، فَمَا يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ تِرَةٍ وَتَرُوا مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ وَلَا أَذًى، بَلْ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ فَاسْأَلُوا رَبَّكُمْ دَرَجَاتِهِمْ وَاصْبِرُوا عَلَى نَوَائِبِ دَهْرِكُمْ تُدْرِكُوا سَعْيَهُمْ»(٤).

وهكذا يفعل الإيمان بالقلب الإنساني فيجعله أقوى من زبر الحديد، أثبت من الراسيات، أسمى من القمم السامقة، أشد صلابة من كل ما يبتدعه الطغاة من وسائل الأذى

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص٤٤١.
(٢) المصدر السابق: ص٤٤٣.
(٣) المصدر السابق: ص٤٤٣.
(٤) الكافي: ج٨، ص٥٤٧.

والتعذيب والقتل!.

وقد نتساءل: ما الذي جعل هذا الإنسان الذي لا يكاد يتحمل أذى بقة يقتحم النيران المتقدة بجسده البض ليحترق أمام أعين الناقمين والشامتين، دون أن يتنازل عن إيمانه؟.

أقول:

أولاً: إن وضوح الرؤية عندهم كان قد بلغ حدًّا كانوا يعيشون ببصائر قلوبهم الجنة ونعيمها فيتسلون بها عن شهوات الدنيا، ويعيشون بقوى قلوبهم النار وعذابها فتهون عليهم مصائب الدنيا ومشاكلها. وإننا نقرأ قصة الأم التي ترددت قليلا باقتحام النار مع رضيعها فقال لها ابنها: يا أماه إني أرى أمامك نارا لا تطفأ (يعني نار جهنم) فقذفا جميعا أنفسهما في النار.

ثانياً: عندما يقرر الإنسان شيئا يسهل عليه القيام به، وبالذات حينما يكون الأمر في سبيل الله يُهوِّنه الرب له، ويثبت عليه قدمه، ويرزقه الصبر على آلامه وتبعاته، ويقوي إيمانه، ويشحذ بصيرته ليرى بها أجره في الآخرة.. وهكذا ترى عباد الله الصالحين يقاومون عبر التاريخ مختلف الضغوط، ويتحملون ألوانا من الأذى بقلب راض ونفس مطمئنة، لعلمهم أن سنن الله واحدة لا تتغير ولا تتبدل، وأن المؤمنين الذين احترقوا في الأخدود هم سواء مع أي مؤمن يعتقل اليوم في سجون الطغاة أو يعذب أو يقتل أو يتحمل مشاكل الهجرة والجهاد ومصائبها، وكما خلد الله أمجاد أولئك الصديقين فإنه لا يضيع اجر هؤلاء التابعين لهم، وكما أن الله قتل أصحاب الأخدود ونصر رسالاته فإنه يهلك الجبارين اليوم ويستخلفهم بقوم آخرين.

[٨] عند هيجان الصراع وثورة الدعاية ضد المؤمنين. لا يعرف الناس ماذا يفعلون، وأي جريمة يرتكبون، ولكن عندما يرجعون إلى أنفسهم بعدئذ ويتساءلون: لماذا قتلوا المؤمنين، ولماذا نقموا منهم، يعرفون أنهم كانوا في ضلال بعيد. ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فلا أفسدوا في الأرض، ولا اعتدوا على أحد، ولا طالبوا بغير حق، وإنما استعادوا حريتهم، وآمنوا بربهم الله العزيز المنيع الذي لا يقهر والحميد الذي لا يجور ولا يبخل، ويعطي جزاء العباد، ويزيدهم من فضله.

[٩] وأيهما الحق التمرد على سلطان السماوات والأرض، والدخول في عبودية بشر لا يملكون دفع الضر عنهم، أم التحرر من كل عبودية وقيد، والدخول في حصن الملك المقتدر القاهر ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبالرغم من أن الله منح الطغاة فرصة الاختيار ضمن مهلة محدودة إلا إنه شاهد على ما يعملون، ولا يغيب عنه شيء في السماوات والأرض. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

[١٠] وشهادة الله ليست للتاريخ فقط، وإنما للجزاء العادل، فإنه يسوق الطغاة إلى جهنم ذات النار اللاهبة والعذاب المحرق. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهذه حكمة الله في إعطاء الطغاة فرصة الامتحان، لأنهم بعملهم هذا فتنوا المؤمنين واختبروا إرادتهم، حتى ظهر للناس قيمة الإيمان ومعناه، وكيف أنه فوق الماديات، وأن دعوة الرسول واتباعه ليست من أجل مال أو سلطان. ثم إنهم فتنوا المؤمنين فَخَلُصَ إيمانهم من رواسب الشرك، وخَلُصَتْ نفوسهم من بقايا الجهل والغفلة، وخَلُصَتْ صفوفهم من العناصر الضعيفة، كما يَخْلُص الذهب حينما يفتن في النار من كل الرواسب. تلك كانت حكمة الرب في إعطاء الجبارين فرصة ارتكاب تلك المجازر البشعة بحق الدعاة إلى الله. ولعل بعضهم عادوا إلى الله وتابوا من فعلتهم، ولذلك أشار ربنا بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ وفرق كبير بين عذاب جهنم الأشد والأبقى، وبين عذاب الأخدود الذي يمر كلمح البصر، ثم ينتهي المعذبون إلى روح وريحان.

[١١] أما أولئك المعذبون فإن الجنات تنتظرهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ سواء دخلوا التحديات الكبيرة كأصحاب الأخدود أم كانوا من التابعين لهم. وأي فوز أعظم لهم من انتهاء محنتهم وفتنتهم، وبلوغ كامل أهدافهم وتطلعاتهم؟!.

[١٢] قسما بالسماء ذات البروج وباليوم الموعود وبالشاهد والمشهود: إن أخذ الله شديد حيث يأخذ الطغاة والظالمين ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ قالوا: إن هذه الجملة جواب للقسم في فاتحة السورة. ولعل قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ أيضا جواب آخر للقسم، فيكون القسم إطارا لكل الحقائق التي تذكر في هذه السورة. ومن هذه الآية يظهر أن الله قد أخذ أصحاب الأخدود أخذا أليما كما أخذ سائر الطغاة.

[١٣] وكيف لا يكون شديدا بطش جبار السماوات والأرض الذي يبدئ خلق الإنسان ويعيده بعد الفناء؟! ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾.

[١٤] وإنما لا يأخذ أهل الأرض بما كسبوا عاجلا، ويعفو عن كثير من سيئاتهم لأنه يستر ذنوبهم ويحبهم ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾.

[١٥] ووده للمؤمنين وغفرانه لذنوب عباده إنما هو لعزته وقوته ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾، وسواء قرأناه بالضم ليكون صفة للرب أو بالكسر ليكون صفة للعرش فإنه واحد إذ عرشه هيمنته وسلطانه، وهو اسم من أسمائه الحسنى، وصفة من صفاته الكريمة.

[١٦] وكيف لا يكون سلطانا عظيما من يفعل ما يريد دون ممارسة لغوب ولا علاج؟ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وإرادة الله صفة قدرته المطلقة. وهذه الآية تدل على أنه لا شيء يحد إرادته، فليست إرادته قديمة كما زعمت فلاسفة اليونان، وتسربت تلك الفكرة إلى اليهود فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]! سبحان الله كيف يكون القادر أولا عاجزا آخرا؟! وهل يوصف الرب تعالى بالأول والآخر فيكون متغيرا؟! وانعكاس هذه الصفة علينا -نحن البشر- ألا يدعونا استمرار نعم الله وعادته الكريمة علينا إلى الغرور به، والتمادي في الذنوب دون خشية عقابه.

[١٧-١٨] فهؤلاء جنود إبليس اجتمعوا ليبطشوا بالمؤمنين فأين انتهى بهم المقام؟ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ يسوقهما القرآن سوقا واحدا بالرغم من اختلاف أكثر الظروف، ذلك لأنه سنة الله واحدة فيهما كما في غيرهما.

[١٩] قد يبني البشر بنيانا متكاملا من الكذب ويحشر نفسه فيه، فتراه يبحث لإنكاره لوجود ربه أو لقدرته أو لسنته في الجزاء عن فلسفة ذات أبعاد لعله يقنع نفسه والآخرين بها، ويسميها -جدلا- فلسفة الإلحاد أو الفلسفة المادية، وقد يتجاوز كل الحقائق ويسميها زورا بالفلسفة العلمية، ثم يجعل أمام كل حق باطلا، ولكل صواب بديلا من الخطأ، ثم يحكم -في زعمه- نسج هذه الأباطيل ببعضها ويسميها نظرية أو مبدأ، وإن هي إلا سلسلة من الأكاذيب. ومثل هذا الإنسان لا يسهل عليه الخروج من شرنقة الكذب التي نسجها حول نفسه، ولذلك يتحصن ضد كل العبر والمواعظ حتى ولو كانت في مستوى عبرة العذاب الذي استأصل شأفة فرعون وثمود. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ لأنهم كفروا بأعظم وأوضح الحقائق (بالله العظيم ورسالاته) ودخلوا في نفق التكذيب فلم يخرجوا منه للاعتبار بمصير فرعون الذي اشتهرت قصته بين أهل الكتاب أو بمصير ثمود الذين عرفت العرب أمرهم.

[٢٠] وهل ينفعهم التكذيب شيئا؟ هل يمنعهم جزاء أعمالهم أو يخدع من يجازيهم فينصرف عنهم؟ كلا.. لماذا؟ لأن الإنسان يواجه ربه والله محيط بهم علما وقدرة ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾، قالوا: وراء الشيء الجهات المحيطة به الخارجة عنه، فيكون مفهوم الآية أن الله محيط بكل بعد من أبعاد حياتهم. وهذا يتقابل مع كونهم في تكذيب.

[٢١] ولكن أينتظرون ما يذكرهم ويخرجهم من نفق التكذيب أعظم من هذا الكتاب العظيم؟ ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ عظيم المستوى، رفيع المجد، لا تناله أيدي التحريف، ولا يبلغ مستواه التافهون الحقراء الذين يعيشون في حضيض الشهوات، ولا يمس جواهر حقائقه ولآلئ معانيه سوى المطهرين من دنس الشرك، ومن رجس العقد النفسية، ومن ظلام الأفكار

الباطلة. لا بد أن ترتفع إلى قمة المجد حتى تدرك بعض معاني الكتاب العظيم.

[٢٢] ومن علامات مجده وعظمته أنه محفوظ في لوح عند الله لا يستطيع أحد المساس به. ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ جاء في الدر المنثور عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «خَلَقَ اللهُ لَوْحاً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضاءَ دفَتَاهُ مِنْ زَبرَجَدةٍ خَضْرَاءَ كِتابُهُ مِنْ نُورٍ يَلْحَظُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوم ثَلاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ لَحظَةٍ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُعِزُّ وَيَذِلُّ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ»[1]. وهذا الحديث تفسير قوله سبحانه: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]. أما اللوح المحفوظ المذكور في هذه الآية فلعله إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، حيث إن ربنا يحفظ اللوح من أن يرسم فيه غيره.

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٣٣٥.

سُورَةُ الطَّارِق

* مكيّة.

* عدد آياتها: ١٧.

* ترتيبها النزولي: ٣٦.

* ترتيبها في المصحف: ٨٦.

* نزلت بعد سورة البلد.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُ فِي فَرَائِضِهِ بِالسَّماءِ والطَّارِقِ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَاهٌ ومَنْزِلَةٌ وكَانَ مِنْ رُفَقَاءِ النَّبِيِّينَ وأَصْحَابِهِمْ فِي الجَنَّةِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٩).

الإطار العام

الإنسان والحقائق الكبرى

لكي يتسع قلب الإنسان للحقائق الكبرى فيعيها ويتكيف معها يرغبه الوحي في النظر والتفكر في آفاق السماء وما فيها من النجوم الثاقبة والشهب الطارقة، وفي أغوار النفس وما انطوت عليه من عالم كبير، وفي نشأته الأولى حيث خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، ومصيره الأخير حيث يواجه أعماله بلا حجاب ولا قوة ولا ناصر.

ولكي لا يتهرب البشر من الحقائق العظيمة، كواقع الرجع والحساب بتكذيب الرسالة أو تأويل أنبائها بما يتناسب واللامسؤولية، يذكره الوحي بأن القرآن قول فصل، وليس بالهزل.. وينذر المكذبين والكافرين بأن الله يكيد لهم كيدا، ولكن يمهلهم، وأنت أيها الإنسان اصبر وأمهلهم رويدا.

إنه لقول فصل وما هو بالهزل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ[1] (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)
إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ
دَافِقٍ[2] (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ[3] (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ
تُبْلَى السَّرَائِرُ[4] (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ
ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥)
وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ
مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ
عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الرَّجْعِ[5] (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ[6] (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)
إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧)﴾.

---

(١) والطارق: هو النجم الذي يطرق بضيائه آفاق السماء، يقال: طرقني فلان إذا أتاني ليلًا، وأصل الطرق الدق، ومنه المطرقة لأنها يدق بها، والطريق لأن المارة تدقه، والطارق: الآتي ليلاً يحتاج إلى الدق.

(٢) دافق: الدفق صب الماء الكثير باعتماد قوي، ومثله الدفع، وجاء في مفردات الراغب: ماء دافق: سائل بسرعة. هكذا ماء الرجل يتدفق ويتصبب في رحم المرأة بقوة وبسرعة.

(٣) الترائب: هي ضلوع الصدر.

(٤) تبلى السرائر: أي تظهر، يقال بلي الثوب أي خلق، وبلوته اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختياري له، ويوم القيامة تختبر السرائر حتى يظهر خيرها من شرها.

(٥) الرجع: المطر لأنه يجيء ويرجع ويتكرر.

(٦) الصدع: هو الشق فصدع الأرض انشقاقها بالنبات وضروب الزروع والأشجار.

بينات من الآيات:

[١] أرأيت النجم الذي يطرق بنوره الثاقب في عرض السماء! أرأيته كيف يدفع الله به شر إبليس وجنوده عن السماء وأهلها والأرض وسكانها! إنه مثل واحد لحفظ الله، فقسما به وبالسماء التي يحفظها: إن الله هو الحفيظ، ولولاه لما استطاع الإنسان أن يعيش لحظة ولا غيره من الأحياء.

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قالوا: الطرق يعني الدق، وإنما سمي السبيل طريقا لأن الإنسان يدق عليه برجله، وزائر الليل سمي طارقا لأنه بحاجة إلى دق الأبواب لتفتح، ولعل كل قادم تسميه العرب طارقا لأنه هو الآخر يدق الأبواب باعتباره غريبا عن المنطقة.

والقسم بالسماء وما يطرق فيها من النجوم الثاقبة يستثير عقل الإنسان، ويستقطب اهتمامه، وينفض عن قلبه غبار الغفلة والسبات.. وبالذات حين يكون القسم بالسماء البعيدة عن متناول أيدينا وعن مرامي فكرنا، وبالطارق الذي يخشاه الإنسان، فليس كل طارق يطرق بخير. وقد قال الشاعر:

يا راقد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله فرب آخر ليل أجج النارا

وحين يرتفع الإنسان إلى أفق التفكير والتدبر في آيات الله في السماء والأرض يقترب من معرفة الحقائق الكبرى، بينما الذي يعيش في زنزانة مشاكله اليومية، وهواجس نفسه ووساوس قلبه، فإنه يحرم التفكر في الآفاق، ويحرم بالتالي بلوغ الحقائق.

ولعل هذا من أهداف القسم في القرآن: الارتفاع بالإنسان إلى آفاق الحقائق بعيدا عما يحيط بفكره من قضايا خاصة لا تنفك تستقطب اهتماماته.

والقرآن منهج تفكير قبل أن يكون دائرة للمعارف، ولذلك فهو لا يهدف مجرد تعليم الإنسان، بل جعله قادرا على التعلم بذاته، فهو يفتح مغاليق الفكر بمفاتيح الذكر، ويبصر الإنسان الحقائق برفع الغشاوات عن قلبه، ويخرق الحجب التي تستر بصيرته عن رؤية الحقائق باستثارة العقل ونفض غبار الغفلة عن الفؤاد.

وسورة الطارق تتجلى بين السور القصار بهذه الميزة. إنها كما النجم الثاقب بنوره الوضيء تطرق أبواب القلب حتى تفتحه أمام شلال النور المنبعث من الوحي.

[٢] ما هو الطارق؟ دع فكرك يجوب في آفاق الخليقة لعله يكتشف ما هو الطارق. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ هذه الكلمة تستثير عقل الإنسان، كما تبين له أهمية القضية. وقال بعض المفسرين: كلما ذكرت هذه الجملة في القرآن عرف موضوعها، مثل قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ [القدر: ٢-٣]، بينما إذا استخدمت جملة (وما يدريك) فإن الموضوع يبقى مجهولا في النص.

[٣] ما هو الطارق إذا؟ إنه النجم العالي الذي يثقب ضوؤه الباهر جدار الظلام. ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ قالوا: «الثاقب المضيء، ومنه شهاب ثاقب، والعرب تقول: اثقب نارك أي أضئها، والثقوب ما تشعل به النار من دقاق العيدان». واختلفوا في تأويل هذه الكلمة.. والذي يبدو لي إن الطارق هي الأقدار التي تتواصل في الليل والنهار بخيرها وشرها، ولذلك نستعيذ بالله من طارق السوء حسب النص المأثور عن النبي ﷺ: «**وَمِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ إِلَّا طَارِقاً يَطْرُقُنِي بِخَيْرٍ** يا رحمان»[1]. وفي الدعاء: «**بِكَ أَسْتَجِيرُ يَا ذَا الْعَفْوِ وَ الرِّضْوَانِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمِنْ غِيَرِ الزَّمَانِ وَتَوَاتُرِ الْأَحْزَانِ وَطَوَارِقِ الْحَدَثَانِ وَمِنِ انْقِضَاءِ الْمُدَّةِ قَبْلَ التَّأَهُّبِ وَالْعُدَّةِ**»[2]. وحسب هذا الرأي فإن النجم الثاقب هو بيان لهذا الطارق الذي يشبه النجم الثاقب، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ﴾ [الصافات: ١٠]. و يكون القسم -إذا- بتلك الشهب التي يحفظ الله بها السماء من الشياطين الذين يسترقون السمع، ويكون السياق متناسبا مع الحديث عن حفظه سبحانه لأهل الأرض.

وقيل: «إن كل نجم يسمى طارقا باعتباره يطلع بالليل، وعليه فإن القسم بكل نجوم السماء أو النجوم اللامعة»، وقال البعض: «بل النجم هنا هو زحل، وقد روي ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام»[3]، وقال بعضهم: «بل هو الثريا»، وقال الآخر: «بل هو الزهرة». وقد تتسع العبارات لكل تلك التطبيقات، ذلك لأن آية نتلوها في سورة الملك يظهر منها أن مصابيح السماء هي رجوم الشياطين أو مراكزهم لرجمهم، قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. فمن المحتمل أن تكون النجوم هي ذات الشهب الطارقة أو أنها مصادر للشهب. يبقى أن نقول: إن المراد من النجم يمكن أن يكون جنس النجم فيشمل سائر الأنجم وليس واحدا منها.

[٤] حينما ينظر الإنسان إلى متانة بناء السماء، وكيف جعلها الله سقفا محفوظا، وزرع في

(١) بحار الأنوار: ج٨٣، ص٣٠٢.
(٢) مفاتيح الجنان: دعاء يوم الأحد.
(٣) راجع: نور الثقلين: ج٥، ص٥٤٩، بحار الأنوار: ج٥٥ ص٨٢. جميع الأقوال في النجم.

أرجائها مراجم للقوى الشيطانية التي تسعى لإفساد النظام فيها، يطمئن إلى تلك اليد العظيمة التي تمسك السماوات والأرض أن تزولا، ويعرف أنه في كنف رب عظيم، يحفظه من طوارق السوء. ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ عشرات الألوف من الحفظة يحرسونك من الأخطار المحدقة بك، فلن يصيبك إلا ما تستحق أو ما تقتضيه حكمة الرب. انظر إلى نظام حماية الجسد تتركب من أجهزة عديدة:

ألف: فجهاز التكيف مع المحيط المتشكل من العين والأذن والذوق وسائر الأحاسيس، وأبرز ما فيه شبكة الأعصاب العجيبة.

بـاء: وجهاز الدفاع أمام الأخطار وأبرزها الرجل واليد.

جيم: وجهاز الحماية من الجراثيم، وفي طليعتها امتناع الجسد من استقبال مالا يناسبه من الطعام والشراب، كما إذا كانا عفنين أو مرين.

دال: وجهاز المناعة الذاتية ضد الجراثيم، التي لولاها لغزت الفيروسات والميكروبات أرجاء الجسد بسهولة. أرأيت الذي يفقد هذه المناعة ويبتلى بمرض الأيدز، كيف يموت بأبسط ميكروب لأن جسده لا يقاومه.

هاء: والعواطف والشهوات التي تدفع الإنسان دفعا قويا نحو المحافظة على الجسد.

واو: والعقل الذي يقود الجسد في خضم صراعه المرير ضد الطبيعة وضد سائر الأخطار.

وعشرات الأجهزة المحيطة بالجسم التي لو أردنا شرحها لملأت أسفارا كبيرة.

ومثل نظام حماية الجسد عشرات الأنظمة الأخرى المبثوثة في الطبيعة تحمي الإنسان من التلاشي، مما نعرف بعضها ونجهل الكثير، كلها شاهدة على أن الله سبحانه هو الحفيظ الذي أحاط الإنسان بحمايته، قال سبحانه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. وفي هذه الآية جاء الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**يَقُولُ بِأَمْرِ اللهِ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي رَكِيٍّ** (بئر) **أَوْ يَقَعَ عَلَيْهِ حَائِطٌ أَوْ يُصِيبَهُ شَيْءٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّوْا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ يَدْفَعُونَهُ إِلَى الْمَقَادِيرِ وَهُمَا مَلَكَانِ يَحْفَظَانِهِ بِاللَّيْلِ وَمَلَكَانِ يَحْفَظَانِهِ بِالنَّهَارِ يَتَعَاقَبَانِهِ**»[1] وبالذات المؤمنين وكل بهم ملائكة يحفظونهم، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**وُكِّلَ بِالْمُؤْمِنِ مِائَةٌ وَسِتُّونَ مَلَكاً يَذُبُّونَ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ فَمِنْ ذَلِكَ سَبْعَةُ أَمْلَاكٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا**

(١) تفسير القمي: ج١، ص ٣٦٠، بحار الأنوار: ج٦٧، ص١٥٤.

يُذَبُّ عَنْ قَصْعَةِ الْعَسَلِ الذُّبَابُ فِي يَوْمِ الصَّائِفِ وَلَوْ بَدَوْا لَكُمْ لَرَأَيْتُمُوهُمْ عَلَى كُلِّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ كُلٌّ بَاسِطٌ يَدَهُ فَاغِرٌ فَاهُ وَلَوْ وُكِّلَ الْعَبْدُ إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَاخْتَطَفَتْهُ الشَّيَاطِينُ»(١). ويظهر من هذا الحديث: أن الملائكة يذبون الشياطين عن المؤمن لكي لا يؤثروا عليه ماديًّا ومعنويًّا، ويقوم الحفظة بحفظ أعمال العباد وما تبدى منهم، من نية وكلمة وفعلة، قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. وهكذا لا يصيب الإنسان مصيبة أو أذى إلا بأذن الله، إذ لولا ذلك لمنعت عنه الحفظة، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

[٥] ولكي يتأكد الإنسان من الحفظة فليفكر في نشأته: كيف كان نطفة (في صلب أبيه ثم رحم أمه) مهانة ضعيفة. من الذي حفظها في مسيرتها الصعبة؟ أوتدري كم هي الأنظمة الدقيقة التي تحيط بالنطفة وهي تتقلب من طور إلى طور في رحم الأم؟ وهل كان من الممكن لك وأنت نطفة أن تحفظ نفسك من الأخطار؟ ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ إن هذا النظر يفتح أمام الإنسان آفاقا من المعرفة، لأنه يهتدي بذلك إلى حقيقة نفسه ومدى ارتكاسها في العبودية والحاجة فيخرج من ظلمة الغرور والكبر والتعالي إلى نور الواقعية والتواضع، كما إنه (بالنظر إلى بدء نشأته) يعرف مستقبله. أوليس الإنسان يعود كما بدأ؟.

[٦] من الصعب علينا تصور العدم حيث أنشأنا الباري لا من شيء كان ولا مثال احتذاه، ولكن أفلا نقدر على تصور المسافة بين النطفة وبين الإنسان المتكامل؟ إذا لنعرف أن المسافة بين النشأة الأولى حينما خلقنا الله من تراب وحتى جعلنا في صورة نطفة أبعد وأعظم. أما المسافة بين العدم والوجود فإنها لا تقاس بأية مسافة أخرى، لأن تصور العدم من قبلنا يشبه المستحيل.

دعنا إذا ننظر إلى حيث كنا قطرات من ماء دافق، ونتساءل: كيف كنا، والآن كيف صرنا؟ أفليس الذي حولنا من تلك الحالة إلى حيث نحن بقادر على أن يعيدنا بعد الموت؟ بلى، إنه على كل شيء قدير.

﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ ينبعث من الصلب إلى الرحم ليستقر في مقام أمين حيث ينشئه خلقا آخر. ولعل كلمة ﴿مِن﴾ هنا تشير إلى أن هذه القطرة المتواضعة ليست كلها منشأ خلق البشر بل شيء منها، بلى، فإن خلية واحدة بين ملايين الخلايا هي منشأ خلقة هذا العالم الكبير

(١) بحار الأنوار: ج٦١، ص٣١٤.

الذي يختصر في بناء الإنسان فإنها حين تستقر في الرحم تبدأ بامتصاص الغذاء لتنشطر إلى خلايا ثم تتكون كل خلية في زاوية ليصنع الله منها جزءاً من وجود الإنسان بدقة ولطف حتى تكتمل نشأته.

ويجدر بنا أن نستمع هنا إلى تذكرة إيمانية على لسان الإمام الصادق عليه السلام في حديثه المفصل إلى تلميذه المفضل بن عمر حيث يقول: «نَبْتَدِئُ يَا مُفَضَّلُ بِذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فَاعْتَبِرْ بِهِ فَأَوَّلُ ذَلِكَ مَا يُدَبَّرُ بِهِ الْجَنِينُ فِي الرَّحِمِ وَهُوَ مَحْجُوبٌ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ظُلْمَةِ الْبَطْنِ وَظُلْمَةِ الرَّحِمِ وَظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ حَيْثُ لَا حِيلَةَ عِنْدَهُ فِي طَلَبِ غِذَاءٍ وَلَا دَفْعِ أَذًى وَلَا اسْتِجْلَابِ مَنْفَعَةٍ وَلَا دَفْعِ مَضَرَّةٍ فَإِنَّهُ يَجْرِي إِلَيْهِ مِنْ دَمِ الْحَيْضِ مَا يَغْذُوهُ كَمَا يَغْذُو الْمَاءُ النَّبَاتَ فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ غِذَاؤُهُ حَتَّى إِذَا كَمَلَ خَلْقُهُ وَاسْتَحْكَمَ بَدَنُهُ وَقَوِيَ أَدِيمُهُ عَلَى مُبَاشَرَةِ الْهَوَاءِ وَبَصَرُهُ عَلَى مُلَاقَاةِ الضِّيَاءِ هَاجَ الطَّلْقُ بِأُمِّهِ فَأَزْعَجَهُ أَشَدَّ إِزْعَاجٍ وَأَعْنَفَهُ حَتَّى يُولَدَ وَإِذَا وُلِدَ صَرَفَ ذَلِكَ الدَّمَ الَّذِي كَانَ يَغْذُوهُ مِنْ دَمِ أُمِّهِ إِلَى ثَدْيَيْهَا فَانْقَلَبَ الطَّعْمُ وَاللَّوْنُ إِلَى ضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْغِذَاءِ وَهُوَ أَشَدُّ مُوَافَقَةً لِلْمَوْلُودِ مِنَ الدَّمِ فَيُوَافِيهِ فِي وَقْتِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ.

فَحِينَ يُولَدُ قَدْ تَلَمَّظَ وَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ طَلَباً لِلرَّضَاعِ فَهُوَ يَجِدُ ثَدْيَيْ أُمِّهِ كَالْإِدَاوَتَيْنِ الْمُعَلَّقَتَيْنِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ فَلَا يَزَالُ يَغْتَذِي بِاللَّبَنِ مَا دَامَ رَطْبَ الْبَدَنِ رَقِيقَ الْأَمْعَاءِ لَيِّنَ الْأَعْضَاءِ حَتَّى إِذَا تَحَرَّكَ وَاحْتَاجَ إِلَى غِذَاءٍ فِيهِ صَلَابَةٌ لِيَشْتَدَّ وَيَقْوَى بَدَنُهُ طَلَعَتْ لَهُ الطَّوَاحِنُ مِنَ الْأَسْنَانِ وَالْأَضْرَاسِ لِيَمْضَغَ بِهِ الطَّعَامَ فَيَلِينَ عَلَيْهِ وَيَسْهُلَ لَهُ إِسَاغَتُهُ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُدْرِكَ فَإِذَا أَدْرَكَ وَكَانَ ذَكَراً طَلَعَ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ فَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةَ الذَّكَرِ وَعِزَّ الرَّجُلِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنْ حَدِّ الصِّبَا وَشِبْهِ النِّسَاءِ.

وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَى يَبْقَى وَجْهُهَا نَقِيّاً مِنَ الشَّعْرِ لِتَبْقَى لَهَا الْبَهْجَةُ وَالنَّضَارَةُ الَّتِي تُحَرِّكُ الرِّجَالَ لِمَا فِيهِ دَوَامُ النَّسْلِ وَبَقَاؤُهُ اعْتَبِرْ يَا مُفَضَّلُ فِيمَا يُدَبَّرُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ هَلْ تَرَى يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِالْإِهْمَالِ أَفَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَجْرِ إِلَيْهِ ذَلِكَ الدَّمُ وَهُوَ فِي الرَّحِمِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَذْوِي وَيَجِفُّ كَمَا يَجِفُّ النَّبَاتُ إِذَا فَقَدَ الْمَاءَ وَلَوْ لَمْ يُزْعِجْهُ الْمَخَاضُ عِنْدَ اسْتِحْكَامِهِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَبْقَى فِي الرَّحِمِ كَالْمَوْءُودِ فِي الْأَرْضِ وَلَوْ لَمْ يُوَافِقْهُ اللَّبَنُ مَعَ وِلَادَتِهِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَمُوتُ جُوعاً أَوْ يَغْتَذِي بِغِذَاءٍ لَا يُلَائِمُهُ وَلَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ بَدَنُهُ وَلَوْ لَمْ تَطْلُعْ عَلَيْهِ الْأَسْنَانُ فِي وَقْتِهَا أَلَمْ يَكُنْ سَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَضْغُ الطَّعَامِ وَإِسَاغَتُهُ أَوْ يُقِيمُهُ عَلَى الرَّضَاعِ فَلَا يَشُدُّ بَدَنُهُ وَلَا يَصْلُحُ لِعَمَلٍ ثُمَّ كَانَ تَشْتَغِلُ أُمُّهُ بِنَفْسِهِ عَنْ تَرْبِيَةِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَلَوْ لَمْ يَخْرُجِ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ فِي وَقْتِهِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَبْقَى فِي هَيْئَةِ الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ فَلَا تَرَى لَهُ جَلَالَةً وَلَا وَقَاراً»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٦٢.

[٧] وهذه النطفة المتدفّقة من صلب الذكر تلتقي على ميعاد بأخرى من ترائب الأنثى لتلقّحها: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

قالوا: أمّا الصلب فهو عظم الظهر و مخّه، أي العمود الفقري من الكاهل حتى العجب، ومخه إشارة إلى الناحية العصبية أي الحبل الشوكي الذي هو ناقل الأوامر من الدماغ إلى أجهزة الجسم المختلفة ومنها الجهاز التناسلي.

أما الترائب فقد اختلفوا فيها والمشهور في كلام العرب أنها نواحي الصدر. وفي مقاييس اللغة: «فالترب الخدن والجمع أتراب. ومنه التريب وهو الصدر عند تساوى رؤوس العظام. ومنه التربات: وهي الأنامل»[١]. وفي المفردات الترائب: «ضلوع الصدر، الواحدة: تَرِيبَة. قال تعالى: ﴿أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٦-٣٧]، تشبيها في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر»[٢].

فمن أصل التساوي والتماثل أطلق على عظام الصدر المتماثلة كما هو مشهور الاستعمال وأطلق على الحور العين. وقد ذهب الضحاك[٣] إلى أن: «الترائب اليدان والرجلان والعينان، أي العظام المتماثلة في الجسم لا خصوص الصدر».

والسؤال: ماذا يعني أن يكون الإنسان هو بين الصلب و الترائب؟. هاهنا إجابتان:

الأولى: يقول بعضهم: «إن صلب الإنسان هو عموده الفقري، وترائبه هي عظام صدره، و يكاد معناه يقتصر على الجدار الصدري الأسفل، ويضيف: في الأسبوع السادس والسابع من حياة الجنين في الرحم ينشأ ما يسمّى (جسم و ولف وقناته) على كلّ جانب من جانبي العمود الفقري، ومن جزء من هذا تنشأ الكلى والجهاز البولي، ومن جزء آخر تنشأ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة، فكلّ من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى، ويقع بين الصلب والترائب اي ما بين منتصف العمود الفقري تقريبا.

ومقابل أسفل الضلوع، ويضيف: وكلّ من الخصية والمبيض بعد كمال نموّه يأخذ في الهبوط إلى مكانه المعروف، فتهبط الخصية حتى تأخذ مكانها في الصفن (و وعاء الخصية) ويهبط المبيض، حتى يأخذ مكانه في الحوض بجوار بوق الرحم»[٤].

---

(١) مقاييس اللغة: ج١، ص٣٤٦

(٢) مفردات غريب القرآن: ص١٦٥

(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٧١٥.

(٤) تفسير المراغي، ج٣٠، ص١١٣، تفسير البصائر ج٥٤، ص٣٦٧.

ويشكل على هذا التّفسير بـ ﴿مَّآءٖ دَافِقٖ ٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ فهو يمرّ من بينهما حال الخروج، في حين إن هذا التفسير يشيْر إلى محل توليده بينهما أثناء النمو الجنيني، بالإضافة إلى أنّ تفسير ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ بأسفل الضلوع لا يخلو من نقاش.

الثانية: تقرر أن ﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ هو ماء الرجل بقرينة الدفق، فتخرج المرأة من دائرة البحث. ويكون ﴿ٱلصُّلۡبِ﴾ يشمل العامود الفقري الظهري والعامود الفقري القطني وعظم العجز ويشتمل من الناحية العصبية على المركز التناسلي الأمر بالانتعاظ ودفق المني و تهيئة مستلزمات العمل الجنسي.

ويكون ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ هي عظام أصول الأرجل أو العظام الكائنة ما بين الرجلين.

فالماء الدافق هو ماء الرجل أي المني يخرج من بين صلب الرجل وترائبه (أي أصول الأرجل)، فمعظم الأمكنة والممرات التي يخرج منها السائل المنوي والتي ذكرناها يقعان خلف غدة الموثة «البروستات والتي يشكل إفرازها قسماً من السائل المنوي وكلها تقع بين الصلب والترائب. فالحويصلان المنويان -الغدتان المفرزتان- يشكلان قسماً من السائل المنوي، وإفرازهما ذو لون أصفر غني بالفركتوز، كما أن لهما دوراً إيجابياً في عملية قذف السائل المنوي للخارج على شكل دفقات بسبب تقلص العضلات الموجودة بهما، والآية تشير لتعاون الصلب والترائب في عملية الخروج.

ويمكن إيضاح هذا المعنى على الوجه التالي: إنك حين تقول: (خرج الأمر من بين زيد و عمرو) تريد بذلك أنهما اشتركا و تعاونا على إخراجه، فيكون المعنى؛ إنه خرج من بين صلب الرجل كمركز عصبي تناسلي آمر وترائبه كمناطق للضفائر العصبية المأمورة بالتنفيذ، وهذا ثابت من الناحية العلمية»[1].

[٨] الحقائق الكبرى تنزلق من قلب البشر لما فيها من ثقل وفخامة، ولذلك يحتاج الإنسان إلى العروج إليها عبر سلم الحقائق الجزئية التي هي مفرداتها وتجلياتها، كما أن أشعة الشمس هي ظلال لعينها. إنما يسمو الفؤاد إلى مستوى الحقائق الكبرى إذا اتخذ سلما إليها، أما لو تركز فيها النظر وتسمرت عليها القدم فإنها ستكون عقبة دون الصعود وحجابا دون الرؤية، وهذه هي مشكلة البشر الرئيسية أنه يتوقف عند الحقائق الجزئية. أفلا نرى آثار قدرة الرب في كل خلية وذرة، مع كل لحظة من لحظات الحياة؟ بلى، ولكن لماذا القلب لا يزال مرتابا

(١) مع الطب في القرآن الكريم: د. عبد الحميد دياب، د. أحمد قرقوز: ص٣٢. مؤسسة علوم القرآن (دمشق، بيروت)، ط١، ١٤٠٠هـ.

في الآخرة، ولا يزال محجوبا عن وعيها؟ وحتى المؤمن بها بصورة مبدئية تراه يتعامل معها بشك، لأنه لا يسمو بعقله ووعيه عبر الحقائق التي تتجلى فيها قدرة الرب سبحانه، وهكذا لا يستطيع طرد وسوسة الشيطان من قلبه. كيف يعيد الله الإنسان بعد أن أضحى ترابا؟ تعالوا نفترض: أن الخلية الحية التي خلق الإنسان بها تبقى كذلك دون أن تفنى، وإنما تتلاشى الخلايا الإضافية التي اجتمعت حولها في الرحم بعد اللقاح، وأن الله يحفظ تلك الخلية في وعاء القبر أو في أي وعاء آخر، كما حفظها في صلب الرجل من قبل، ثم أنه سبحانه يهيئ الأرض لنموها من جديد كما نمت في رحم الأم. أونجد في ذلك غرابة؟ كلا.. ونحن نعرف أن الخلية الحية يمكن أن تعيش في ظروف مختلفة وبصور شتى، وبعض الخلايا تعيش في ظروف صعبة جدا، فلماذا نستغرب مثلا أن تكون تلك الخلية الرئيسية من أمثالها؟.

هذه الفكرة التي قلنا آنفا أنها نظرية نجدها تكفينا لحل اللغز التالي: كيف يعيد الله الإنسان بعد الموت؟ وأقول: (تكفينا) لأن قيمة النظرية حل اللغز، ولعل نظريات أخرى تكون موجودة، ولكن وجود نظرية واحدة تغني عن غيرها لنفي حالة التشكيك في الحقيقة. على أن هذه ليست مجرد نظرية، وإنما وردت عليها رواية مأثورة عن الإمام الصادق عليه السلام «**سُئِلَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام عَنِ الْمَيِّتِ هَلْ يَبْلَى جَسَدُهُ فَقَالَ نَعَمْ حَتَّى لَا يَبْقَى لَحْمٌ وَلَا عَظْمٌ إِلَّا طِينَتُهُ الَّتِي خُلِقَ مِنْهَا فَإِنَّهَا لَا تَبْلَى تَبْقَى فِي الْقَبْرِ مُسْتَدِيرَةً حَتَّى يُخْلَقَ مِنْهَا كَمَا خُلِقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ**»[1]. وهكذا قال ربنا بعد أن ذكرنا بالنشأة الأولى أنه قادر على رجعه. ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾.

[٩] ولكن عودة الإنسان ليست في دورة طبيعية كما يعود النبات في فصل الربيع! كلا.. إنها عودة مقصودة كما أن خلقه في الدنيا جاء بحكمة بالغة. فما هو الهدف من عودته؟ إظهار حقيقته. ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ الدنيا دار ابتلاء واختبار، ومن طبيعة الدنيا إنها خليطة فيها الخير والشر، ولا يميز خيرها عن شرها بسهولة، بينما الآخرة دار جزاء، وكل شيء فيها ظاهر، ويعطي الله الإنسان من قوة الإحساس ما يستوعب الكثير مما لم يقدر عليه في الدنيا، بصره يومئذ حديد، ويذوق نار جهنم على أنه لا يستطيع أن يذوق جزءاً من مليون جزء منها في الدنيا، ويتنعم بنعم الجنة التي لا يمكنه أن يتنعم بجزء يسير منها في الدنيا.

وفي الأحاديث المأثورة عن السرائر: أنها أعمال العباد، فقد روي عن معاذ بن جبل أنه قال: سألت رسول الله: ما هذه السرائر التي ابتلى الله بها العباد في الآخرة؟ فقال: «**سَرَائِرُكُمْ هِيَ أَعْمَالُكُم مِنَ الصَّلاةِ وَالصيَامِ وَالزكَاةِ وَالوضوءِ والغُسْلِ مِنَ الجَنَابةِ وَكُلِ مَفْروضٍ، لأَنَّ الأَعْمَالَ كُلَهَا سَرائِر خَفية، فَإِنْ شَاءَ الرجل قَالَ: صَليتُ، وَلَمْ يُصَلِ، وَإِنْ شَاءَ قَالَ: تَوضأْتُ وَلَمْ يَتوضأ،**

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص١٩١.

فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾»[(١)].

[١٠] في ذلك اليوم الرهيب يقف الإنسان عاريا من أي ستر، بعيدا عن أي عذر، لا يمكنه التبرير والنفاق ولا الكذب والدجل. وأنى له ذلك وقد اجتمعت عليه الشهود مما حوله ومما فيه، وقلبه مفضوح على كفه نياته، وعقائده كلها مكشوفة؟! فأين المهرب؟ قد يزعم البعض أنه يقدر على منع بعض الشر عن نفسه، كلا.. فهو أضعف من ذلك. إنه منح في الدنيا القوة لكي تجرب إرادته، ويمتحن إيمانه، أما ذلك اليوم فهو مستسلم ذليل. وقد يزعم البعض أنه يستعين بحزبه وعشيرته ووالديه وأسرته، كلا.. إنهم يومئذ مشغولون بأنفسهم. وهب أنهم أرادوا نصره فهل يقدرون؟ هيهات. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ واليوم قبل ذلك اليوم دعنا نجأر إلى ربنا لعله يغفر لنا الذنوب التي اجترحناها قبل الفضيحة الكبرى أمام الملأ العظيم وقبل العذاب الشديد.

[١١] وعذاب الآخرة ليس العذاب الوحيد لمن انحرف عن مسيرة الحق، ففي الدنيا عذاب أخف منه، ولكنه في مقاييسنا عذاب شديد. إنه الهزيمة النكراء التي تلحق الكفار والمنافقين.. ذلك لأنهم شذوا عن سنن الله في السماء والأرض، وكفروا بالحق الذي أنزل على النبي ﷺ. فقسما بالسماء وبالأرض: إن الوحي حق، والنذير حق، وليس بالهزل. ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ قالوا: الرجع يعني المطر، واستشهدوا بقول الشاعر:

أبيض كالرجع رسوب إذا ... ما ثاخ في محتفل يختلي

وقال بعضهم: «بل الرجع الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء، تطلع في ناحية وتغيب في الأخرى». وقيل: «بل الملائكة يرجعون بأعمال العباد». ويبدو لي أن الأنسب إلى السياق هو رجوع الأفلاك إلى مراكزها بتناسب ونظم، دون أي تغيير في مسارها، مما يدل على رجوع الإنسان إلى أمر الله في يوم شاء أم أبى.

[١٢] وقسما بالأرض التي تتصدع. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ قالوا: تصدع بالنبات، كما قال ربنا سبحانه: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦]. ويبدو لي أن الأرض قد جعلها الله ذلولا بحيث تستقبل المطر، وتخرج النبات، وتمكن الفلاح من حرثها، والبناء من حفرها، وطالب الكنز من استثارتها.. وكل ذلك يدل على حكمة الله البالغة من خلقها.

[١٣-١٤] كما الطبيعة تجليات لسنن الله، ومظاهر أسمائه الحسنى، كذلك الوحي تجل

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٢٣، نور الثقلين: ج٥، ص٥٥٢.

لأياته، وبيان لسننه، ومظهر لأسمائه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ يفصل بين الصواب والخطأ والحق والباطل، كما إن يوم القيامة يوم الفصل. وقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: كِتَابُ اللهِ فِيهِ بَيَانُ مَا قَبْلَكُمْ مِنْ خَبَرٍ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ وَلِيَهُ مِنْ جَبَّارٍ فَعَمِلَ بِغَيْرِهِ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ**»[1]. وقد جاءت هذه الكلمة في هذا السياق لكي لا يلجأ الإنسان من هول ما يسمعه إلى التكذيب، ويقول في نفسه: لعل هذا الوعيد نوع من التخويف المبالغ فيه. كلا.. فليس في القرآن كلمة كاذبة أو مبالغة، ولا حرف ولا إيفاء حرف. أنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهكذا يسد السياق كل منافذ الفرار النفسي من مواجهة الحقيقة الكبرى التي تنتظر الجميع (حقيقة الجزاء) فلا إخفاء ولا تبرير ولا محاورات الاستنصار بالآخرين أو التهرب من الحقيقة بتكذيبها.

[١٥] ولا يقتصر الكفار على تكذيب رسالات الله للتهرب من الحقائق التي تذكر بها، وإنما يحاربونها بشتى ألوان الحرب حتى يصنعوا حجابا نفسيا واجتماعيا بينهم وبينها، فلا يتأثرون بها أبدا. ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ والكيد هو: التلطف لبلوغ الهدف بأساليب مختلفة، ويستخدم في الشر والخير، وأن كانت الكلمة توحي بالشر. والكلمة المرادفة لها في أدبنا اليوم: التخطيط الحصيف، ويبدو أن مجمل مساعي الكفار ومن هم في خط النفاق والفسق تتجه نحو تغيير مسار الحق، وإخفائه بالباطل الذي يبتدعونه، والصد عنه بالمكر والكيد. إنه الموقف الاستراتيجي للكفر. ومن خصائص الكيد التوسل ببعض الخطط الخفية التي لا تبلغ الهدف إلا عبر مراحل عديدة، وقد يضع الكفار خطة خمسية أو عشرية أو حتى بعيدة المدى لعلها تبلغ هدفها بلا عقبات، لأنها في زعمهم خطة محكمة سرية ومتواصلة الحلقات. بيد أن خططهم لا تهدف الرسول كشخص، ولا المؤمنين كطائفة، بل تهدف الرسالة التي يدعون إليها، وغريمهم في ذلك لن يكون المؤمنون أو الرسول وحسب بل رب العزة جبار السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

[١٦] وإذا كان الكفار يسعون لبلوغ هدفهم عبر خطط متناهية في الدقة بزعمهم فإن كيد الله متين. كيف يكيد الله لهم؟ إنه سبحانه يهيئ أسباب تدميرهم على حين غفلة منهم. أرأيت كيف يدبر الشرطة مثلا خطة للإيقاع بالمجرمين، ويخطط المجرمون لجريمتهم بإتقان ويخطط الشرطة، والمجرمون لا يعرفون شيئا عن خطط الشرطة، بينما رجال الشرطة يعرفون ما يجري هناك؟! وفي ساعة الصفر حينما تبلغ خطط الكفار مرحلة التنفيذ، ويكادون يسطون بالنبي

(١) بحار الأنوار: ج٨٩، ص٢٤.

والمؤمنين، تكون أسباب تدميرهم قد تهيأت أيضا، وتتجلى ساعتئذ قدرة الله. إنها تأخذهم أخذا وبيلا. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.

[١٧] بيد أن هذه الخطة وتلك وكل خطة تأخذ عامل الزمان في الحسبان، ولذلك فإن من يكيد كيدا لا يمكنه أن يلغي الزمان، وينبغي أن يعرف المؤمنون ذلك ولا يستعجلوا في تنفيذ خطط الرسالة، ولا يقلقوا من تأخير النصر، لأن هناك مهلة معينة لا بد أن تنتهي قبل أخذ الكفار. ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ مهلة بعد مهلة، وفترة بعد فترة، فلعل تغييرا يطرأ على تنفيذ الخطة، ولكنها بالتالي لن تكون مهلة طويلة. ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ مهلة قليلة ولطيفة وبلا صخب أو ضوضاء، ولكن لماذا يمهل الله الكفار؟.

أولاً: لأنهم أيضا بشر مخلوقون، وأن الله سبحانه يريد امتحانهم كما يمتحن بهم، لعلهم يرجعون.

ثانياً: لأن للصراع بين الحق والباطل فوائد شتى في بلورة رؤية المؤمنين، وتزكية قلوبهم، وتمحيص نفوسهم، وتطهير صفوفهم، من المنافقين.

سُورَةُ الأعْلى

* مكيّة.

* عدد آياتها: ١٩.

* ترتيبها النزولي:٨.

* ترتيبها في المصحف: ٨٧.

* نزلت بعد سورة التكوير.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فِي فَرِيضَةٍ أَوْ نَافِلَةٍ قِيلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ادْخُلِ الجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ إِنْ شَاءَ اللهُ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٣)

***

روي عنه عليه السلام أنه قال: «الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ إِذَا كَانَ لَنَا شِيعَةٌ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةِ الجُمُعَةِ بِالجُمُعَةِ و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٢٠)

الإطار العام

خطوات على طريق الفلاح

كما خلق الله الكائنات فسواها وأتم صنعها، كما قدر لها شؤونها، وألزمها بسنن، وهداها إليها، كذلك قدر للإنسان ما يصلحه، وجعل له سبل السلام التي تهديه إلى غاياته الكريمة، وبعث إليه رسالته التي تهديه إليها.

ولا تحدد غاية الإنسان بما في الدنيا من عافية وأمن وتقدم وسعادة، بل وأيضا بما في الآخرة التي هي خير وأبقى.

بماذا يهدي الله الإنسان إلى الفلاح؟ بالقرآن الذي يقرؤه الرسول فلا ينسى منه حرفا ليذكر به الناس، ولكن من الذي يتذكر؟ إنما الذي يخشى، بينما الذي يسد منافذ قلبه من دون التذكر فهو الأشقى الذي يصلى النار الكبرى فلا يموت فيها ولا يحيى.

وإذا استطاع الإنسان الإقلاع من جاذبية الدنيا والتحليق في أفق الآخرة التي هي خير وأبقى فإنه يخطو الخطوات الأولى على طريق الفلاح، أما الثانية فالخشية ثم التذكر، وبعدهما تأتي التزكية كخطوة ثالثة تحمله إلى الصلاة والزلفى إلى رب العزة.

هكذا تتواصل آيات سورة الأعلى لتذكرنا ببلاغة نافذة بذات الحقائق الكبرى التي لا بد أن نعيها حتى نبلغ الفلاح. وإنها لمعجزة القرآن أن كل سورة منه تذكر بذات الحقيقة، ولكن بطريقة متميزة جديدة.. بلى؛ إن الحقائق الكبرى تتجلى في مظاهر شتى لأنها غير ما نشهده من الحقائق الجزئية، وهي خلاصة صحف الله التي بعثها إلى أنبيائه العظام كإبراهيم وموسى عليهما السلام.

سبح اسم ربك الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ
﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً(١) أَحْوَىٰ(٢) ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا
تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾
فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾
الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ
﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ
وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] لاسم الله عظمة مشتقة من عظمته، لأنه يدل عليه ويذكرنا به، ويشهد على جلاله وجماله ومجده وكبريائه، ولأن ربنا المتعال خلق في البدء اسمه الأعظم، وجعله على أربعة اختص بواحد فجعله مكنونا عنده لا يطلع عليه أحد من خلقه، وجعل الثلاثة في كلمات: الله، وتعالى، وتبارك، ليهدينا الأول إلى ذاته، والثاني إلى صفاته، والثالث إلى أفعاله، ثم خلق الله الأشياء باسمه، وما نراه في الخليقة من آثار عظمته ليست سوى تجليات لأسمائه.

---

(١) غثاء: الغثاء ما يقذف به السيل على جانب الوادي من الحشيش والنبات، وأصله الأخلاط من أجناس شتى.

(٢) أحوى: شديد السواد.

وهكذا أمرنا بأن ندعوه بأسمائه فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وما نقرؤه في الأدعية المأثورة تأويل لهذا الأمر الإلهي حيث نتوسل إلى الله سبحانه بأسمائه الحسنى، ونقول: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَضَاءَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرَضُونَ وَتَكَشَّفَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ فُجَاءَةِ نَقِمَتِكَ وَ مِنْ تَحْوِيلِ عَافِيَتِكَ وَمِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ»[1].

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ الْأَعْظَمِ الْأَعَزِّ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى مَغَالِقِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ لِلْفَتْحِ بِالرَّحْمَةِ انْفَتَحَتْ وَإِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى مَضَايِقِ أَبْوَابِ الْأَرْضِ لِلْفَرَجِ انْفَرَجَتْ وَإِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى الْعُسْرِ لِلْيُسْرِ تَيَسَّرَتْ وَإِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى الْأَمْوَاتِ لِلنُّشُورِ انْتَشَرَتْ وَإِذَا دُعِيتَ بِهِ عَلَى كَشْفِ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ انْكَشَفَتْ»[2].

وفي أدعيتنا المأثورة عن النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام تشكل أسماء الله الحسنى ركنا أساسيًّا فيها، مثل دعاء الجوشن الكبير الذي يشتمل على ألف اسم وصفة من أسماء الله وصفاته، ودعاء البهاء، ودعاء كميل، وما أشبه[3].

أرأيت ما هذه الأسماء؟ حقا: إن عقولنا لا تحيط علما بها، كيف وهي لم ولا تستطيع الإحاطة علما بكل خلقه، وخلقه مظهر من مظاهر أسمائه؟ ولكن الله آتانا من العلم ما نشير به إلى أسمائه وندعوه بها.. ثم عرفنا بها بما أوحى إلى نبيه من كتاب وأجرى على لسان أوليائه من علم كان بمثابة تفسير للكتاب، وهكذا كانت الأسماء مظاهر عظمته، وآيات شهادته وهيمنته، لا نقدسها إلا بهذه الصفة، ولا نسبحها إلا بهذا الاعتبار، فلأنها الوسيلة إليه تقدس، ولأنها السبيل إلى معرفته تسبح.

هكذا نجد في بعض آيات الذكر تسبيحا لله وفي بعضها لاسمه، فإذا سبحنا الله فإنما بوسيلة أسمائه، لأنه لا سبيل لنا إلى معرفة ذاته، وإذا سبحنا اسم الله فإنما لأنه اسم لله، وسبيلنا لمعرفة الله، ولأننا لا نقدر على معرفته إلا باسمه سبحانه. قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١]، وقال: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٢]، كما

(١) بحار الأنوار: ج٩٤ ص ٨٨، من دعاء الرسول ﷺ ليلة النصف من شعبان.
(٢) البلد الأمين: ص ٨٩، من دعاء السمات.
(٣) راجع: البلد الأمين للكفعمي، مفاتيح الجنان للمحدث القمي.

قال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وهكذا جاءت صفتا الجلال والإكرام للرب بينما نجد في آية أخرى جاءتا صفة لوجهه سبحانه، فقال: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ (٢٦) وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن ٢٦-٢٧]. فهل في ذلك تناقض؟ كلا.. لأن وجه الله لا يراد إلا لله، فهو مجرد وسيلة، كما إن الجلال والإكرام الإلهيين يتجليان بوجهه لنا.

وهكذا أمرنا الله في فاتحة سورة الأعلى بتسبيح اسم الله الذي هو تسبيحه سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ ولذلك روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «**كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَرَأَ** ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ **قَالَ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»[1] وكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام. وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إِذَا قَرَأْتَ** ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ **فَقُلْ فِي نَفْسِكَ سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»[2]. وروي عن ابن عامر الجهني أنه قال: «**لَمَّا نَزَلَتْ** ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ **قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ فَلَمَّا نَزَلَتْ** ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ **قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ**»[3]. وهذه النصوص تدل على أن تفسير الآية تسبيح الله لا مجرد تقديس اسمه، لذلك حذف الاسم عند تسبيحة الركوع والسجود، أو عندما يسبح الله بعد قراءة هذه الآية.

وقال بعضهم: تنزيه اسم الله تعالى وتسبيح اسمه يتم بأن يجرد القول عن ذكر مالا يناسب ذكره مع ذكر اسمه تعالى، فلا ينبغي أن يذكر الأنداد مع اسمه، كما كان يفعل المشركون الذين لا يذكرون الله إلا مع الشركاء من دونه أما إذا ذكر وحده اشمأزت قلوبهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. ولكن يبدو أن هذا التفسير لا يتناسب مع السياق، وبعبارة أن الآية تتجاوز هذا المعنى مع صحته في نفسه.

[٢] ما الذي يدعونا إلى تسبيح الله وتقديسه؟ حينما يرفع الإنسان عن عينيه غشاوة الغفلة، وعن إرادته حجب الجحود، وينظر إلى ما حوله في أبعاد الكائنات، ويستمع إلى همساتها، ويندمج مع إيقاعات تسبيحها، ويلتقط إشارات حركتها.. هنالك ينتقل إلى آفاق معرفة ربه فلا يتمالك إلا أن يسبح بحمد ربه. إنه يرى سماء حفيظة تحيط به، وأرضا وديعة تحمله وتتذلل له، وكائنات نباتية وحياتية تنشط بين أرجاء الأرض وآفاق السماء، كل منها

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٤، ص١٨٢.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٤، ص١٨٠.
(٣) وسائل الشيعة: ج٦، ص ٣٢٧.

خلق بصورة مختلفة عن نظيراتها، ولكنها جميعا تتناغم وكأنها فرقة أنشودة، من أبعد نجمة إلى أصغر ذرة، من أضخم شجرة إلى أصغر نبتة، من الحوت حتى أصغر سمكة، من الفيل حتى أنعم حشرة، من العقاب حتى البعوضة.. كلها وكلها قد خلقت بدقة متناهية. هل سمعت نبأ الذرة التي لا ترى، وكيف بنى الله في عالمها الكبير الصغير مملكة عظيمة؟ لو قستها بالمجرة التي لا نستطيع أن نتخيل عظمتها لرأيناهما قد خلقتا جميعا بقدر عظيم من الدقة والتنسيق... ولكن المجرة هي -في الواقع- مجموعة عظيمة من الذرات، وهي هي ذات الحقيقة تتجلى مرة في شكل ذرة ومرة في صورة مجرة.. وما بين الذرة والمجرة ملايين الملايين من المخلوقات المتنوعة، قد خلقها الله خلقا سويا في ذاتها، وقدر لكل واحد واحد منها هدفا ومسيرة، وهداها إلى هدفها ومسيرتها، وكذلك قال ربنا العزيز: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ والخلق قد يكون بمعنى الإنشاء أو الصنع بعد الإنشاء، وتسويته بمعنى تكميله حتى لا يحتاج إلى شيء لتحقيق ما خلق له إلا وقد أعطاه، ولا تجد ثغرة في خلق الله تعالى ولا فطورا، ولا نقصا كبيرا أو صغيرا.

[٣] وقدر لكل خلق من الكائنات جمادا أو نباتا أو حيوانا أو إنسانا هدفا ألزمه به، وجعله يسعى إليه، وحدد لكل هدف وسيلة، ولكل غاية سبيلا، وهدى كل شيء إلى ما قدر له.. أما الجمادات فقد هداها بما أوجد فيها من قوة وإمكانية، وبما أوجد فيما حولها من ضغوط، مثلا: لعل التفاحة لا تدرك لماذا خلقت؟ ولا تهتدي بذاتها إلى هدفها المتمثل في إغناء جسد الإنسان بما يحتاجه من فيتامين، وروحه بما تتطلع إليه من جمال وروعة، ولكن الله جعل التفاحة هذه الخصائص، وجعل في الإنسان حاجة إليها، فجعل سعي الإنسان إليها بمثابة سعيها إليه على أننا لا نملك معرفة بما في واقع التفاحة أو أي جماد أو نبات أو حيوان من تحسس.

ولكي تزداد معرفتنا بالله وتسبيحنا له ننقل فيما يلي مقاطع من كتاب (العلم يدعو للإيمان) الذي ينقل إلينا الكاتب فيه بعض آيات الله في الطبيعة: «إن الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن، فعصفور الهزَّاز الذي عشش ببابك يهاجر جنوبًا إلى الخريف، ولكنَّه يعود إلى عشِّه القديم في الربيع التالي. وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا إلى الجنوب، وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق عرض البحار، ولكنَّها لا تضلُّ طريقها.... والنحلة تجد خليَّتها مهما طمست الريح، في هبوبها على الأعشاب والأشجار؛ كلَّ دليل يُرى.... ولا بدَّ أنَّ للحشرات الدقيقة عيونًا ميكروسكوبية (مكبرة) لا ندري مبلغها من الأحكام. وأنَّ للصقور بصرًا تلسكوبيًّا (مقربا)»[1].

ويضيف: «إن العاملات من النحل تصنع حجراتٍ مختلفات الأحجام في المشط الذي

(١) العلم يدعو للإيمان، لكريسي موريسون: ص٧٩-٨٠، الصادر عن دار وحي القلم، عام ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧.

يستخدم في التربية، وتعدُّ الحجرات الصغيرات للعمال، والأكبر منها لليعاسيب (الذكر من النحل)، وتعدُّ غرفةً خاصَّةً للملكات الحوامل. والنحلة الملكة تضع بيضًا غير مُخصبٍ في الخلايا المخصَّصة للذكور، وبيضًا مُخصِبًا في الحجرات الصحيَّة المعدة للعاملات الإناث، والملكات المنتظرات. والعاملات اللائي هن إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلًا مجيء الجيل الجديد، تهيأن أيضًا لإعداد الغذاء للنحل الصغيرة بمضغ العسل واللقح، ومقدِّمات هضمه، ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقدِّمات الهضم عند مرحلةٍ معينة من تطوُّر الذكور والإناث، ولا يغذين سوى العسل واللقح. والإناث اللائي يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملاتٍ»[1].

من الذي قدر للنحل أمره وهداه إليه، ومن الذي علم الطيور رزقها ومسراها، وهدى كل حي إلى ما يصلحه وما قدر له. أليس الله؟ فسبحان ربي الأعلى. دعنا نستمع إلى قصة لعنكبوتٍ مائي: يقول الكاتب موريسون: «إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عِشًّا على شكل منطاد (بالون) من خيوط بيت العنكبوت، وتعلقه بشيءٍ ما تحت الماء، ثم تمسك ببراعةٍ فقاعة هواء في شعر تحت جسمها، وتحملها إلى الماء ثم تطلقها تحت العش، ثم تكرِّر هذه العملية حتى ينتفخ العشُّ، وعندئذٍ تلد صغارها وتربيها، آمنة عليها من هبوب الهواء. فهاهنا نجد طريقة النسج بما يشمله من هندسةٍ، وتركيبٍ، وملاحةٍ جويةٍ»[2].

وهكذا يقدر الله لهذا الحيوان أو ذاك النبات ما يصلحه ثم يهديه إليه، فسبحان ربنا الأعلى، ولكن ذلك لا يختص بالحيوان المتكامل أو النبات التام بل حتى الخلايا هداها الله لما قدرت له بطريقة غريبة، يقول المؤلف: «كلُّ خليَّةٍ تنتج في أيِّ مخلوقٍ حيٍّ يجب أن تكيِّف نفسها لتكون جزءاً من اللحم، أو أن تضحي نفسها كجزءٍ من الجلد الذي لا يلبث حتى يبلى. وعليها أن تضع ميناء الأسنان، وأن تنتج السائل الشفَّاف في العين، أو أن تدخل في تكوين الأنف، أو الأذن. ثم على كلِّ خليَّةٍ أن تكيِّف نفسها من حيث الشَّكل وكلِّ خاصيَّةٍ أخرى لازمةٍ لتأدية مهمَّتها. ومن العسير أن نتصوَّر أن خليَّة ما هي ذات يدٍ يمنى، أو يسرى، ولكن إحدى الخلايا تصبح جزءاً من الأذن اليمنى، بينما الأخرى تصبح جزءاً من الأذن اليسرى.

إنَّ مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنَّها مدفوعةً لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب..»[3]. وهكذا الخلية الواحدة تصلح أن تكون مدرسة توحيدية شريطة أن تصبح تلميذا فيها، فهل أنت مستعد؟!.

---

(١) العلم يدعو للإيمان: ص ٨١-٨٢.
(٢) العلم يدعو للإيمان: ص٨٣.
(٣) العلم يدعو للإيمان: ص٦٨-٦٩.

[٤] ولكن هذه القدرة الهائلة التي تتجلى في الكائنات ليست قدرة ذاتية فيها، بل هي من عند ربها، وهكذا تعيش كلها دورة حياتية معينة لا تلبث أن تساق نحو الفناء حسب تقدير ربها، وإن في ذلك لآية على أن ما بها من قدرة وقوة وحول وطول فهي من عند الله، وأن ما فيها من نقص وعجز وحد وقيد لشاهد على تعالي بارئها منها، وأنه قدوس سبحانه بلا نقص ولا عجز ولا حد ولا قيد.

ويضرب القرآن لنا مثلا ظاهرا لهذه الدورة الحياتية السريعة، ويقول: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ فلقد كانت الأرض حبلى بالمواد التي جعلها الله بالماء وأشعة الشمس نباتا، فإذا بأديمها يخضر بالعصف والريحان، ولكن كم يدوم ذلك؟ ليس إلا أياما معدودة.

[٥] وبعد أيام تتحول الأرض إلى بساط أصفر، وتتراكم أوراق الشجر وبقايا الحصاد إلى غذاء للأحياء بعد المواسم. وإذا بقت المراعي هكذا وتراكمت عليها طبقات من التراب أصبحت فحما حجريا تنتفع منه الأجيال القادمة. لا شيء من خلق الله يذهب باطلا. أنه يصبح مادة لخلق جديد أو ما ينفع الخلق الجديد. ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ قالوا: أصل كلمة الغثاء زبد السيل وما يتجمع في أطراف المياه من بقايا النبات والقماش، ويقال للبقل والحشيش إذا تحطم ويبس. أما الأحوى فإنه الأسود، وإذا تراكم النبات واشتد اخضراره تراءى كأنه سواد، ومن هنا سميت أرض العراق بأرض السواد. ما هذه القدرة التي تقلب الأرض كيف تشاء، فحينا تستخرج نباتها، وآخر تدعها بلقعا تتجمع حولها الغثاء الأحوى؟ وكما الدورة النباتية السريعة كذلك دورة الحياة عند الإنسان إنها تدور بسرعة فإذا باخضرار الحياة تتحول إلى سواد الموت وهكذا الآخرة هي خير من الأولى لمن بصر وعقل.

[٦] لا تنفصل رسالات الله عن السياق العام لمسيرة الكائنات. إنه الله الذي تشهد الخلائق بقدسه وعظمته يبعث إلينا رسولا ويحمله كتابا وهدى، فأيتها السماء اخشعي، ويا أرض قري، ويا أيها الإنسان استعد لتلقي رسالة الله إليك والتسليم للرسول الكريم. ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ أولم يأتك نبأ حراء حيث هبط الروح جبرائيل على محمد الصادق الأمين فقال له اقرأ.. وتواصلت آيات الله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢]، هكذا أقرأ الله نبيه قراءة واضحة مبينة، فلم تكن وساوس في صدره، ولا أفكار بقلبه، ولم تكن حقائق مجردة يعرف بعضها ويجهل الكثير، كلا.. إنها كلمات واضحة تلقاها الرسول، ونطق بها بوضوح، وهذا هو معنى إقراء الله له جملة بجملة وكلمة بكلمة وحرفا بحرف. وحين يكون المقرئ هو الله والمتلقي من اختاره بعلم لحمل رسالته المهيمنة على كل الرسالات فإن الرسول لا ينسى بإذن الله، ليس لأنه يخرج من حد البشر الذي يجوز له النسيان، بل لأن ربه أبى أن ينسى، فالضمانة هنا من عند

الله، ومن كان الله ضامنا له كيف ينسى؟! إنها حقيقة العصمة كما يفهمها أهل البصائر، أن يقي الله عبدا من عوامل الانحراف ومزالق الضعف ومراكز الهوى والشهوات.

[٧] ولكي لا يزعم البسطاء من الناس أن الرسول يصبح بالرسالة إلها أو نصف إله لم يدع كتاب الله هذه التذكرة.. في أغلب ما حدثنا عن رسله الكرام أنه إما بين نقاط ضعفهم التي يجبرها الله بعصمته أو حالتهم البشرية أو أن لله المشيئة في أمرهم حتى عند وعده إياهم، فلا يقدر أحد أن يحتم عليهم أمرا، بلى، إن الله صادق الوعد ولن يخلف وعده أبدا، ولكن فرق واسع بين أن يكون كذلك وأن يحتم عليه أحد من خارج إطار فضله ورحمته ومشيئته شيئا. هكذا نستوحي من الآية الكريمة هذه التذكرة. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ كما قال ربنا سبحانه في قصة النبي شعيب عليه السلام: ﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]. فهل يشاء الله أن يعود المؤمنون إلى ملة الكفر؟ وكما قال ربنا سبحانه في أصحاب الجنة: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] فالخلود ينفي الخروج منها، فالمشيئة إذن لإلفات النظر إلى بقاء المشيئة والسلطنة.

ويتساءل القارئ: إذا ما هي علاقة علم الله بالسر والعلن بهذا الاستثناء؟ حيث يقول ربنا: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ والجواب: إننا نجد مثل هذه العلاقة في آية الأعراف في قصة شعيب إذ أنه قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، ذلك أن من بيده المشيئة والقدرة على الاستثناء هو العليم الذي لا ينسى، وهو الذي يحفظ النبي من النسيان، حسب حكمته البالغة، وحيث إن جملة ﴿يَعْلَمُ..﴾ في سياق التعليل، وأن المشيئة والعلم اقترنا في الآيتين فكأن مفاد الآية: فلا تنسى بلطف من الله وهو تعالى لطيف لما يشاء وهو تعالى غالب على أمره وبالغه، وهو العالم بما يعتري الإنسان من أسباب النسيان وعوامله فيدفعها عنه ويحفظه منها، وإن كان ثمة مشيئة من الله بخلاف هذا فستكون من قبيل ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦]. ولعل هذه الكلمة تتصل بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ فهو يقرئ ما يشاء لأنه عالم الجهر وما يخفى، فالعلم الإلهي بالخليقة هو ضمانة أن الإقراء سيكون وافياً وحكيماً. والمشيئة الإلهية في الاستثناء إنما هو فيما هو مختص به تعالى من غيوب فلا يُطلع عليه أحد.

وقد فصّل المفسّرون القول في هذه الكلمة، و ذهب بعضهم مذاهب بعيدة حيث أنّه قال: إنّ المراد بما شاء الله نسيانه هو ما نسخ من الكتاب نصّا وبقي حكمه أو طال النسخ الحكم والنص (التلاوة). و لكنّ الآية لا تدلّ عليه، و لم يثبت تاريخيًا -بصورة يطمئن القلب- أنّ في القرآن آية منسوخة (بهذا المعنى من النسخ[1])، بل وسياق آيات القرآن وهذه الآية بالذات ينفي ذلك تماماً. كيف؟.

يلاحظ على هذا النسخ (نسخ التلاوة وبقاء الحكم، نسخهما معا):

أولاً: أنّ ما ذكر من الروايات في هذا المضمار أخبار آحاد لا يثبت به كون الآية قرآنية باقية حكمها منسوخة تلاوتها، أو أن النسخ طال الاثنين.

وقد أجمع المسلمون على أنّ النسخ لا يثبت بخبر الواحد، كما أنّ القرآن لا يثبت به. وذلك لأنّ الأمور الجليلة التي هي محط اهتمام الناس لا تثبت بخبر الواحد، فإنّ اختصاص نقلها ببعض دون بعض بنفسه دليل على ضعف الحديث.

ثانياً: ما معنى هيمنة الكتاب على ما سواه بما في ذلك السنة!. فأخبار العرض على

(١) المعروف أن النسخ ثلاثة أقسام نوجزها بما يلي:
الأول: **نسخ التلاوة دون الحكم**: ويقصد بهذا النسخ أن تكون هناك آية قرآنية نزلت على الرسول ﷺ، ثم نسخت تلاوتها ونصها اللفظي مع الاحتفاظ بما تضمنه من أحكام. ومثلوا له برواية عن عمر بن الخطاب وأبي بن كعب، انّهما قالا: «وكان فيما أنزل من القرآن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة». (رواه أبو داود في الحدود: ص١٦، وابن ماجة في الحدود: ص٩، ومالك في الحدود: ص١٠ وأحمد بن حنبل في مسنده: ج٥، ص١٨٣).
وهذه الآية -المزعومة- لم يعد لها وجود بين دفّتي المصحف ولا على ألسنة القرّاء مع أنّ حكمها باق على أحكامه لم ينسخ.
الثاني: **نسخ التلاوة والحكم معاً**: وينسخ تلاوة الآية ومضمونها. ومثلوا له بمروية عن عائشة انّها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن، ثمّ نسخن بخمس معلومات، فتوفّي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن». (صحيح مسلم: ج ٤، ص١٦٧).
الثالث: **نسخ الحكم وبقاء التلاوة**: وهو القدر المتيقّن من النسخ، وتسالم على جوازه علماء الإسلام، والمراد منه بقاء الآية ثابتة في الكتاب مقروءة عبر العصور سوى أنّ مضمونها قد نسخ، فلا يجوز العمل به بعد مجيء الناسخ.
وأمّا عدد الآيات التي ورد عليها النسخ فهناك قولان بين الإفراط والتفريط. فأنهاها أبو جعفر النحاس (المتوفّى عام ٣٣٨هـ) إلى ١٨٠ آية في كتابه (الناسخ والمنسوخ) المطبوع، كما أنكر بعض المحققين أصل النسخ في القرآن الكريم خصوصاً بمعنى أن المنسوخ كان قرآنا لأنه يرجع للإبطال. والمعروف هو وجود النسخ في القرآن الكريم بمقدار ضئيل للغاية، منها آية النجوى، وآية التربّص إلى الحول ومثل ذلك الذي لا يرجع إلى الإبطال.

الكتاب أو صريح القرآن بأن بيان النبي ﷺ بيانٌ وليس نقضا له.. أليس تجويز النسخ هو جعل السنة مهيمنة على القرآن؟.

ثالثاً: أنّ هذا القول هو نفس القول بالتحريف، وتفسير هذا النوع من التحريف بنسخ التلاوة والحكم تلاعب بالألفاظ وتعبير آخر للتحريف.

إنّ الله سبحانه يصف كتابه بأنّه كتاب عظيم، وأنه هدى للعالمين، وأنّه نور مبين، وأنّه آخر رسالة إلهية إلى خلقه، فكيف يسمح ربنا لمثل هذا الكتاب أن يتعرّض للدس والتزوير والتحريف والنسيان؟، أو أن تكون بعض آياته مجانبة للحق وللحكمة فتبطل ويستغنى عنها؟.

إن الرب تعالى يصف كتابه بأنّه المقتدر الذي لا يُغْلَب ولا يأتيه الباطل من أي جانب، قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

إن الباطل يقابل الحق، فالحق ثابت لا يُغْلب; فالقرآن حقّ في مداليله ومفاهيمه، وأحكامه خالدة، ومعارفه وأُصوله مطابقة للفطرة، وأخباره الغيبية حق لا زيغ فيه، كما أنّه نزيه عن التناقض بين دساتيره وأخباره ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فكما أنّه حقّ من حيث المادة والمعنى، فهو حقّ من حيث الصورة واللفظ أيضاً، فلا يتطرّق إليه التحريف، والحاصل أنّ تخصيص مفاد الآية (نفي الباطل) بطروء التناقض في أحكامه وتكاذب أخباره لا وجه له، فالقرآن مصون عن أيّ باطل يبطله، أو فاسد يفسده، وهذا يشمل آياته آية آية كما مجموعه.

رابعاً: إنّ النبي آمن بهذا الكتاب و آمن به المؤمنون وآمنوا جميعا بهذه الصفات التي نجدها فيه فكيف تركوه عرضة للنسيان و التحريف، علما بأنّهم أصبحوا بنّاء حضارة رائدة، فلم يتعرض المسلمون -كمجموع- لحرب إبادة حتى يمكن الافتراض أنّ ظروف العمل السري أنستهم بعض ما في كتابهم.

والقرآن الكريم هو الكتاب المقدس عند المسلمين وهو عمادهم وشغلهم الشاغل. ولقد عكف المسلمون على حفظ القرآن واستظهاره. وقد تكوّنت نتيجة هذا الإقبال المتزايد منهم على حفظه واستظهاره جماعة كبيرة، عرفت بحفظها القرآن الكريم واستظهارها لنصه بشكل مضبوط.

إن إمكانات التدوين والتسجيل كانت متوفرة لدى الرسول ﷺ حيث لا تعني هذه الإمكانات حينئذ إلاّ وجود أشخاص قادرين على الكتابة يتوفر فيهم الإخلاص في العمل إلى جانب توفر أدوات الكتابة، وليس هناك من يشك تاريخياً في تمكن المسلمين من كل ذلك.

وقد شاعت القراءة والكتابة في عهد الإسلام الأول، وقد اهتم المسلمون بكلّ تفاصيل تاريخهم، وحتى ببعض ما يهمله عادة الكتّاب و المؤرخون، وقد رغّب القرآن في ذلك، وأقسم بالقلم وبما يسطرون، فكيف ضاعت عليهم كلمات ربهم مع ذلك الاهتمام الذي أولوه لها؟.

أنّ أصل عملية الجمع والتدوين تمت في زمن النبي ﷺ وحينئذ فان القرآن الذي تم جمعه في عهد الرسول الاعظم ﷺ -حيث عهد بها لأمير المؤمنين ليؤلفه مصحفا ناهيك عن الحفاظ الآخرين- لا يمكن أن يكون إلاّ دقيقاً ومتقناً لرعاية الرسول لجمعه، ومع وجود هذا القرآن لا مجال لأن نتصور وقوع الغفلة أو الاشتباه لاحقا، كما لا يمكن أن نحتمل عدم وصول بعض الآيات إليهم.

إن النتيجة المنطقية كما تنفي افتراض التحريف نتيجة الغفلة أو الاشتباه أو عدم وصول بعض الآيات القرآنية ـ كذلك تنفي آيات مزعومة تمّ نسخها ولم يتعرف عليها إلا الآحاد.

خامساً: هنا القرآن يقول للرسول ﷺ ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ فأيّة حكمة كانت وراء الإقراء وعدم النسيان؟ أليست بقاء رسالة الله التي هي خاتمة رسالاته للعالمين؟ فكيف يمكننا أن نفترض تعرّض هذه الرسالة للتحريف؟.

إنني أعتقد -انطلاقاً من هذه الشواهد وغيرها- أن القرآن الذي بلغنا هو الذي أنزل من عند الله وبهذا الترتيب بين آيات سوره، وأن الذي جمعه هو شخص الرسول ﷺ عبر الذي كان يأمرهم بأن يضعوا الآية في موقعها من السورة حتى ولو نزلت آية في أول البعثة في مكة والأخرى في المدينة وفي آخر أيام حياته، فقد تضافرت الروايات أنه إذا نزل القرآن أرشد لمكان الآية من السورة وقد تكفل الرب بجمع القرآن ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]. كما تكفل هاهنا تعالى بعدم النسيان. وأنني لا أتصور كيف يمكن للرسول أن يترك كتاب ربه العظيم بلا ترتيب وقد أُمر بإبلاغه للعالمين؟!.

[٨] كما قدر الله لكل شيء تقديرا وهداه إلى تقديره كذلك قدر للإنسان تقديرا، وجعل لحياته سننا ومناهج ثم هداه إليهما ولكن بصورة مختلفة عن سائر الأشياء والأحياء.. فلقد زوده بالعقل واستثار عقله بالوحي، وحمله الإرادة والمسؤولية، حتى يكتشف ببصيرة عقله وهدى الوحي أي السبل تؤدي به إلى أهدافه، فإن سار على سبل السلام تيسرت أهدافه، وإذا تنكب

عنها وقع في حرج عظيم. أرأيت الذي يترك الطريق المعبد إلى المتاهات الوعرة، إنه لا يبلغ أهدافه، ولو بلغ شيئا منها فإنها بجهد مضاعف. ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ لم يخلق الله الإنسان ليعذبه، أو ليلهو بخلقه سبحانه، ولكنه خلقه ليرحمه، وليتفضل عليه بمنه وكرامته، كما لم يخلق حيا ليعذبه أو يلهو به، وأما الذي يقع على البشر من عذاب ومن مشاكل فبما كسبت أيديهم. هكذا فسروا اليسرى بالشريعة السمحاء التي وفق الله النبي وأمته إليها لكي يعيشوا بأمان وسكينة. إنها الشريعة التي تبعث رؤى وبصائر الإنسان من وجدانه، وتتناسب مع فطرته وحاجاته، وتنسجم مع الطبيعة من حوله.

إن دين الله يختار بين مناهج المعرفة ذلك المنهج القائم على أساس استثارة الفطرة ومخاطبة الوجدان، ويرغب الإنسان للنظر بنفسه في الأشياء، وملامسة الحقائق بالسير في الأرض والتفكر في آثار الغابرين ومراقبة ظواهر الطبيعة. ويتبع هذا المنهج في سائر ما يحتاج إليه الإنسان من معارف، في عقائده وأحكامه، في معاملته مع الآخرين، لأن الاطمئنان والثقة والعرف وشهادة العدول ورأي الخبراء هي موازين التعامل بين الناس، وهي إذا قيست إلى غيرها من المناهج المعقدة في سائر الأديان سهلة وميسرة. كما أن أحكام الدين في المواقيت والمكيال والميزان تتصل بالحالة الطبيعية للإنسان. أرأيت كيف أوجب الصلاة قبل طلوع الشمس وبعد الغروب وعند دلوكها، وأوجب الصيام مع الهلال الذي يشهده الجميع؟ ولم يهمل أية حاجة من حوائج البشر، فلا حرم الزواج، ولا نهى عن زينة الحياة الدنيا، ولا ضيع العواطف، ولا أهمل تطلعات الروح.. وأي شريعة أيسر من التي تتناسب وحاجات البشر؟ ولعل هذا هو سر انتشار الإسلام عبر القرون بصورة مطردة، ولا يزال الدين الإسلامي هو الأول في نسبة زيادة عدد المنتمين إليه كل عام. وقد وفق الله رسوله ﷺ لتقبل الوحي، ويسره له، ويسر معارف القرآن لمن أراد بتوفيق منه، ولولا أن الله يسر ذلك لما استطاع العقل معرفة كلمة واحدة من كلمات الرب.

[٩] لأن الله يسر شريعته للناس، ويسر الحياة لهم بها، أمر بالدعوة إليها عبر المنهاج الميسر المتمثل في التذكرة. أليست التذكرة تستهدف إثارة العقل وإيقاظ الضمير ليبصر الإنسان الحقيقة بنفسه ومن دون حجاب أو وسيط؟ ﴿فَذَكِّرْ﴾ ولكن هل التذكرة تنفع الناس جميعا شاؤوا الانتفاع بها أم أبوا؟ كلا.. إنها لن تنفع من لا يخشى، لأنها إثارة العقل من داخل الإنسان، وشرط نفعها استعداد الإنسان للتأثر بها، أما القلب الجامد الجاحد المتصلب فإنه أشد من الصم الصياخيد، وهكذا قال ربنا: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني أن تذكرتك نافعة مع وجود الشروط الموضوعية لها، أما بدونها فهي لا تنفع، لا لنقص فيها وإنما للصد من قبلهم، وهذا لا يعني الكف عن التذكرة أن لم تنفع إذ لا يفهم نفعها أو عدم نفعها إلا بعدها، وهذا مثل

أن نقول: طلعت الشمس إن رأيتها، هذا واضح إن فكرت. وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، قال الجرجاني: التذكير واجب وإن لم ينفع، والمعنى: فذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع فحذف، كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ..﴾[النحل: ٨١]، وإطلاق الوجوب لا يستقيم مع مثل ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩] إلا من باب إتمام الحجة. ثم لا يجب الاستمرار في التذكر. وقال ابن عباس: تنفع أوليائي ولا تنفع أعدائي، وقال البعض: ﴿إِن﴾ هنا بمعنى «إذ» كقوله: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وهو بعيد لأن الذكرى ليست دائماً نافعة كما هو واضح. والأقرب: أن كلمة ﴿إِن﴾ هنا الشرطية في الظاهر، ولكن المراد منها هنا ليس ظاهرها، كما أن أداة الاستفهام تطلق ويراد بها التقرير أو الإنكار أو ما أشبه، ولأن الذكرى تسبق معرفة نفعها وعدم نفعها فإن الشرط إنما هو لبيان فائدة التذكرة لا أصلها وإلفات النظر إلى رجاء الفائدة، ويستفاد ذلك من السياق الآتي الذي يفصّل موقف البشر من التذكر ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ و ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾. وبعبارة: إن رجاء الانتفاع من التذكر هو مبرر السعي في التذكير، والحد الأدنى منه حاصل وهو إتمام الحجة، نعم رجاء الانتفاع يرتفع مع الذين حكى عنهم القرآن ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، فلا يجب التكرار.

لذا المبلغ إنما يختار لدعوته الذين يجد فيهم أرضاً طيّبة لكلمته المباركة ويترك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا يقول تعالى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾[الأنعام: ٧٠].

[١٠] التذكرة للجميع. إنها موعظة للمؤمن، وحجة بالغة على الكافر، والدليل أن المؤمن يتذكر بها، بينما الأشقى يتجنبها. ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الخشية ميراث المعرفة، فمن لم يفكر في المستقبل ولم يعش وعيه لا يستعد له، فلا يبحث عما ينفعه فيه، ولا يتحذر مما يضره فيه. وهكذا جعلت الخشية التي هي فعل الإنسان نفسه شرطا لنفع الذكرى. لنعرف أن علينا ألا ننتظر الهدى من دون سعي منا إليه، بلى، لو تقدمت إلى الله شبرا تلقاك رب الرحمة بفضله مترا وأكثر.

[١١] أما الكافر الذي بلغ من الشقوة درجة سدت أبواب المعرفة أمامه فإنه يتجنب التذكرة. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ فهو يهرب منها كما لو إنها تضره، ويضع أمامه حواجز لكي لا تصل إليه، ويلفق حول صاحبها التهم عساه يقنع نفسه بأنه على حق، وهو الأشقى لأنه لا

يرجى له علاج، فقد يكون الأقل منه شقوة ينتفع بالذكرى في بعض ساعات حياته.

[١٢] ومثل هذا الإنسان لا يصلح إلا للنار، لأنه أعدم كل عناصر الخير في ذاته. ﴿ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ ليست كهذه النار التي نراها في الدنيا. إنها أشد وأبقى، وقد بين الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام مدى الفرق بينهما بالقول: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَقَدْ أُطْفِئَتْ سَبْعِينَ مَرَّةً بِالْمَاءِ ثُمَّ الْتَهَبَتْ وَلَوْلا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ آدَمِيٌّ أَنْ يُطِيقَهَا»(١).

[١٣] والسؤال: كيف يتحمل جسم الإنسان هذه النار العظيمة فلا يحترق ويصبح رمادا أو غازا كما أصبحت الأشياء التي احترقت بنار القنبلة الذرية، والتي لا ريب أنها أقل بكثير من نيران جهنم؟ بلى، ربنا يعطي الجسم المزيد من الإمكانات تمهيدا لتألم صاحبه. أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾[النساء: ٥٦]؟ وهكذا يبقى الأشقى في النار بين الموت والحياة، فكل أسباب الموت موجودة، وكل عوامل الحياة مفقودة، ولكنه لا يموت بقدرة الله. ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ ومثال ذلك في الدنيا أن بعضهم يبتلى بعذاب الدنيا من فقر ومرض وسجن وقلق و.. و.. ولكنه لا يموت فيستريح، فيقول مع الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عناها ولا تحيا حياة لها طعم

[١٤] تلك كانت عاقبة الذي يتجنب التذكرة، أما الذي تذكر فإنه يتدرج في معارج السمو حتى يبلغ الذروة، كيف؟ إنه بعد التذكر يزكي نفسه من رواسب الشرك بالله، فلا يقدس أحدا سواه، بل لا يخاف أحدا حق الخوف ولا يرجوه حق الرجاء ما سوى ربه الأعلى، ويسعى لتطهير قلبه من حب الدنيا، والتكاثر منها، والتنافس على حطامها، ويتحرر من الغل تجاه إخوانه ومن الحسد والحقد والعصبية، وهكذا يبلغ الفلاح الذي يعني وصول الإنسان إلى هدفه الأسمى. ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إنه يبحث عن الطهارة، طهارة قلبه من رواسب الشرك وأخلاقه الرذيلة، وتطهير ماله من الحرام، وحقوق الفقراء (بما يسمى زكاة بوجه عام)، وتطهير جسده من النجاسات. ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال (في تفسير الآية): «أَخْرِجْ زَكَاةَ الفِطْرِ»(٢). وبهذا التفسير لكلمة التزكي نجمع بين الآراء المختلفة في تفسيرها من زكاة القلب من الشرك إلى زكاة المال من حق الآخرين.

(١) تفسير القمي: ج ١ ص٣٦٦، بحار الأنوار: ج ٨ ص ٢٨٨.
(٢) القرطبي: ج٢٠ ص ٢١.

[١٥] وبعد أن يتزكى القلب يتلقى نور ربه، فيذكره بانشراح، ويصلي له بخضوع. ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ وهنا أيضا ذكر الاسم وأريد المسمى، أوليست الصلاة منه وليست لاسمه سبحانه. والقلب من دون تزكية لا يتلقى نور الذكر، فإن كل عقدة نفسية أو ضلالة شركية أو انحراف خلقي يشكل حجابا بين العبد وربه، فأنى لمن يشرك بالله أن يعرفه، وأنى لمن غمر قلبه بحب الدنيا وزينتها أن يتفرغ لرؤية جمال الخالق ونعيمه في الآخرة؟! أولم يقولوا: حب الشيء يعمي ويصم؟.

والصلاة هنا كل حالة خشوع لله ولرسوله ولمن أمر الرسول. إنها التسليم التام لله، ولذلك جاء في بعض النصوص تأويلها بصلاة العيد وفي بعضها تأويلها بالصلاة على النبي ﷺ بلى. إنهما معا مظهران لحالة واحدة، فمن سلم لله سلم لرسوله، ومن صلى صلاة العيد فانما يصليها خلف إمام نصبه الله، وأمر باتباعه الرسول. أليس كذلك؟ هكذا «سُئِلَ الإمام الصَّادِقُ عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ قَالَ عليه السلام: مَنْ أَخْرَجَ الْفِطْرَةَ. فَقِيلَ لَهُ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ قَالَ عليه السلام: خَرَجَ إِلَى الجَبَّانَةِ فَصَلَّى»[١]. وجاء في حديث مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: (في تفسير الآية): «كُلَّمَا ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ»[٢].

[١٦] ما الذي يمنع الإنسان من تواصل ذكر اسم الله والصلاة له والدعاء إليه؟ أليس الله أقرب شيء إليه؟ أوليس أرحم الراحمين؟ أولم يدعه إلى نفسه ورغبه في نعيمه؟ بلى، ولكن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والدنيا قد أحضرت له بكل زينتها وشهواتها وغرورها وأمانيها، بينما الآخرة قد غيبت عنه وادارك علمه فيها فنسيها وأقبل على ضرتها. ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ فهذه طبيعة بني آدم جميعا إلا من عصمه الله، وأقلع نفسه من جاذبية الدنيا، وحلق في سماء المعرفة.. وإنما ذكرنا القرآن بهذه الحقيقة لنعرف أين مكمن الخطر في أمرنا، وكيف يمكننا تجنبه؟.

جاء في حديث جامع مأثور عن الإمام السجاد عليه السلام حول الموقف من الدنيا، أنه قال بعد أن سُئل: أي الأعمال أفضل عند الله؟ «مَا مِنْ عَمَلٍ بَعْدَ مَعْرِفَةِ الله جَلَّ وعَزَّ ومَعْرِفَةِ رَسُولِهِ ﷺ أَفْضَلَ مِنْ بُغْضِ الدُّنْيَا وإِنَّ لِذَلِكَ لَشُعَباً كَثِيرَةً ولِلْمَعَاصِي شُعَباً فَأَوَّلُ مَا عُصِيَ الله بِهِ الْكِبْرُ وهِيَ مَعْصِيَةُ إِبْلِيسَ حِينَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ والْحِرْصُ وهِيَ مَعْصِيَةُ آدَمَ وحَوَّاءَ حِينَ قَالَ الله عَزَّ وجَلَّ لَهُمَا: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَأَخَذَا مَا لَا حَاجَةَ بِهِمَا إِلَيْهِ فَدَخَلَ ذَلِكَ عَلَى ذُرِّيَّتِهِمَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وذَلِكَ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَطْلُبُ ابْنُ

(١) من لا يحضره الفقيه: ج١ ص٥١٠. (والجبانة: الصحراء لأن صلاة العيد تصلى فيها).
(٢) الكافي: ج٢، ص٤٩٤.

آدَمَ مَا لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَيْهِ.

ثُمَّ الْحَسَدُ وهِيَ مَعْصِيَةُ ابْنِ آدَمَ حَيْثُ حَسَدَ أَخَاهُ فَقَتَلَهُ فَتَشَعَّبَ مِنْ ذَلِكَ حُبُّ النِّسَاءِ وحُبُّ الدُّنْيَا وحُبُّ الرِّئَاسَةِ وحُبُّ الرَّاحَةِ وحُبُّ الْكَلَامِ وحُبُّ الْعُلُوِّ والثَّرْوَةِ فَصِرْنَ سَبْعَ خِصَالٍ فَاجْتَمَعْنَ كُلُّهُنَّ فِي حُبِّ الدُّنْيَا فَقَالَ الْأَنْبِيَاءُ والْعُلَمَاءُ بَعْدَ مَعْرِفَةِ ذَلِكَ حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ والدُّنْيَا دُنْيَاءَانِ دُنْيَا بَلَاغٍ ودُنْيَا مَلْعُونَةٌ»(١).

[١٧] بلى، إنها نتسلى عن الدنيا وزبرجها بذكر الآخرة ونعيمها، فإذا دعتك إلى الجنس الحرام شهوة وشبق فتذكر الحور العين فإنهن خير وأبقى، وإذا استطبت مالا حراما أو طعاما ضارا فتذكر فواكه الجنة ولحومها فإنها خير لك وأبقى ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ إنها الأكمل، وقدرة الإنسان يومئذ كاملة. إنك لا تستطيع أن تستمر في الأكل إلا ريثما يمتلئ بطنك، ولكن أهل الجنة يجلسون إلى المائدة طويلاً لا يملون ولا يسأمون. وإن شبق الجنس محدود عند البشر، بينما في الآخرة يؤتى القوة فلا يتعب ولا يمل فإذا قضوا منه الوطر عافوه، بينما لكل واحد من أهل الجنة عشرات بل مئات النساء وأكثر ويعطى القوة لإيتائهن بلا تعب ولا كلل. وإن المرض والهرم والكسل والضجر والموت يهدد أهل الدنيا، بينما الآخرة باقية مع الأبد.

روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَحْيَوْنَ فَلَا يَمُوتُونَ أَبَداً ويَسْتَيْقِظُونَ فَلَا يَنَامُونَ أَبَداً وَيَسْتَغْنُونَ فَلَا يَفْتَقِرُونَ أَبَداً وَيَفْرَحُونَ فَلَا يَحْزَنُونَ أَبَداً وَيَضْحَكُونَ فَلَا يَبْكُونَ أَبَداً وَيُكْرَمُونَ فَلَا يُهَانُونَ أَبَداً وَيَفْكَهُونَ وَلَا يَقْطِبُونَ أَبَداً وَيُحْبَرُونَ وَيُسَرُّونَ أَبَداً وَيَأْكُلُونَ فَلَا يَجُوعُونَ أَبَداً وَيَرْوَوْنَ فَلَا يَظْمَئُونَ أَبَداً وَيُكْسَوْنَ فَلَا يَعْرَوْنَ أَبَداً وَيَرْكَبُونَ وَيَتَزَاوَرُونَ أَبَداً وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمُ الْوِلْدَانُ الْمُخَلَّدُونَ أَبَداً بِأَيْدِيهِمْ أَبَارِيقُ الْفِضَّةِ وَآنِيَةُ الذَّهَبِ أَبَداً مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ أَبَداً عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ أَبَداً يَأْتِيهِمُ التَّحِيَّةُ وَالتَّسْلِيمُ مِنَ اللهِ أَبَداً نَسْأَلُ اللهَ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(٢).

[١٨] وهذه الحقائق وبالذات حقيقة الدنيا، وأنها ليست بدار بقاء، وأن الآخرة خير منها وأبقى، إنها لا تخص رسالة النبي بل هي في صحف الأنبياء جميعا عليهم السلام، ولا سيما صحف إبراهيم عليه السلام الذي يحترمه العرب كما اليهود والنصارى، وموسى عليه السلام الذي يزعم اليهود أنهم أنصاره ثم ترى العرب واليهود يعبدون الدنيا، ويزعمون أن ذلك من دين الله. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فلم يكن الرسول بدعا بين إخوانه.

---

(١) الكافي: ج٢، ص١٣٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٨، ص٢٢٠.

[١٩] ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ وقد روي عن رسول الله ﷺ بعض ما في هذه الصحف. جاء في كتاب الخصال: عن أبي ذر رحمه الله قال: «دَخَلْتُ يَوْماً عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ فَاغْتَنَمْتُ خَلْوَتَه... قُلْتُ يَا رَسُولَ الله كَمْ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ قَالَ ﷺ: مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ أَنْزَلَ اللهُ عَلَى شَيْثٍ خَمْسِينَ صَحِيفَةً وَعَلَى إِدْرِيسَ ثَلاثِينَ صَحِيفَةً وَعَلَى إِبْرَاهِيمَ عِشْرِينَ صَحِيفَةً وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ.

قُلْتُ يَا رَسُولَ الله فَمَا كَانَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ؟. قَالَ ﷺ: كَانَتْ أَمْثَالاً كُلُّهَا وَكَانَ فِيهَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَكِنْ بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُوم فَإِنِّي لا أَرُدُّهَا وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوباً عَلَى عَقْلِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَرْبَعُ سَاعَاتٍ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا بِحَظِّ نَفْسِهِ مِنَ الْحَلَالِ فَإِنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ عَوْنٌ لِتِلْكَ السَّاعَاتِ وَاسْتِجْمَامٌ لِلْقُلُوبِ وَتَوْزِيعٌ لَهَا وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيراً بِزَمَانِهِ مُقْبِلاً عَلَى شَأْنِهِ حَافِظاً لِلِسَانِهِ فَإِنَّ مَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ طَالِباً لِثَلاثٍ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ تَلَذُّذٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ.

قُلْتُ يَا رَسُولَ الله فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى عليه السلام قَالَ ﷺ: كَانَتْ عِبَراً كُلُّهَا وَفِيهَا عَجَبٌ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ وَلِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ لِمَ يَضْحَكُ وَلِمَنْ يَرَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا لِمَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا وَلِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ كَيْفَ يَنْصَبُ وَلِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ لِمَ لَا يَعْمَلُ»(١).

(١) الخصال: ج٢ ص٥٢٣، عوالي اللآلي: ج١ ص٩٠.



سورة الغاشية

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٢٦.

* ترتيبها النزولي: ٦٨.

* ترتيبها في المصحف: ٨٨.

* نزلت بعد سورة الذاريات.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَدْمَنَ قِرَاءَةَ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾ فِي فَرِيضَةٍ أَوْ نَافِلَةٍ غَشَّاهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ وآتَاهُ الْأَمْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٤)

الإطار العام

الدنيا والآخرة معادلة ثابتة

الدنيا والآخرة مثل كفتي ميزان ما رجحت إحداهما إلا على حساب الثانية، خصوصا إذا فسرنا الدنيا بأنها الحياة الفارغة عن القيم الإلهية، فمن اختارها، وترك الفرائض، وتهرب من المسؤوليات، وكفر بالرسالة، فإن له وجها خاشعا في الآخرة، وعملا ناصبا، وكدحا متواصلا، شرابهم في النار من عين آنية، وطعامهم من ضريع.

ومن اختار الآخرة فإن وجهه هناك ناعم، وقلبه راض، وعيشته في الجنة ذات سلام وأمن وعين جارية، وسرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة.

يبدو أن هذا هو محور سورة الغاشية التي تختم بذكر الحساب الإلهي الذي ينتظر الناس بعد إيابهم.

هل أتاك حديث الغاشية؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ(١) (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢)
عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ(٢) (٥) لَّيْسَ لَهُمْ
طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (٦) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ
(٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ
جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ(٣) مَصْفُوفَةٌ
(١٥) وَزَرَابِيُّ(٤) مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧)
وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ
كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم
بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤)
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)﴾.

بينات من الآيات:

[١] لولا الوحي، ولولا آياته التي تطرق أبواب القلب طرقا عنيفا، أنى كان لقلب الإنسان الذي أشغلته هموم حياته وأحلامها أن يعي القيامة وأهوالها؟ إن صفات ذلك اليوم تملأ القلب كله وتزيد.. ولكننا مشغولون عنها بالحاضر الذي تتراءى قضاياه كبيرة، وهي

(١) الغاشية: هو يوم القيامة لأنها تغشي الناس بأهوالها.
(٢) آنية: بالغة النهاية في شدة الحر.
(٣) ونمارق: أي وسائد.
(٤) وزرابي: هي البسط الفاخرة.

بالقياس إلى ذلك اليوم تافهة جدا. ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ للاستفهام وقع كبير في النفس، والسؤال هنا عن حديث هام يفرض نفسه ويأتيك سعيا لضخامته، بينما الأحاديث التافهة تبحث عنها وقد لا تجد لها أثرا.. بلى، إنه الحديث عن الغاشية، حقيقة تغشى كل شيء. البر والبحر والجبال والأحياء.. تحيط بها القيامة، والسموات وما فيها تنوء بها، فأنى لهذا الإنسان.. ماذا يغشانا من القيامة؟ أدخانها كما قال ربنا: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ [الدخان: ١٠-١١]، أم نارها: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، أم زلزالها: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١-٢]، أم صيحتها، أم قارعتها، أم صاختها، أم كل أهوالها؟ بلى، إنها الغاشية التي لا تدع أحدا يهرب منها، وإنها الغاشية التي لا تترك جزءا من الإنسان فارغاً.

[٢] وأبرز ما يغشاه ذلك اليوم الوجه الذي هو مظهر الإنسان. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ يعلو وجوههم قتر وهوان، وخشوع الخيبة والذل، لأنهم لم يخشعوا في الدنيا خشوع الكرامة والعزة، ولذلك نقرأ في الدعاء: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خُشُوعَ الإِيمَانِ قَبْلَ خُشُوعِ الذُّلِّ فِي النَّارِ**»[1].

[٣] ولأنها تكاسلت في الدنيا، وأهملت واجباتها، وتهربت من المسؤوليات، فإنك تراها في ذلك اليوم في كدح وتعب. ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ قالوا: هذا في الدنيا، إذ لا عمل في الآخرة، وفسروا العمل بالدأب في السير والنصب بالتعب، ولكن من قال لا عمل في الآخرة ولا نصب؟ بلى، وتحركهم في صحراء المحشر وسط ظلام دامس تسوقهم ملائكة العذاب، ويشهد عليهم ملائكة الحساب.. إنه عمل ناصب. إنما عملهم ثمة بلا فائدة ترجى لهم، ونصبهم بلا ربح ومكسب، ولو أنهم أجهدوا أنفسهم في الدنيا قليلا لأعقبتهم راحة طويلة في العقبى، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في صفة المتقين: «**صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً**»[2].

وفي طائفة من النصوص المأثورة تفسير هذه الآية بأولئك الذين يعملون في الدنيا وينصبون ولكن في طريق خاطئ فلا يكسبون من عملهم نقيرا، لأنهم يوالون الطواغيت، وينصبون لأئمة الهدى، وتابعيهم [3]، وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن هؤلاء هم أهل حروراء، يعني الخوارج الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «**تَحْقَرونَ صَلاتَكُم مَعَ صَلاتِهِم، وصِيَامَكُم مَعَ صِيَامِهِم، وَأَعْمَالَكُم مَعَ أَعْمَالِهِم، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[4].

---

(١) بحار الأنوار ج٩٥، ص٩٥، من أدعية السحر في شهر رمضان.

(٢) نهج البلاغة: خطبة المتقين.

(٣) راجع نور الثقلين: ج ٥، ص ٥٦٣-٥٦٤.

(٤) تفسير القرطبي: ج٢٠، ص٢٨، حديث الخوارج مستفيض حتى في الصحاح وغيرها.

وهذا تأويل حسن للآية، بيد أن تفسيرها -فيما يبدو من السياق- أعم وأشمل.

روي عن ابن عباس: «أَنَّهُم يُكلفُونَ ارْتِقَاءَ جَبَلٍ مِنْ حَدِيدٍ فِي جَهَنَّم، فَيَنْصِبُونَ فِيهَا أَشَدَّ مَا يَكُونُ مِنَ النصَبِ، بِمُعَالَجَة السَلاسِلِ وَالأَغْلال وَالخَوْض فِي النار، كَمَا تَخُوض الإِبل فِي الوَحلِ، وَارتِقَائِهم فِي صُعودٍ مِنْ نَار، وَهُبوطِهم فِي حُدورٍ منها»[1]. وفي بعض الروايات أنهم يجدون في طرف جهنم باباً إلى الجنة فما يألون جهدا للوصول إليه حتى إذا اقتربوا منه أغلق دونهم. وأنى كان عملهم ونصبهم فإنهم لو عملوا عشر معشار ذلك في الدنيا لكفاهم عملاً ونصباً، ورزقهم الله جنة ونعيما.

[٤] ما عاقبة هذا الفريق الخاسر؟ النار الحامية يذوقون حرها مباشرة ومن دون وقاية. أليسوا قد فجروا في الدنيا ولم يتقوا نار جهنم فيها؟ ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ﴾ صلي بالنار: لزمها واحترق بها، والحامية: حارة (شديدة الحر). ولعل كل هذه الصفات ذكرت لكي لا تحتمل النار التأويل، فيقول البعض أن النار لا تحرق! أوليست بحارة! أو بينها وبين الإنسان حجاب! كلا.. لا مفر منها ومن لهبها أبدا.

[٥] شدة الحر وتواصل الاحتراق بالنار يجعل أهلها من عطش شديد فيطلبون الماء فلا يعطونه ألف عام وبعده يعرضون على عين آنية. ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ قد بلغت من الحرارة أناها ومنتهاها، وقيل: أن جهنم أوقدت عليها منذ أن خلقت. هكذا يدفعون إليها ورداً شرابا وساءت شرابا وساءت مرتفقا.

[٦] وإذا طلبوا طعاما قدم لهم شيء أمر من الصبر يسمى بالضريع. ﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ طعام يتضرع أكله من شدة خشونته ومرارته ونتنه. إنه حسب ما روي عن رسول الله ﷺ: «الضَّرِيعُ شَيْءٌ يَكُونُ فِي النَّارِ يُشْبِهُ الشَّوْكَ أَمَرُّ مِنَ الصَّبِرِ وَأَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ وَأَشَدُّ حَرّاً مِنَ النَّارِ سَمَّاهُ اللهُ الضَّرِيع»[2]. فهل هو نبتة نارية كالزقوم، أم هو عرق أهل النار وما يخرج من فروج الزواني كالغسلين، أم هو شيء آخر، وإذا كانت نبتة فكيف لا تحترق بالنار، وإذا كان عرقا كيف لا يتبخر؟!.

إن العالم الآخر يختلف عن عالمنا، وإنما تتشابه الألفاظ لكي ندرك ما يمكن أن ندرك من ذلك العالم، وإلا فإن كل شيء هناك مختلف عما لدينا، فالنار غير نارنا، وجلود أهلها غير جلودهم هنا، والعقارب والحيات وشجرة الزقوم ليست كأمثالها في الدنيا التي تحترق في لمحة

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص٢٧، وفي المصدر: ارتقاؤها.. هبوطها.. وأظنها خطأ.
(٢) بحار الأنوار: ج٧، ص١٦٩.

بصر لو تعرضت لنيران جهنم، كلا.. إنها جميعا خلقت لذلك العالم وبمقاييسه، كما أن الزمن هناك غير الزمن هنا.. وإذا فسرنا كلمة من كلمات القرآن التي توضح الآخرة فليس إلا تفسيرا قريبا من واقعها، وليس تفسيرا دقيقا. وهكذا الضريع، وهو في الدنيا -كما قالوا-: «نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشبرق إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه، وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه، وأنشدوا لبعضهم[1]:

رعى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعا بان منه النحائص

[٧] وهذا الطعام نوع من العذاب لأنه ليس فيه أية منفعة من الطعام، فهو لا يعوض خلاياهم المفقودة، ولا يطفئ لهيب الجوع. ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ ولو أنهم اجتنبوا السحت في الدنيا لاتقوا الضريع في الآخرة.

[٨] وفي الجهة الأخرى تجد أهل الجنة كأفضل ما يكونون.. ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ منعمة قد أشرقت وجوههم بآثار النعمة حتى تجلت نضارتها لكل عين. أوليست النعمة إذا بلغت كمالها ظهرت في الوجه؟.

[٩] ويظهر من وجوههم رضاهم القلبي بما عملوا في الدنيا، لأنهم وجدوا عاقبة أمرهم الحسنى. ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾.

[١٠] أوتدري أين هم ساكنون؟ هناك في الأعالي حيث يتفيئون ظلال الأشجار. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ إن الجنة في المقام العالي، بينما النار في الدركات السفلى.

[١١] وإذا اطمأنت النفس بالرضا، والجسد بالفواكه، والظلال الوارفة، والمقام السامي فإن الإنسان بحاجة إلى الأمن الذي يجده هؤلاء في أتم صوره، فلا اعتداء ولا بغي ولا ظلم ولا غش ولا احتيال، بل ولا كلمة نابية تنال مقدساتهم (مثل كلمات الشرك التي آذتهم في الدنيا) أو تنال أشخاصهم (مثل الفحش والسب والغيبة والتهمة وما أشبه) ولا حتى كلمات عبثية (كالتي يتناولها البطالون فيتلفون أوقاتهم بلا فائدة) كلا.. إنهم في سلام شامل.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ أي لا تسمع فيها كلمة لغو. كذلك كانوا في الدنيا، إذا مروا باللغوا مروا كراما، كانوا لا يتعرضون لأحد بكلمة بذيئة، ويتحملون أذى الناس كاظمين عافين محسنين، فجزاهم الله بحياة زاخرة بالسلام والرضا. بلى، المؤمنون يصنعون لأنفسهم وضمن بيئتهم الخاصة وفي حدود إمكانات الدنيا صورة مصغرة للجنة، يتنعمون فيها قبل أن ينتقلوا

(١) ينسب للشاعر أبي ذؤيب، تفسير القرطبي: ج٢٠، ص٣٠.

إلى جنة الخلد الأبدية.

[١٢] أما شرابهم فإنه من عين تتدفق بين جناتهم الخضراء. ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ ما أروع منظر العين المتدفقة التي تجري على الأرض أو فوقها بلا أخدود -كما قالوا- فيها ألوان الشراب من عسل مصفى، إلى لبن سائغ، إلى شراب طهور، وماء مزاجه من تسنيم.. أذلك خير أم العين الآنية! إن وعي هذه النعم في الدنيا يسمو بالمؤمن إلى عدم الاستسلام لإغراء شراب الدنيا الحرام، والترفع عن ملذاتها المحدودة، انتظارا لما هو أشهى وأطيب مذاقا وأعظم.

[١٣] أعظم لذات البشر مجالس المؤانسة مع خلان الصفا بتبادل المحبة والود والكلمات السامية والمعارف الجديدة، ويبدو أن السياق يحدثنا عن جانب من هذه المجالس، فبالإضافة إلى الشراب الذي يدار بينهم يصور لنا السرر المرفوعة التي يتقابلون فيها. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾

[١٤] لقد أغناهم تعب الدنيا والكدح فيها عن التعب هناك، فاشتغلوا بمجالس الأنس عن النصب الذي يشتغل به أهل النار، فتراهم يتنازعون كؤوس الشراب الطهور الموضوعة أمامهم بلا عناء ولا نصب. ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ مليئة بالشراب الطهور.

[١٥] وهم يتكئون على وسائد لطيفة. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ قالوا: النمرق أي الوسادة، وانشدوا:

كهول وشبان حسان وجوههم   على سرر مصفوفة ونمارق

[١٦] وفي كل جهة تجد البسط التي لا خمل لها كالسجاد، أنى شئتها وجدتها وأخذتها لبساطك. ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ قالوا: أنها الطنافس التي لها خمل رقيق.

[١٧] ليس بين الإنسان وبين فهم الحقائق إلا حجاب الغفلة، فإذا ما كشف عنه هذا الحجاب إذا به يجدها ظاهرة أمامه.. والقرآن يساعده على ذلك. ألا ترى كيف يرغبه في النظر إلى تلك الحقائق المألوفة حوله والتي يغفل عادة عن غيبها ودلالاتها البعيدة، فيقول: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فإذا نظروا تماوجت بحار المعرفة أمام أنظارهم. حقا: إن هذه الإبل التي اندمجت بحياتهم حتى جعلت حياتهم وإياها نسيجا واحدا، وابتدعوا لها ألف اسم يصفون فيه كل مراحل وجودها وأغلب صفاتها وحالاتها، وربما لم يبتدعوا للإنسان مثل هذا العدد من الأسماء.. هذه الإبل التي يمتطون ظهرها، ويشربون لبنها، ويأكلون لحمها، ويتداوون ببولها، ويصنعون من أشعارها وأوبارها بيوتا خفيفة وثيابا وزينة. أفلا ينظرون إليها ليعرفوا كيف خلقت لتكمل حياتهم خصوصا في تلك الصحاري القاحلة؟!.

إنها من أصعب الحيوانات مراسا وقدرة على تحمل المشاق. إنها تحمل أثقالا عظيمة، وتخوض غمار البراري القفر، وتصبر أياما عديدة ربما بلغت أسبوعا أو عشرة أيام بلا زاد ولا شراب وتتحدى الأعاصير الرملية بما خلق فيها من قدرة ومن أهداب لمقاومتها! إن أرجلها المفلطحة تستطيع أن تطفو على الرمال الرخوة حتى سميت بسفينة الصحراء. ثم تراها تقتات الأشواك الحادة، وتختزنها لحين اجترارها في الوقت المناسب، كما تختزن الماء لفترات طويلة. من الذي خلقها بهذه الطريقة العجيبة؟ ومع ضخامة جثتها، وعظم قدرتها، تراها خاضعة للإنسان الضعيف أليفة وديعة، حتى حكيت قصة الفارة التي سحبت حبل بعير، فتبعها ظنا منه أنها صاحبه. وإذا قارنت الإبل بما يشابهها من الحيوانات كالفيل ووحيد القرن لرأيت الإبل أعظم منفعة وأقل مؤونة فإن الفيل مثلا لا يؤكل لحمه، ولا يشرب لبنه.

وننقل هنا بعضاً مما قاله الدكتور أحمد زكي حين تحدث عن الجمل: «ومن تصاميم الخلق مواءمة بين حيوان وبيئته أن حمل الجمل على ظهره سناما، هو من عضل وشحم، وهو يزداد لحما وشحما على الغذاء عندما يكثر ويطيب، حتى إذا خرج الجمل إلى سفر وعزه الغذاء وكاد ينذره الجوع بالفناء وجد الجسم فيما حمل من شحم في سنامه غذاء يطول به العيش أياما. ومن زاد الصحراء الماء، ولعله أول زاد، وفي جسم الجمل من الاحتياط ما يحفظ به عليه الماء، من ذلك أنه لا يعرف أو لا يكاد، ومن ذلك أن أنفه متصل بفمه، والفم يحبس ما يخرج مع هواء التنفس من ماء.. وقد يبلغ ما يشربه به الجمل ستين لترا من الماء! أفليس بمعدته خزائن ثلاث؟.

ويضيف: وما كان لغير الجمل من الحيوانات أن يقطع الصحاري، وتهيأ الجمل لذلك بخفه، فهو لا يغرز في الرمل، وتغرز الحوافر في حمر وخيل. وتهيأ الجمل بقوائمه الطويلة القوية، فيه صلبة صلدة تحمل جسدا ضخما فوقه سنام. وأعان ارتفاع قوائم الجمل على تخطي ما يعترضه في الصحراء من أرض قليلة الاستواء. وعينا الجمل عليهما رموش ثقيلة، وهي لمنع الرمال أن تدخل إلى عينيه عندما يغمضها، وأذنا الجمل كثيرة الشعر، ولعل هذا لمنع دخول الرمل فيهما، وأنف الجمل إنما هو شقان ضيقان، يسهل إغلاقهما عند الحاجة، والجمل يغلقهما حبسا للرمل أن يدخلهما.. كل شيء في خلق الجمل يهدف إلى الرمل يتوقاه، من الخف إلى الرأس»[1].

فسبحان الله الذي خلق الإبل، وتبا لمن نظر إليها ولم يعتبر.

[١٨] حين نقرأ آيات الذكر يخيل إلينا أنها ترسم لوحة فنية، فإذا ذكرت الإبل تذكر بعدها السماء ثم الجبال فالأرض حتى تكتمل الصورة، بلى، هكذا كتاب ربنا يصف الحقائق

(١) في سبيل موسوعة علمية، أحمد زكي، دار الشروق القاهرة، ط:١، عام ١٩٧١م.

الواقعية كما هي ويجعلنا نعتبر بها. ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ عندما ينبلج الفجر من الأفق، وينتشر الضياء فوق الروابي، وتسرع أسراب الطيور بالتحليق بحثا عن رزقها، وتستيقظ الطبيعة لتسبح ربها، هنالك انظر إلى السماء كيف جعلها الله سقفا محفوظا، وزرقة وادعة، وروعة وجمالا. وعند المغيب حينما تتماوج الألوان الزاهية فوق قطعة سحاب تسمرت في الأفق شطر المغرب، إنها تذهب حقا بالألباب، وينتبه الإنسان يومئذ إلى هذا البناء العظيم فوقه كيف بناه الله ورفعه بلا عمد نراه. وفي الليل عندما يسير زورق فضي في بحر من الظلام، وتنتشر على امتداد البصر النجوم الثواقب، لا تكل العين من جمالها وروعتها.. هنالك يقول الإنسان: سبحانه الله. أما إذا جلس المرء وراء جهاز تلسكوب لينظر من خلاله إلى الأجرام السابحة في الفضاء الرحيب، واستمع إلى عالم فلكي يشرح له المسافات الضوئية بينها وإلى دقة نظامها فلا يملك إلا أن يسجد لله القدوس ويكفر بالأنداد من دونه.

[١٩] وتنساب العين من السماء إلى الجبال ليجد الكتل الصخرية الهائلة قد نصبت في مراكزها لتقي الأرض شر الهزات والعواصف، ولتكون خزائن المياه، والمعادن، ويتساءل: ما هذه الدقة المتناهية في وضع هذه الصخور في مواضعها لو تقدمت عنها أو تأخرت سببت مشاكل عظيمة! ولو فكرت كيف تكونت الجبال لازددت عجبا. ﴿وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾.

[٢٠] ونظرة إلى الأرض وطريقة انبساطها وتذليلها وكيف مهدها الله للإنسان بفعل الأمطار الغزيرة التي غسلت أطراف الجبال وسوت الأرض لتكون صالحة للسكنى والزراعة. ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ وهذه الكلمات تذكرنا بضرورة البحث عن الكيفية، وميزات وخصائص كل الموجودات حولنا، وأيضا البحث عن العوامل المؤثرة فيها: كيف وبأية عوامل ملموسة كانت السماء وكانت الجبال وكانت الأرض بهذه الكيفية، وهكذا يحرضنا كتاب ربنا على البحث والتنقيب سواء على صعيد العلماء والخبراء أم على مستوى كل فرد فرد منا علينا جميعا أن نتفكر ونعقل ولا نكون غافلين عما يجري حولنا.. إن ذلك هو السبيل إلى معرفة الخالق أكثر فأكثر، ومعرفة الخالق هي أصل كل خير وفلاح.

[٢١] الأدلة مبثوثة في أرجاء الخليقة، وعقل الإنسان يكفيه حجة، ويأتي النبي ﷺ ومن يتبع نهجه ليقوم بدور المذكر. إنه ليس مكلفا عنهم ولا مكرها لهم، ولا يتحمل مسؤولية أفكارهم، وإنما هم المسؤولون. ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ فما على الرسول إلا البلاغ المبين، حتى معرفة الله لا تتم إلا بعقل الإنسان الذي يستثيره النبي بتذكرته.

[٢٢] وليس الرسول عليهم بجبار، إنما يذكر بالقرآن من يخاف وعيد. ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ السيطرة هي التسلط ومعناها الجبر والإكراه.

[٢٣] بلى، الكفار الذي يقاومون الرسالة، إنهم يتعرضون لسخط الله وعذاب عباده المؤمنين، لأنهم يسيئون التصرف في الحرية الممنوحة لهم. ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ وقد اختلف المفسرون في معنى الآية، ولكن يبدو أن سائر آيات القرآن تفسر هذه الآية حيث إن من تولى عن الحق وكفر به، ومخالف الرسول الذي يناصبه العداء، يجاهد حتى يعود إلى رشده، وهذا ما نقرؤه بتفصيل في آيات الجهاد وفي سورة الممتحنة بالذات. وقد روي عن الإمام علي عليه السلام: «أَنَّهُ جِيءَ إِلَيهِ بِرَجُلٍ ارْتَدَّ فَاسْتَتَابَهُ ثَلاثَة أَيامٍ فَلَمْ يُعَاود الإِسْلام فَضربَ عُنُقه، وَقَرَأَ: ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾»(١).

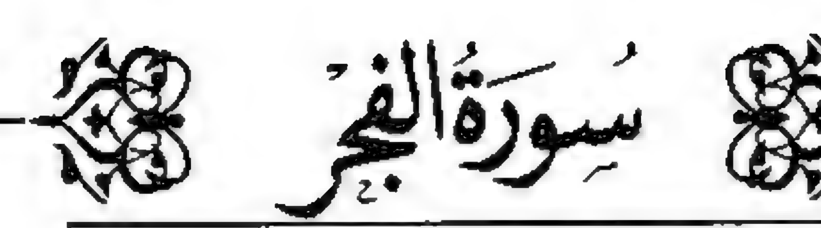
[٢٤] أولئك الكفار المنابذون العداء للرسالة يجاهدهم المسلمون فيعذبهم الله في الدنيا بأيديهم ثم يعذبهم في الآخرة العذاب الأكبر. ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾.

[٢٥] وفي نهاية السورة يذكرنا ربنا بالمصير إليه، وكيف لا يستطيع أن يهرب أحد من مسؤولية أعماله. ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ أي عودتهم.

[٢٦] ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ يحاسبهم جميعا كما رزقهم في الدنيا على كثرتهم، فطوبى لمن حاسب نفسه هنا قبل أن يحاسب هناك، وتاب إلى الله من ذنوبه قبل أن يجازى بها. جاء في الحديث المأثور عن الإمام الرضا عليه السلام: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُوقِفَ الْمُؤْمِنُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي يَلِي حِسَابَهُ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ عَمَلَهُ فَيَنْظُرُ فِي صَحِيفَتِهِ فَأَوَّلُ مَا يَرَى سَيِّئَاتُهُ فَيَتَغَيَّرُ لِذَلِكَ لَوْنُهُ وتَرْعَشُ فَرَائِصُهُ وَتَفْزَعُ نَفْسُهُ ثُمَّ يَرَى حَسَنَاتِهِ فَتَقَرُّ عَيْنُهُ وَتُسَرُّ نَفْسُهُ وَيَفْرَحُ ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى مَا أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الثَّوَابِ فَيَشْتَدُّ فَرَحُه، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ لِلْمَلائِكَةِ هَلُمُّوا الصُّحُفَ الَّتِي فِيهَا الأَعْمَالُ الَّتِي لَمْ يَعْمَلُوهَا قَالَ فَيَقْرَءُونَهَا فَيَقُولُونَ وعِزَّتِكَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّا لَمْ نَعْمَلْ مِنْهَا شَيْئاً فَيَقُولُ صَدَقْتُمْ نَوَيْتُمُوهَا فَكَتَبْنَاهَا لَكُمْ ثُمَّ يُثَابُونَ عَلَيْهَا»(٢).

أفليس هذا هو المصير الأفضل، فلماذا الغفلة؟!.

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص٣٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٧، ص٢٨٩.



* مكيّة.

* عدد آياتها: ٣٠.

* ترتيبها النزولي: ١٠.

* ترتيبها في المصحف: ٨٩.

* نزلت بعد سورة الليل.

فضلُ السّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «اقْرَءُوا سُورَةَ الْفَجْرِ فِي فَرَائِضِكُمْ ونَوَافِلِكُمْ فَإِنَّهَا سُورَةٌ لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام مَنْ قَرَأَهَا كَانَ مَعَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي دَرَجَتِهِ مِنَ الْجَنَّةِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٤)

الإطار العام

الرجوع إلى الرب

لكي تتلقى كلمات الوحي، عليك أن تسمو إلى مستوى التدبر فيها، والتحسس لنبضاتها، ومتابعة مؤثراتها، والتفاعل مع إيقاعاتها.. وبكلمة؛ لا بد أن تعيشها بكل ما أوتيت من صفاء الفؤاد، وقوة الفكر، ورهافة الحس.

كذلك سورة الفجر؛ لا يعيها إلا من يندمج معها، ويسلم قياده لكلماتها التي تفيض علماً وحكمة وحياة ونوراً، بها تعرج به إلى أفق آخر، تجعله يرى ما حوله بصورة جديدة حتى يتسامى عن جواذب المادة وإصرها وأغلالها، وتطمئن نفسه إلى الله وترضى به، فإذا به وهو في الدنيا يعود بروحه إلى ربه، ويسمع هتاف ربه: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨].

و يبدو أن هذه البصيرة هي محور السورة، ولكن كيف يتحقق ذلك؟ في السورة -فيما يبدو- الإجابة عن ذلك، حيث تتلخص في نقاط هي بدورها محاور تمهيدية للسورة.

أولاً: التحسس برقابة الله وأنه بالمرصاد حتى يزداد القلب وعياً وتقوىً، والسؤال: كيف؟ بالنظر في اختلاف الليل والنهار وحسن تدبيرهما من الفجر حتى الليل إذا يسر، وأيضاً بالاعتبار بمصير أولئك الجبارين الذين نسوا الله، ولم يراقبوه، فكان ربهم لهم بالمرصاد، فصب عليهم سوط عذاب (الآيات: ١-١٤).

ثانياً: تزكية القلب من حب الدنيا، واعتبار الغنا قيمة إلهية، لأن عاقبة حب الدنيا وخيمة، إذ إنه يمسخ شخصية الإنسان فيجعله لا يكرم اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، ويأكل التراث جميعاً، ويكاد يعبد المال لفرط حبه له! (الآيات: ١٥-٢٠).

ثالثاً: بتذكر أهوال الساعة، حيث تندك الأرض ببعضها دكاً دكاً، ويتجلى الله بعظمته وعدالته وشدة بطشه بالجبارين والمجرمين، يتذكر الإنسان أنه قد ضَيَّع فرصته الوحيدة في

الدنيا، ولم يقدم شيئاً لحياته، ولكن لن تنفعه الذكرى (الآيات: ٢١-٢٦).

هنالك يهتف الرب بالنفوس المطمئنة أن ارجعي إلى ربك راضية مرضية. ما أعظمه من نداء، وما أحسنها من عاقبة. وفقنا الله لها جميعاً (الآيات: ٢٧-٣٠).

إن ربك لبالمرصاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ
﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ[١] ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾
إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ
جَابُوا[٢] الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ[٣] ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي
الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ
﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ[٤] ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ
وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ[٥] عَلَيْهِ رِزْقَهُ
فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ
طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا[٦] ﴿١٩﴾

---

(١) حِجْر: الحجر العقل، وأصله المنع، يقال: حجر القاضي على فلان ماله أي منعه من التصرف فيه، فالعقل يمنع من المقبحات ويزجر عن فعلها.

(٢) جابوا: قطعوا، وجاء في مفردات الراغب: الجوب قطع الجوبة وهي كالغائط من الأرض ثم يستعمل في قطع كل أرض.

(٣) ذي الأوتاد: قيل: أي ذي الجنود الذين كانوا يشيدون أمره، وسماهم أوتاداً لأنهم قوّاد عسكره الذين بهم قوام أمره، وقيل: بل سمي فرعون بذلك لأنه كان يشد الرجل بأربعة أوتاد على الأرض إذا أراد تعذيبه ويتركه حتى يموت.

(٤) لبالمرصاد: هو المحل الذي يجلس الإنسان فيه ليرصد ويراقب أحوال غيره من حيث لا يرونه، وهذا كناية عن أنه سبحانه مطّلع على الناس لا يخفى عليه شيء منهم.

(٥) فقدر: ضيّق.

(٦) لماً: اللم الجمع، ولممتُ ما على الخوان ألمّه لمّاً إذا أكلته أجمع، كأنه يأكل ما ألم به ولا يميّز شيئاً من شيء.

وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا[1] ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾
وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ
يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى
﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا
ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى
﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾.

بينات من الآيات:

[١] الأدب الأصيل البديع يكثف حول القارئ الظلال والإيقاعات والإيحاءات والمعاريض حتى تجد نفسك في سواء الحقيقة من حيث تدري أو لا تدري، وفي ذروة الآداب البديعة نجد آيات الذكر كأنها بساط سليمان تحملنا إلى آفاق الحقيقة، وتجعلنا نشاهدها ونلامسها ونعيشها ونمتزج بها، ويعجز القلم عن متابعة لطائف هذا الأدب الأسمى لأن في اختيار الكلمات وطريقة تركيبها وجرس ألفاظها وتماوج معانيها وآفاق بصائرها تيار من المؤثرات التي لم يبلغ الإنسان مستوى إحصائها ومعرفتها.. هل يمكن لريشة رسام أن تنقل على القرطاس كل مشاعره من مراقبة الغروب في الأفق، وهل هو يستوعب كل جمال الأفق لحظة غياب الشمس؟ كذلك المفسرون لا يستطيعون وصف كل أحاسيسهم عن لحظات معايشتهم لآيات الذكر. إنها حقا فوق قدرة القلم.. من هنا يعجزون عن ملاحقة معارفهم التي يستوعبونها من القرآن فكيف يشرح كل معارف القرآن وهذا أيضا سر اختلافهم الواسع في العديد من الكلمات والآيات القرآنية، وفاتحة سورة الفجر منها حيث اختلفت آراؤهم إلى أكثر من ثلاثين قولا في بعض كلماتها[2].

إذا كيف نفسر هذه الآيات، وكيف نستفيد من تفاسير الآخرين لها؟.

إنها باتباع منهج التدبر المباشر، فأنت بدورك تقرأ القرآن وعليك أن تنفتح أمام تيار المعرفة وموجات الإبداع وبصائر الوحي في آياته. افتح منافذ قلبك وشغاف فؤادك واعرج بنفسك إلى مستوى القرآن... أولم تسمع أن الله سبحانه قد تجلى في كتابه لعباده ولكنهم لا يبصرون؟.

---

(١) جماً: الجم الكثير العظيم، وجمّة الماء معظمه.

(٢) نقل العلامة الطباطبائي في تفسير الشفع الوتر (٣٦) قولًا. راجع تفسير الميزان: ج٢٠، تفسير الفجر.

بلى، كلمات المفسرين إشارات مفيدة على الطريق، ولكنها ليست بديلا عن سعيك بنفسك في ذلك الطريق. وإذا طويت درب المعرفة بنفسك فإن العلم الذي تكتسبه ينور قلبك، ويصبح جزءا من نفسك، فيرتفع مستواك، وإنك لا تنساه بإذن الله.

ونعود إلى كلمات القسم الأولى في السورة، ونتساءل -مع من تساءل من المفسرين-: ما الفجر، وما الليالي العشر، وما هو الشفع، وما الوتر؟ لأن الكلمات قسم، والقسم يهدف استثارة القلب وطرق أبوابه المغلقة، فإن إجمالها قد يكون مطلوبا، لأنه يزيد حالة التهويل والتفخيم. ولكن بين التفاسير العديدة يبدو اثنان منها أقرب:

الأول: عموم المعنى حتى يشمل أغلب المصاديق التي ذكرت في التفاسير، فالفجر هو الفجر سواء كان فجر يوم العيد العاشر من ذي الحجة أو فجر أول يوم من أيام محرم حيث الساعات الأولى من السنة الهجرية أو فجر الرسالة أو فجر الثورة الحسينية في أرض كربلاء أو أي فجر آخر ينبلج به نهار يوم جديد أو حياة جديدة أو مسيرة جديدة.. وهكذا الليالي العشر تتسع لعشر ليال من كل شهر، وكذلك الشفع والوتر فإنهما يتسعان لكل ما شفع أو وتر.

الثاني: تفسير الكلمات بأيام الحج من ذي الحجة الحرام، فالفجر يكون فجر الأول من أيامه أو فجر العيد، بينما الليالي العشر هي العشرة الأولى من هذا الشهر الذي يشهد أعظم مسيرة دينية في السنة، وأما الشفع والوتر فهما يوم عرفة (باعتباره التاسع والتسعة وتر) ويوم العيد (باعتباره العاشر والعشرة شفع)، أما الليل الذي يسري فهو ليلة الإفاضة من عرفات إلى المشعر فمنى.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ قسما بلحظة انبلاج النور من الأفق حيث ينتظره الجميع بعد أن أخذوا قسطا كافيا من السبات والراحة. قسما بلحظة انطلاقة المسيرة الرسالية التي فجرت رحم الظلام الجاهلي فوق روابي مكة في غار حراء مع جلجلة الوحي اقرأ يا محمد ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. قسما بلحظة انبعاث الدم من أوداج السبط الشهيد بكربلاء ليبعث ثورة الحق ضد ظلام الجاهلية المقنعة، وتنطلق المسيرة من جديد. قسما بكل لحظات الانبلاج والانطلاق في مسيرة البشر بعد تراكم ظلمات الظلم والجهل والقمع والتضليل. وقسما بفجر العدالة الشاملة مع ظهور شمس المجدد الأعظم لرسالة الإسلام الإمام المهدي المنتظر ﷺ الذي وعد الله أن يظهر به دينه الحق على الدين كله ولو كره المشركون. قسماً بكل تلك اللحظات الحاسمة: إن الحق منتصر، وإن الله للظالمين بالمرصاد.

[٢] بعد عشرة ليال من الجهد المكثف، والعمل الدؤوب، بعد تحمل وعثاء السفر

والسعي إلى مكة من كل فج عميق، بعد الإحرام والكف عن الشهوات بعد التطواف والسعي والوقوف بعرفة ثم بمزدلفة، بعد كل الإجهاد يأتي فجر العيد المبارك ليمسح بأصابع من نور الرحمة والبركات على رؤوس الحجيج ويمنحهم جائزتهم الكبرى. وبالرغم من أن الليالي العشر سبقت الفجر، إلا إن الفجر هو الهدف منها ولذلك سبقها بالبيان، لنعلم أن عاقبة العسر يسر، وأن ليالي الجهاد والصبر والاستقامة على ظلم الطغاة ستنتهي بفجر النصر المبين بإذن الله، كما تنتهي ليالي الحج بفجر العيد. ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قالوا: إن ﴿وَلَيَالٍ﴾ جاءت بلا ألف ولام للدلالة على التعظيم، بلى، وليلة الجهد والتعب طويلة كما ليلة الترقب والانتظار، وليالي المؤمنين مزيجة أبدا بالجهد المكثف والانتظار معاً فما أطولها. وقال بعضهم: إن هذه الليالي إشارة إلى العشرة الأخيرة من شهر رمضان لما فيها من عظمة.

[٣] أقسم بالشفع والوتر، بيوم العيد ومن قبله يوم عرفة، وبما هو من العبادات شفع كركعات الصلاة الثنائية والرباعية، وبما هي منفردة كالوتيرة وصلاة المغرب. قسما بكل زوجين، وبكل شيء منفرد، فليذهب خيالك أنى شاء فإنه لن يجد سوى زوج أو فرد فقسما بكل ذلك: إن ربك لبالمرصاد. ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾.

[٤] هل وقفت للحج أو تذكرت الإفاضة حيث ينهمر سيل الحجيج من عرفات عبر شعاب الوديان وفوق أكتاف الروابي نحو مزدلفة مهللين مكبرين، وقد تجردوا عن سماتهم المميزة، حاسري الرؤوس، معتمري ثياب الإحرام البسيطة، وأمامهم هدف واحد يبتغونه وهو مرضاة ربهم؟.

إنها حقا مسيرة التوحيد، مسيرة الوحدة، مسيرة التقوى مسيرة الرحمة.. في تلك الساعة لو كنت قادرا على تجريد نفسك من مؤثرات المسيرة والنظر إليها من الخارج لرأيت عجبا، رأيت وكأن الأرض والسماء تسيران، وأن الليل بذاته يسير معكم. ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ قسما بتلك الليلة المشهودة: إن مسيرة الحق منتصرة لأن الله من الطغاة بالمرصاد. قالوا: إن المراد من ﴿يَسْرِ﴾أنه يُسرى فيه، كما يقال ليل نائم ونهار صائم، وأنشدوا:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ... ونمت وما ليل المطي بنائم

ولكن لماذا ننسب -بعض الأحيان- الحدث إلى الزمن؟ أظن أن ذلك يتم عندما يستوعب الحدث الزمان كله، فالليل النائم هو الذي لا ترى فيه ساهرا، وكذلك النهار الصائم لا تجد الناس فيه إلا صائمين، كما قال الله تعالى: ﴿أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦] لأنه لم يكن في تلك الأيام غير النحوسة. وهكذا إذا استوعب الحدث المكان سمي به، كما قال الله: ﴿ وَسْئَلِ

﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي كل أهلها. كذلك الليل هنا كان يسري، لأن السرى استوعبته.

[٥] ألا يكفي كل ذلك قسما لمن يملك مسكة من عقل ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ قالوا: معناه لذي لب وعقل، وأنشدوا:

وكيف يرجى أن تتوب وإنما   يرجى من الفتيان من كان ذا حجر

وقالوا: أصل الكلمة من المنع إذ العقل يمنع الإنسان التردي في الضلال، وحتى كلمة العقل مأخوذة من ذات المعنى أي المنع والكف فهي من العقال. ويبدو لي أن الحجر أقل قدر من العقل لأنه يُشير إلى شقه التحفظ من العقل دون شق الإدراك بالرغم من أنه مُبتنٍ عنه. وأن المعنى -على هذا- هل في هذا القسم كفاية لمن يملك عقلا أنى كان قليلا؟ والله العالم.

[٦] إذا كنت ممن يكتفي بالقسم ويكتشف الحقائق بعقله بعد أن يُذكر بها فقد جاءك ما يكفي من القسم. إلا أن البعض لا يعي الحقائق إلا بالمزيد من الشواهد، وبالذات العبر التاريخية التي تهز الضمير هزاً، وحتى ذوي العقول إذا استمعوا إلى تلك العبر ازدادوا يقينا، وهكذا ساق القرآن طائفة من تلك العبر وأجملها لأنه كان قد فصلها في مواضع أخرى وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إنها حقائق مشهودة تُرى بالعين المجردة، وكلما كانت الحقيقة واضحة استخدم مثل هذا التعبير ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

[٧] من هم عاد؟ إنهم عاد الأولى من قبيلة إرم أو الذين سكنوا قرية إرم فبنوا القصور العالية. ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ قال بعضهم: إرم جد عاد، وقال آخر: إليه يجتمع نسب قبيلة ثمود أيضا، وقال ثالث: إن معنى إرم القديمة، وأصلها من الرميم حيث أن هناك عادين الأولى وهي القديمة التي قال عنها ربنا: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]، وقال بعضهم: أن الكلمة ليست اسم أشخاص بل منطقة كان يسكنها قوم عاد، ولا يتنافى أن يكون الاسم مشتركا بين القبيلة وأرضهم حيث كانت العادة تقضي تسمية الأرض باسم أهلها... فتكون كلمة ذات صفة لإرم تلك المدينة التي سكنتها عاد، وكلمة العماد بمعنى الأبنية المرتفعة المرفوعة على العمد، ولذلك قالت العرب: فلان طويل العماد إذا كان منزله معلماً لزائره.

[٨] تلك القبيلة الشديدة التي راجت حولها الأساطير، وتلك المدينة ذات العمد التي لم يكن لها مثيل في بلاد العالم ذلك اليوم.. ألم تر كيف دمرت عليهم؟ ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ و إنما يبني الإنسان المدن لصيانة نفسه من أهوال محتملة من اعتداء مفاجئ أو سيل منهمر أو زلازل وانهيارات أرضية أو ما أشبه، والذي يدفعه إلى ذلك كله تهربه من الموت ومن عاقبة أعماله، ولكن تلك الجهود تنفعه ما لم يأت قدره، فإذا جاء القدر فأين المفر؟!.

إن المدينة وبالذات إذا كانت بمستوى مدن عاد العظيمة علامة بارزة لحضارة الإنسان حتى سميت الحضارة بالمدينة، لأنها رمز تعاون بناء بين مجاميع كبيرة من الناس، وسيادة نوع متقدم من القوانين عليهم، كما إنها تأتي نتيجة تراكم تجارب وجهود عظيمة يتوارثها أهلها جيلا بعد جيل... ولكنها عرضة للدمار الشامل إذا تسلط عليها المترفون، ووجهوها عكس مسيرة الخير والفضيلة، واتخذوها وسيلة للبطش بالآخرين، كما فعلت عاد فدمرها الله شر تدمير، فأين الأحقاف التي كانت مساكنهم بين اليمن وحضرموت؟، وأين قبورهم وآثارهم؟!.

[٩] كذلك ثمود الذين سكنوا شمالي الجزيرة العربية بين المدينة والشام، فشيدوا لأنفسهم القصور التي اقتطعوها من الجبال المحيطة وحفروها أيضا ملاجئ ومخازن لهم.. إن مصيرهم كان أيضا الدمار.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ جابوا: أي قطعوا، ويقال: يجوب البلاد أي يقطعها، والوادي: المسير بين الجبال.

[١٠] وكانت عاد وثمود وقصة إبادتهم معروفة عند العرب في الجزيرة، لأنهما كانتا في طرفي الجزيرة، أما آل فرعون فقد كانت قصتهم مشهورة عند الأمم، لأنها كانت ذات صبغة عالمية، وقد سمعتها العرب من أهل الكتاب الذين اتصلوا بهم، وقد فصلها القرآن تفصيلا في مواضع كثيرة، وأجملها هنا بكلمات فقال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ قالوا: أوتاده أركان سلطته من جنود وعساكر وأموال وأساليب قهر وسلطان، وقال بعضهم: بل كان يعذب الناس بالأوتاد حيث يشدهم بها إلى أن يموتوا، وهكذا فعل بآسية: زوجته وماشطة ابنته، وقال بعضهم: بل الأهرامات التي تشبه الوتد في الأرض.. وأنى كان فقد زعم أن تلك الأوتاد تنقذه من مصيره!!.

[١١] ويبدو أن المراد بفرعون هم آل فرعون، أو هو وأوتاده الذين أيدوه، فلذلك قال عنهم ربنا سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ ذلك أن للإنسان قدرة محدودة لتحمل ضغوط التملك، فمن الناس من تبطره نعمة تافهة، ومنهم من إذا امتلك الدنيا يظل قادرا على التصرف بحكمة ورشد، وإنما يرتفع إلى مستوى ضبط النعم وعدم الوقوع في أسرها والاسترسال مع رياحها إذا كان مؤمنا بالله وباليوم الآخر. وآل فرعون أبطرتهم النعمة، فلما رأوا النيل يجري في بلادهم بالخيرات، وقد دانت لهم الشعوب المستضعفة من حولهم، وقد عرفوا بعض العلوم الجديدة من فن العمارة والزراعة وتحنيط الأموات وما أشبه استكبروا في الأرض وطغوا.

[١٢] وهكذا ركبوا مطية الطغيان الجامحة، وأسكتوا الأصوات المعارضة، وتسلحوا بمنطق القوة، واتبعوا نهج الدجل والتضليل، وأصبحت السلطة مركزا لكل فاسد مفسد،

منافق متملق، قوال كذاب، محب لنفسه، معقد من الناس،و بدؤوا رحلة النهاية إذ أخذت السلطة تنشر الفساد في الأرض بدل الصلاح، والظلم بدل العدالة. ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾.

[١٣] حتى إذا طفح بهم كيل الفساد، وجاءهم النذير فهموا به ليقتلوه هنالك نزل عليهم العذاب الشديد. ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ جاء العذاب كما السيل المنهمر يصب عليهم من عل انصبابا فأين المفر؟ وكان كلذع السوط وسرعته، يسوطهم فيخالط لحمهم ودمهم. قالوا: العرب كانت تسمي العذاب الشديد سوطا، وقيل: بل أصل معنى السوط خلط الشيء بالشيء، ولأن العذاب الشديد يخالط اللحم والدم يسمى بالسوط. وقال السيد قطب في هذه الآية: «هو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب، حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية على الطغاة الذين طغوا في البلاد»[١].

وهكذا جاءت نهاية عاد وثمود وآل فرعون واحدة لأن أعمالهم كانت متشابهة بالرغم من اختلاف بلادهم وعصورهم وسائر تفاصيل حياتهم والجرائم التي ارتكبوها.

[١٤] قسما بأيام المسيرة الكبرى، بفجر العيد وليالي الإحرام ويوم العيد ويوم عرفة وبليلة الإفاضة، وعلى هدى تلك العبر التاريخية: إن الله يقف للطغاة والمجرمين بالمرصاد. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ الجيش المعادي يسير بين شعاب الوادي بكل غرور، وقوات الدفاع قد اتخذت مواقعها خلف صخور السفوح وفوق مرتفعات الجبل، وفي مثل لمح البصر تقع الواقعة، ويتبخر غرور الجيش ويتلاشى. كذلك أعداء الله يأخذهم في ساعة غرورهم وغفلتهم لأن ﴿رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.. وهم عنه غافلون، ومن سطواته آمنون. تلك هي ذروة السورة فيما يبدو، ومحور آياتها، وخلاصة دروسها، فمن وعى هذه الحقيقة، وخشي سطوات الله، ولم يأمن مكره؟ ومن اتقى أخذه الشديد في ساعات الغفلة، وكلما هم بمعصية أو فكر في ظلم أحد فكر في نفسه: أوليس الله يراقبني وهو بالمرصاد؟ من إذاً هم بظلم أحد تذكر القهار العظيم الذي يأخذ الظالمين بشدة، وإذا تمادى في الظلم ولم ينزل به العذاب تذكر أن ذلك قد يكون كيدا متينا له حتى يؤخذ بشدة. جاء في الدعاء المأثور عن الإمام السجاد عليه السلام: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وآلِهِ، ولَا أُظْلَمَنَّ وأَنْتَ مُطِيقٌ لِلدَّفْعِ عَنِّي، ولَا أَظْلِمَنَّ وأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى الْقَبْضِ مِنِّي**»[٢].

وقال الشاعر:

تنام عينُك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

(١) في ظلال القرآن: ج٦، ص٣٩٠٤، طبعة دار الشروق ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢) الصحيفة السجادية: من دعاء مكارم الأخلاق.

وأما المظلوم والمستضعف والثائر المقهور فإنهم جميعا يزدادون أملا واستقامة وتحديا عندما يعرفون أن الله من الظالمين بالمرصاد، فلا ينهزمون نفسياً ولا يستسلمون.

[١٥] لكي يتسامى الإنسان عن حتميات المادة ومؤثراتها الضاغطة، ولكي يبقى مالكا للدنيا متصرفا فيها لا مملوكا لها مسترسلا معها، وبالتالي لكي لا تطغيه الثروة والسلطة وتجره إلى الترف والفساد، يبصرنا الذكر بحكمة المال والقدرة المتمثلة في اختيار إرادة الإنسان وتجربة معدنه ومدى صبره على إغرائها وانسيابه مع جاذبيتها. وليست الثروة دليل كرامة الإنسان عند الله واجتبائه من لدنه، فلا يستبد به الغرور فيزعم أنه على حق، ثم يتسافل فيزعم أنه بذاته الحق، ثم يبلغ به السفه والطغيان إلى الزعم بأنه الرب الأعلى! كلا.. الثروة مادة اختبار، وعلى الإنسان أن يتخلص من إغرائها بإنفاقها والتقيد بالحدود الشرعية في جمعها. ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ بلى، الثروة بذاتها نعمة وكرامة ولكنها في ذات الوقت ابتلاء واختبار، وهذا هو الخط الفاصل والدقيق في ذات الوقت بين البصيرة الإلهية والتصور البشري، فليست الثروة رجسا، وليست كرامة دائما، بل هي حقيقة بلا هوية بلا صبغة، وإنما تكتسب هويتها وصبغتها من طريقة تصرف الإنسان فيها.

[١٦] كما إن الفقر ليس بذاته نقمة، وإنما النقمة الاستسلام له، والاعتقاد بأنه دليل مهانة عند الله. ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ وكانت حكمة ضيق الرزق ابتلاءه، تراه فقد ثقته بنفسه، وزعم أنه رجل مهان منبوذ، وأن واقعه لا يتغير. ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ كلا.. الفقر ليس إهانة، بل هو اختبار، ورب فقير ذي طمرين لا يؤبه به عند الناس لو أقسم على الله لأبره. أليست الثروة قد تكون على طرق غير مشروعة، بل عادة تكون كذلك؟ أوليس الفقر قد يكون لأسباب خارجة عن إرادة الإنسان كأن يولد الإنسان في بلد فقير ومن أبوين معدمين؟ فكيف تكون الثروة مقياسا للكرامة الإلهية، وتتحول بذاتها إلى قيمة مقدسة، ويصبح الفقر معيارا للهوان عند الله، أداة لتذليل الإنسان وتصغيره؟.

[١٧] كيف يتخلص الإنسان من جواذب المادة وأثقالها؟ بإكرام الضعفاء والإنفاق عليهم، وعدم انتهاب أموال المحرومين. أولئك الذين جعلوا المادة قيمة تراهم ممسوخين عن الفطرة السليمة، فلا تجدهم يكرمون اليتيم الذي يستثير الرحمة والعطف عند البشر السوي، أنى كان دينه ومستواه. ﴿كَلَّاۖ﴾ ليس كما تزعمون أن الغنى دليل كرامة الفرد عند الله، وأن الفقر دليل هوانه، إنما هما ابتلاء وفتنة. ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ وهذا عاقبة المجتمع المادي المرتكس في أوحال المادة وعبادة الثروة وإكرام الغني لغناه.. فهل هذه العاقبة تنسجم مع العاطفة الإنسانية، وهل يقبلها وجدان بشر أنى كان؟ كلا.. إن بني آدم مفطورون على العطف على

الضعيف، وبالذات الطفل الذي يفيض براءة وطيبا، وإذا كان الطفل يتيما لا يملك قوة ذاتية يدفع عن نفسه الأخطار والأطماع، ولا حامياً يقيه الشرور، ولم يحظ بالقدر الكافي من العطف الأبوي -إنه يذيب القلب حناناً- فما أقسى قلب من يهينه ويجافيه؟.

كل ذي وجدان يحكم بأن المجتمع الذي يقسوا على اليتيم مجتمع ممسوخ منكوس، وأن قيمه باطلة ونظامه فاسد. وذلك مقياس سليم وفطري يبينه القرآن في المعرفة، حيث أنه يدلنا على عاقبة النظام لمعرفة صلاحه أو فساده، فإننا لا نستطيع أن نحكم على نظام اجتماعي بادعاءاته أو شعاراته، ولكن نحكم عليه بعاقبته، فإن وافقت وجداننا الإنساني وانتهى إلى حماية الضعيف وإكرام اليتيم والإنفاق على المحتاج وما أشبه نعرف صلاحه. وهكذا بالنسبة إلى كل شيء لا تدرس بدايته بل راقب نهايته وعاقبته، حتى تعرف طبيعته.

[١٨] في المجتمع الجاهلي حيث يصبح المال قيمة يعيش المعدمون الذين أسكنتهم الفاقة في عناء كبير، إذ لا يشجع الناس بعضهم للاعتناء بهم. ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ من هو المسكين؟ إنه بشر مثلي ومثلك أقعدته عوامل قاهرة عن اكتساب رزقه، ألا ترحمه؟ تصور لو كنت -لا سمح الله- مثله كيف كنت تتوقع من الناس؟ أليس من الممكن أن تصبح أنت أو واحدا ممن تحبهم مسكينا، فهل ترضى أن يطوي ليله جائعاً، ويعيش الناس من حوله التخمة؟ وهل يرضى بذلك إنسان ذو ضمير؟! إن أقل ما نقدمه للمسكين الطعام.. إنه حق البهائم والنباتات فكيف بمن هو نظير لنا في الخلق؟! وقد ذكر الرب أنهم لا يأمرون بعضهم بإطعام المسكين لبيان انتكاس المجتمع عن قيم الإنسانية، فربما منع الواحد بخله عن إطعام المسكين ولكنه مستعد لأمر غيره بذلك، بل نرى البخيل عادة يتمنى لو أن غيره تكفل عنه بإطعام المحتاج، أما إذا تردى المجتمع إلى عدم حض بعضهم على إطعام المسكين فقد هبط إلى أسفل السافلين. وهذه هي نهاية اعتبار الغنى كرامة إلهية والفقر ذلا وهوانا.

[١٩] والأسوأ من ذلك أكلهم التراث، والتهام أموال اليتامى جميعا، حتى إذا كبروا لم يجدوا أمامهم إلا الحرمان والحسرة. ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ قالوا: ﴿لَّمّٗا﴾ يعني جمعا، ومنه قولهم: لم الله شعثه أي جمع ما تفرق من أموره، ولعل هذه الكلمة تشير إلى الإسراع في أكل التراث لئلا يكبر أهله فيطالبون به، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْ﴾ [النساء: ٦].

[٢٠] وهكذا ينحدر الذي يزعم أن الثروة هي أقصى كرامة عند الله إلى درك عبادة المال، والانسياق مع مصادره ومن يملكه من المترفين. ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ أي حباً كثيرا، ومنه: جم الماء في الحوض إذا اجتمع وكثر. هذه هي ملامح المجتمع الذي يقدس المال. إنه لا

يكرم اليتيم الذي يستدر عطف كل بشر، ولا يأبه بمسكين، ويسترسل مع المال.

[٢١] إذا تجب مواجهة هذه القيمة الشاذة التي تحسب الكرامة في الثروة، والهوان في الفقر، ولكن أنى يستطيع الإنسان التسامي من أرض خلق منها وعجنت طينته بحبها وحب شهواتها وزينتها! بلى، إذا آمن بالله، وتطلع إلى لقائه، وعرف أن الحياة حقا هي حياة الآخرة.. آنئذ تعزف نفسه عن الدنيا، ويقدم من جهده وماله لبناء مقره النهائي في الآخرة. من أجل هذا يصور لنا السياق مدى الحسرة التي تشمل الناس الذين لم يعمروا حياتهم الآخرة، وأذهبوا طيباتهم في الدنيا تلك اللحظات الزائلة التي سرعان ما تبخرت ولم تخلف لهم سوى الندم والحسرات في يوم الزلزال الكبير. ﴿كَلَّآ﴾ ليست الدنيا نهاية المطاف، وليست الثروة قيمة عند الله، وليست تصوراتهم عن أنفسهم صحيحة.. ومتى يتجلى لهم ذلك؟ إنما عند قيام الساعة. ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ فإذا بالأبنية التي هي نتيجة تراكمات جهد الملايين تنهار بفعل الزلزال الرهيب الذي يدك الأرض فيسويها ويدعها قاعا صفصفا. قالوا: أي زلزلت الأرض فكسر بعضها بعضا وتكسرت الأشياء على ظهرها، وقال بعضهم: بل دكت جبالها وأنشازها حتى استوت. وأنى كان فإن الأرض تنبسط كالأديم لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، ولا حفرة ولا ارتفاعا. فهل تبقى يومئذ قيمة لعقار أو ركاز أو ذهب وفضة؟!.

[٢٢] هنالك يتجلى الرب بعظمته للعالمين، فلا أحد يقدر على الهرب من سطوته أو الشك في قهره وقدرته، حيث ترى الملك صافين ينتظرون أوامره. ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي آية عظيمة من آيات الله تتجلى تلك التي عبر القرآن عنها: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾؟ لست أدري، ولكنه يوم عظيم لا يمكننا ونحن نعيش حدود الدنيا الضيقة أن نتحسس آفاق عظمته.

[٢٣] إلا إن من معاني شهود الله حضور تلك القيم التي أمر بها، وتلاشي قيم الزيف والضلال التي امتحن الناس بها في الدنيا.. لذلك فأول ما يؤتى بجهنم سجن المجرمين الرهيب. ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ أين جهنم اليوم، وكيف يؤتى بها ذلك اليوم؟ هل هي كرة ملتهبة عظيمة كالشمس وأعظم منها، حتى أن الشمس حين تقع فيها تصيح من شدة حرها، أم ماذا؟ لا نعرف، ولكن جاء في رواية مأثورة عن أبي جعفر (الباقر) عليه السلام أنه قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُول الله صلى الله عليه وآله فَقَالَ: أَخْبَرَنِي الرُّوحُ الأَمِينُ أَنَّ الله لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِذَا بَرَزَ الخَلَائِقَ وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ أُتِيَ بِجَهَنَّمَ تُقَادُ بِأَلْفِ زِمَامٍ يَقُودُهَا مِائَةُ أَلْفِ مَلَكٍ مِنَ الغِلَاظِ الشِّدَادِ لَهَا هَدَّةٌ وَغَضَبٌ وَزَفِيرٌ وَشَهِيقٌ وَإِنَّهَا لَتَزْفِرُ الزَّفْرَةَ فَلَوْ لَا أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أَخَّرَهُمْ لِلْحِسَابِ لَأَهْلَكَتِ الجَمْعَ.

ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ فَيُحِيطُ بِالْخَلَائِقِ الْبَرِّ مِنْهُمْ وَالْفَاجِرِ فَمَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْداً مِنْ عِبَادِهِ مَلَكاً وَلَا نَبِيّاً إِلَّا يُنَادِي رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي وَأَنْتَ يَا نَبِيَّ اللهِ تُنَادِي أُمَّتِي أُمَّتِي ثُمَّ يُوضَعُ عَلَيْهَا الصِّرَاطُ أَدَقَّ مِنَ الشَّعْرَةِ وَأَحَدَّ مِنَ السَّيْفِ عَلَيْهَا ثَلَاثُ قَنَاطِرَ فَأَمَّا وَاحِدَةٌ فَعَلَيْهَا الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، وَأَمَّا ثَانِيهَا فَعَلَيْهَا الصَّلَاةُ.

وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعَلَيْهَا عَدْلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَيُكَلَّفُونَ الْمَمَرَّ عَلَيْهَا فَتَحْبِسُهُمُ الرَّحِمُ وَالْأَمَانَةُ، فَإِنْ نَجَوْا مِنْهَا حَبَسَتْهُمُ الصَّلَاةُ، فَإِنْ نَجَوْا مِنْهَا كَانَ الْمُنْتَهَى إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ جَلَّ وَعَزَّ وَهُوَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وَالنَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ فَمُتَعَلِّقٌ بِيَدٍ وَتَزُولُ قَدَمٌ وَيَسْتَمْسِكُ بِقَدَمٍ وَالْمَلَائِكَةُ حَوْلَهَا يُنَادُونَ يَا حَلِيمُ اغْفِرْ وَاصْفَحْ وَعُدْ بِفَضْلِكَ وَسَلِّمْ سَلِّمْ وَالنَّاسُ يَتَهَافَتُونَ فِي النَّارِ كَالْفَرَاشِ فَإِذَا نَجَا نَاجٍ بِرَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَرَّ بِهَا فَقَالَ الْحَمْدُ للهِ وَبِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وَتَزْكُو الْحَسَنَاتُ وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ بَعْدَ إِيَاسٍ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾»(١).

وفي حديث آخر إضافة رهيبة حيث يقول الرسول ﷺ: «جَاءَ جَبْرَئِيلُ فَأَقْرَأَنِي ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ﴾ فَقَالَ قُلْتُ كَيْفَ يُجَاءُ بِهَا قَالَ يَجِيءُ بِهَا سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَقُودُونَهَا بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ فَتَشْرُدُ شَرْدَةً لَوْ تُرِكَتْ لَأَحْرَقَتْ أَهْلَ الْجَمْعِ»(٢).

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ لا تنفعه الذكرى بعد فوات أوانها.

[٢٤] ماذا يتذكر؟ يتذكر طيباته التي بددها فيما زالت، يتذكر شبابه الذي أبلاه في شره السهو والتباعد عن الرب، يتذكر أمواله التي جمعها من غير حل، وأنفقها في غير رضا الرب، يتذكر أوقاته التي أفناها في اللهو والغفلة والاشتغال بالتوافه، وكل ساعة منها كان يستطيع أن يحصل بها على ملك كبير في الآخرة! ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ إنها تلك الحياة حق الحياة، الحياة الخالدة التي لا تزول.

[٢٥] هنالك العذاب الإلهي الذي يتجلى به الرب، والوثاق الإلهي الذي يتجلى به غضبه. ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ لا أحد يُعذب كالله، لأنه الأعظم الأكبر الذي لا يقاس أي شيء منه بأي شيء من خلقه. وإن الإنسان ليهرب من عذاب الدنيا ولا يعرف أن عذاب الله في الآخرة لا يقاس ببعض الأذى في الدنيا.

جاء في دعاء أمير المؤمنين علي عليه السلام: «وَأَنْتَ تَعْلَمُ ضَعْفِي عَنْ قَلِيلٍ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص١٢٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٧، ص١٢٤.

وَعُقُوبَاتِهَا وَمَا يَجْرِي فِيهَا مِنَ المَكَارِهِ عَلَى أَهْلِهَا عَلَى أَنَّ ذَلِكَ بَلاءٌ وَمَكْرُوه قَلِيلٌ مَكْثُه يَسِيرٌ بَقَاؤه قَصِيرٌ مُدَّتُه فَكَيْفَ احْتِمَالِي لِبَلاءِ الآخِرَةِ وَحُلولِ [وَجَليلِ] وُقُوعِ المَكَارِهِ فِيهَا وَهُوَ بَلاءٌ تَطُولُ مُدَّتُه وَيَدُومُ مَقَامُه وَلا يُخفف عَنْ أَهْلِه لأَنَّهُ لا يَكُونُ إِلَّا عَنْ غَضَبِكَ وَانْتِقَامِكَ وَسَخَطِكَ وَهَذَا مَا لَا تَقُومُ لَهُ السمَاوَاتِ وَالأَرضِ يَا سَيِّدِي فَكَيْفَ بِي وَأَنَا عَبْدُكَ الضعِيفُ الذَّلِيلُ الحَقِيرُ المِسْكِينُ المُسْتَكِينِ»(١).

[٢٦] كما لا شيء يشبه سجن الله ووثاقه. ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي لا يشد أحد وثاقاً بذات الشدة التي يشد الله وثاق الكفار.

[٢٧] أهذا خير، أم مصير المؤمنين الذين قدموا لحياتهم فعمروا آخرتهم، فاطمأنت نفوسهم بسكينة الإيمان، وتساموا فوق مؤثرات المادة؟ فربما ملكوها ولكنها لم تمتلكهم أبداً، فعاشوا أحرارا، وماتوا سعداء، إذا استقبلهم ملك الموت فبترحاب، ونودوا في أول ساعة من حياتهم الأبدية بالبشرى. ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ يعيش المؤمن بين الخوف والرجاء، فإن دعاه إلى الخوف إحساسه بالتفريط في جنب الله، فقد دعاه إلى الرجاء يقينه بعظيم عفو الله وواسع رحمته. كل خوفه من العاقبة السوأى، ومن ألا يتقبل الله حسناته، ولا يتجاوز عن سيئاته، ومن أن يتبين في ساعة الرحيل أن حساباته كانت خاطئة، وأنه ليس كما كان يرجو من أصحاب الجنة. أولم تسمع مناجاة الإمام السجاد علي بن الحسين عليه السلام: «لَيْتَ شِعْرِي أَلِلشَّقَاءِ وَلَدَتْنِي أُمِّي أَمْ لِلْعَنَاءِ رَبَّتْنِي فَلَيْتَهَا لَمْ تَلِدْنِي وَلَمْ تُرَبِّنِي وَلَيْتَنِي عَلِمْتُ أَمِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ جَعَلْتَنِي وَبِقُرْبِكَ وَجِوَارِكَ خَصَصْتَنِي فَتَقَرَّ بِذَلِكَ عَيْنِي وَتَطْمَئِنَّ لَهُ نَفْسِي»(٢).

[٢٨] فإذا جاءه النداء الإلهي عند وفاته: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ استراح، وشملته البشرى، وعمه الفرح.. هنالك يستطيب الموت لأنه عودة العبد الكريم إلى الرب الرحيم الذي يستضيفه بالقول: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ لقد اطمأنت أنفسهم إلى بارئها، وتوكلوا على الله، وسلموا لقدره وقضائه، ولم يبطرهم الغنى، وما اعتبروه صك الغفران، ولم يهزمهم الفقر، وما اعتبروه لعنة إلهية.. لذلك فإن الله يرضيهم بنعيم الأبد، وينبئهم بأنهم مرضيون، وما أحلى ساعة اللقاء بحبيبهم وأنيسهم، وما أروع كلمات الود المتبادلة، جاء في الحديث القدسي عن الله عز وجل أنه قال في حق الزاهدين وأهل الخير وأهل الآخرة: «فَوَ عِزَّتِي وَجَلَالِي لَأُحْيِيَنَّهُمْ حَيَاةً طَيِّبَةً إِذَا فَارَقَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ لَا أُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مَلَكَ الْمَوْتِ وَلَا يَلِي قَبْضَ رُوحِهِمْ غَيْرِي وَلَأَفْتَحَنَّ لِرُوحِهِمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ كُلَّهَا وَلَأَرْفَعَنَّ الْحُجُبَ كُلَّهَا دُونِي وَلَآمُرَنَّ

(١) المصباح للكفعمي: ص٥٥٧، من دعاء كميل

(٢) الصحيفة السجادية: مناجاة الخائفين.

الْجِنَانَ فَلْتُزَيَّنَّ وَالْحُورَ الْعِينَ فَلْتُزَفَّنَّ وَالْمَلَائِكَةَ فَلْتُصَلِّيَنَّ وَالأَشْجَارَ فَلْتُثْمِرَنَّ وَثِمَارَ الْجَنَّةِ فَلْتُدَلِّيَنَّ وَلَآمُرَنَّ رِيحاً مِنَ الرِّيَاحِ الَّتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَلْتَحْمِلَنَّ جِبَالًا مِنَ الْكَافُورِ وَالْمِسْكِ الأَذْفَرِ فَلْتَصِيرَنَّ وَقُوداً مِنْ غَيْرِ النَّارِ فَلْتَدْخُلَنَّ بِهِ وَلَا يَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَ رُوحِهِ سِتْرٌ فَأَقُولُ لَهُ عِنْدَ قَبْضِ رُوحِهِ: مَرْحَباً وَأَهْلًا بِقُدُومِكَ عَلَيَّ، اصْعَدْ بِالْكَرَامَةِ وَالْبُشْرَى، وَالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ، وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خالِدِينَ فِيها أَبَداً، إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ، فَلَوْ رَأَيْتَ الْمَلَائِكَةَ كَيْفَ يَأْخُذُ بِهَا وَاحِدٌ وَيُعْطِيهَا الآخَر!»[1].

وجاء في نفس الحديث: «وإِذَا كَانَ الْعَبْدُ فِي حَالَةِ الْمَوْتِ يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ مَلَائِكَةٌ بِيَدِ كُلِّ مَلَكٍ كَأْسٌ مِنْ مَاءِ الْكَوْثَرِ وكَأْسٌ مِنَ الْخَمْرِ يَسْقُونَ رُوحَهُ حَتَّى تَذْهَبَ سَكْرَتُهُ ومَرَارَتُهُ ويُبَشِّرُونَهُ بِالْبِشَارَةِ الْعُظْمَى ويَقُولُونَ لَهُ طِبْتَ وطَابَ مَثْوَاكَ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ الْحَبِيبِ الْقَرِيبِ فَتَطِيرُ الرُّوحُ مِنْ أَيْدِي الْمَلَائِكَةِ فَتَصْعَدُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ ولَا يَبْقَى حِجَابٌ ولَا سِتْرٌ بَيْنَهَا وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى واللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَيْهَا مُشْتَاقٌ ويَجْلِسُ عَلَى عَيْنٍ عِنْدَ الْعَرْشِ ثُمَّ يُقَالُ لَهَا كَيْفَ تَرَكْتِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ إِلَهِي وعِزَّتِكَ وجَلَالِكَ لَا عِلْمَ لِي بِالدُّنْيَا أَنَا مُنْذُ خَلَقْتَنِي خَائِفٌ مِنْكَ فَيَقُولُ اللهُ صَدَقْتَ عَبْدِي كُنْتَ بِجَسَدِكَ فِي الدُّنْيَا ورُوحُكَ مَعِي فَأَنْتَ بِعَيْنِي سِرُّكَ وعَلَانِيَتُكَ سَلْ أُعْطِكَ وتَمَنَّ عَلَيَّ فَأُكْرِمَكَ هَذِهِ جَنَّتِي مُبَاحٌ فَتَسَيَّحْ فِيهَا وهَذَا جِوَارِي فَاسْكُنْهُ.

فَتَقُولُ الرُّوحُ إِلَهِي عَرَّفْتَنِي نَفْسَكَ فَاسْتَغْنَيْتُ بِهَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ وعِزَّتِكَ وجَلَالِكَ لَوْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ أُقَطَّعَ إِرْباً إِرْباً وأُقْتَلَ سَبْعِينَ قَتْلَةً بِأَشَدِّ مَا يُقْتَلُ بِهِ النَّاسُ لَكَانَ رِضَاكَ أَحَبَّ إِلَيَّ كَيْفَ أُعْجَبُ بِنَفْسِي وأَنَا ذَلِيلٌ إِنْ لَمْ تُكْرِمْنِي وأَنَا مَغْلُوبٌ إِنْ لَمْ تَنْصُرْنِي وأَنَا ضَعِيفٌ إِنْ لَمْ تُقَوِّنِي وأَنَا مَيِّتٌ إِنْ لَمْ تُحْيِنِي بِذِكْرِكَ ولَوْ لَا سَتْرُكَ لَافْتَضَحْتُ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَصَيْتُكَ إِلَهِي كَيْفَ لَا أَطْلُبُ رِضَاكَ وقَدْ أَكْمَلْتَ عَقْلِي حَتَّى عَرَفْتُكَ وعَرَفْتُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ والأَمْرَ مِنَ النَّهْيِ والْعِلْمَ مِنَ الْجَهْلِ والنُّورَ مِنَ الظُّلْمَةِ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ وعِزَّتِي وجَلَالِي لَا أَحْجُبُ بَيْنِي وبَيْنَكَ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ كَذَلِكَ أَفْعَلُ بِأَحِبَّائِي»[2].

[٢٩] ثم يدخل الله روح المؤمن بعد قبضها برضاه في حزبه المفلحين في عباده الصالحين حيث المؤانسة والصفاء. ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي انتظمي في سلكهم.

[٣٠] وتستقبله دار ضيافة الله ومنزل كرامته الجنة التي من دخلها لم يخرج منها أبدا. ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ جعلنا الله من أهل جنته أنه سميع الدعاء.

---

(١) كلمة الله: ص ٣٦٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٧، ص ٥٠٠.

سُورَةُ البَلَد

* مكية.

* عدد آياتها: ٢٠.

* ترتيبها النزولي: ٣٥.

* ترتيبها في المصحف: ٩٠.

* نزلت بعد سورة ق.

فضل السّورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «مَنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُ فِي فَرِيضَةٍ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ كَانَ فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً أَنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَكَانَ فِي الْآخِرَةِ مَعْرُوفاً أَنَّ لَهُ مِنَ الله مَكَاناً وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رُفَقَاءِ النَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٩)

الإطار العام

الحرية بين وعي الذات وعزم الإرادة

حينما يولد ابن آدم تتساوى في كيانه فرص الخير والشر، ولا يزال يختار ثم يستفيد من فرص الخير أو الشر الواحدة بعد الأخرى حتى تميل كفته نحو ما اختار. فرص الخير هي العناصر النورية التي لو رجحت حملته إلى الجنة، بينما فرص الشر هي العناصر النارية التي لو تكاثفت هوت به إلى جهنم وساءت مصيرا.

ولا أعرف شيئا يجري فيه تحول ذاتي كالإنسان. إنه يتمحض بالتالي للجنة أو للنار، هنالك لا يعود مختارا، ولا يعود يملك حرية اختيار واحد من النجدين، بل يبقى كما اختار أولاً: أما إلى جنة النور خالدا فيها، أو إلى جهنم النار خالدا فيها، أو لبعض الوقت.

كيف يتم اختيار الشر؟ أنه ليس بحاجة إلى العزم والوعي، بل يكفي الغفلة والاسترسال سبيلا يؤدي به إلى النار، كما لو تسلق الإنسان الجبل لا يحتاج سقوطه في الوادي إلى إرادة وحكمة، بل ليدع نفسه لحظة فسوف نراه في الوادي مهشما بعد لحظات، بينما الذي يختار الجنة عليه أن يتسلح بوعي الذات وعزم الإرادة، ولعل هذه البصيرة هي محور سورة البلد.

ذلك أن القسم **الأول**: من السورة يبصرنا بأنفسنا، وأننا في كبد (الأرض والمكان) وعلينا وعي ذلك حتى نتحدى الصعاب بعزم الإرادة، ونعرف أن الله قادر علينا فنراقبه، وخبير بنا فلا نخدع أنفسنا، خصوصا عند الإنفاق، فنزعم: أننا أهلكنا مالا كثيرا.

أما القسم **الثاني**: فيذكرنا بضرورة اقتحام العقبة، وتجاوز المنعطف الخطير الذي يجد الإنسان نفسه بين أمرين: بين السقوط في أشراك الهوى أو التحليق في سماء الحق.

وبعد أن يبين مثلين لاقتحام العقبة هما: فك رقبة، والإطعام في يوم ذي مسغبة، يهدي إلى قمة التحول الإيجابي عند البعض المتمثلة في الإيمان والتواصي بالصبر والمرحمة.

كما يشير في السياق في خاتمة السورة إلى التحول السلبي عند البعض الآخر متمثلا في الانحياز إلى المشأمة حيث النار المؤصدة.

وما أدراك ما العقبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ
(٣) لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ[1] (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥)
يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ
عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ[2] (١٠) فَلَا ٱقْتَحَمَ
ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى
مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (١٨)
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ (٢٠)﴾.

بينات من الآيات:

[١] لكي نعي مدى خطورة قضية نقيسها بأخرى عبر القسم، وحينما يأتي القسم في كلام الله، يضاف إلى ذلك بعدان آخران:

أولاً: يعكس عظمة ما يقسم به بذات النسبة التي يعكس أهمية ما يقسم عليه.

ثانياً: يكشف عن علاقة خفية أو ظاهرة بين الأمرين، وفي فاتحة سورة البلد نجد التلويح

(١) كبد: أصل الكبد من قولك: كبد الرجل كبداً فهو كبد إذا وجعت كبده وانتفخت، فاتسع فيه حتى استعمل في كل تعب ومشقة، ومنه اشتقت المكابدة، وأصل كبده إذا أصاب كبده، وقيل: الكبد: شدة الأمر ومنه تكبّد اللبن: إذا أغلظ واشتد.

(٢) النجدين: قيل النجد كالنجف، وسميت نجدٌ نجداً لأنها في رفعة من الأرض، وسميت النجف نجفاً لذلك، وقيل: نجد: هو الطريق الواضح على مرتفع من الأرض يبصره الرائي.

بالقسم بالبلد وبالوالد والولد، لبيان المشاق التي يواجهها الإنسان، فما هي العلاقة بينهما؟ إنها تتمثل في أن أعظم ما يكابده البشر يتصل بالأرض والأولاد.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ قلنا: أن القسم يهدف إلقاء ظلال من العظمة على الموضوع، وسوف يحقق هذا الهدف نفيه أو إثباته، وقد يكون نفي القسم يوحي بأهمية ما يحلف به مما يبالغ في العظمة، ولذلك قال المفسرون: أن «لا» هنا زائدة، وبعضهم قال: إنها تشبه كلمة كلا، تنفي أفكار الجاهليين. ولعله، بل هو الأقرب كما سبق في سورة القيامة أن ﴿لَآ﴾ ليست بزائدة، حيث تكون لا أقسم لعدم الحاجة للقسم، فهو بمعنى القسم. والبلد -حسب أقوال المفسرين-: مكة، وشرف مكة واضح.

[٢] ولكن مكة ليست بأشرف من رسول الله ﷺ، بل شرف كل أرض بمن يسكنها من عباد الله الصالحين، ولذلك جاء في الحديث: «**الْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الْكَعْبَةِ**»[١] ويفسر ذلك حديث آخر أن رسول الله ﷺ نظر إلى الكعبة فقال: «**مَرْحَباً بِالْبَيْتِ مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ عَلَى اللهِ وَاللهِ لَلْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْكَ لِأَنَّ اللهَ حَرَّمَ مِنْكَ وَاحِدَةً وَمِنَ الْمُؤْمِنِ ثَلَاثَةً مَالَهُ وَدَمَهُ وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ**»[٢] أوليست الكعبة أول بيت وضع للناس، فالهدف إذا هو الإنسان الذي سخرت له الأرض وما فيها، وأي إنسان أشرف من محمد بن عبد الله ﷺ.

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي أنت تسكن هذا البلد وتحل فيه، وقال بعضهم معنى الآية: لا أقسم بالبلد الذي يستحل النبي فيه. وقد روي ذلك مأثورا عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «**وكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُعَظِّمُونَ الْحَرَمَ ولَا يُقْسِمُونَ بِهِ يَسْتَحِلُّونَ حُرْمَةَ اللهِ فِيهِ ولَا يَعْرِضُونَ لِمَنْ كَانَ فِيهِ ولَا يُخْرِجُونَ مِنْهُ دَابَّةً فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ قَالَ يُعَظِّمُونَ الْبَلَدَ أَنْ يَحْلِفُوا بِهِ ويَسْتَحِلُّونَ فِيهِ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»[٣].

وعلى هذا يكون شرف المكان بتوفر حالة من الحرية والأمن لمن يسكنه.

[٣] ثم يقسم بالقرآن بوالد وما ولد، فيقول: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ فمن هما؟ يبدو أن كل والد يكابد حتى ينمو ولده ويشب، كما يكابد كل ولد حتى يكتمل ويصبح والدا، والقسم على هذا مطلق يشمل كل إنسان. وقال بعضهم بل المراد آدم عليه السلام وذريته، أو إبراهيم عليه السلام ونجله إسماعيل، أو كل ذريته الصالحين.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٧١.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٤، ص٧١.
(٣) الكافي: ج٧، ص٤٥٠.

[٤] أيهما أيسر عليك إذا حملت ما يزن خمسة كيليات وأنت تزعم أنها عشرة، أو كنت تزعم أنها ثلاثة؟! كذلك حينما تواجه الحياة وأنت ترى أنها كما التسلق على جبل أشم، فإنك تتغلب بسهولة، بعكس ما لو زعمت أنها مجرد رحلة سياحية. والقرآن الكريم يريدنا أن نعرف حقيقة الحياة، ونسمو إلى مستواها، لأنه أفضل لديننا ودنيانا من أن نتهرب منها بحثا عن الراحة، القرآن يريدك قوي الظهر حتى لا يثقل عليك أي حمل، ولا يريدك تبحث دائما عن الحمل الخفيف وقد لا تجده.. أولم تقرأ قول الله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]. بلى، وكل حياة الإنسان كدح، إلا إنه قد يغفل عنه فيهرب إلى ما هو أشد كدحا، أو يستسهله ويتغلب على صعابه حتى لا يعود يعترف بأية صعوبة. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ وأنى لك الفرار من أمر خلقت فيه وهو داخل كيانك بل هو أصل وجودك شئت أم أبيت؟! قالوا: الكبد الشدة والنصب.

الوجود ذاته سلسلة انتصارات ضد العدم، أوليس الوجود نورا يجعل الشيء واقعا! تصور أن النور ذرات متلاحقة متصلة، فإذا توقفت فليس ثمة سوى ظلام. والحياة بدورها سلسلة صراعات ضد الموت، إنها هي الأخرى نور متجدد، وهي نتيجة ملايين من العوامل المتزامنة لو فقد بعضها انعدمت. كما إن حياة كل واحد منا صراع مع الطبيعة، أوتعرف كم مليار جرثومة هجمت عليك خلال رحلة حياتك بهدف القضاء عليك، وكم مرة تعرضت أو تتعرض لخطر الموت فنجوت منها بإذن الله، وحتى على مستوى الظاهر تجد الإنسان في كبد، يصارع من أجل البقاء في ظلمات الرحم، ويواجه أكبر التحديات عند الولادة، حتى اعتبروا ساعتها كساعتي الموت والنشور أشد مما يمر به البشر، وفي الطفولة المبكرة يعاني من الجوع والعطش والألم ويتحدى الأخطار، أوليس تشكل نسبة الوفيات عند الأطفال الأعلى في البلاد النامية ونسبة عالية في غيرها؟!.

راقب طفلا يتعلم المشي وانظر كم يتقدم وكم يسقط، وراقبه عند تعلم اللغة كم يعاني من صعوبة، وراقبه عندما يسعى لإقناع والديه برغبة ملحة كم يبكي، وكم يجهد نفسه؟. كل ذلك جانب من معاناة الطفل. أما معاناة الكبار فإنها لا تنتهي لأن الإنسان خلق شاعرا طموحا، والشعور يفرز الألم، والطموح سبيل المعاناة، وهذا هو الذي يميزه عن سائر الأحياء.

[٥] وفي هذه المكابدة يستوي المؤمن والكافر، والغني والفقير، والكبير، والصغير، وكل من سمي إنسان. قد لا تحس أنت بمعاناة رفيقك لأنك لست في قلبه، فتزعم أن غيرك أفضل منك، ولكن أوليسوا هم أيضا بشرا أمثالك. بلى، إذا تعالوا نرضى بواقعنا، ونتحمل المسؤولية، ولا يقول الواحد: الآن أنا صغير، لو كبرت لارتحت مما أعانيه، لأن الكبار أفضل، أو يقول: أنا الآن أعزب لو تزوجت أو أن سبب متاعبي فقري فلو أغناني الله بلغت الراحة، أو أن سبب

مشاكلي أن أولادي صغار فلو كبروا تخلصت من همومهم، ولكنه ما أن ينتقل من حال إلى حال، أو من مرحلة لأخرى حتى تهجم عليه مشاكل جديدة، كل مشكلة أكبر من أختها. لا تعش إذا في الأمنيات الحلوة، في أحلام اليقظة، لا تقل لا يعاقبني الله، ولماذا؟ هل أنت إلا بشر.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ قالوا معناه: أيظن أي آدم أن لن يعاقبه الله عز وجل؟ إنه ينظر إلى ما أُوتي من نعم الله فيصيبه الغرور ولا يفكر أن ما لا يملكه أكثر مما يملكه، يقول: لا أحد يقدر علي، وهو يعيش في وسط المشاكل وكبد التحديات.

[٦] أوتدري كيف يكبر الإنسان؟ حينما يحمل قضية كبيرة، ونسبة أدائه لقضيته يكون تساميه، وهكذا حمل الله عباده الصالحين المزيد من المسؤوليات، وابتلاهم بأشد البلاء، حتى جاء في الحديث المعروف: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَل»[(١)]، بيد أن بعض الناس كلما حمل رسالة أو قضية أو مسؤولية صغرت نفسه في عينيه، وقال: كيف أؤدي هذا العمل؟ وحاول الفرار منها. حقا عند هذه النقطة يفترق العظماء عن غيرهم، إنهم لا يجدون أحدا أحق منهم بعمل الخير أو تحمل المسؤولية، بل تجد بعضهم يبحث عنها بحثا حثيثا. ولعل الآية هذه تعالج هذه الحالة الشاذة في نفس الإنسان، حيث تراه إذا أعطى قليلا كبر في عينيه، وقال: أنه مال كثير، ولا يقول أنه قدمه لحياته، بل يراه مغرما ويقول: إنني أهلكته. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي مالا كثيرا مجتمعاً ولعله يكون كاذبا في ذلك، فلم ينفق إلا قليلاً، وعظم عمله في عينه، بخلاف المؤمن الذي لا يخرج أبدا عن حد التقصير في جنب الله، ولذلك فهو يتطلع أبداً إلى عمل أكبر وأفضل.

[٧] ثم إنه يزعم: أنه متروك لشأنه كالبهيمة السائحة، وأنه لا أحد يراقبه. كلا.. إن الله يراقبه وهو أقرب إليه من حبل الوريد. ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.

[٨] إن الذين يتهربون من مسؤولياتهم يفرغون حياتهم من محتواها، من لبها، من هدفها. فلماذا إذاً جعل إنسانا، وأوتي الأحاسيس المختلفة: عينا يبصر بها فيعرف الحق والباطل، ولساناً ينطق به، وشفتين ليطبقها على لسانه إن هم بكلام خاطئ. ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ﴾ للبصر والبصيرة معاً.

[٩] وجعل الله للإنسان اللسان الذي ميزه عن سائر الأحياء بالنطق. ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾.

[١٠] وأعظم النعم أنه منحه الحرية فهداه إلى ما هو طريق الحق وما هو طريق الباطل. ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ وأصل النجد الأرض المرتفعة، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا هُمَا نَجْدَانِ نَجْدُ خَيْرٍ وَنَجْدُ شَر»[(٢)]، ولعل تسمية الطريقين بالنجدين بسبب أنهما

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٥٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٢، ص٢١.

طريقان، واضحان، متميزان، ظاهرة معالمها، ومعروف روادهما.

[١١] كل ما في الإنسان يعكس المسؤولية التي حمل إياها، فقد ألهم الفجور والتقوى، وأودع في داخله نوازع الشر وحوافز الخير، وسخرت له الأشياء لكي يستخدمها في واحد من السبيلين، والسؤال: كيف ينبغي أن يتصرف حتى يحقق المسؤولية التي هي الهدف من خلقه؟ عليه أن يقتحم، وما لم يفعل ذلك يبقى وراء جدار التخلف. ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ هل تسلقت الجبال، وهل صادفك طريق وعر ضيق بين الصخور المتراكمة، ومن تحتك الوادي العميق، الحالة النفسية التي يعيشها المتسلق الشجاع هي الحالة المطلوبة في تحدي الصعاب في الحياة وتحمل المسؤوليات، قمة في الوعي ومضاء في العزم وشجاعة في الإقدام. أية وسوسة أو تردد أو ارتجاج للقدم، أو أية غفلة وتساهل تكفي سببا للسقوط في الهاوية السحيقة!.

وقالوا عن الاقتحام: الدخول بسرعة وضغط وشدة، والعقبة: الطريق الصعب الوعر الذي فيه صعود.

[١٢-١٣] وأي شيء العقبة؟ إنها تجاوز شح النفس، ومصارعة هواها بالكرم والإيثار. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ قالوا عن فك الرقبة: أنه أشمل من عتق رقبة، لأن العتق هو تحرير الرق بصورة كاملة، بينما فك رقبة يكون ذلك بالمشاركة مع الآخرين، وأوردوا في ذلك حديثا مأثورا عن رسول الله ﷺ يقول الحديث المرفوع عن البراء بن عازب: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ فَقَالَ ﷺ: **إِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ، أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ**. فَقَالَ: أَوَلَيْسَا وَاحِداً، قَالَ ﷺ: **لَا عِتْقُ الرَّقَبَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا، وَالْفَيْءِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمآنَ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلا مِنْ خَيْرٍ**»[١].

[١٤] ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ إن الإطعام جيد وعند المجاعة حيث يحضر النفوسَ الشحُ لا يكاد يغيب عنها، وينتشر الاستئثار، ويصبح الناس في هلع شديد، يكون الإطعام أعظم ثوابا، لأنه يعتبر تجاوزاً لحالة الشح، واقتحاماً لعقبة حب الذات.

[١٥] والإطعام قد يكون بهدف الحصول على مكسب مادي أو رياء وسمعة، ويتبين ذلك عادة عند انتخاب موضعه، فمن الناس من لا يعطي الفقير درهما ولكنه ينفق على الموائد الباذخة ألوف الدنانير. من هنا حدد الله كل الإنفاق وقال: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ فأولى الناس بالاهتمام بالأيتام أقرباؤهم، واليتيم، حلقة ضعيفة في المجتمع، لضعفه وقلة احترام الناس له،

---

(١) مستدرك الحاكم النيسابوري: ج٢، ص٢١٧، نور الثقلين: ج٥ ص٥٨٣.

ولذلك تتوالى النصوص القرآنية التي تشجع على الاهتمام به.

[١٦] والمورد الضروري الآخر للإنفاق هو المسكين القريب. ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ الذي ألصقه الفقر بالتراب.

[١٧] ويبدو أن فك الرقبة والإطعام مثلان لاقتحام العقبة، وأن الكلمة تشمل كل اقتحام لعقبة الهوى، ومجاهدة لتيار الشهوات، وإن أعظم ما ابتلي به الإنسان عقبة التسليم للحق ولمن يمثله من البشر كالرسول وخلفائه عبر العصور، فمن والى الرسول وأئمة الهدى عليهم السلام من خلفائه فقد اقتحمها، وإلا هوى في النار، لذلك عبر القرآن عن هذه الطاعة بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ وقال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإن المسافة بين فك رقبة والإطعام، وبين الإيمان التام بكل ما أنزل الله واتباع رسول الله مسافة شاسعة، وإن البشر لا يزال يعمل الخيرات ويقاوم شهوات نفسه حتى يعرج إلى مستوى التسليم لله، والإيمان برسالاته، واتباع الرسول وخلفائه المعصومين. والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وأعظم منه التواصي به، فإنه قمة التسليم للحق والرضى بالمكاره التي في طريقه، وأعظم من الصبر الرحمة، فقد تعبر على أذى الناس وأنت تدعوهم إلى الخير ولكن يمتلئ قلبك بغضا لهم، بينما المؤمن حقا هو الذي يرحم الناس جميعا وحتى أعدائه تسعهم رحمته، وأعظم من كل ذلك التواصي بالمرحمة. وإشاعة ثقافة الصبر والرحمة في المجتمع. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

[١٨] هؤلاء هم أصحاب الجنة الذين يحظون بالعاقبة الحسنى. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وهكذا جعل الله شرطا لدخول الجنة يتمثل في اقتحام العقبة، ومن لم يحقق هذا الشرط الأساسي فإن أمانيه في الجنة تذهب عبثا، وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «هَيْهَاتَ لَا يُخْدَعُ اللهُ عَنْ جَنَّتِهِ»[١]. وجاء في حديث مأثور: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَ حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[٢].

[١٩] أما الكفار الذي سقطوا في فخ الهوى، ولم يتساموا إلى مستوى التحدي فإنهم يتهاوون في النار وساءت مصيرا. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ولا يقبل إنفاقهم، لأن الإيمان شرط مسبق لقبول أي عمل صالح، والعرب كانت تتشاءم من الشمال وذلك سمتها المشأمة.

[٢٠] وكما سجنوا أنفسهم في زنزانة الذات، وصدوها عن رحاب الحق الواسعة، فإنهم يعذبون بنار مطبقة عليهم، مغلقة دونهم. ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ نعوذ بالله من هذه العاقبة السوأى.

(١) بحار الأنوار: ج٣٤، ص٨٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٧٨.

سورة الشمس

* مكية.

* عدد آياتها: ١٥.

* ترتيبها النزولي: ٢٦.

* ترتيبها في المصحف: ٩١.

* نزلت بعد سورة القدر.

فضل السورة

عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالشَّمْسِ﴾ فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِكُلِّ شَيْءٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٨).

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، فِي يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ بِحَضْرَتِهِ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى شَعْرُهُ وبَشَرُهُ ولَحْمُهُ ودَمُهُ وعُرُوقُهُ وعَصَبُهُ وعِظَامُهُ وجَمِيعُ مَا أَقَلَّتِ الْأَرْضُ مِنْهُ ويَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وتَعَالَى قَبِلْتُ شَهَادَتَكُمْ لِعَبْدِي وأَجَزْتُهَا لَهُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى جِنَانِي حَتَّى يَتَخَيَّرَ مِنْهَا حَيْثُ أَحَبَّ فَأَعْطُوهُ مِنْ غَيْرِ مَنٍّ -مِنِّي- ولَكِنْ رَحْمَةً مِنِّي وفَضْلًا عَلَيْهِ فَهَنِيئاً هَنِيئاً لِعَبْدِي».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٥٨)

الإطار العام

التزكية كمال النفس

عبر خمس عشرة آية، وثلاثة مقاطع تبصرنا سورة الشمس بأنفسنا، وكيف نحقق لها الفلاح ونمنع عنها الخيبة.

محور السورة -في ما يبدو- الآيتان: (٧-٨) حيث توحيان بالبصيرة النافذة: أن بلوغ قمة الكمال عند النفس لا يتم إلا بالتزكية، بينما الفشل ينتظر من يدس نفسه في وحل الجاهلية وركامها.

وقبل بيان هذه البصيرة تحملنا الآيات الأولى إلى آفاق السماء والأرض، وظواهر الليل والنهار لكي نجعل من العالم المحيط مدرسة لنا ومحرابا.

وبعد بيانها تضرب الآيات الأخيرة مثلا عليها بواقع ثمود، الذين حملهم طغيانهم إلى تكذيب رسول الله وعقر الناقة التي كانت لهم آية مبصرة.

والسورة عموما تعمق حس المسؤولية في نفس الإنسان، ومن عجب القول أن بعض المفسرين المتأثرين بالفلسفة اليونانية زعموا أن السورة تدل على الجبر، وهكذا حملوا ربهم سبحانه مسؤولية ضلالهم وفجور كل قوم ضال. كلا.. إن الإنسان قد سويت نفسه، وألهمت الفجور والتقوى، وأمر بالتزكية، فمن قام بها أفلح، ومن دس نفسه خاب وخسر أهدافه.

فألهمها فجورها وتقواها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣)
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا[1] (٦)
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا
(٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ
أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ
عُقْبَاهَا (١٥)﴾.

بينات من الآيات:

[١] هل للطبيعة لسان ينطق؟ بلى، يلهج بحمد ربها، ولكن ليس لكل الناس أذن تتلقى. إن إشاراتها خفية فمن التقطها كانت له الكائنات مدرسة مسجدا وطهورا، ولعل من غايات القسم في القرآن تعليمنا لغة الكائنات. أوتدري بأية صورة؟ إن لنفس البشر شفافية تغطي عليها الرغبات الملحة والهموم الطاغية، فالنفس شاعرة تحب الجمال، وتعشق النور، وتنجذب إلى روعة النظام، ودقة التناغم، ولكن الذين يشتغلون أبدا بلذات البطن وما دونه، وتلعب بعقولهم خمرة التفاخر والتكاثر أنى لهم الاستماع إلى همسات روحهم، والاهتمام بلذات عقلهم من هنا يحتاجون إلى من يذكرهم بها، ويستثير في نفوسهم الإحساس بجمال الطبيعة وروعتها

(١) طحاها: أصل الطحو البسط الواسع، يقال: طحا بك همك، يطحو بك طحواً: إذا انبسط بك إلى مذهب بعيد، يقال: طحا القوم بعضهم بعضاً إذا تدافعوا دفعاً فانبسطوا، والطواحي: النسور تنسبط حول القتلى، وهي في هذه الحالة فقط تسمى طواحي.

وتناسقها ونظمها الدقيق، يجعلهم ينظرون إلى الشمس وضحاها ببراءة الطفل، وإحساس الشاعر، وشفافية الواله العاشق، كلما أشرقت الشمس على البسيطة ونشرت ضحاها فوق الروابي والسهول، وبثت أشعتها عبر النوافذ والمداخل، استلهموا منها درسا جديدا بل روحا جديدة. وزخة عاطفية.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ قسماً بها.. انظر إليها وكأنك لم تعرفها من قبل، ما هذه الكتلة العظيمة من النيران، التي لا تزال تحترق منذ ملايين السنين، ولا زالت في كهولتها؛ لأن احتراقها يتم بالتفاعل النووي، ونحن لازلنا على الأرض نتمتع بدفئها وضوئها وفوائدها، ولكن دعنا نتدبر في ضحوة الشمس وهي كما قيل ضد الظل أي أشعتها المنبسطة على الأرض، وتتجلى عند ارتفاع الشمس، وقال بعضهم: ضحى الشمس هي النهار كله، ويبدو أن القول الأول أظهر وهو أن الضحى من الضح وهو نور الشمس.

[٢] للشمس جمالها الناطق وروعتها الصارخة، أما القمر فجماله صامت وروعته هادئة، لذلك اختاره الشعراء لسهراتهم، والعشاق لنجواتهم، وأهل الطاعة لسبحاتهم. ما هذا الفيض المتدفق من النور الهادئ؟ يسبح في الفضاء، وينتعش به جمال الطبيعة، ويهتدي به السري! ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي يلي الشمس، ومن أوتي حسا رهيفا سمع سبحات الشمس والقمر ونورهما فاهتدى إلى ربهما العزيز.

[٣] قسماً بضحوة الشمس، ونور القمر. قسما بالنهار الذي يحيط الأرض بضيائه ودفئه وحيويته. ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ يبدو أن الضمير يعود هنا إلى الأرض وأن لم تذكر كقوله سبحانه عن الشمس: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]. ولم تذكر الشمس في السياق. وقيل: جلى الظلمة وان لم يجر لها ذكر كما نقول أضحت باردة نريد أضحت الغداة باردة أو الليلة باردة، وأنى كان فإن التدبر في النهار ونوره وجماله يزيد الإنسان بصيرة وهدى.

[٤] بعد نهار طويل مجهد يغشى الأرض ظلام الليل وهدوئه، فيستريح على كفه الناس والأحياء والنبات، ومن يتدبر في النهار وضيائه ونشاطه وحركته يصعب عليه كيف يغشى الأرض بعد ساعات الليل بسباته ودجاه وسكونه وسكوته. دع فكرك يقارن بينها وينطلق في آفاق المعرفة. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ والضمير هنا كما الضمير في الآية السابقة يعود إلى الأرض، وجاء في بعض النصوص تأويل هذه الكلمات في الجوانب المعنوية من حياة المجتمع، وأن الشمس رسول الله ﷺ، بينما القمر أمير المؤمنين عليه السلام، أما النهار فأئمة الهدى عليهم السلام، بينما الليل أئمة الضلال[1].

(١) تفسير نور الثقلين: ج ٥ ص ٥٨٥.

[٥] عندما يستجلي المتدبر في ظواهر الطبيعة آيات الله فيها يعي الإنسان عظمة السماء وبنائها المتين، والأرض وإعدادها لراحة البشر، وفيذكره الله سبحانه بهما قائلا: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي تدبير عظيم، وأية حكمة بالغة، وآية قوة واسعة، وأي علم محيط وراء بناء السماء وما فيها من أجرام سماوية مسخرة في أفلاكها. لا يكاد حتى الخيال العلمي الخصب ملاحقة أبعادها وآفاقها ومبتدئها ومنتهاها.

[٦] انظر إلى الأرض التي تعتبر بالقياس إلى سائر أجرام السماء كسمكة صغيرة على شاطئ المحيط إذا قستها إلى الحيتان الكبار التي تجوب البحار الواسعة، أو كأصغر حرف من أصغر كلمة في كتاب متواضع بالنسبة إلى مكتبة تضم ملايين الأسفار، فإذا نظرت إلى الأرض وبحارها وسهولها وجبالها وأنواع الخلق فيها -مما لا يحصيها العلم- كل نظرك ونصب مخك، وقلت: سبحان الله! ما أعظم تلك القوة التي دحت الأرض وهيأتها للحياة بعشرات الملايين من وسائل الحياة والراحة وأسبابها ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ قالوا: الدحو والطحو واحد، ومعناهما البسط، وقال الماوردي: ويحتمل أنه ما خرج منها من نبات وعيون وكنوز لأنه حياة لما خلق عليها، ويبدو أن أصل الطحو هو تهيئة الشيء وتمهيده والله العالم.

[٧] لماذا خلقت السماء والأرض، وأحكمتا البناء أوليس للإنسان؟! تعالوا وفكروا في هذا العالم الكبير: إنه آية على ما خلقهم الله من الأرض من أحياء وأشياء. ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ في أعماق هذه النفس آيات لا يتسنى لغير صاحبها بلوغ أغوارها، كذلك في أعماق سائر النفوس وسائر الحقائق. إنك ترى الشمس من ظاهرها، تلامس جدرانها الخارجية فهل تعرف ما يجري هناك في داخلها، كذلك القمر والنهار والليل، بينما نفسك أقرب الكائنات إليك لا تقدر على اكتشاف جانب من أغوارها الذاتية، فتفكر أي خلق عظيم هذه النفس التي هيأها الله سبحانه، ونظم أمرها، بأحسن تنظيم.

[٨] وأعظم ما في النفس العقل الذي هداها الله به إلى خيرها وشرها، تقواها وفجورها، ما يصلح لها وعليها أن تأتي به، وما يفسدها وعليها أن تتركه. ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ كما قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ومعرفة الفجور قدمت على معرفة التقوى إذ أن النفس تعرف أولاً أسباب الهلاك، ثم تعرف كيف تتجنبها بوسائل الصلاح. علما بأن أكثر الواجبات هي سبل للتخلص من المفاسد.

جاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ «أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَ هَذِهِ الآيَة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ رَفَعَ صَوْتَهُ بِهَا وَقَالَ: آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا فَأَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا وَأَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا»[1].

(١) بحار الأنوار: ج٩٨، ص٣٤٢.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: في تفسيرها: «بيّن لها ما تأتي وما تترك»(١).

[٩] عظيمة جدا نعمة العقل الذي هو مرآة للطبيعة، تعكس ما فيها من خير وشر، وحسن وقبح، وجمال ودمامة، وأعظم منها المشيئة التي بها يتم انتخاب الإنسان لواحد منهما، ويبلغ بها البشر أرفع درجات الكمال المتمثلة في الفلاح، أوليس الفلاح بلوغ المنى، وتحقيق أبعد الأهداف والغايات؟ إبلى، ولكن كيف يبلغ الإنسان ذلك؟ بتزكية النفس وتطهيرها من حوافز الشر، ورواسب الشرك، ووساوس الشيطان. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ قالوا: الزكاة بمعنى النمو والزيادة، ومنه زكاة الزرع إذا كثر ريعه، ومنه تزكية القاضي للشاهد لأنه يرفعه بالتعديل. ويبدو لي أن أصل معنى الزكاة التطهير، وبما أن الشيء الطاهر ينمو بينما لا يكون الخبيث إلا نكدا تلازم معنى الزكاة والتطهير. وقال بعضهم أن أجواد العرب كانوا ينزلون الرُّبا والمرتفعات ليسهل على أصحاب الحاجة الوصول إليهم، بينما اللئام كانوا يختارون الأطراف والمنخفضات هربا من الفقراء وطالبي المعروف، فأولئك علّوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها.

[١٠] كما أن من زكى نفسه وطهرها من أدرانها وأنقذها من قيودها وأغلالها ينطلق في معارج الكمال، ويبلغ الفلاح، فإن من دس نفسه في أوحال الجهل، وسلاسل العبودية، للمال والجاه، فإنه يخيب ولا يبلغ أيا من أهداف وجوده. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ وأصل الدس من التدسيس، وكما قالوا: هو إخفاء الشيء في الشيء، فأبدلت سينه ياء، كما يقال: قصيت أظفاري، وأصلها قصصت أظفاري، وقد استخدمت الكلمة في الإغواء كما قال الشاعر:

وأنت الذي دسست عمرا فأصبحت حلائله منه أرامل ضيعا

والسؤال: ما هي علاقة الدس وهو الإخفاء بالخيبة؟.

إنهما تعبيران متناسقان، ذلك أن الخيبة التي هي خسارة غير متوقعة، وفشل غير محتمل تأتي نتيجة الإحجام والانطواء والانغلاق، والنفس مثل كتلة عظيمة من الأحجار الكريمة أخفيت تحت ركام من الرمل والحجر، ماذا تنفع هذه الكتلة لو زدناها ركاما فوق ركامها، إنما تنفع إذا استخرجناها، ونظفناها، وأبعدنا عنها الأجسام الغريبة، كذلك أنت كتلة هائلة من المواهب والفرص، بإمكانك أن تستغل كل لحظة من حياتك في العروج بنفسك درجة من الكمال، ولكن إذا استسلمت للضغوط، واشتغلت بالتوافه، وتعللت بالتبريرات والأعذار فإن عمرك يذهب عبثا. وتخيب ظنونك.

(١) بحار الأنوار: ج٥، ص١٩٦.

[١١] والدس لا يأتي من فراغ بل ضمن سلسلة من العلل، تبدأ بالطغيان الذي هو صفة ملازمة للإنسان، أوليس الطغيان نتيجة الكبر الذاتي. والكبر يلازم الجهل، والفرح بما تملكه النفس دون النظر إلى ما لا تملكه؟ ومن الطغيان يأتي التكذيب بآيات الله، والانغلاق دون الإنذار ومن التكذيب ينتج الحرمان، أرأيت لو دعاك صاحبك إلى مائدة في يوم مجاعة فكذبته كيف تحرم نفسك!، كذلك الرسل دعونا إلى رحمة الله فكذبهم قوم فخابوا مثل ثمود الذين دعاهم طغيانهم إلى تكذيب آيات الله. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ قالوا: أي بطغيانها فيكون الطغيان سبب التكذيب. وبه جاءت الرواية المأثورة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: في تفسير الآية: «الطُّغْيَانُ حَمَلَهَا عَلَى التَّكْذِيبِ»[١]. وقال بعضهم: بل الطغوى هو العذاب الطاغي الذي كذبوا به، والأول أظهر.

[١٢] والتكذيب كان صفة عامة لثمود ولكنه تركز في شخص واحد هو الذي عقر ناقة صالح من بعد أن طلبوها آية لهم. ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ وهكذا يقوم شخص أو أشخاص معدودون بالجريمة، ولكن الآخرين يرضون عنهم لأنهم لا يقومون بها إلا ضمن سياق اجتماعي يساعدهم عليها: سكوت أهل الصلاح، ومجاهرة المكذبين، وصلافة المجرمين. من هنا روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَجْمَعُ النَّاسَ الرِّضَا والسُّخْطُ وإِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالْخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ الْمُحْمَاةِ فِي الْأَرْضِ الْخَوَّارَةِ»[٢]. ومعنى انبعث: نهض، وإنما سمي عاقر الناقة أشقى ثمود لأنه قام بها لم يجرؤ عليه غيره منهم، وجاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال له النبي صلى الله عليه وآله: «يَا عَلِيُّ أَتَدْرِي مَنْ أَشْقَى الْأَوَّلِينَ قَالَ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ عَاقِرُ النَّاقَةِ [ثُمَّ قَالَ] تَدْرِي مَنْ شر وَقَالَ مَرة مَنْ أَشْقَى الْآخِرِينَ قَالَ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: قَاتِلُكَ»[٣]. وروي عن عمار بن ياسر قال: «كُنْتُ أَنَا وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فِي غَزْوَةِ العسرة نَائِمَيْنِ فِي صَوْرٍ مِنَ النَّخْلِ وَدَقْعَاءَ مِنَ التُّرَابِ فَوَ اللهِ مَا أَهَبَّنَا إِلَّا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يُحَرِّكُنَا بِرِجْلِهِ وَقَدْ تَتَرَّبْنَا مِنْ تِلْكَ الدَّقْعَاءِ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: أَلَا أُحَدِّثُكُمَا بِأَشْقَى النَّاسِ، رَجُلَيْنِ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ صلى الله عليه وآله: أُحَيْمِرُ ثَمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ يَعْنِي قَرْنه حَتَّى تُبَلَّ مِنْهَا هَذِهِ يَعْنِي لِحْيَتَه»[٤].

[١٣] حينما يكون الذنب تحديا لسلطان الرب يحل بصاحبه العذاب العاجل، كما كان

(١) بحار الأنوار: ج ١١ ص٣٩٤، تفسير القمي: ج٢ ص ٤٢٤.
(٢) بحار الأنوار: ج١١ ص٣٩٤، تفسير القمي: ج٢ ص٤٢٤.
(٣) بحار الأنوار: ج١١، ص٣٩٣.
(٤) بحار الأنوار: ج٣٥ ص٦١. الصور: المجتمع من النخل، الدقعاء: التراب الدقيق على وجه الأرض.

عند ثمود، إذ إنهم هم الذين طالبوا نبيهم صالحا بآية مبصرة، واقترحوا عليه أن تكون ناقة تخرج من الجبل، وتعهدوا بتصديقه عندئذ، والتسليم لأمره، ولكنهم كذبوه وعقروا الناقة بعد أن حذرهم نبيهم من مغبة ذلك طغيانا وعتوا، فنزل العذاب بساحتهم. ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ قالوا: معناه احذروا ناقة الله، كما يقال: الأسد الأسد: أي احذره، والصبي الصبي: أي احفظه من الوقوع في البئر، ونسبت الناقة إلى الله تشريفا لها باعتبارها آية مبصرة، وكان عليهم أن يتقوا الله فيها، أما كلمة ﴿وَسُقْيَـٰهَا﴾ فتعني ذروها تشرب، وكان لها شرب يوم معلوم، ولهم مثله.

[١٤] ولكنهم كذبوا رسول الله، وعقروا الناقة، وتحدوا أمر ربهم وإنذاره، فأطبق عليه العذاب، ولم يبق من قراهم شيئا ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ يقال دمدم على الشيء إذا طبق عليه، ودمدمت على الميت التراب أي سويت عليه، ويبدو أن الدمدمة هي الإطباق بتدريج، أي بتكرار مرة بعد أخرى ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ فلم يفعل بهم ظلما. حاشاه، وإنما جزاء لأفعالهم، وكل من يذنب يهيئ نفسه لمثل تلك الدمدمة ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ كما يسوي القبر بعد أن يهال التراب عليه طبقا بعد طبق.

[١٥] وهل سأل الله أحدا في أولئك الهلكى لماذا أهلكهم؟! كلا.. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا﴾ سبحان الله وتعالى كيف يخاف عقبى دمدمة وهو جبار السموات والأرض؟! وهكذا لم تنفعهم الشركاء والأنداد، ولم تنقذهم الأعذار والتبريرات. أفلا نرتدع بمصيرهم، كذلك كانت عاقبة قوم دسوا أنفسهم فخابوا أشد الخيبة، وكذلك تكون عاقبة كل من ضيع نفسه ودسها، إنها الخيبة والندم أعاذنا الله منهما.

سُورَةُ الليل

* مكية.

* عدد آياتها: ٢١.

* ترتيبها النزولي: ٩.

* ترتيبها في المصحف: ٩٢.

* نزلت بعد سورة الأعلى.

فضلُ السُّورة

عَنْهُ صلى الله عليه وآله قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ اللَّيْلِ أَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى حَتَّى يَرْضَى وَعَافَاهُ مِنَ الْعُسْرِ وَيَسَّرَ لَهُ الْيُسْرَ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٩).

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، وَ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، فِي يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ بِحَضْرَتِهِ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى شَعْرُهُ وبَشَرُهُ ولَحْمُهُ ودَمُهُ وعُرُوقُهُ وعَصَبُهُ وعِظَامُهُ وجَمِيعُ مَا أَقَلَّتِ الْأَرْضُ مِنْهُ ويَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وتَعَالَى قَبِلْتُ شَهَادَتَكُمْ لِعَبْدِي وأَجَزْتُهَا لَهُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى جِنَانِي حَتَّى يَتَخَيَّرَ مِنْهَا حَيْثُ أَحَبَّ فَأَعْطُوهُ مِنْ غَيْرِ مَنٍّ -مِنِّي- ولَكِنْ رَحْمَةً مِنِّي وفَضْلًا عَلَيْهِ فَهَنِيئاً هَنِيئاً لِعَبْدِي».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٥٨)

الإطار العام

من يزرع الريح يحصد العاصفة

ليس الذكر والأنثى سواء، ولا الليل والنهار، كذلك فعل الخيرات وارتكاب المآثم ليسا بسواء. أويحصد الشعير من زرع القمح، وهل يحصد من زرع الريح سوى العاصفة؟!.

النفس البشرية تهوى الخلط بين الحق والباطل لتتهرب من المسؤولية ولكن هيهات، وتتواصل آيات الذكر وسوره للفصل الحاسم بينهما، ويبدو أن محور هذه السورة التذكرة بهذه البصيرة، وأن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فإن الله يوفقه للحياة اليسرى، بينما الذي كذب بالحسنى فيدفعه الله للحياة العسرى.

ونتائج التكذيب تمتد من الدنيا حتى الآخرة، حيث النار الملتهبة تنتظر المكذبين، أما الذين يتقون ربهم، ويؤتون أموالهم سعيا وراء التزكية فإن عاقبتهم الحسنى، ولأنهم ابتغوا رضوان ربهم فإن الله يعطيهم من النعم حتى يبلغون الرضا.

إن سعيكم لشتى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣)
إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ
لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ
(١٠) وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَالْأُولَىٰ
(١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ
(١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ
مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)﴾.

بينات من الآيات:

[١] لا يحس الأعمى باختلاف الألوان والأبعاد، ولا يشعر من عطب ذوقه أو شمه بتفاوت الأطعمة والروائح، كذلك الجاهل لا يعرف اختلاف الأشياء، وكلما ازداد الإنسان علماً ازداد معرفة بحدود الأشياء واختلافها، وميزات كل واحد على الآخر، مثلاً: الخبير بالأقمشة يميز بين نوع وآخر، أما الجاهل فلا يشعر لماذا تتفاوت قيمة أنواعها. أليس كذلك؟ الحق والباطل هما صبغتا الطبيعة، لا يفرق بينهما إلا العالمون، وليست المشكلة في هذه القضية عقلية فقط إذ الهوى أيضا يخالف التمييز بين الحق والباطل، فهي إذاً مشكلة نفسية أيضاً، وآيات القرآن تترى في تحذير الإنسان من خلط الأمور، فكما أن الليل غير النهار، والذكر غير الأنثى، كذلك يختلف سعي الخير عن سعي الشر. ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي يغطي الطبيعة بظلامه وهدوئه.

[٢] قسماً بالليل إذ يحيط بالأشياء، وبالنهار إذ يتجلى بنوره ونشاطه ودفئه ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾.

[٣] منذ نعومة أظفارها تحب الطفلة أن تحضى بتماثيل تزعم إنها أولادها، ومنذ نعومة أظفاره يحب الطفل ما يزعم أنه سلاحه، ما الذي فرق بين مشاعرهما؟ وتنمو الطفلة وتتميز عن الطفل أكثر فأكثر بيولوجيا وسيكولوجيا، وكما يتميز الجنسان عند البشر كذلك في سائر الأحياء والنباتات، فسبحان الذي خلق الزوجين، يتكامل أحدهما بالآخر! ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾.

[٤] وكما اختلف الذكر عن الأنثى، والليل عن النهار، كذلك يختلف سعي الإنسان. لو نظرت إلى خلية هل تستطيع أن تتنبأ بأنها سوف تتفتق عن مولود ذكر أم أنثى؟ كلا.. ولكن الله يقدر لها ذلك حسب ما يرى من حكمة بالغة، كذلك حين تنظر إلى فعلة يرتكبها شخص قد لا تعرف إنها ستكون وسيلة لإنشاء حضارة أو تدمير حضارة ولكن الله يعلم ذلك ويهدينا إليه بفضله. هناك إنفاق في سبيل الله ينمي المال، ويزكي القلب، وينشط الدورة المالية في المجتمع، وهناك إنفاق يماثله في الظاهر، ويناقضه في المحتوى، يوقف مسيرة التكامل في المجتمع. هناك قتال في سبيل الله يكون بمثابة عملية جراحية ناجحة، وآخر يكون في سبيل الطاغوت، يهدم المجتمع، ويبيد الحضارة، والناس لا يرون إلا ظاهر القتال دون أن يعرفوا هدفه ووجهته ونفعه وضره.. ولكن الله يهدينا إلى أن هذا سعي حسن وأن ذاك سعي هدام. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾.

[٥] كل ابن أنثى يكدح في حياته، ويسعى، ويصارع الأقدار، ولكن الذي يعطي ماله في سبيل الله، ويتقي الحرام هو الذي ينتفع بعطائه. ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ إنه يختلف عمن يعطي ويمن أو يعطي مما سرقه من الناس، أو يختار أفسد ما عنده للعطاء، أو يضعه في غير محله للمداحين والمتملقين من حوله، أو يهدف من عطائه رياء وسمعة وسيطرة على المستضعفين؛ فإن عمله لا يتقبل منه لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] بل يكون وبالا عليه يوم القيامة، وضيقا وحرجا في الدنيا.

[٦] ما الذي يجعل سعي الإنسان وعطاءه زكيا نقيا مرضيا؟ إيمانه بالله، وتصديقه برسالاته ورسله. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ لأن الإيمان بالله يحدد وجهة الإنسان، فليس سواء من يسعى إلى المسجد ومن يسعى إلى الملهى! ثم هنالك من يريد المسجد ولا يعرف السبيل إليه، فمن يحدد لنا سبل السلام، ويضعنا على المحجة البيضاء حتى نصل إلى حيث الخيرات؟ هم الرسل. فمن كذب بهم ضل السبيل، وكان كمن يريد مكة، ولكنه يضل طريقه فيصل إلى اليمن.

وسميت الرسالة بالحسنى لأنها تهدينا إلى أحسن السبل لأحسن الأهداف. وقد جاء في

الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّمْسَ لَتَطْلُعُ وَمَعَهَا أَرْبَعَةُ أَمْلَاكٍ مَلَكٌ يُنَادِي يَا صَاحِبَ الْخَيْرِ أَتِمَّ وَأَبْشِرْ، وَمَلَكٌ يُنَادِي يَا صَاحِبَ الشَّرِّ انْزِعْ وَأَقْصِرْ، وَمَلَكٌ يُنَادِي أَعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً وَآتِ مُمْسِكاً تَلَفاً»[١]. وقد استوعب الكثير من أصحاب رسول الله هذا الدرس فتراهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وينفقون أموالهم بلا حساب ابتغاء وجه ربهم. هكذا أدبهم رسول الله ﷺ حتى تساموا على شح أنفسهم، جاء في رواية مأثورة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِرَجُلٍ يَغْرِسُ غَرْساً فِي حَائِطٍ لَهُ فَوَقَفَ لَهُ وَقَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى غَرْسٍ أَثْبَتَ أَصْلًا وَأَسْرَعَ إِينَاعاً وَأَطْيَبَ ثَمَراً وَأَبْقَى قَالَ بَلَى فَدُلَّنِي يَا رَسُولَ الله فَقَالَ إِذَا أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ فَقُلْ سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ فَإِنَّ لَكَ إِنْ قُلْتَهُ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ عَشْرَ شَجَرَاتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَاكِهَةِ وَهُنَّ مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ قَالَ فَقَالَ الرَّجُلُ فَإِنِّي أُشْهِدُكَ يَا رَسُولَ الله أَنَّ حَائِطِي هَذَا صَدَقَةٌ مَقْبُوضَةٌ عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَهْلِ الصَّدَقَةِ»[٢].

[٧] حينما تكون النية صالحة، والقلب زكيا، فإن سبل الخير تحمل أصحابها إلى حيث السعادة والفلاح ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي الحياة اليسرى، والعاقبة الحسنى، والسؤال: كيف الإلكترون الصغير المتناهي في الصغر داخل عالم (الذرة) يسير في سبيله المحدد له؟ وهكذا المجرة المتناهية في الكبر تسبح في أفلاكها المحددة، وكذلك ما بينهما لكل شيء سبيله، فإذا عرفت سبل الأشياء، واستطعت أن تضبط حياتك عليها فإنها تسير لأهدافك، وإلا فسوف تصطدم مع سبل الحياة وسنن الله فيها، ولا تبلغ المنى.

[٨-٩] الحياة منظمة بأدق مما نتصور، وأدق مما يعرفه كبار العلماء، حتى قال أحدهم وقد بهرته عظمة تنظيم العالم: العالم كتب بلغة رياضية. إن الجزء الواحد من مليون جزء من الثانية محسوب عند الله، وإن المثقال من ذرة خفيفة موزون عند الله، وإن اللمحة والخطفة والنية محسوبة عند الله، ولكن بعض الناس يزعمون بجهلهم أنهم في غابة تسودها الفوضى، فيكذبون بالحق، ويبخلون، ويستكبرون في الأرض، ونهايتهم العسرى. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ فلم ينفق، وتشبث بما يملك، وزعم أن المال يخلده، وينقذه من الهلكة، وإضافة على ذلك كذب برسالة ربه.

[١٠] إنه يجد طريقا سهلا إلى المهالك، كمن يسقط من علٍ لا يحتاج إلى وعي وإرادة وعزم واختيار. أرأيت الذي يقود سيارة سريعة في طريق جبلي لو غفل عن المقود هل يحتاج إلى

(١) الكافي: ج٤ ص٤٢.
(٢) الكافي: ج٢، ص ٥٠٦.

عزم إرادة لكي يرتطم بالصخور، أو تهوي به في الوادي؟! إنه يتيسر لمصيره ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

[١١] من ضيق نفس البشر ومحدودية أفقه أنه يفرح بما أوتي حتى يستغني به عما لا يملك ويتملكه الغرور به، والاستغناء والغرور يدفعانه إلى الطغيان، كما يقول ربنا سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]. ومن فرط غرور المرء بماله يزعم أن ماله يصنع له المعجزات، وأنه يمنع عنه كل سوء، ولكن هيهات. ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي سقط في الهاوية بفعل ذنوبه! وقيل: معناه إذا مات.

وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسير هذه الآية: «عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ قَالَ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ لِرَجُلٍ فِي حَائِطِهِ نَخْلَةٌ وكَانَ يُضِرُّ بِهِ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَدَعَاهُ فَقَالَ أَعْطِنِي نَخْلَتَكَ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ فَأَبَى فَبَلَغَ ذَلِكَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُكَنَّى أَبَا الدَّحْدَاحِ فَجَاءَ إِلَى صَاحِبِ النَّخْلَةِ فَقَالَ بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي فَبَاعَهُ فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله. فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله قَدِ اشْتَرَيْتُ نَخْلَةَ فُلَانٍ بِحَائِطِي، قَالَ: قَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله فَلَكَ بَدَلَهَا نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾»(١).

[١٢] من المسؤول عن عملك أنت أم ربك؟.

كل منا يجيب بفطرته وبلا تردد أنه هو الذي اختار نوع عمله، فهو إذاً مسؤول عنه، ومجزي به؛ إنما يوفر الله سبحانه له فرص الهداية كاملة، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها، وهكذا أتم السياق بيان مسؤولية الإنسان عن أفعاله، وأن سعيه شتى، فمن اختار العطاء والتصديق يسره الله للحسنى، ومن اختار البخل والتكذيب يسره الله للعسرى. أقول: أكمل هذه البصيرة ببيان: أن الهدى عليه، والسعي علينا، ولذلك فالإنسان هو الذي يتحمل مسؤولية سعيه. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[النحل: ٩] وقال ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩] وعلى الإنسان أن ينتظر هدى الله وبيانه. فإذا هداه بادر باتباع هداه وتنفيذ بيانه.

[١٣] وإن الرب الجبار هو المسيطر على شؤون الآخرة والدنيا، فإذا اتبع أحد هداه فبتوفيقه وتيسيره، وإذا ضل وعصى ففي إطار قدرته، فلا يعصي الله عن غلبة أو ضعف، ولا

(١) مستدرك الوسائل: ج١٣، ص٣١٣، تفسير القمي: ج٢ ص٤٢٦، والرجل الآخر هو سمرة بن جندب كما في الروايات.

يتهرب العصاة عن حدود مملكته ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ إن العصاة يتكلون على أنفسهم، ويزعمون أن هامش الاختيار والامتلاك الذي أوتوا يوفر لهم إمكانية تحدي مالكهم ومليك السموات والأرض، ولكنهم في ضلال بعيد، فالله هو مالك الدنيا كما هو ملك الآخرة، ولذلك بيده أمرهم وجزاؤهم في الدارين جميعا.

[١٤] ولذلك فهو يعاقبهم في الدنيا بتسهيل سبيل العسر لهم، واستدراجهم فيه بسوء اختيارهم له، ويعاقبهم في الآخرة بنار تتقد وتبتلع الأشقياء. ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ إنها نار ملتهبة، تنتظر كل الأشقياء، وعلينا الحذر منها، لأن الله قد أنذرنا جميعا، فلا يقولن أحد: أنا بعيد لأني أملك مالاً، أو جاهاً، أو أنتمي -ظاهراً- إلى دين الإسلام، أو إلى الرسول ﷺ وآل بيته عليهم السلام. كلا.. إنما يتقي النار من اتقى الله في الدنيا.

[١٥] أما الأشقى فإنه يحترق بلهيبها، ويصطلي بحرها لأنه لم يصنع لنفسه من دونها سترا من الإيمان وصالح الأعمال. ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾.

[١٦] وعلامة الأشقى الكفر بالرسالة، وعصيان الشريعة. ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يبدو أن التكذيب حالة نفسية وعقلية، بينما التولي حالة عملية، أي كذب بقلبه ولسانه، وتولى بعمله ومواقفه.

[١٧] أما الذي اتقى الله - فقد اتقى نار غضبه. صلاته تقيه، صومه يجنبه، إنفاقه يستره، نيته الصالحة تحميه من تلك النار المتقدة. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ ولماذا لم يقل ربنا: التقي، ربما لأن التقي الذي لم يبلغ مستوى ﴿الْأَتْقَى﴾ كان قد ارتكب بعض الخطايا فاستحق به لهبا من النار بقدرها إن لم يغفرها الله له، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٦]. وهكذا الذي شقي ببعض الموبقات قد يغفر الله له كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨] وإلى ذلك تشير الرواية المأثورة عن الإمام الباقر عليه السلام: «النِّيرَانُ بَعْضُهَا دُونَ بَعْضٍ»[١]. وهكذا يبين السياق حالتين متقابلتين تماما لتكونا -كما الليل يقابل النهار- مثلاً لاختلاف السعي.

[١٨] ومن أبرز صفات: ﴿الْأَتْقَى﴾ التصدق بماله لكي يطهر قلبه من الشح والبخل وحب الدنيا. ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ كل من يملك مالاً ينفقه، ولكن أكثرهم ينفقون أموالهم، ثم تكون عليهم حسرة، لأنهم لا يبحثون عن الزكاة، ونقاوة القلب بقدر ما يبحثون عن الذات

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٣١٣، تفسير القمي: ج٢ ص٤٢٦.

وتكريس الأنانية، إلا المتقون الذين يعرفون أن حب الدنيا أصل كل انحراف فيطهرون بالزكاة قلوبهم من حبها.

[١٩] ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ فلم ينفق ماله جزاء على نعمة سبقت إليه من المنفق عليه، ولم يطلب لإنفاقه جزاء حتى ولو كان من نوع طلب الشكر، أو محاولة إخضاع الفقير لسلطته، وتكريس حالة الطبقية بهذا الإنفاق، كإنفاق الكثير من المترفين والمسرفين.

[٢٠] كلا.. إنما ينفق لوجه الله، وابتغاء مرضاته، وسعيا وراء الجنة التي وعد الله المنفقين. ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ووجه الله رضاه وما أمر به، ومما أمر به طاعة أوليائه.

[٢١] لأنه ابتغى رضوان الله فإن الله يرضيه بفضله. ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وهل هناك غاية أسمى من الرضا؟ أليس الإنسان دائم التطلع عريض الطموح، فكيف يرضى؟ بلى، أنى كانت رغبات الإنسان عظيمة فإن الجنة أعظم، وفضل الله أكبر.

وهذه السورة بمجملها ولا سيما خاتمتها تكرس في الإنسان حس المسؤولية، بيد أن بعض القدرية حاولوا تفسيرها بما يتناسب ونظرية الجبر التي تنتزع حس المسؤولية عن القلب، فإذا كان كل شيء كتب بالقلم وحتى عمل الإنسان فأين مسؤوليته؟! ولماذا يحرضنا الله على العطاء ولا نملك من أنفسنا شيئا، ولماذا يحذرنا النار ولسنا الذين نقرر الدخول فيها أو اجتنابها؟ هكذا جاء في صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال: «قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أين قضي ومضى عليهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم. وثبتت الحجة عليهم؟! فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم، قال: فقال: أفلا يكون ظلما؟ ففزعت من ذلك فزعا شديدا، وقلت: كل شيء خلق الله وملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله. إني لم أرد فيما سألتك إلا لأحزر عقلك»[١].

وإن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله! أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه. أشيء قضي عليهم ومضى، من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون به مما آتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: «**لَا بَلْ شَيْءٍ قُضِيَ عَلَيْهِم وَمَضَى فِيهِم، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَل** ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾»[٢].

ويبدو لي أن هناك خلطا فظيعا حدث عند البعض بين الإيمان بالقضاء والقدر، وبين الأخذ بنظرية الجبر اليهودية التي زعموا فيها: أن يد الله مغلولة، وأن الله لا يقدر على تغيير

(١) صحيح مسلم: ج٨، ص٤٨-٤٩.
(٢) انظر القرطبي: ج ٢٠ ص ٧٦، تهذيب الكمال للمزي: ج ٤ ص٣٨٩.

شيء مما قدر سبحانه، وأن العباد مكرهون على ما يفعلون، وأن الله يجازيهم بغير صنع منهم في أفعالهم أو مشيئته. ومنشأ هذا الخلط تطرف بعض المؤمنين ضد نظرية التفويض للقدرية التي زعمت أن الله ترك عباده لشأنهم، دون أن يأمر أو ينهي أو يقدر شيئا.

والنظرية القاصدة هي الوسطى التي فاتت الكثير من المفسرين، وهي التي تصرح بها آيات الله، والتي هي لب الشريعة وخلاصة الرسالات الإلهية وهي: أن الله قضى وقدر، وكان مما قضى حرية الإنسان في حدود مشيئته، ومسؤوليتهم عن أفعالهم، وأنه سبحانه هو الذي منح العبادة قدرة المشيئة، كما أعطاهم سائر القدرات ليفتنهم فيها، وبين لهم الخير والشر وألهمهم الفجور والتقوى.

والرسول ﷺ بين ذلك، ولكن الناس فسروا كلام الرسول بالخطأ كما فسروا القرآن كذلك، فالرواية السابقة -مثلاً- لا تخطئ القرآن في مدلولها، إذ إن الرسول بين أن الله قد قضى عليهم ما ألهمهم من الفجور والتقوى، فإن فجروا فبإذنه (لا بأمره ولا بفعله) وأن اتقوا فبإذنه وبأمره (لا بفعله).

وكذلك النص التالي إنما يدل على أن الله سبحانه لم يترك عباده سدى. وفي النص -كما نقرأه- تصريح بضرورة السعي والكدح، وإذا كان كل شيء قد تم فلم السعي، ولماذا الكدح؟

جاء في الصحيحين والترمذي عن الإمام علي عليه السلام قال: «**كُنَّا فِي جَنَازَةٍ بِالبَقِيعِ، فَأَتَى النبيُّ ﷺ فَجَلَسَ وَجَلَسْنَا مَعَهُ، وَمَعَهُ عُود يَنكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ. فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا قَدْ كتبَ مَدْخلهَا. فَقَالَ القَوْمُ: يَا رَسُول الله! أَفَلا نَتكِلِ عَلَى كِتَابنا، فَمَن كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ للسعادةِ. وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشقَاءِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ للشَّقَاءِ؟ قَالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيسر. أما مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السعَادَةِ فإنهُ يُيسر لِعَمَل السعَادَةِ، وَأما مَنْ كَانَ أَهْلِ الشقَاءِ فإنه ييسر لعمل الشقاء. ثم قرأ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾»[1].

ماذا نفهم من هذا الحديث؟ هل الجبر أم المسؤولية؟ إن تلاوة الرسول للآية تدل على أنه ﷺ حرضنا للعطاء والبذل، ولكنه ربط العاقبة بأمر الله، بلى، لسنا نحن الذين نقرر السعادة والشقاء، وإنما الله سبحانه ولكن بأعمالنا وبما نختاره، أولم يقل سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] وقال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ فنسب السعي إلى الإنسان، والرسول رفض فكرة الجبر، والاتكال على الكتاب الذي لا يفيد فيه حسب زعمهم.

---

(١) صحيح البخاري: ج٢، ص٩٩، صحيح مسلم: ج٨، ص٤٧، سنن الترمذي: ج٥، ص١١٢.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

* مكية.

* عدد آياتها: ١١.

* ترتيبها النزولي: ١١.

* ترتيبها في المصحف: ٩٣.

* نزلت بعد سورة الفجر.

فضل السورة

عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ كَانَ مِمَّنْ يَرْضَاهُ اللهُ وَلِمُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ، وَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ يَتِيمٍ وَسَائِلٍ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٩).

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، فِي يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ بِحَضْرَتِهِ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى شَعْرُهُ وبَشَرُهُ ولَحْمُهُ ودَمُهُ وعُرُوقُهُ وعَصَبُهُ وعِظَامُهُ وجَمِيعُ مَا أَقَلَّتِ الأَرْضُ مِنْهُ ويَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وتَعَالَى قَبِلْتُ شَهَادَتَكُمْ لِعَبْدِي وأَجَزْتُهَا لَهُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى جَنَّاتِي حَتَّى يَتَخَيَّرَ مِنْهَا حَيْثُ أَحَبَّ فَأَعْطُوهُ مِنْ غَيْرِ مَنٍّ -مِنِّي- ولَكِنْ رَحْمَةً مِنِّي وفَضْلاً عَلَيْهِ فَهَنِيئاً هَنِيئاً لِعَبْدِي».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٥٨)

الإطار العام

دور القائد في نشر السعادة

من رحم الظلام يتنفس الفجر، ومن رحم المأساة يولد أمل التغيير، وعندما تأخر الوحي قليلا، وزاد قلب الرسول شوقا، ونفوس المؤمنين وجلا، وأراجيف المشركين انتشارا، هنالك جلجل الوحي في هضاب مكة من جديد، وشق فجره طريقه إلى القلوب العطشى، إلى النور والدفء والحنان، فاستقبلته بحفاوة ووعته بعمق.

هكذا رحمة الله تهيئ الظروف من قبل لتكون أوقع أثرا وأبلغ نفاذا، أرأيت اليتيم حين تتناوله يد الرحمة كيف يحن على الأيتام والمحرومين، أورأيت الضال حين يهتدي كيف يمتص قلبه الهدى كما تمتص حبة التراب الندى في ضحوة الهجير؟! هكذا يرضى المؤمن بالقدر، فلولا الليل إذا سجى لم يعرف القلب قيمة الضحى، ولولا العطش لم يتلذذ الكبد بشربة ماء هنيئة. ولولا التحديات لما حدث التطور ولولا المآسي لما قامت القدرات.

ويبدو أن محور سورة الضحى كما سورة ألم نشرح هي هذه البصيرة التي مهدت لها بالقسم بالضحى، والليل إذا سجى، ثم ببيان أن تأخير الوحي لم يكن للوداع، بل لحكمة بالغة قد تكون تكريسه في النفوس، ثم ذكرت الرسول ﷺ كيف من الله عليه بألوان النعم بعد الصعاب، عليه أن يسعى لإسعاد الناس وهدايتهم بكل ما أوتي من حول وقوة.

ولسوف يعطيك ربك فترضى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾.

بينات من الآيات:

[١] لماذا لا يجوز للناس أن يحلفوا بخلق الله، بينما يحلف الله يمينا بما خلق.

جاء في حديث مستفيض ما يلي: عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إِنَّ للهَ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُقْسِمَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا شَاءَ ولَيْسَ لِخَلْقِهِ أَنْ يُقْسِمُوا إِلَّا بِهِ**»[1]. وفي هذا المعنى جاءت روايات كثيرة أخرى.

الجواب: إننا حيث نحلف بشيء نعطيه قيمة ذاتية يخشى أن تتحول إلى حالة من التقديس المنافية لصفاء التوحيد ونقائه، وبينما ربنا حين يقسم بشيء فإنه يعطيه قيمة، ويجعلنا نلتفت إلى أهميته، كذلك في فاتحة هذه السورة القسم بالضحى حيث ارتفاع النهار، وميعاد الإنسان مع الكد والنشاط. ﴿وَالضُّحَىٰ﴾.

[٢] وما يلبث النهار ينقضي، وخلايا جسد الإنسان تتلف، وأعصابه تتعب، ويحتاج إلى راحة وسبات فيأتي الليل بظلامه الشامل، وسكونه الوديع. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ قالوا: سجى: يعني سكن، وليلة ساجية: أي ساكنة، والبحر إذا سجى: أي سكن وأنشدوا:

(١) الكافي: ج٧، ص٤٤٩.

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج لا يواري الدعامصا

[٣] وكما جسد الإنسان بحاجة إلى سبات الليل، فإن روحه عطشى إلى الوحي، أوليس للنفوس إقبال وإدبار، وكما أن الليل لا يدل على نهاية النور، كذلك تأخر الوحي لا يعكس انتهاءه، بل كان الوحي يتنزل حسب الحاجة، ولم يهبط جملة واحدة ليكون أثبت لأفئدة النبي والمؤمنين، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢].

هكذا تأخر الوحي قليلا عن الرسول ﷺ ليعرف الجميع أنه ليس بشعر منه، ولا باكتتاب لصحف الأولين، ولا بإبداع من ذاته، وإنما هو الوحي الذي يتنزل بأمر الله متى شاء وكيفما شاء، ولكي تنتشر أراجيف قريش وتتراكم كما انتشرت حبال سحرة فرعون فخيل إلى الناس بأنها سحر عظيم، هنالك أمر الله موسى عليه السلام بأن يلقي عصاه تلتف ما أفكوا. فكانت أشد وطأة، وأبعد أثرا، كذلك الوحي حينما عاد إلى هضاب مكة كما الضحى يأتي بعد ليل ساج فتتلاشى ظلام الإشاعات من أرجاء البيت الحرام، وتتبدد شكوك ضعاف المسلمين، ويبدأ نهار الرسالة نشيطا مندفعا.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما ودعك الوداع الأخير، ولا أبغضك -حتى ولو بصورة مؤقتة- وقد اختلفت أحاديث الرواة عن سبب تأخر الوحي ويمكن الجمع بينهما، ونحن نذكر فيما يلي طائفة منها لما فيها من فوائد هامة، بالإضافة إلى أنها توضح جانبا من حياة الرسول، وتساهم بقدر ما في فهم القرآن: روي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير السورة «**إِنَّ جَبْرَئِيل أَبْطَأَ عَنْ رَسُول الله ﷺ وَأَنَّهُ كَانَتْ أَولُ سُورَةٍ نزلَتْ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ثم أَبْطَأَ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ خَدِيجَة لَعل رَبُكَ قَد تَركَكَ فَلا يُرسِلُ إِليكَ فَأَنزَلَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾**»(١). وفي حديث آخر: «**أَنَّ المُسْلِمِين قَالوا لِرَسُولِ الله: مَا يَنْزِلُ عَلَيْكَ الوحيُ يا رسُول الله؟! فَقَالَ: وَكَيْفَ يَنزِلُ عَليَّ الوَحْي وَأَنْتُم لا تَنْقُون بَرَاجِمكُم(٢) وَلا تَقلِمُونَ أَظَافِركُم.**

وَلما نَزَلَتْ السُورَة قَالَ النبيُ ﷺ لجبرائيل عليه السلام: «مَا جِئتَ حَتى اشْتَقْتُ إِليكَ. فَقَالَ جَبْرائيل: وَأَنَا كُنتُ أَشدُ إِليكَ شَوقاً، وَلكني عَبْدٌ مَأمور، وَمَا نَتَنزلُ إلا بِأَمر رَبك»(٣). وروي عن ابن عباس: «**أَنَّه احْتَبَسَ عَنْهُ الوَحي خَمْسَةَ عَشر يَوماً، فَقَالَ المُشرِكون: أَنَّ مُحمداً وَدعَهُ رَبُهُ وَقَلاه، وَلَو كَانَ أَمرهُ مِنَ الله لَتَابَعَ عَليهِ كَما كَانَ يَفعَلُ بِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الأَنبياء**»(٤) فنزلت السورة.

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٤٢٨.

(٢) أي العقد التي تكون في ظهر الأصابع.

(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص ٦٤٤، تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٩٤.

(٤) تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ٩٢.

وهذه الأسباب متداخلة، فقد يكون سبب تأخير الوحي الظاهر أكثر من سبب واحد، وأنى كان فقد امتحن المؤمنون، وزاد شوق الرسول إلى الوحي، كما ذهبت إشاعات المشركين أدراج الرياح، وعرف الناس أن كلامهم باطل، وأمرهم فرط.

[٤] وكما يتفجر ضحى الشمس بعد ليل ساج، وكما يتنزل الوحي بعد انقطاع وانتظار كذلك الآخرة التي تتأخر زمنيا عن الأولى خير وأبقى، وعلى المؤمن ألا يستعجل النتائج فقد يكون في تأخيرها مصلحة كبرى. ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ قيل: «أن له في الجنة ألف ألف قصر من اللؤلؤ ترابه من المسك، وفي كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم، وما يشتهي، على أتم الوصف»[١]. وقال بعضهم: «الآخرة تعني المستقبل، وفيها بشارة للنبي بأنه سيفتح له فتحا مبينا».

[٥] ويبدو لي أن أعظم ما بشر به النبي لقاء جهاده في الله، وعنائه الشديد الذي فاق عناء الأنبياء جميعا كانت الشفاعة، ذلك أن قلبه الكبير كان ينبض بحب الإنسان، وهدفه الأسمى كان إنقاذ البشرية من إصر الشرك والجهل وأغلال العبودية والتخلف والفقر والمرض، وحتى في يوم القيامة حيث كان يقول جميع الناس والأنبياء معهم: نفسي نفسي، ترى رسول الله ﷺ يدعو ربه بالشفاعة ويقول: أمتي أمتي، وفي أشد لحظات حياته عندما نزلت به سكرات الموت كان يقول لقابض روحه: شدد علي وخفف عن أمتي. إن هذا القلب الكبير لا يملؤه إلا حب الله وحب عباده، ولا يرضيه سوى إنقاذ عباد الله في الدنيا من الضلال بالدعوة والجهاد، وفي الآخرة من النار بالشفاعة، ولذلك جاءت الآية التالية تفسيرا للآية السابقة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وماذا يرضي الرسول غير الشفاعة في أمته؟ من هنا جاءت الرواية المأثورة عن الإمام علي عليه السلام حيث قال: «قَالَ: رَسُولُ الله ﷺ: **يُشَفِعُنِي الله فِي أُمتي حَتَى يَقُولُ الله سُبْحَانَهُ لِي: رَضِيتَ يَا مُحمد! فَأَقُولُ يَا رَب رَضِيت**»[٢]. وروي عنه عليه السلام قال: «**قَالَ رَسُولُ الله ﷺ أَشفَعُ لأُمتي حَتَى يُنَادِي رَبي رَضِيتَ يَا مُحمد فَأَقُولُ رَب رَضِيت. ثُم قَالَ إِنَّكُم مَعْشر أَهْلِ العِرَاق تَقُولون إِنَّ أَرجَى آيَة فِي القُرآن** ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[الزمر: ٥٣] **قُلتُ إِنا لَنَقولُ ذَلِكَ. قَالَ وَلَكِنا أَهْل البَيْت، نَقولُ إِنَّ أَرْجَى آيَةٌ فِي كِتَابِ الله [قَوْلَهُ تَعَالى]** ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ **وَهيَ الشفَاعَة**»[٣]. وفي حديث آخر: «**وَهيَ وَالله الشفاعَةُ لَيُعْطِينها فِي أَهْلِ لا إله إلا الله حَتى يَقُولُ: رَب رَضِيت**»[٤].

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص ٦٤٤.
(٢) القرطبي: ج ٢٠، ص٩٥.
(٣) شواهد التنزيل: ج٢، ٤٤٦.
(٤) تفسير نور الثقلين: ج٥ ص٥٩٥.

وقد أتعب رسول الله نفسه، وحمل ذوي قرباه على أصعب المحامل من أجل الله، ولبلوغ درجة الوسيلة (التي أظنها هي الشفاعة بذاتها) جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام «أَنَّهُ دَخَلَ يَوماً عَلَى فَاطِمَةَ عليها السلام وَعَلَيْهَا كِسَاءٌ مِنْ ثُلةِ الإِبِلِ، وَهِي تَطْحَنُ بِيَدِهَا، وَتُرضِعُ وَلَدَهَا، فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُول الله لَمَا أَبْصَرَهَا، فَقَالَ: يَا ابْنَتَاه تَعَجَلِي مَرَارَةَ الدُنْيَا بِحَلاوَةِ الآخِرَة، فَقَدْ أَنْزَلَ الله عَلَي ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وَقَالَ الإِمَامُ الصَادِقُ عليه السلام: «رِضَا جَدِي أَنْ لَا يَبْقَى فِي النارِ مُوَحِد»[1].

[٦] لقد ترعرع رسول الله يتيما، فقد والده وهو لا يزال في بطن أمه، ثم فقد والدته في الطفولة المبكرة، وذاق -كبشر- كل ما يعانيه يتيم الأبوين من حرمان عاطفي، فجعله الله ينبوع الحب والحنان. ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ كان رسول الله بطلعته البهية، وجذابيته الأخاذة، وبما حباه الله من بركة تفيض على من حوله مأوى القلوب التي تهوى التقرب إليه وتتنافس على خدمته، ألم تسمع قصة عبد المطلب -جده العظيم- كيف كان يشرف شخصيا على راحته، ومن بعده عمه أبو طالب -سيد بني هاشم- يستميت في الدفاع عنه، ويفضله على أولاده في الخدمة. سبحان الله! كيف يتجلى بآياته للخلق، فيجعل يتيم الأبوين أعظم شخصية عبر التاريخ، الذي أحبه أهل الأرض وأهل السماء، فلم يحبوا أحداً مثله.

وقد أثار البعض السؤال التالي: لأية حكمة جعل الله خاتم أنبيائه يتيم الأبوين؟.

تجيب الرواية التالية على ذلك: يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لِئَلا يَكُونُ لِمَخْلُوقٍ عَلَيهِ حَق»[2]. وهناك تفسير آخر لليتيم نجده في بعض النصوص سنذكره ضمن تفسير الآيات التالية إن شاء الله.

[٧] ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ لقد قدر الله للنبي صلى الله عليه وآله أن يكون خاتم النبيين قبل ولادته، بل كان نورا يحدق بعرش الله، وقد قال صلى الله عليه وآله: «كُنْتُ نَبِياً وَ آدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَ الطِّين»[3].. بل كان مثلا للنور الذي خلقه الله في البدء ثم خلق الخلق به. جاء في حديث شريف: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ نُورِي»[4]. وقد قلبته يد الرحمة الإلهية في أصلاب شامخة، وأرحام مطهرة، حتى قال ربنا تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، وعند ولادته من أبوين كريمين -عبد الله عليه السلام، وآمنة بنت وهب عليها السلام- أظهر الله آيات عظيمة في العالم، إيذانا بولادته فسقطت

(١) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٩٥.
(٢) بحار الأنوار: ج ١٦، ص١٣٦.
(٣) بحار الأنوار: ج١٦ ص٤٠٢.
(٤) بحار الأنوار: ج١ ص٩٧.

شرفة من إيوان كسرى، وغاضت بحيرة ساوة، وفاضت بحيرة سماوة، وانطفأت نار المجوس بعد مئات السنين من اشتعالها. وقرن الله به منذ ولادته ملكا يسلك به طريق المكارم، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ولَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ** صلى الله عليه وآله **مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ ونَهَارَهُ**»(١). وهكذا أدبه الله فأحسن تأديبه كما قال صلى الله عليه وآله عن نفسه.

إلا إن ذلك كله لا يعني أن القرآن من وحي نفسه بل إنه كان غافلا عن القرآن من قبل أن يقضي إليه وحيه، لذلك قال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وبهذا المفهوم كان الرسول ضالا عن الشريعة الجديدة، وليس ضالا عن أية شريعة، وعن الهدى الجديد لا عن أي هدى. هكذا قال بعض المفسرين. بينما نجد تفسيرا آخر ينسجم مع مقام الرسول: أنه كان ضالة العالمين، يبحثون عنه، فهدى الله إليه الناس، وهذا تفسير أهل البيت عليهم السلام، وهو إن لم يكن تفسير ظاهر القرآن فلا ريب أنه تفسير بطن من بطونه، أوليس للقرآن سبعة أبطن؟ هكذا روي عن الإمام الرضا عليه السلام في قوله: «﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ **قَالَ: «فَرْداً لَا مَثِيلَ لَكَ فِي الْمَخْلُوقِينَ، فَآوَى النَّاسَ إِلَيْكَ** ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ **أَي ضَالاً فِي قَوْمٍ لَا يَعْرِفُونَ فَضْلَكَ فَهَدَاهُم إِلَيْكَ** ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ **تَعُولُ أَقْوَاماً بِالعِلْمِ فَأَغْنَاهُم اللهُ بِكَ**»(٢). وهناك تفسيرات أخرى للآية تعكس اهتمام المؤمنين بمقام الرسول صلى الله عليه وآله وعدم نسبة الضلالة إليه كأن يكون الضلال بمعنى الضياع عن الطريق في طفولته، أو عندما سافر إلى الشام للتجارة، ولكن التفسيرين الأولين أولى.

[٨] وكان الرسول يعيش في قبيلة بني هاشم، التي كانت تتميز بالسؤدد، والخلق الرفيع، وتعتبر المرجع الديني في مكة المكرمة، ولكنها لم تكن ذا مال كبير وبالذات أبو طالب الذي أصبح شيخ بني هاشم بعد عبد المطلب بالرغم من فقره حتى قيل: ما ساد فقير إلا أبو طالب، ومن المعروف تاريخيا أنه عليه السلام قبل بتكفل أولاده من قبل إخوته لضيق ذات يده. ولكن الله من على الرسول بالسعة، حيث آمنت به واحدة من أثرى قريش وهي خديجة بنت خويلد التي تزوجها الرسول صلى الله عليه وآله فأصبح غنيا بفضل الله. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ وقد مضى تفسير آخر للآية: أن الرسول كان يعيل الناس، فأغناهم الله بعلم الرسول وهداه.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٢.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٥٩٥.

[٩] لقد نهض النبي من أرض الحرمان، فكان نصير المحرومين، وقد أوصاه الرب بمداراة اليتيم، ونهاه عن قهره، وتجاوز حقه. ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ إن إحساس اليتيم بالنقص يكفيه قهرا، ولا بد أن يقوم المجتمع بتعويض هذا النقص بالعطف عليه، لكي لا يتكرس هذا النقص في نفسه، فيصاب بعقدة الضعة، ويحاول أن ينتقم عندما يكبر من المجتمع، ويتعالى على أقرانه، ويستكبر في الأرض. ولعل التعبير بعدم القهر يشمل أمرين: **الأول**: دفع حقوق اليتيم إليه، **الثاني**: عدم أخذ الحق من عنده بالقهر والتسلط.

وقد راعى القرآن الجانب النفسي لليتيم مع أنه بحاجة عادة إلى معونة مادية أيضا، أوتدري لماذا؟ **أولاً**: لأن كل الأيتام يحتاجون إلى عطف معنوي، بينما قد لا يحتاج بعضهم إلى عون مادي، **ثانياً**: لأن النهي عن قهرهم يتضمن النهي عن استضعافهم المادي أيضا.

وقد وردت نصوص كثيرة في فضيلة الاهتمام بالأيتام والنهي عن ظلمهم، فقد روي عن رسول الله ﷺ **«مَنْ مَسَحَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ يَتِيمٍ تَرَحُّماً لَهُ أَعْطَاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِكُلِّ شَعْرَةٍ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[١]. وقال: **«أَنَا وكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ وأَشَارَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ والْوُسْطَى»**[٢]. وروي عن رسول الله ﷺ **«إِنَّ الْيَتِيمَ إِذَا بَكَى اهْتَزَّ لَهُ الْعَرْشُ فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَنْ هَذَا الَّذِي أَبْكَى عَبْدِيَ الَّذِي سَلَبْتُهُ أَبَوَيْهِ فِي صِغَرِهِ فَوَ عِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يُسْكِتُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَوْجَبْتُ لَهُ الْجَنَّةَ»**[٣].

[١٠] وكما اليتيم الفقير السائل، أوصى الإسلام به خيرا، فقال ربنا سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ومن عاش ورأى الحرمان، ولدغته لسعات الجوع كان أحرى باحترام مشاعر السائل كإنسان، وسواء وفق لمساعدته أو لا فإن عليه أن يتجنب نهره وزجره وإغلاظ القول له، فإن في ذلك إفساد لنفسه، حيث يشرع في التعالي على الناس والاستكبار في الأرض، وعبادة الدنيا وزينتها، كما إن في ذلك إفساد نفسية السائل، وزرعها بعقدة الضعة، فربما دار دولاب الزمن واستغنى السائل وافتقر المسؤول! كما إن في ذلك إفساد للمجتمع بتكريس الطبقية فيه. وقد وصى الإسلام بالسائل كثيرا ألا ينهر، فقد روي عن رسول الله ﷺ **«رُدُّوا السَّائِلَ بِبَذْلٍ يَسِيرٍ وبِلِينٍ ورَحْمَةٍ فَإِنَّهُ يَأْتِيكُمْ حَتَّى يَقِفَ عَلَى بَابِكُمْ مَنْ لَيْسَ بِإِنْسٍ ولَا جَانٍّ يَنْظُرُ كَيْفَ صَنِيعُكُمْ فِيمَا خَوَّلَكُمُ اللهُ»**[٤]. ونهى الإسلام من السؤال، واعتبره ذلا، ولكنه نهى أيضا عن رد من يسأل، جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: **«لَوْ يَعْلَمُ السَّائِلُ مَا فِي الْمَسْأَلَةِ**

(١) وسائل الشيعة: ج ١٦، ص٣٣٧.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٢، ص٤٧٤.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٥.
(٤) بحار الأنوار: ج٩٣ ص١٥٩

مَا سَأَلَ أَحَدٌ أَحَداً ولَوْ يَعْلَمُ الْمُعْطِي مَا فِي الْعَطِيَّةِ مَا رَدَّ أَحَدٌ أَحَداً»[١].

[١١] الرزق طعام الجسد، وشكره طعام الروح، ومن فقد الشكر أحس بجوع دائم، أوليس أعظم الغنى غنى النفس؟ أولئك الذين يستشعرون الفقر النفسي يشبهون تماما المصابين بمرض الإفك، تسري في عروقهم قشعريرة باردة ولو تحت عشرين دثارا. والعطف على اليتيم، ورد السائل بالإنفاق أو بالكلام الطيب مظهران للشكر، إلا إن لشكر نعم الله مظاهر شتى أمر الإسلام بها جميعا عبر كلمة حكيمة جامعة، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ والحديث عن النعمة يشمل ثلاثة أبعاد:

أولاً: الاعتراف به، وبيانه أمام الملأ لكي لا يحسبه الناس فقيرا وهو مستغن بفضل الله، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: « **فَحَدِّثْ بِمَا أَعْطَاكَ اللهُ وَفَضَّلَكَ وَرَزَقَكَ وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ وَ هَدَاكَ»**[٢].

ثانياً: أن يرى أثر نعمته على حياته، فلا يبخل على نفسه مما رزقه الله، مما يخالف حالة الترهب الذي نهى عنه الإسلام فقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «حِينَ اشْتَكَى إِلَيْهِ الربيع بن زِيَاد أَخَاهُ عَاصِم بن زِيَاد، وَقَالَ: أَنّه لَبِسَ العَبَاءَة، وَتَرَكَ المُلاَءَ، وَأَنَّهُ قَدْ غَمَّ أَهْلَهُ وَأَحْزَنَ وُلْدَهُ بذَلِكَ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: **عَلَيَّ بِعَاصِمِ بْنِ زِيَادٍ. فَجِيءَ بِهِ فَلَمَّا رَآهُ عَبَسَ فِي وَجْهِهِ وَقَالَ لَهُ: أَمَا اسْتَحْيَيْتَ مِنْ أَهْلِكَ أَمَا رَحِمْتَ وُلْدَكَ أَتَرى الله أَحَلَّ لَكَ الطَّيِّبَاتِ وَهُوَ يَكْرَهُ أَخْذَكَ مِنْهَا أَنْتَ أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ ذَلِكَ أَوَ لَيْسَ اللهُ يَقُول: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾** [الرحمن: ١٠-١١] **أَوَ لَيْسَ يَقُول: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾** [الرحمن: ١٩-٢٠] **إِلَى قَوْلِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾** [الرحمن: ٢٢] **فَبِالله لَابْتِذَالُ نِعَمِ الله بِالْفعلِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنِ ابْتِذَالِهَا بِالْمَقَالِ فَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَ جَل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾**.

فَقَالَ عَاصِمٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَعَلَامَ اقْتَصَرْتَ فِي مَطْعَمِكَ عَلَى الْجُشُوبَةِ وَفِي مَلْبَسِكَ عَلَى الْخُشُونَةِ فَقَالَ: **وَيْحَكَ! إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَى أَئِمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ النَّاسِ كَيْلَا يَتَبَيَّغَ بِالْفَقِيرِ فَقْرُهُ.** فَأَلْقَى عَاصِمُ بْنُ زِيَادٍ الْعَبَاءَ وَلَبِسَ الْمُلاَء»[٣].

وينبغي أن يأخذ الإنسان من زينة الحياة الدنيا بقدر حاجته، فقد روي عن رسول الله

---

(١) الكافي: ج٤ ص٢٠.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٨٦.
(٣) مجمع البيان: ج١٠، ص٣٨٦.

ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ وَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»[١].

ثالثاً: شكر من أنعم عليه من أرباب النعم، والإنفاق على الآخرين، فقد جاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، وَالتَّحَدُّثُ بِالنِّعَمِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهُ كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»[٢].

وبقي ذكر رسول الله ﷺ خالدا رغم أنف المعاندين له، فقد روي عن معاوية أنه سمع المؤذن يقول: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَلَمْ يَمْلِكْ إِهَابَهُ، وَانْدَفَعَ يَقُولُ: للهِ أَبُوكَ يَا ابْنَ عَبْدِاللهِ لَقَدْ كُنْتَ عَالِيَ الْهِمَّةِ مَا رَضِيتَ لِنَفْسِكَ إِلَّا أَنْ تَقْرُنَ اسْمَكَ بِاسْمِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[٣].

وروي مطرف بن المغيرة قال: «وَفَدْتُ مَعَ أَبِي عَلَى مُعَاوِيَةَ فَكَانَ أَبِي يَتَحَدَّثُ عِنْدَهُ ثُمَّ يَنْصَرِفُ إِلَيَّ وَهُوَ يَذْكُرُ مُعَاوِيَةَ وَيَذْكُرُ عَقْلَهُ وَيُعْجَبُ بِمَا يَرَى مِنْهُ، وَأَقْبَلَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَهُوَ غَضْبَانُ فَأَمْسَكَ عَنِ الْعَشَاءِ، فَانْتَظَرْتُهُ سَاعَةً وَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّهُ لِشَيْءٍ حَدَثَ فِينَا أَوْ فِي عَمَلِنَا فَقُلْتُ له: مَا لِي أَرَاكَ مُغْتَمّاً مُنْذُ اللَّيْلَةِ؟ قَالَ: يَا بُنَيَّ! جِئْتُكَ مِنْ أَخْبَثِ النَّاسِ قُلْتُ وَمَا ذَاكَ؟ قَال: خَلَوْتُ بِمُعَاوِيَةَ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ مُنَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَلَوْ أَظْهَرْتَ عَدْلاً وَبَسَطْتَ خَيْراً فَإِنَّكَ قَدْ كَبِرْتَ وَلَوْ نَظَرْتَ إِلَى إِخْوَتِكَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَوَصَلْتَ أَرْحَامَهُمْ فَوَ اللهِ مَا عِنْدَهُمُ الْيَوْمَ شَيْءٌ تَخَافُهُ. فثار معاوية واندفع يقول:

هَيْهَاتَ!! هَيْهَاتَ مَلَكَ أَخُو تَيْمٍ فَعَدَلَ، وَفَعَلَ مَا فَعَلَ، فَوَ اللهِ مَا عَدَا أَنْ هَلَكَ ذِكْرُهُ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ مَلَكَ أَخُو عَدِيٍّ فَاجْتَهَدَ وَشَمَّرَ عَشْرَ سِنِينَ، فَوَ اللهِ مَا عَدَا أَنْ هَلَكَ ذِكْرُهُ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: عُمَرُ، ثُمَّ مَلَكَ أَخُونَا عُثْمَانُ، فَمَلَكَ رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي مِثْلِ نَسَبِهِ فَعمِلَ بِهِ مَا عملَ فَوَ اللهِ مَا عَدَا أَنْ هَلَكَ ذِكْرُهُ، وَإِنَّ أَخَا بَنِي هَاشِمٍ يصرخ بِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ: أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، فَأَيُّ عَمَلٍ يَبْقَى بَعْدَ هَذَا، لا أُمَّ لَكَ إِلَّا دَفْناً دَفْناً..»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ١٠٢.
(٢) المصدر السابق: ص١٠٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٣٣، ص٢٠٢.
(٤) بحار الأنوار: ج ٣٣، ص١٦٩.

سُورَةُ الشَّرح

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٨.

* ترتيبها النزولي: ١٢.

* ترتيبها في المصحف: ٩٤.

* نزلت بعد سورة الضحى.

فضلُ السُّورة

عَنْهُ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ كَمَنْ لَقِيَ مُحَمَّداً ﷺ مُغْتَمّاً فَفَرَّجَ عَنْهُ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٥٩).

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، ﴿وَالضُّحَى﴾، و﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، فِي يَوْمِهِ ولَيْلَتِهِ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ بِحَضْرَتِهِ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى شَعْرُهُ وبَشَرُهُ ولَحْمُهُ ودَمُهُ وعُرُوقُهُ وعَصَبُهُ وعِظَامُهُ وجَمِيعُ مَا أَقَلَّتِ الْأَرْضُ مِنْهُ ويَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وتَعَالَى قَبِلْتُ شَهَادَتَكُمْ لِعَبْدِي وأَجَزْتُهَا لَهُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى جَنَّاتِي حَتَّى يَتَخَيَّرَ مِنْهَا حَيْثُ أَحَبَّ فَأَعْطُوهُ مِنْ غَيْرِ مَنٍّ -مِنِّي- ولَكِنْ رَحْمَةً مِنِّي وفَضْلاً عَلَيْهِ فَهَنِيئاً هَنِيئاً لِعَبْدِي».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٥٨)

الإطار العام

أركان العظمة النبوية

جاء في النصوص المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام إن هذه وما سبقتها كسورة واحدة، يجوز الجمع بينهما في صلاة فريضة بخلاف غيرها، فقد روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «لَا تَجْمَعْ بَيْنَ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ وَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ وَأَلَمْ تَرَ كَيْفَ وَلِإِيلَافِ قُرَيْشٍ»[1] وذلك لتعلق إحداهما بالأخرى، والسؤال: كيف؟.

إن الله سبحانه عدد طائفة من منه على الرسول في السورة الأولى، وبين طائفة أخرى في الثانية، ولعل السورة الأولى تتصل بالنعم الشخصية، بينما الثانية تبين النعم المتصلة به كصاحب رسالة.

ويؤيد الوصل بينهما ما روي عنه صلى الله عليه وآله من سبب نزول السورة حيث قال: «سَأَلْتُ رَبِي مَسْأَلَةً وَددتُ أَنِي لَمْ أَسْأَلْهَا، قُلتُ: يَا رب! اتخذتَ إِبْرَاهِيم خَلِيلاً، وَكَلَمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً، وَسَخرتَ مَعَ دَاود الجِبَال يُسَبْحِن، وَأَعْطَيتَ فُلاناً كَذَا..، فَقَالَ عَز وَجَل: أَلَمْ أَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَيتُك؟! أَلَمْ أَجدكَ ضَالاً فَهَدَيْتُك؟! أَلَمْ أَجدكَ عَائِلاً فَأَغْنَيتُك؟! أَلَمْ أَشْرح لَكَ صَدرَك؟! أَلَمْ أُوتِكَ مَا لَمْ أُوتِ أَحَداً قَبْلك، خَوَاتِيمُ سورةِ البَقَرَة؟! أَلَمْ أَتخذكَ خَلِيلاً كَمَا اتخذتُ إِبْرَاهِيم خَلِيلاً؟! قُلتُ: بَلى يَا رب»[2].

(١) وسائل الشيعة: ج٦ ص٥٣.
(٢) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص١٠٢.

ألم نشرح لك صدرك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ(١) فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

بينات من الآيات:

[١] هكذا جاء الخطاب الإلهي لرسوله يفيض حنانا وعطفا، ويذكر المسلمين بفضيلة رسولهم، ويلقي حبه واحترامه في روعهم، ويقول: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ لقد بلغ محمد بن عبد الله ﷺ أسمى درجة من الكمال مما لم يبلغ أحد قبله، ولا يمكن لأحد أن يبلغه غيره، كل ذلك بفضل الله ومنه وتوفيقه، وعلينا أن نميز تماما بين إكرام مخلوق لكرامته عند الله، ووصفه بالكمال الذي حباه ربه وإعظامه؛ لأن الله أمر بذلك وفي حدود أمر الله، وبين أن نفعل مثل ذلك بعيدا عن الله.. ألا ترى أننا حين نشهد للنبي بالرسالة في الصلاة، نقول: وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فلماذا نؤكد على أنه عبد الله؟ أحد أسباب ذلك لكي لا يدفعنا حبنا للرسول إلى الغلو فيه، كما فعل النصارى في ابن مريم عليه السلام.

والآيات في سورة الضحى وهذه ترفع شأن الرسول إلى أسمى المراتب، ولكن بصيغة تنفي في ذات الوقت بدعة الغلو التي ابتليت بها الأمم فيما يتصل بالصالحين منهم، وإنك لترى -مع كل هذا الوضوح في التعبير- أن عامة المسلمين لا تخلوا نظراتهم حول النبي وسائر أولياء الله من شوائب الغلو، جهلا بأن مقاماتهم السامية ليست بذواتهم، بل بما حباهم الله سبحانه،

(١) فرغت: قيل: إن الفراغ هو الهم والحزن، واستدلوا بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي مهموماً محزوناً، وعلى هذا المعنى: فإذا أصابك الهم، فانصب لله قائماً.

وإلا فهم بشر كسائر البشر لولا رحمة الله.

وقد شرح الله صدر النبي بالإيمان، وشرحه باليقين، وشرحه بالرسالة، حتى جعله يتحمل ما تشفق الجبال من حمله، حتى واجه ذلك المجتمع الجاهلي الفظ الجافي الحاد العنيف بتلك الأخلاق الحميدة التي نعتها الله جل ثناؤه بالقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]. لقد وسع قلبه لما مضى من الزمان ولما قد يأتي، وهيمن بقلبه الكبير عليهما جميعا، ولا يزال الزمن يتقدم ويتطور ورسوله الله يقوده وحتى قيام الساعة. ولقد شرح الله صدر الرسول بأولئك الصفوة من أصحابه الذين حملوا رسالته، وتابعوا مسيرته وفي طليعتهم ابن عمه الإمام علي عليه السلام الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى -حسب الحديث المتفق عليه- أولم يؤيد الله كليمه موسى عليه السلام بأخيه هارون، وكان استجابة لدعائه، حيث قال: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه:٢٥] إلى قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٨-٢٩].

[٢] حينما يشرح الله القلب بالإيمان فإنه يتسع للمشاكل والصعاب، ويقدر على مواجهة أعتى التحديات، أوتدري كيف؟ لأن القلب يومئذ يضحى طاهرا من وساوس الشيطان، نقيا من رواسب الشرك، بعيدا عن أغلال التبرير والخداع الذاتي، سليماً من البغضاء والضغائن والحسد والظنون والتمنيات، وآنئذ يكون صاحبه خفيف المؤونة، نشيط التحرك، كما لو نشط من عقال، ولعل القرآن يشير إلى ذلك بقوله: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ لأن الوزر هو الحمل الثقيل، ووضع الحمل رفعه، فأي حمل أشد ثقلا من حب الدنيا، والخوف من أهلها، والتثاقل إلى الأرض؟ ونجد تأييد ذلك في الحديث المأثور عن النبي صلى الله عليه وآله حيث سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن قوله سبحانه ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ فقال: «**إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْفَسَح فَذَلِكَ شَرْحُ الصدرِ فَقِيلَ: أَفَلِذَلِكَ عَلامَةٌ يُعْرَفُ بِهَا قَالَ: نَعَم الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَ الِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِه**»[١]. فإذا كان شرح الصدر -في حسب هذا الحديث- يتم بالتجافي عن الدنيا، فإن وضع الوزر يكون أحد مظاهره، كما نجد تصديق ذلك في قوله سبحانه صفة الرسول: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. والإصر هو الحمل الثقيل، وقد فسرت بالشرك والخرافات، كما أن أحد معاني الأغلال: القيود النفسية التي تمنع التحرك. وقد تم كل ذلك بالوحي المتمثل في الكتاب، وأي مؤمن ليستفيد منه نصيبا عندما يتلوه حق تلاوته، فينشرح به صدره ويتخفف عن وزره وأثقاله.

[٣] وأي وزر عظيم هو ضيق النفس وحرج القلب؟! إنه ينقض ظهر صاحبه، وبالذات

(١) بحار الأنوار: ج٦٥، ص٢٣٦.

إذا حمل رسالة الله إلى العالمين، إنه وقر كبير لا يقدر عليه إلا من شرح الله صدره بالإيمان واليقين والتوكل عليه، وتفويض الأمر إليه، هكذا قال شعيب عليه السلام حينما تحدى فساد قومه وقال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ قالوا: أي أثقله، حتى سمع نقيضه، وهو صريره الذي يكون من شدة الحمل.

[٤] عندما يخلص العبد لربه حياته، ويصفو من أدران الدنيا ومصالحها وشهواتها، ويتخلص من قيود المادة أو أغلالها فإنه يصبح قرين الرسالة، يسمع بها، ويعلو ذكره بسبب تصديه لنشرها وذوبانه في بوتقتها، كذلك سيد المرسلين استخلصه الله لنفسه، فأصبح ذكره قرين ذكر الله، وطاعته امتدادا لطاعة الله، وكلامه وسنته وسيرته وآدابه جزء من أحكام الله، فقال ربنا سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] هكذا رفع ذكره، ألا ترى كيف يهتف المؤذنون باسمه مع كل شارقة وغاربة، وعبر ملايين الحناجر المؤمنة. ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ وذكر الرسول مرفوع في الدنيا بتأييد الله لدينه الذي يظهره على الدين كله وبقبول شفاعته في الآخرة التي يرضيه بها، واليوم وبعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم نجد اسم الرسول محمد ﷺ هو أشهر اسم في العالم، وشخصيته الكريمة أحب إلى قلوب الملايين من أي شخصية أخرى، وإذا ذكروا أعظم شخصية عبر التاريخ فسوف يكون هو الأول، لا ريب حتى عند غير المسلمين.

[٥] من يتيم عائل يحيط به الأعداء أضحى رسول الله سيد قومه، ثم باني أمة، ثم شيد البشرية جميعا، من فعل ذلك به أوليس الله؟ فلماذا نيأس من روحه، ونتراجع ببعض الأذى الذي يصيبنا في سبيله؟ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إنه يلازمه أنى سار، لأن العسر يحمل في ذاته بذور اليسر، ولأن العسر حالة عابرة في حياة الإنسان، أوليس قد خلق الله الخلائق ليرحمهم، وإنما يبتليهم بالعسر والشدة؟ أوليس قد سبقت رحمة ربنا غضبه؟ إذا فالعسر لا يدوم، والدليل على ذلك سيرة الرسول التي أخلدها القرآن للعبرة بها، لأنها مثل أعلى لحياتنا نحن المسلمين، نتبع هداها فيرزقنا الله روحها وعقباها، وبتعبير آخر: الذي يتبع سيرة الرسول بقدر أو آخر فإن الخطوط العريضة لحياته سوف تتشابه مع تلك السيرة في عسرها ويسرها، في صعابها وفي عواقبها الحسنى. ولقد قال ربنا سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] فمن تأسى برسول الله في حياته حصل على جزء من مغانم سيرة الرسول ومكتسباتها.

[٦] وراء العسر الواحد يسران: يسر في الدنيا وآخر في الآخرة، يسر نابع من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويسر منبعث من الصبر والاستقامة، وبالتالي من رحمة الله الخاصة

بالمؤمنين، لذلك كررت الآية: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قالوا: إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرفا ثم كرروه فهو هو، وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره، وهما اثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث للصبر. ولذلك جاء في الحديث المروي عن الرسول ﷺ: أنه خرج مسرورا فرحا، وهو يضحك، ويقول «.. لَنْ يُغْلَبَ عَسِرٌ يَسْرَيْنِ»[1].

[٧] كيف جعل الله مع عسر واحد يسرين اثنين؟ إنما بتوكل المؤمن على ربه، واجتهاده في العمل، حتى إذا فرغ من مسؤولية لمسؤولية أخرى فمن دون توان أو انقطاع. ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ قالوا: فإذا فرغت من الصلاة فانصب للدعاء، قبل أن تقوم من مقامك، أو إذا فرغت من أمور الدنيا فانصب للعبادة، أو إذا فرغت في نهارك عن أمور الخلق فانصب بالليل في طاعة الحق. ويبدو أن كل هذه المعاني صحيحة لأن الكلمة تسعها، ومعناها -فيما يظهر- الفراغ من عمل والاجتهاد في عمل جديد، والعمل الأول يكون أسهل من الثاني لأنه قد بذل جهده فيه، ولذلك جاء التعبير بـ ﴿فَٱنصَبْ﴾.

ذلك أن القلب المتقد شوقا إلى رضوان الله، وولها إلى الزلفى منه لا ينفي يحمل الجسد على الأعمال الصالحة، لا يفرغ من واحد حتى تراه يشتغل بالثاني ويجتهد فيه وينصب لتحقيقه، أن نفسه منه في نصب لأن أهدافه كبيرة، وتحسسه بالزمن وسرعة انصرامه عنه، وبالموت وتسارع خطاه إليه، وبالأجل الذي لا يستأخر ولا يستقدم ساعة حلوله، وبالقبر الذي ينتظره لنومة طويلة، وبالحساب ينتظره بكل هيبته ودقته.. أقول: إن عمق تحسسه بكل ذلك يقض مضجعه، ويسلب راحته، ويلهيه عن اللهو، ويشغله عن اللعب، ويصومه عن لذات الدنيا إلا بقدر حاجته، ويزهده في درجاتها الزائلة.

هكذا كان أولياء الله الصالحين ولا يزالون فطوبى لهم ثم طوبى لهم، وهكذا تجدهم عند نزول الموت بهم يتحسرون لا لفراق الأحبة، وانعدام لذات الدنيا. كلا.. وإنما لأنهم بالموت يفقدون لذة قيامهم بالليل ومناجاتهم مع رب العباد، كما يفقدون لذة العطش في صيام الهواجر. كذلك يصفهم الإمام علي عليه السلام في خطبة المتقين حيث يقول: «**وَلَوْ لَا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ.**

فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ، قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ صَبَرُوا

(١) مجمع البيان: ج ١٠، ص ٣٩٠.

أَيَّاماً قَصِيرَةً أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا وأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالِينَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلًا يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ ويَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ.

فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ يَطْلُبُونَ إِلَى الله تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ويَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا﴾[١] وقد كان رسول الله المثل الأعلى لهذه الصفات، فقد قام الليل حتى تورمت قدماه، وعانى من الجوع حتى شد على بطنه حجر المجاعة، وطلبته الدنيا فكشح عنها. ولم يزل خلال أيام رسالته المحدودة يهدم بنى الجاهلية في كل يوم ليقيم مكانها صرح الإسلام، فما فرغ من مهمة إلا لينصب للثانية، حتى إذا أكمل الله به الدين نصب نفسه لمهمة الخلافة من بعده، فاستوزر عليا عليه السلام إماما من بعده، وكانت تلك أصعب مراحل حياته، حيث واجه مخالفة واسعة من بعض أصحابه ولكنه نهض به بكل عزم واستقامة. من هنا جاء في تفسير الآية عن الإمام الصادق عليه السلام: «فَإِذا فَرَغْتَ مِنْ نُبُوَّتِكَ فَانْصَبْ عَلِيّاً، وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ فِي ذَلِك»[٢].

[٨] وما الذي يجعل المؤمنين في حركة ذاتية، ونشاط لا ينقطع؟ إنه حب الله والرغبة إليه، ومن وله بأحد استسهل الصعاب من أجله، وأي حب أكبر في صدور المؤمنين من حبهم لله وقد قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] لذلك جاء النداء للرسول ومن خلاله للأمة: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ لقد كان قلبه عند ربه، تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان إذا جن عليه الليل تفرغ للابتهال والاجتهاد، دعنا نستمع إلى قصة ترويها عائشة عن قيامه بالليل حسب ما جاء في رواية الإمام الصادق عليه السلام قال: «لَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ وَظَنَّتِ الْحُمَيْرَاءُ أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله قَامَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَدَخَلَهَا مِنَ الْغَيْرَةِ مَا لَمْ تَصْبِرْ حَتَّى قَامَتْ، وَتَلَفَّفَتْ بِشَمْلَةٍ لَهَا وَايْمُ الله مَا كَانَ خَزّاً، وَلَا دِيبَاجاً، وَلَا كَتَّاناً، وَلَا قُطْناً، وَلَكِنْ كَانَ فِي سَدَاهُ الشَّعْرُ وَلُحْمَتُهُ أَوْبَارَ الْإِبِلِ.

فَقَامَتْ تَطْلُبُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله فِي حُجَرِ نِسَائِهِ حُجْرَةً حُجْرَةً فَبَيْنَا هِيَ كَذَلِكَ إِذْ نَظَرَتْ

---

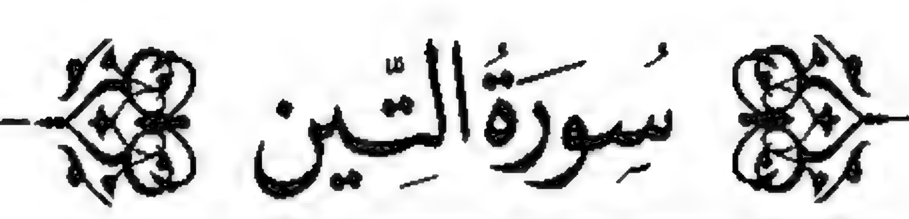
(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

(٢) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص ٦٠٥.

إِلَى رَسُولِ الله سَاجِداً كَالثَّوْبِ الْبَاسِطِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَدَنَتْ مِنْهُ قَرِيباً فَسَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقُولُ: سَجَدَ لَكَ سَوَادِي، وَجَنَانِي، وَآمَنَ بِكَ فُؤَادِي، وَهَذِهِ يَدَايَ، وَمَا جَنَيْتُ بِهِمَا عَلَى نَفْسِي يَا عَظِيمُ يُرْجَى لِكُلِّ عَظِيمٍ اغْفِرْ لِيَ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ إِلَّا الْعَظِيمُ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ عَادَ سَاجِداً.

فَسَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقُولُ: أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَضَاءَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرَضُونَ وَتَكَشَّفَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنْ فُجَاءَةِ نَقِمَتِكَ وَمِنْ تَحْوِيلِ عَافِيَتِكَ وَمِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي قَلْباً تَقِيّاً نَقِيّاً مِنَ الشِّرْكِ بَرِيئاً لا كَافِراً وَلَا شَقِيّاً»[1] ثم عفر خديه في التراب وقال: «عَفرتُ وَجْهِي فِي التُّرَابِ وَحَقٌّ لِي أَنْ أَسْجُدَ لَكَ»[2].

(١) بحار الأنوار: ج ٩٤، ص ٨٨.
(٢) بحار الأنوار: ج ٩٤، ص٨٨.



* مكية.

* عدد آياتها: ٨.

* ترتيبها النزولي: ٢٨.

* ترتيبها في المصحف: ٩٥.

* نزلت بعد سورة البروج.

فضل السُّورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿وَالتِّينِ﴾ فِي فَرَائِضِهِ ونَوَافِلِهِ أُعْطِيَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ يَرْضَى إِنْ شَاءَ اللهُ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٤)

الإطار العام

الإنسان الكائن المكرم

من لا يضع معلوماته في إطار علمي رصين لا ينتفع بها شيئا، والقرآن الكريم يمنحنا ذلك الإطار. أرأيت لو لم تعرف نفسك من أنت؟ من أين جئت؟ وإلى أين تذهب؟ وماذا يصلحك؟ وماذا يضر بك؟ كيف تستطيع أن تنتفع بمعلوماتك عما حولك؟ فهل تفيدك معرفة الدواء لو لم تعرف المريض ومرضه؟.

وسورة التين تهدينا إلى بصيرة الذات.. والتي هي تمهيد لبصائر الحياة، بل هي خلاصتها.

أليس الله بأحكم الحاكمين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ[1] (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ[2] (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾.

بينات من الآيات:

[١] وتفتتح هذه السورة بالقسم بما يصلح إطارا لهذه البصيرة. فما هو التين والزيتون؟ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ تتميز الفاكهة عن سائر الطعام بسهولة تناولها دون معالجة، فاللحم لا يستساغ نيئا، والحبوب بحاجة إلى معالجة وإعداد، بينما العنب مثلا يجنى ويؤكل بلا معالجة، بينما يتميز أنواع من الطعام بإمكانية تخزينه، وبزيادة فوائده للجسم، بيد أن ألوانا من الفاكهة تجمع إلى ميزاتها كفاكهة ميزات الطعام، بإمكانية تخزينها وغناها بالمواد الضرورية للجسد ومنها التين، فهي سهلة التناول كأنها قد صنعت بقدر فمك، طيبة المذاق، جليلة الفائدة، تجفف لأوقات الحاجة، وقد روي عن رسول الله ﷺ في فضلها أنه قال: «فَلَوْ قُلْتُ فَاكِهَةٌ نَزَلَتْ مِنَ الْجَنَّةِ لَقُلْتُ هَذِهِ لِأَنَّهُ فَاكِهَةٌ بِلَا عَجَمٍ فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الْبَوَاسِيرَ وَتَنْفَعُ مِنَ النِّقْرِسِ»[3]. وكذلك فاكهة الزيتون التي هي من أعظم الفواكه نفعا للجسد وبالذات لأن زيتها يعتبر الدهن النادر الذي لا يضر الجسد شيئا، وجاء في حديث مأثور عن النبي ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِالزَّيْتِ فَإِنَّهُ

---

(١) طور سينين: قيل: هو جبل الطور بسيناء، وقيل: كل جبل ذا شجر مثمر.

(٢) ممنون: الممنون: المقطوع، يقال: منّهُ السير يمنّهُ منّاً إذا قطعه، والمنين: الضعيف.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٣، ص١٨٦.

مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»[١].

[٢] في كنف جبل مشجر تحلو الحياة لما فيه من فوائد ومنظر وحماية، من هنا جاء ذكر الطور بعد ذكر طعام الإنسان فقال ربنا: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، وقيل في معنى ﴿سِينِينَ﴾ الحسن باللغة السريانية، وقيل: «أن كل جبل ذا أشجار مثمرة يسمى بسينين، وقيل: «إن كل جبل فيه شجر مثمر»[٢].

[٣] وأنى كان فإن الصورة تنسجم مع القسم بالتين والزيتون من جهة، وبالبلد الأمين من جهة أخرى، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ ذلك أن أصول مدنية الإنسان: الطعام، والأرض، والسلام. فإذا كان التين والزيتون مثلا لأرقى أنواع الطعام، وطور سينين لأحسن الأراضي وأكثرها بركة، فإن البلد الأمين مثل لأفضل البلاد وهي بلاد الأمن، ويتناسب هذا الإطار مع محور السورة المتمثل في خلق الإنسان بأحسن تقويم، ذلك لأن تسخير الحياة له، وإعداد طعامه وأرضه، وتوفير الأمن! وبالتالي توفير وسائل المدنية له بعض جوانب حسن صنعه إليه، وجميل عطائه له.

وقد فسرت هذه الكلمات تفسيرات أخرى لا تتنافى وسعة كلمات القرآن وتخومها المتعددة، فقالوا: ﴿ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: مكة شرفها الله ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه فيه موسى عليه السلام أما ﴿وَٱلتِّينِ﴾ فقيل: أنه البيت المقدس أو المسجد الحرام أو مسجد دمشق، بينما الزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، أو أن التين هو مهبط سفينة نوح حيث جبل الجودي. وجاء في رواية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى اخْتَارَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَرْبَعَةً. إلى أن قال: واختار من البلدان أربعة: فقال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فَالتِّينُ: الْمَدِينَةُ، وَالزَّيْتُونُ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ، وَطُورُ سِينِينَ: الْكُوفَةُ، وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ: مَكَّةُ**»[٣].

[٤] قسماً بتلك الديار المقدسة. وقسماً بتلك النعم التي تصنع حضارة البشر أن الإنسان قد خلق خلقا سويا حسنا. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تتجلى قدرة الله في صنع جسده، من استقامة قامته، إلى شبكة أعصابه، إلى قدرات مخه، إلى مرونة جسمه وما فيه من قدرة احتمال للظروف المختلفة، مما يدل على أنه قد أعد لدور أعظم من مجرد دوره الحياتي أو البنائي؛ إنه ليس مجرد فرد متطور، إنه مخلوق مكرم، سخر الله له الأحياء والنباتات والطبيعة، فإذا دوره الحقيقي

(١) الكافي: ج٦ ص٣٣١.
(٢) مجمع البيان: ج ١٠، ص٣٩٣.
(٣) بحار الأنوار: ج٩٦، ص ٣٨٣.

ليس في جسمه وإنما في روحه، في تلك الومضة المباركة من نور المشيئة التي منح من دون سائر الأحياء، في ذلك القبس من نور العقل والعلم والمعرفة الذي زود به وميز به عن سائر الخلائق. وهذا المعنى هو الذي ينسجم مع سياق السورة، فالقوام الحسن الذي من الله به على الإنسان ليس تقويم جسده فقط؛ لأن هذا التقويم مقدمة لما هو أهم وهو قوام روحه؛ ولأن المؤمن والكافر يشتركان فيه، ولا معنى لرد الكفار وحدهم إلى أسفل سافلين.

إن الإنسان قد خلق ليكون ضيف ربه الأعلى في جنان الخلد، ليكون جليس مقعد صدق عند مليك مقتدر، ليكون مثل ربه العظيم يقول: للشيء كن فيكون، ليكون في خط ذلك الإنسان الذي يعرج إلى ربه ويعرج حتى يكون قاب قوسين أو أدنى.

[٥] ولكن هذه الفرصة المباركة التي منحت له تنعكس تماما عندما لا يستفيد منها، فيكون كالمتسلق جبلا عظيما أن زلت قدمه هوى إلى الوادي السحيق ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ إلى أين؟ إلى جهنم وساءت مصيرا، حيث يتمنى لو يكون ترابا.

[٦] ما دام الإنسان قد خلق في أحسن تقويم فليترك نفسه مع الأقدار تحمله أنى اتجهت؟ كلا.. إذ إن ذلك يؤدي به إلى أسفل سافلين، لا بد من الوعي والنشاط حتى لا يهبط إلى الدرك الأسفل، ومثله في ذلك مثل الذي يوضع في قمة جبل سامق، فتهب عليه عاصفة شديدة إن لم يستخدم كل وعيه وقوته وعزمه لطوحت به إلى الوادي. هكذا استثنى الذكر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقط، وهم الذين يبقون في القمة حيث وجعلهم الله. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا ينقطع أجرهم، وتتواتر عليهم نعم الله، أوليس ربنا لا تزيده كثرة العطاء إلا جودا وكرما.

[٧] لا يحتاج أي حيوان إلى العناية في أمور حياته بقدر ما يحتاج الإنسان، فالطفل البشري تتضاءل احتمالات بقائه من دون عناية مناسبة قد يظل يعتمد على والديه فترة طويلة، كما أن الإنسان نفسه لا يملك وسائل دفاعية كافية في مقاومة سائر الأخطار، بينما أوتي كل حيوان أدوات كافية للدفاع، بينما أوكل هذا الأمر بالنسبة إلى الإنسان إلى عقله وذكائه، كل ذلك يدل على أنه مخلوق متحضر، يحتاج في وجوده وفي تكامله إلى النظام. ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ ما الذي يدعوك إلى تكذيب الجزاء أيها الإنسان! ومن دون الإيمان بالجزاء لا يمكن أن يبقى الإنسان حيث جعله الله في قمة الخلائق، كما أنه من دون الإيمان بالجزاء لا معنى للالتزام بالدين (الشريعة) بينما الدين ضرورة عقلية يهتدي إليها الإنسان، أليس الإنسان قد خلق اجتماعيا فهو بحاجة إلى نظام، وأفضل نظام هو الذي يوحي به الرب، أوليس في الإنسان فرص التكامل الروحي والتقرب إلى الله، فهو إذاً بحاجة إلى رسل ورسالات ينجزون له هذه

الفرص، ومن جهة أخرى: ألا تجدون الإنسان كيف ينهار إلى منتهى الوحشية والفساد من دون روادع، فيستخدم ذكاءه وقدراته في تدمير نفسه، ألم تر كيف نشر الفساد في البر والبحر؟ ألم تسمع أنباء الحروب العالمية، أولم تقرأ عما يعده لنفسه من وسائل التدمير؟! كل ذلك يشهد على أن هذا الكائن العظيم لا يتكامل إلا بنظام إلهي عظيم.. إنه من دون الدين سفينة جبارة بلا ربان، طائرة كبيرة بلا طيار، فما هو مصيره يا ترى؟!.

[٨] ولولا الجزاء الموعود لكان خلق الإنسان عبثا أو حتى ظلما سبحان الله! فكيف يتساوى عند الله من يهبط إلى أسفل سافلين فينشر الفساد في الأرض، ومن يتسامى إلى قمة الخير والإحسان؟ إن آيات الله في الخليقة تهدينا إلى أن ربنا هو أحكم الحاكمين، فتشهد ذلك على أنه جعل لهذا الإنسان جزاء يبلغه في يوم الدين. ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ جاء في الحديث عن قتادة: وكان رسول الله ﷺ إذا ختم هذه السورة قال: «بَلَى وأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»[1].

(١) مجمع البيان: ج ١٠، ص ٦٥٤.

سُورَةُ العَلَق

* مكيّة.

* عدد آياتها: ١٩.

* ترتيبها النزولي: ١.

* ترتيبها في المصحف: ٩٦.

* هي أوّل ما نزلت.

فضل السورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ فِي يَوْمِهِ أَوْ لَيْلَتِهِ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثُمَّ مَاتَ فِي يَوْمِهِ أَوْ فِي لَيْلَتِهِ مَاتَ شَهِيداً وبَعَثَهُ اللهُ شَهِيداً وأَحْيَاهُ شَهِيداً وكَانَ كَمَنْ ضَرَبَ بِسَيْفِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٨)

الإطار العام

العلم والإيمان علاج الطغيان

كان النبي محمد ﷺ يقلب وجهه في السماء ينتظر ساعة الانطلاق الكبير، كان يعلم أنه رسول الله، ولكن متى يتنزل عليه الوحي، ليأمره بأن يصدع بالحق، هذا الذي كان يبحث عنه بشوق كبير.

وكانت الكعبة تستصرخه لينقذها من الصخور الصمّاء التي نُصِبت من حولها وعُبدت من دون الله جهاراً..

وكانت الإنسانية المعذّبة في أرجاء الجزيرة تنتظره بفارغ الصبر.

وهكذا.. جلجل الوحي في جبال مكة، وهبط الأمين جبرئيل، وحمل معه نوراً يتألق سناه عبر الزمن.

فنزلت سورة (العلق) ولعل الوحي يفتتح على البشرية عهد القراءة باعتبارها ظاهرةً ملازمة للإنسان بعد عهد النبي ﷺ.

ولكن؛ ماهو محور سورة العلق؟ إن في نفس ابن آدم كبر دفين، يستثيره شعوره بالغنا، ويذهب به إحساسه بالحاجة،وإذا لم ينتبه الإنسان إلى هذا الداء العضال فإن نعم الله عليه لا تزيده إلا طغياناً، والطغيان مطية الهلاك.

و أما إذا تذكر الإنسان، وعرف أنه بذاته جاهل فقير مسكين مستكين، وأن الله هو الذي عَلَّمَ بالقلم، وأنه حينما يقرأ فإن الله هو الأكرم، أهل الحمد والكبرياء، وليس هذا المتعلم الذي يطغى بعلمه، وعرف أن الثروة نعمة من الله لا بد من حمدا لله عليها وشكره لا الطغيان بها، ومواجهة الحق بها، وكذلك الجاه والعشيرة.

لو عرف ذلك؛ اطمأنت نفسه، بل استطاع أن يعالج -بإذن الله- كبر ذاته عبر نعم ربه. فكلما زادت النعم ازداد شكراً لله وتواضعاً لعباد الله، وأداءً لحقوق الله.

هكذا يبدو محور سورة العلق؛ معالجة طغيان الإنسان عندما يحظى بنعمة العلم أو المال والجاه، معالجته بالمزيد من التعبد. وهكذا تختم السورة بالأمر بالسجود الذي هو معراج الإنسان إلى ربه.

إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ
وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّا
إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ
الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ
(١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا
بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨)
كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (١٩)﴾.

بينات من الآيات:

[١] لم تكن المرة الأولى للوحي ولكنها كانت الأخيرة، وكانت العظمى حيث جلجل الوحي في جبال مكة، وهبط الأمين جبرائيل، وحمل معه نوراً يتألق سناه عبر الزمن.

كان النبي محمد ﷺ يقلب وجهه في السماء ينتظر ساعة الانطلاق الكبير، كان يعلم أنه رسول الله ولكن متى يتنزل عليه الوحي ليأمره بأن يصدع بالحق؟ هذا الذي كان يبحث عنه بشوق كبير. كانت الكعبة تستصرخه لينقذها من الصخور الصماء التي نصبت من حولها وعبدت من دون الله جهاراً، وكانت تستنجد به لأنها حُولت من بيت الله الذي وضعه للناس جميعاً، إلى عاصمة مستكبري قريش، يفرضون باسمها على الجزيرة سيادتهم الظالمة.و كانت الإنسانية المعذبة في أرجاء الجزيرة تنتظره بفارغ الصبر، فهنا البنات يقتلن بغير ذنب، وهناك يقتلون الأولاد أيضا، والحقوق تنتهك، والزنا يتفشى، والفقر والمسكنة والتخلف أصبحت

سمة المجتمع أنى يممت شطرك.

وأما الثقافة فقد أصبحت في خدمة الطغاة والمترفين، على أنها كانت ركاماً من الأساطير والخرافات، ووسيلة لإثارة النعرات العشائرية، والعصبيات التافهة، والمفاخر الكاذبة، وأداة لتكريس الأحقاد والضغائن، والعلاقات الاقتصادية أصبحت مجموعة أغلال وقيود على نشاط الإنسان، على أنها كانت قائمة على أساس الظلم والقهر والطبقية المقيتة. وكانت الأوضاع خارج الجزيرة ليست بأحسن أبدا، حيث جرف التحريف والنفاق اتباع موسى وعيسى عليهما السلام إلى أبعد حدود الضلال. وكانت الثقافة ربانية إلى هذا الإنسان الغارق في أوحال الجهل والتخلف، وبعث الله أعظم ملائكته الروح القدس ليؤدب مصطفاه من خلقه، المختار محمد، وبعث جبرائيل الأمين ليقلي في روعه الوحي.

واليك بعض ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مُمْتَحَناً إِخْلَاصُهَا مُعْتَقَداً مُصَاصُهَا نَتَمَسَّكُ بِهَا أَبَداً مَا أَبْقَانَا وَنَدَّخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعَلَمِ الْمَأْثُورِ وَالْكِتَابِ الْمَسْطُورِ وَالنُّورِ السَّاطِعِ وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجاً بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيراً بِالْآيَاتِ وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلَاتِ وَالنَّاسُ فِي فِتَنٍ انْجَذَمَ فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ وَتَزَعْزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ وَاخْتَلَفَ النَّجْرُ وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ وَضَاقَ الْمَخْرَجُ وَعَمِيَ الْمَصْدَرُ فَالْهُدَى خَامِلٌ وَالْعَمَى شَامِلٌ عُصِيَ الرَّحْمَنُ وَنُصِرَ الشَّيْطَانُ وَخُذِلَ الْإِيمَانُ فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ سُبُلُهُ وَعَفَتْ شُرُكُهُ أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ وَقَامَ لِوَاؤُهُ فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ نَوْمُهُمْ سُهُودٌ وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بِأَرْضٍ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلُهَا مُكْرَمٌ»(١)

وقال: «إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ص نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ»(٢).

وقال: «أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَاعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ وَانْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ وَتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ وَالدُّنْيَا كَاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا وَإِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا وَاغْوِرَارٍ مِنْ مَائِهَا قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى وَظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى فَهِيَ

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٢.

(٢) المصدر السابق: خطبة ٢٦.

مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ وطَعَامُهَا الْجِيفَةُ وشِعَارُهَا الْخَوْفُ ودِثَارُهَا السَّيْفُ»[١].

وقال عليه السلام عن بعثة النبي صلى الله عليه وآله: «بَعَثَهُ والنَّاسُ ضُلَّالٌ فِي حَيْرَةٍ وحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الْأَهْوَاءُ واسْتَزَلَّتْهُمُ الْكِبْرِيَاءُ واسْتَخَفَّتْهُمُ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ وبَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ فَبَالَغَ ص فِي النَّصِيحَةِ ومَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ ودَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»[٢].

لم يشك محمد صلى الله عليه وآله أن هذا وحي يوحى إليه، لأن الله لا يختار من رسله من يشك في وحيه، لم يشك إبراهيم عليه السلام أن رؤياه حق فبادر ليذبح ابنه، ولم يشك موسى عليه السلام أن الذي يكلمه عند الشجرة هو الله، فأخذ يناديه بكل جوارحه، ولم تشك مريم أن الله قد رزقها غلاماً زكيا، كما لم يشك عيسى بن مريم عليه السلام أنهُ عبد الله ورسوله الله إلى بني إسرائيل، فهل من المعقول أن يشك خاتم النبيين في ذلك وهو أشرفهم وأعظمهم؟!.

نور الشمس دليلها، ونور العلم دليله، واطمئنان اليقين هو ذاته شاهد صدق عليه، والوحي أشد وضوحا من الشمس، وأبهى ضياء من العلم، وأكبر سكينة واطمئنان من اليقين. أوليس الوحي من الله، والله شاهد عليه، فكيف يرتاب رسول الله فيه، أوليس الله بقادر على أن يُري رسوله ما يجعله على يقين من أمره، أو يبعث إلى الناس من لا يزال يشك في الوحي حاشا الله!. وكيف لعاقل أن يخطر في ذهنه ولو لحظة صدق تلك الروايات التي تنقل حول الرسول صلى الله عليه وآله، وأنه قال لخديجة بعد أن نزل عليه الوحي: «فَوَ الله لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى عَقْلِي. فَقَالَتْ: كَلَّا وَالله لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمُعْدِمَ وَتُقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»[٣].

بلى؛ لا نستطيع أن نفهم هذا النوع من النصوص التي تخالف ظاهر القرآن، وتكون ذريعة للمستشرقين للنيل من رسول الإسلام. وأعتقد أن الرسول كان ينتظر الوحي بفارغ الصبر، فلما نزل عليه جبرائيل عرفه الله بصدقه، فلما نودي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ قرأ: باسم الله الرحمن الرحيم، وكانت تلك بداية الرسالة، بالرغم من أن فاتحة الكتاب هي سورة الحمد، إلا إنها كانت فاتحة الكتاب حسب ما قدر الله له أن يكون في صورته النهائية، بينما كانت الآيات الخمس الأوائل في سورة العلق فاتحة التنزيل. ومن المعروف أن هناك فرقا بين ما أنزل

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٨٩.
(٢) نهج البلاغة: خطبة: ٩٥.
(٣) بحار الأنوار: ج١٨، ص١٩٤

في ليلة القدر حين أُنزل الكتاب كله، وبين ما نزل منجماً خلال ثلاث وعشرين عاما من دعوة الرسول صلى الله عليه وآله.

من هنا جاء في الحديث: عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وآخِرُهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾»(١)

والسؤال: ما هي دلالات هذه الكلمة الأولى من الوحي؟.

لعل الوحي كان يفتتح على البشرية عهد القراءة باعتبارها ظاهرة ملازمة للإنسان بعد عهد النبي صلى الله عليه وآله وفعلا وبالرغم من وجود ظاهرة الكتابة منذ مئات السنين قبل الإسلام إلا إنها انتشرت بالإسلام بصورة مطردة حتى أصبحت اليوم سمة الإنسان الظاهرة. والقراءة أشد وضوحا من الاستماع، لأنها تفرض التفاعل بين الإنسان والنص الذي يتلى عليه أكثر من مجرد الاستماع إليه، وربما سمي لذلك كتاب ربنا بالقرآن. ولكن القراءة ليست مطلوبة بصفة عامة إنما التي تكون باسم الله، لماذا؟ لأن اسم الله يحدد الهدف من القراءة. لا يكون من أجل التعالي على الناس، وخدمة الطغاة وتضليل السذج من الناس، بل تكون من أجل تزكية النفس، وخدمة الناس وهدايتهم.وحين يكون العلم -ووسيلته القراءة- باسم الله ترى الملوك صافين على أبواب العلماء، والناس ملتفون حولهم، وهم يقودونهم في معاركهم ضد المترفين والمستكبرين.

[٢] لقد خلق الله الإنسان من علقة، من دم جامد يعلق، ومن قبل خلقه من ماء مهين، ثم أكرمه حتى فضله على كثير مما خلق تفضيلا. أية نقلة عظيمة كانت بين حالته كعلقة ودم، وبينه كإنسان يمشي سويا على قدميه؟ إن من يعرف قليلا عن خلقة الإنسان وما أودع الله في جسده وروحه من آيات عظمته لا بد أن ينبهر بتلك النقلة العظيمة أليس كذلك؟ ولكن نقلة عظيمة أخرى تنتظره الآن، هذه المرة لا بد أن تتم هذه النقلة بعزيمة من عنده ورحمة من ربه. هي النقلة الحضارية بين إنسان أمي وآخر يقرأ باسم ربه، ولعله لذلك جاءت الآية تذكرنا بأصل خلقه الإنسان. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ومن شك في قدرته على أن يسمو إلى درجات عالية فلينظر إلى نعمة الله كيف خلقه من علقة، إنه قادر على أن يبعثه خلقا آخر بالعلم والهدى.

[٣] تعال نفكر في أبعاد القراءة: كيف علم الله الإنسان الكتابة فأخذ ينقل تجاربه من جيل لآخر، ومن أمة لأخرى، وتراكمت التجارب حتى أضحت اليوم سيلا متدفقا لا تكاد قنواتها العلمية على سعتها تقدر على استيعابها. أرأيت لو لم يعلم الإنسان الكتابة هل كان إلا

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٢٨.

مثل فصيل من القردة أو من الأنعام. سبحان الله! إنك ترانا لازلنا نكفر بنعمة الله، بل كلما زادت نعم الله على البشر كلما ازدادوا كفراً بها وطغيانا، فمن أجل ألا يصبح العلم سببا للطغيان، وأداة للظلم والفساد يذكرنا الرب بأنه متى تقدم البشر في آفاق العلم فعليه أن يشكر ربه، ويعترف بأن الله هو الأكرم، لأنه علم بالقلم، ولم يكن الإنسان شيئا لو لم يعلمه ربه. ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ كما نقول: كُل واحمد الله، أو أصبر وربك الكريم، أو أعط والله يخلف على المنفقين، كذلك -فيما يبدو لي- ذكرتنا الآية بأن الله هو الأكرم، فأي صفة حميدة هي منه، فهو الجواد الذي أعطى الإنسان موهبة القلم، وهو الأعلى الذي لا يتسامى أحد في مدارج العلم والكمال إلا به.

[٤] ومن آيات كرمه وحمده أنه علم الإنسان بسبب القلم فلم يكن القلم سوى وسيلة، أرأيت لو قررت أن تعلم الجدار هل يتعلم شيئا؟! أوليس لأنه ليس بذي أهل للتعلم؟ كذلك كلما تقدم الإنسان في حقول العلم لا بد أن يزداد لربه تواضعا، ولا يصبح كفراعنة المال يطغون في الأرض ويسعون فيها فسادا. ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾.

[٥] ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وهكذا جاءت النصوص تترى في ضرورة التواضع والزهد عند العلماء: فقد جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**وتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَهُ الْعِلْمَ وتَوَاضَعُوا لِمَنْ طَلَبْتُمْ مِنْهُ الْعِلْمَ ولَا تَكُونُوا عُلَمَاءَ جَبَّارِينَ فَيَذْهَبَ بَاطِلُكُمْ بِحَقِّكُمْ**»[١]. وعن البرقي مرفوعاً إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ لِي إِلَيْكُمْ حَاجَةٌ اقْضُوهَا لِي قَالُوا قُضِيَتْ حَاجَتُكَ يَا رُوحَ الله فَقَامَ فَغَسَلَ أَقْدَامَهُمْ.**

فَقَالُوا كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا يَا رُوحَ الله فَقَالَ إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِدْمَةِ الْعَالِمُ إِنَّمَا تَوَاضَعْتُ هَكَذَا لِكَيْمَا تَتَوَاضَعُوا بَعْدِي فِي النَّاسِ كَتَوَاضُعِي لَكُمْ ثُمَّ قَالَ عِيسَى عليه السلام بِالتَّوَاضُعِ تُعْمَرُ الْحِكْمَةُ لَا بِالتَّكَبُّرِ وكَذَلِكَ فِي السَّهْلِ يَنْبُتُ الزَّرْعُ لَا فِي الْجَبَلِ»[٢].

[٦] ومشكلة الإنسان أنه لا يستوعب نعم الله، فيطغى بها ويهلك نفسه بذلك وقد يهلك الآخرين معه. أرأيت لو أعطيت قنبلة نووية لمن لا يعرف كيف يتصرف بها فطغى بها، أو يكون في ذلك خير أم شر مستطير؟ ﴿كَلَّآ﴾ إن الإنسان ليس بطبعه في مستوى استيعاب هذه الحقيقة، وهي أن العلم من عند الله وعليه ألا يطغى به، أو أن المال من عنده سبحانه، وعليه أن يتصرف فيه كما يريده الله. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾.

[٧] متى يطغى؟ عندما يحس أنه أصبح غنيا. ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أي رأى نفسه قد استغنى،

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٦.
(٢) الكافي: ج١، ص٣٧.

وفي أدب العرب لا يرجع ضميران متصلان إلى مصدر واحد، فلا يقال: ضربه، نظرتني، بل يقولون: ضرب نفسه ونظرت نفسي، إلا أفعال القلوب التي تتعدى إلى مفعولين مثل حسب، فيقولون: (حسبتني) وقال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ ورأى هنا ليس بمعنى النظر بالعين إذ إن ذلك من أفعال الجوارح، بل بمعنى النظر بالقلب. وسياق الآية يهدينا إلى أن خطأ علميا ينشأ عن الإنسان فيزعم أنه قد استغنى، ويتسع ذلك لاحتمالين:

الأول: أن يرى نفسه مستغنيا بما أوتي من علم فينطبق على علماء السوء كما قال سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨] وينسجم ذلك أيضا مع قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إذ أن هذا من شأن علماء السوء وأنصاف المثقفين، الذين يتصدون لأمور الدين، ويأمرون وينهون بما تشاء أهواؤهم، ويشير إلى هذا التأويل الحديث المأثور عن الإمام علي عليه السلام أنه خرج في يوم عيد، فرأى أناسا يصلون فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ شَهِدْنَا نَبِيَّ الله فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يُصَلِّي قَبْلَ الْعِيدِ، أَوْ قَالَ النَّبِيُّ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَا تَنْهَى أَنْ يُصَلُّوا قَبْلَ خُرُوجِ الْإِمَامِ؟ فَقَالَ: لَا أُرِيدُ أَنْ أَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى وَلَكِنَّا نُحَدِّثُهُمْ بِمَا شَهِدْنَا مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله أَوْ كَمَا قَالَ**»[1]. وهكذا لا ينبغي لعلماء الدين أن يفرطوا في الأمر، والتي فيما لا يتصل بالبدع الظاهرة في الأمة، فقد ينهون أحدا عن عمل صالح وهم لا يشعرون، كما يفعل بعض المتصدين للشؤون الدينية اليوم، يستغلون ثقة الناس فيهم، وفي نهيهم عن التعاون مع المؤمنين أو عن دعم المؤسسات الخيرية لأنها ليست في نطاقهم، أو لأنهم يخالفون الخط الذي ينتهجه أصحاب تلك المؤسسات.

الثاني: أن يظن أنه مستغن بما أوتي من فضل الله، فيزعم أن المال هو كل شيء في حياته، فلا يأبه بنواقصه ونقاط ضعفه من الناحية الدينية أو العلمية أو الخلقية أو الاجتماعية، إنما يختصر نفسه في زاوية المال حتى تفسد علاقاته مع أهله وذوي قرباه، ويتعامل معهم بروح استبكارية. لماذا؟ لأنه يملك بعض المال. كلا.. إن الثروة واحدة من فرص الحياة، فلماذا تضيع سائر أبعاد حياتك لها، أرأيت لو كنت غنيا لا تأكل أو لا تنام أو سائر أفعال البشر. بلى، بلى تفعل كل ذلك لأنها فرص حياتك أليس كذلك؟ فلماذا تسجن نفسك في زنزانة الطغيان، وتفصلها عن إخوانك وأسرتك وسائر البشر، وتضيع عن نفسك التمتع بلذة العلم، وجمال الأدب، وجلال الأخلاق، وحتى تحرمها من كمالات الدين. وقد أولت الآية في أبي جهل الذي طغى بماله، وحاول أن ينهى رسول الله عن صلاته، ومعروف أن أبا جهل واحد من أولئك المترفين، وأن في كل عصر طاغية يسير على خطاه، فكم هجمت شرطة الأنظمة الفاسدة على مواقع الصلاة،

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٨، ص١٢٤.

وكم ذبحوا أبنائها المؤمنين، ولطخوا أروقة الجوامع بدماء الصالحين الزاكية!!.

ولا تفوت الإشارة إلى أن الطغيان بحاجة إلى وسيط ليتحقق: وهو ما أشارت له الآية ﴿أَن رَّءَاهُ﴾ أي الرؤية والثقافة هي التي تصنع الطغيان. وما الغنى سوى قادح لنار الطغيان. مما يؤكد على حرية الإنسان، وأن لا حتم يؤطر أفعال الإنسان كما ذهب الماركسيون مثلاً..

[٨] أن تملك مالا أو تحوز علما أو شرفا حسن، بل إنك خلقت لتعمر الأرض، وتسخر ما فيها لمصلحتك، ثم تتكامل روحيا عبرها، ولكن أن تستغني بما تملك وتفرح، وتنسى نصيبك من الآخرة، إنها نكسة في وجودك، لأنه يحرمك عن خيرات أعدت لك! والسؤال: كيف يتخلص الإنسان من الإحساس بالاستغناء، أوليس قلب البشر ضيق، وصدره حرج، أوليس قد خلق هلوعا: يطير فرحا إذا أمتلك دينارا، ويمتلئ غيضا إذا فقده! إنما يعيد توازنه إذا تصور الآخرة وما أعد فيها من نعيم لا يقاس بها في الدنيا، وما أعد فيها من عذاب عظيم، فآنئذ تتضاءل في عينه الدنيا وما فيها، ولذلك أمرنا الإسلام بزيارة المقابر عند هجمة المشاكل، فمن تصور الموت وأهواله خفت عنه لسعة المشاكل، أولم يقل الشاعر: «والجرح يسكنه الذي هو آلم»(١) من هنا ذكرنا الرب هنا بالرجوع إلى الله لأنه العلاج الأمثل لطغيان النفس. ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾.

[٩] وعاد السياق إلى بعض ممارسات الطغاة. ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ تفكر في ذلك فإن على الإنسان أن يعود إلى فطرته ليُحكمها في شؤون الناس.

[١٠] أرأيت كيف يقطع سبيل الخير، ويصد العبد عن التقرب إلى الرب ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إن الصلاة والتعبد والابتهال إلى الله أبسط حقوق الإنسان، إنه كالتنفس، كالطعام، كالسكن كيف يتجرأ البعض على سلبه من البشر، حقا.. إنها جريمة كبرى. وهي تكشف عن مدى الضلال الذي يبلغه الإنسان حينما يستغني فيطغى.

[١١] قد يبرر الذي ينهى العبد عن صلاة ربه فعلته الشنيعة بأن هذه الصلاة باطلة بسبب أو آخر، ولكنه لا يفكر فيما لو كانت صحيحة، وكان العبد على هدى فأي جريمة كبرى يكون قد ارتكب ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

[١٢] كيف وبأي مقياس ترى نفسك -يا من تنهى عباد الله عن صلاتهم- أفضل منهم، فلعل هذا الذي تنهاه عن صلاته إمامك وقائدك، لأنه يأمرك بالتقوى. وأنت تنهاه عن

---

(١) للشاعر السيد جعفر الحلي النجفي، ديوان: (سحر بابل وسجع البلابل)، ص٤٣٢.

هونت يا ابن أبي مصارع فتيتي والجرح يسكنه الذي هو آلم

الصلاة؟! ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾.

[١٣] بينما يكون من ينهاه مكذبا بالرسالة، كافرا بها. ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ما تكون عاقبته؟ أليست النار يصليها مذموما مدحورا.

[١٤] كيف يجعل نفسه مقياسا للحق والله سبحانه يراه ويُحيط علما به، وبما يتعلم، وبما يخطر بباله من نية سوء؟ إنه قد يخدع الناس ويبرر لهم عمله بأنه إنما نهى عن الصلاة لأنها تضر الناس، أو لأنها غير متكاملة أو ما أشبه، إلا إنه لا يستطيع أن يخفي عن ربه نيته السيئة. ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾.

[١٥] وتتواصل آيات الذكر تقرع هؤلاء الذين يفترون على الله كذبا، ويستكبرون في الأرض بغير الحق بأن الله سبحانه سيأخذهم بشدة وعنف من نواصيهم. ﴿كَلَّا﴾ ليس كما يزعم بأن الله لا يراه. إنه سبحانه يراه، ويحصي عليه ذنوبه، فيأخذه إن لم يتب أخذا شديدا. ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ قالوا: «إذا قبضت على شيء وجذبته جذبا شديدا يسمى سفعا، ويقال: سفع بناصية فرسه، وأنشدوا[١]:

قوم إذا كثر الصياح رأيتهم   من بين ملجم مهره أو سافع

ولعل اختيار الناصية لأنها واجهة الإنسان وأعز ما فيه. حينما تدخل قوة الغيب في معادلة صراع الإنسان مع نظيره تتغير المعادلة كليا، أفليس في ذلك ظلم؟ كلا.. لأن الله سبحانه لا يفعل ذلك عبثا، إنما بعد إنذار من عنده وتحد من قبل الفرد.

[١٦] ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ كذبت بالحق، وافترت على الله وأخطأت بالعمد في اختيار طريقه، وتنسجم هذه الأوصاف مع علماء السوء الذين يصدون عن سبيل الله باسم الدين.

[١٧] إنهم يزعمون أن الأنداد ينفعونهم شيئا في ذلك اليوم الرهيب كما في الدنيا... ويتهربون -بهذا الزعم الساذج- من شدة وقع الإنذار. كلا.. دعهم يجمعون كل من يحضر ناديهم، ولينظروا كيف يدعو الله زبانية العذاب! ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ يبدو لي أن استخدام كلمة النادي التي هي اسم لمحل الاجتماع -مكان أهل النادي- للإشارة إلى كل أهل النادي، كما قال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي كل من في القرية.

[١٨] ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ قالوا: «العرب تسمى الشرطة بالزبانية، المأخوذة من كلمة زبن،

(١) الشاعر: حميد بن ثور الهلالي.

بمعنى الدفع، و أنشدوا:

مطاعيم في القصوى مطاعين في الوغى   زبانية غلب عظام حلومها

وفي نزول الآية ورد عن ابن عباس قال: «لَمَّا أَتَى أَبُو جَهْل رَسُول الله ﷺ انْتَهَرَهُ رَسُول الله ﷺ فَقَالَ أَبُو جَهل: أَتَنْهَرنِي يَا مُحَمَّد فَوَ الله لَقَدْ عَلِمَت مَا بِهَا أي بِمَكة أَحَدٌ أَكْثَرُ نَادياً مِنِي فَأَنْزَلَ الله سُبْحَانَهُ ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴾»[1]. وقد روي عن ابن عباس أيضا: «أَنهَا نَزلَتْ فِي أَبِي جَهْل حِينَما صَفَعَ ابن مَسْعُود عِنْدَمَا تَلا عَلَى قُرَيْش سُورَة الرحْمن، فَعَادَ ابن مَسْعُود إِلى النَبي بَاكِياً، فَنَزَلَ جَبرائيل يُبَشِر الرسُول ﷺ بالفَتْح، وَكَانَ مِن أَمْرِ ابن مَسْعُود أَنهُ مَر فِي يَوم بَدْر عَلَى أَبِي جَهل يُنَازِعُ الموتَ فَجَلَسَ عَلى صَدْرِهِ لِيَحز رَأسه، فَقَالَ لَهُ: لَقَد جَلَسْتَ مجلساً عَالياً، فَنَهرهُ ابن مَسْعُود قَائلاً: الإسلامُ يَعْلو وَلا يُعْلَى عَليهِ، فَلمَا قَطَعَ رَأسه أَخذَ يَجُرهُ عَلَى الأَرضِ مِنْ نَاصِيتِهِ، وَهكَذَا تحققت بِشَارَة جَبرائيل، وَتَؤولَتْ الآيةُ فِي الدُنْيَا قَبْلَ الآخِرَة».

[١٩] وفي ختام السورة ينهى القرآن من طاعة أولئك الطغاة الذين استغنوا بما لديهم من مال أو معرفة، لأن طاعتهم عصيان لله، وقد يكون شركا ظاهرا أو خفيا، وهو -بذلك- يحرم الإنسان من التقرب إلى الله سبحانه. ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ وحين يكفر الإنسان بطغاة المال، وأدعياء العلم بالرغم مما لهم من إغراء وتضليل وإرهاب، يستعيد استقلاله الذي هو جوهر إنسانيته، ويستعد نفسيا للسجود، ومن خلال السجود للتقرب إلى الله.

والآية تهدينا: إلى أن السجود معراج البشر إلى الله، فإذا سجدت اقتربت إلى الله، بلى، أليس ذات الإنسان فقر وعجز وذلة، أوليس يتحسس البشر هذه الحقيقة عند السجود، عندما يضع ناصيته فوق التراب تذللا؟ وإذا عرف الإنسان حقيقة نفسه رفع حجاب الكبر الذي يفصله عن معرفة ربه، واستشعر بفيض نوره يغمر فؤاده، من هنا جاء في الأثر المروي عن النبي ﷺ «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ إِذَا كَانَ سَاجِداً»[2]. وروي عن الإمام الرضا عليه السلام: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الله عَزَّ وجَلَّ وهُوَ سَاجِدٌ وذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وجَلَّ ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾**»[3].

وقد اوجب فقهاء الإسلام السجدة عند تلاوة هذه الآية، واعتبروا سجدة سورة العلق من العزائم الأربع التي يفرض فيها السجود، والثلاثة الأخرى: «آلم السجدة» و «فصلت» و«النجم». وهكذا روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**عَزَائِمِ السُّجُود أَرْبَعَ:**

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٢٧٨.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٤ ص٤٧٥.
(٣) الكافي: ج٣ ص٢٦٤.

﴿الٓمٓ﴾ وَ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وَ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ وَ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾»[1]. أما ذكر السجدة فقد روي أن الإمام الصادق عليه السلام يقول في سجدة العزائم: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حَقّاً حَقّاً لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِيمَاناً وتَصْدِيقاً لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عُبُودِيَّةً ورِقّاً سَجَدْتُ لَكَ يَا رَبِّ تَعَبُّداً ورِقّاً لا مُسْتَنْكِفاً ولَا مُسْتَكْبِراً بَلْ أَنَا عَبْدٌ ذَلِيلٌ خَائِفٌ مُسْتَجِيرٌ ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ ثُمَّ يُكَبِّرُ»[2].

(١) تفسير القرطبي: ج٢٠ ص١٢٨.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٣٠٦.

سُورَةُ القَدْر

* مكية.

* عدد آياتها: ٥ .

* ترتيبها النزولي: ٢٥ .

* ترتيبها في المصحف: ٩٧ .

* نزلت بعد سورة عبس.

فضل السورة

عن أبي جعفر عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يَجْهَرُ بِهَا صَوْتَهُ كَانَ كَالشَّاهِرِ سَيْفَهُ فِي سَبِيلِ الله ومَنْ قَرَأَهَا سِرّاً كَانَ كَالمُتَشَحِّطِ بِدَمِهِ فِي سَبِيلِ الله ومَنْ قَرَأَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ مَحَا اللهُ عَنْهُ أَلْفَ ذَنْبٍ مِنْ ذُنُوبِهِ».

(مستدرك الوسائل: ج٤، ص٣٦٠)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فِي فَرِيضَةٍ مِنَ الْفَرَائِضِ نَادَى مُنَادٍ يَا عَبْدَ الله قَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا مَضَى فَاسْتَأْنِفِ الْعَمَلَ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٧٩)

***

عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «قَرَأْتُ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ حِينَ دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ وَهُوَ يُرِيدُ قَتْلِي فَحَالَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ. فَلَمَّا قَرَأَهَا حِينَ نَظَرَ إِلَيْهِ لَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِ حَتَّى أَلْطَفَهُ. وَقِيلَ لَهُ عليه السلام: بِمَا احْتَرَسْتَ (من المنصور عند دخولك عليه) قَالَ عليه السلام: بِالله وَبِقِرَاءَةِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ ثُمَّ قُلْتُ يَا اللهُ يَا اللهُ سَبْعاً، إِنِّي أَتَشَفَّعُ إِلَيْكَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله مِنْ أَنْ تُقَلِّبَهُ لِي. فَمَنِ ابْتُلِيَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعْ بِمِثْلِ صُنْعِي، وَلَوْ لَا أَنَّنَا نَقْرَؤُهَا وَنَأْمُرُ بِقِرَاءَتِهَا شِيعَتَنَا لَتَخَطَّفَهُمُ النَّاسُ وَلَكِنْ هِيَ وَالله لَهُمْ كَهْفٌ».

(بحار الأنوار: ج٩١، ص٢٨١)

الإطار العام

ليلة القدر مهرجان الصالحين

لأن الحقيقة واحدة تنبسط فتصبح مفصلات، وتتركز فتكون هدى وبينات، فإن القرآن قد يبسطها عبر آياته كما في سورة البقرة، وقد يجملها في سورة قصيرة كما في سورة القدر التي لو تدبرنا فيها بعمق لقرأنا فيها آيات الكتاب جميعا.

لقد أنزل الله كتابه في ليلة القدر التي هي عظيمة لا يكاد يحيط العقل بأبعادها، لأنها خير من ألف شهر. لماذا؟ لأنها ميعاد الإنسان الصالح مع ملائكة الله وأعظم منهم مع الروح.. وهم حين يهبطون ينزلون بما يقدر الله من كل أمر.

في هذه الليلة التي تتواصل ملائكة الله والروح مع عباد الله الصالحين في الأرض تتجلى رحمة الله وبركاته ومغفرته التي تتمثل في كلمة (السلام) وتستمر الليلة حتى مطلع الفجر.

وهكذا بينت هذه السورة كيف يتم الاتصال بين الإنسان وبين ملائكة الله والروح.. وهذه الصلة التي تتجلى في القرآن كما في الأقدار الحكيمة والبركات هي من أعظم الحقائق القرآنية.

وما أدراك ما ليلة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾
لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ
رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

بينات من الآيات

[١] عندما انهمر فيض الوحي على قلب الرسول ﷺ في ليلة القدر في شهر رمضان، وتنزلت ملائكة الرحمة والروح بالقرآن، رسالة السلام، وبشير الرحمة، عندئذ خلد الله هذه المناسبة المباركة التي عظمت في السموات والأرض، وجعلها ليلة مباركة خيرا من ألف شهر.

إنها حقا عيد الرحمة، فمن تعرض لها فقد حظى بأجر عظيم؛ فقال الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وكذلك قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٣-٤].كذلك نزل القرآن كله على قلب الرسول في تلك الليلة، ثم نزل بصورة تدريجية طيلة ثلاث وعشرين عاما، لتأخذ موقعها من النفوس، وليكون كتاب تغيير يبني الرسول به أمة وحضارة، ومستقبلا مشرقا للإنسانية. وكذلك قال ربنا سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]. ومعروف أن القرآن تنزل بصورته المعهودة في أيام السنة جميعا، فله إذا نزلة أخرى جملة واحدة.

والسؤال: لماذا سميت هذه الليلة بليلة القدر؟.

يبدو أن أهم ما في هذه الليلة المباركة تقدير شؤون الخلائق، وقد استنبط اللفظ منه، فهي ليلة الأقدار المقدرة، كما قال ربنا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]. وقال بعضهم: بل لأنها

ليلة جليلة القدر، قد أنزل الله فيها كتابا قديرا، ولأن الذي يحييها يكون عند الله ذا قدر عظيم.

[٢] من ذا الذي يستطيع أن يدرك أبعاد تلك الليلة التي باركها الله لخلقه بالوحي، وجعلها زمانا لتقدير شؤون العالمين، من ذا الذي يدرك عظمة الوحي، وجلال الملائكة، ومعاني السلام الإلهي. إنها ليست فوق الإدراك بصورة مطلقة، ولكنها فوق استيعاب الإنسان لجميع أبعادها، وعلى الإنسان ألا يتصور أنه قد بلغ علم ليلة القدر بمجرد معرفة بعض أبعادها، بل يسعى ويسعى حتى يبلغ المزيد من معانيها، وكلما تقدم في معرفتها كلما استطاع الحصول على مغانم أكبر منها ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ سبق القول من البعض: أن هذه الجملة وردت في القرآن لبيان أهمية الحقيقة التي تذكر بعدها. بينما تترك الحقيقة مجملة إذا ذكرت عبارة وما يدريك.. هكذا قالوا، وأعتقد أن كلتا الجملتين تفيدان تعظيم الحقيقة التي تذكر بعدها.

[٣] كيف نعرف أهمية الزمان؟ أليس عندما يختصر المسافة بيننا وبين أهدافنا، فإذا حصلت في يوم على مليون دينار، وكنت تحصل عليه خلال عام أليس هذا اليوم خير لك من عام كامل؟ كذلك ليلة القدر تهب للإنسان الذي يعرف قدرها ما يساوي عمرا مديدا: ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر، وبتعبير أبلغ: ألف شهر: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أجل الواحد منا مسمى عند الله وقد يكون قصيرا، قد لا يبلغ الواحد منا معشار أهدافه فيه، فهل يمكن تحدي هذا الواقع؟ بلى، ولكن ليس بالصورة التي يتخيلها الكثير، حيث يتمنون تطويل عمرهم، وقليل هم الذين يحققون هذه الأمنية، لأن عوامل الموت عديدة وأكثرها خارج عن إرادة الإنسان، فما هو إذا السبيل إلى تمديد العمر؟. إنما يكون ذلك بتعميقه، ومدى الانتفاع بكل لحظة لحظة منه، تصور لو كنت تملك قطعة صغيرة من الأرض، ولا تستطيع توسيعها فكيف تصنع؟ إنك سوف تبني طوابق فيها بعضها تحت الأرض وبعضها يضرب في الفضاء وقد تناطح السحب، كذلك عاش بعض الناس سنين معدودات في الأرض ولكنهم صنعوا عبرها ما يعادل قرونا متطاولة. لنرَ مثلا عمر رسولنا الكريم ﷺ لا يتجاوز الثلاث والستين، وأيام دعوته ثلاث وعشرون عاما منها، ولكنها أبعد أثرا من عمر نوح المديد، بل من سني الأنبياء جميعا وهكذا خص الله أمته بموهبة ليلة القدر،التي جعلها خيرا من ألف شهر، ليقدروا على تمديد أعمارهم في البعد الثالث (أي بعد العمق). ولعل الخبر المأثور عن رسول الله ﷺ يشير إلى ذلك، فقد روي أن رسول الله ﷺ «أري أعمار الأمم قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمر مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيرا من ألف شهر»[١].

(١) القرطبي: ج ٢٠ ص ١٣٣، الدر المنثور: ج٦ ص٣٧١.

وفي حديث آخر: أنه ذُكر لرسول الله رجل من بني إسرائيل أنه حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب من ذلك رسول الله عجبا شديدا، وتمنى أن يكون ذلك في أمته، فقال: «يَا رَبِ! جَعَلْتَ أُمتِي أَقْصَر النَّاسِ أَعْمَاراً، وَأَقلهَا أَعْمَالاً. فَأَعْطَاهُ الله لَيْلَة القَدرِ، وَقَالَ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ الذي حَمَلَ الإسرائيلي السِلاح فِي سَبِيلِ الله لَكَ وَلأُمتِكَ مِنْ بَعْدِكَ إلَى يَوْمِ القِيَامَةِ فِي كُلِ رَمَضَان»[١].

إنك قد تحيي ليلة القدر بالطاعة فيكتب الله اسمك في السعداء، ويحرم جسدك على نار جهنم أبدا، وذلك بما يوفقك له من إصلاح الذات إصلاحا شاملا، من هنا جاء في الدعاء المأثور في ليالي شهر رمضان مجموعة من البصائر التي تتحول بتكرار تلاوتها إلى أهداف وتطلعات يسعى نحوها المؤمن بجد ومثابرة، ويجتهد في طلبها من ربه: «اللهُمَّ أَعْطِنِي السِعَةَ فِي الرِزْقِ، وَالأَمْنَ فِي الوَطَنِ، وَقُرَّةَ العَيْنِ فِي الأَهْلِ وَالمَالِ وَالوَلَدِ، وَالمُقَامَ فِي نِعَمِكَ عِنْدِي وَالصِحَة فِي الجِسْمِ، وَالقُوة فِي البَدَنِ، وَالسلامَة فِي الدِينِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ وَطَاعَة رَسُولِكَ مُحَمد ﷺ أَبَداً مَا اسْتَعْمَرْتَنِي، وَاجْعَلْنِي مِنْ أَوْفَرِ عِبَادِكَ عِندكَ نَصِيباً فِي كُلِ خَيرٍ أَنْزَلْته وَتُنْزِله فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ»[٢] وهكذا ينبغي أن يكون هدفك في ليلة القدر تحقيق تحول جذري في نفسك، تحاسب نفسك بل تحاكمها أمام قاضي العقل، وتسجل ثغراتها السابقة، وانحرافاتها الراهنة، وتعقد العزم على تجاوز كل ذلك بالندم من ارتكاب الأخطاء، والعزم على تركها والالتجاء إلى الله ليغفر لك ما مضى ويوفقك فيما يأتي.

وقد جاء في تأويل هذه الآية: أنها نزلت في دولة الرسول التي كانت خيرا من دول الظالمين من بني أمية، حيث نقل الترمذي عن الحسن بن علي عليه السلام: «أَنَّ رَسُول الله ﷺ أُرِيَ بَنِي أُمية عَلَى مِنْبَرِهِ فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ يَعْنِي نَهْراً فِي الجَنةِ، وَنَزَلَتْ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يَمْلكهَا بَعْدَكَ بَنُو أُمية»[٣] وكانت حكومة بني أمية ألف شهر لا تزيد ولا تنقص. وهكذا فضيلة حكومة العدل وأثرها العظيم في مستقبل البشرية أكثر من ألف شهر من حكومة الجور.

[٤] لماذا أمست ليلة القدر خيرا من ألف شهر؟ لأنها ملتقى أهل السماء بأهل الأرض، حيث يجددون ذكرى الوحي، ويستعرضون ما قدر الله للناس في كل أمر. ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ والكلمة أصلها تتنزل، وصيغتها مضارع تدل على الاستمرار، فنستوحي منها: أن ليلة القدر لم

---

(١) نور الثقلين: ج٥، ص ٦١٥، الدر المنثور: ج٦، ص٣٧١.

(٢) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٩١، من دعاء أبي حمزة الثمالي المأثور لأسحار شهر رمضان.

(٣) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص ١٣٣.

تكن ليلة واحدة في الدهر، وإنما هي في كل عام مرة واحدة، ولذلك أمرنا النبي ﷺ بإحيائها. فقد جاء في الأثر عن رسول الله ﷺ: «لَمَّا حَضَرَ شَهْرُ رَمَضَانَ -وَذَلِكَ فِي ثَلَاثٍ بَقِينَ مِنْ شَعْبَانَ- قَالَ لِبِلَالٍ: نَادِ فِي النَّاسِ فَجَمَعَ النَّاسَ ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ قَدْ خَصَّكُمُ اللهُ بِهِ وحَضَرَكُمْ وهُوَ سَيِّدُ الشُّهُورِ لَيْلَةٌ فِيهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»[1]. وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لابن عباس: «إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي كُلِّ سَنَةٍ وإِنَّهُ يَنْزِلُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَمْرُ السَّنَةِ وإِنَّ لِذَلِكَ الْأَمْرِ وُلَاةً بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ مَنْ هُمْ فَقَالَ أَنَا وأَحَدَ عَشَرَ مِنْ صُلْبِي»[2].

﴿وَٱلرُّوحُ﴾ ما هو الروح؟ هل هو جبرائيل عليه السلام أم هم أشراف الملائكة؟ أم هم صنف أعلى منهم، وهم من خلق الله، أم هو ملك عظيم يؤيد الله به أنبياءه؟

استفاد بعضهم من الآية التالية: إن الروح هو جبرائيل عليه السلام حيث قال ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. واستظهر البعض من الآية التالية: إن الروح هي الوحي، فإن الملائكة يهبطون في ليلة القدر به قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وجاء في حديث شريف ما يدل على أن الروح أعظم من الملائكة، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل هل الروح جبرائيل عليه السلام؟ فقال: «جَبْرَائِيلُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالرُّوحُ أَعْظَمُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَلَيْسَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾»[3]. وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، مما يدل على أن الروح هو ما يؤيد الله به أنبياءه. ويبدو أن الروح خلق نوراني عظيم الشأن عند الله، وأن الله ليس يؤيد أنبياءه عليهم السلام به فقط، وإنما حتى الملائكة، ومنهم جبرائيل يؤيدهم به، وبهذا نجمع بين مختلف الاحتمالات والأدلة، والله العالم.

﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ عظيمة تلك الليلة التي تتنزل الملائكة فيها، وعظيمة لأن الأعظم منهم هو الروح يتنزل أيضا، ولكن لا ينبغي أن نتوجه إلى عظمة الروح بعيدا عن عظمة الخالق سبحانه، فإنهم عباد مكرمون، مخلوقون مربوبون، وليسوا أبدا بأنصاف آلهة، وليس لهم من الأمر أي شيء ولذلك فإن تنزلهم ليس باختيارهم وإنما بإذن ربهم.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قالوا: معناه لأجل كل أمر، أو بكل أمر، فالملائكة -حسب هذا التفسير- يأتون لتقدير كل أمر، ولكن أليس الله قد قدر لكل أمر منذ خلق اللوح وأجرى عليه القلم؟

---

(١) الكافي: ج٤، ص٦٧.
(٢) الكافي: ج١، ص٢٤٧.
(٣) البرهان في تفسير القرآن: ج١٠، ص ٣٣٥، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، مؤسسة البعثة.

بلى، إذا فما الذي يتنزل به الملائكة في ليلة القدر؟ يبدو أن التقديرات الحكيمة قد تمت في شؤون الخلق، ولكن بقيت أمور لم تحسم وهي تقدر في كل ليلة قدر لأيام عام واحد، فيكون التقدير خاصا ببعض جوانب الأمور، وليس كل جوانبها، بلى، تشمل التقديرات جميع الأمور، ولكن من كل أمر جانبا، وهكذا يكون حرف ﴿مِّن﴾ للتبعيض وهو معناه الأصلي، وهو أيضا ما يستفاد من النصوص المأثورة في هذا الحقل: «سَأَلَ سُلَيْمَانُ المَرْوَزِي الإِمَامَ الرِضَا عليه السلام أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ فِي أَيِّ شَيْءٍ أُنْزِلَتْ؟. قَالَ عليه السلام: **يَا سُلَيْمَانُ لَيْلَةُ الْقَدْرِ يُقَدِّرُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا مَا يَكُونُ مِنَ السَّنَةِ إِلَى السَّنَةِ مِنْ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ أَوْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ أَوْ رِزْقٍ فَمَا قَدَّرَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَهُوَ مِنَ الْمَحْتُومِ**»[1].

وهكذا تختلف بصائر الوحي عن تصورات البشر، فبينما يزعم الإنسان أنه مجبور لا أثر لمشيئته في حياته يعطيه الوحي قيمة سامية، حيث يجعله قادرا على تغيير مجمل حياته: من سعادة وشقاء، وخير وشر، ونفع وضر، كل ذلك بإذن الله، وعبر الدعاء إلى الله في ليلة القدر.

إن البشرية في ضلال بعيد عن حقيقة المشيئة، فهم بين من ظن أنه صاحب القرار، وقد فوض الله الأمور إليه تفويضا مطلقا، فلا ثواب ولا عقاب ولا مسؤولية ولا أخلاق، وبين من زعم أنه مضطر تسوقه الأقدار بلا حرية منه ولا اختيار. ولكن الحق هو أمر بين أمرين: فلا جبر لأننا نعلم يقينا أن قرارنا يؤثر في حياتنا، أولست تأكل وتشرب وتروح وتأتي حسب مشيئتك وقرارك؟ وكذلك لا تفويض لأن هناك أشياء كثيرة لا صنع لنا فيها: كيف ولدت، وأين تموت، وماذا تفعل غدا، وكم حال القضاء بينك وبين ما كنت تتمناه، وكم حجزك القدر عن خططك التي عقدت العزمات على تطبيقها؟ بلى، إن الله منح الإنسان قدرا من المشيئة لكي يكون مصيره بيده، إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولكن ذلك لا يعني أنه سيدخل الجنة بقوته الذاتية أو النار بأقدامه، وإنما الله سبحانه هو الذي يدخله الجنة بأفعاله الصالحة، أو يدخله النار بأفعاله الطالحة. إذا الإنسان يختار، ولكن الله سبحانه هو الذي يحقق ما أختاره من سعادة وشقاء، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وها هنا تتركز أهمية الدعاء وبالذات في ليلة القدر التي هي ربيع الدعاء، وقد تتغير حياة الإنسان في تلك الليلة تماما، فكم يكون الإنسان محروما وشقيا إن مرت عليه هذه الليلة دون أن يستفيد منها شيئا.

ويتساءل البعض: أليس هذا يعني الجبر بذاته؟ فإذا كانت ليلة تحدد مصير الإنسان فلماذا العزم والسعي والاجتهاد في سائر أيام السنة؟! كلا.. ليس هذا من الجبر في شيء، ونعرف ذلك جيدا إذا وعينا البصائر التالية:

---

(١) بحار الأنوار: ج٤ ص٩٥، تفسير القمي: ج١ ص٣٦٦.

البصيرة الأولى: يبدو أن التقدير في هذه الليلة لا يطال كل جوانب الحياة، فهناك ثلاثة أنواع من القضايا:

الأول: نوع قدر في ليلة واحدة في تاريخ الكون، فقد روي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**قَالَ لِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله يَا عَلِيُّ أَتَدْرِي مَا مَعْنَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَقُلْتُ لَا يَا رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله فَقَالَ: إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَّرَ فِيهَا مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَكَانَ فِيمَا قَدَّرَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَايَتُكَ وَوَلَايَةُ الْأَئِمَّةِ مِنْ وُلْدِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1].

الثاني: تقديرات تتم في السنة التي يعيشها الإنسان.

الثالث: تبقى مفتوحة تخضع لمشيئة الإنسان وهي الفتنة، مثلا: إن الله يقدر للإنسان في ليلة القدر الثروة، أما كيف يتعامل الإنسان مع الثروة هل ينفق منها، أم يبخل بها ويطغى، فإن ذلك يخضع لمشيئة الإنسان وبه يتم الابتلاء، كذلك يقدر الله للإنسان المرض أما صبر المريض أو جزعه فإنه يتصل بإرادته.

ومع ذلك فإن لله البداء، إذ لا شيء يحتم على ربنا سبحانه، وقد قال سبحانه: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ وَالْكَتَبَةُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَكْتُبُونَ مَا يَكُونُ مِنْ قَضَاءِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي تِلْكَ السَّنَةِ فَإِذَا أَرَادَ الله أَنْ يُقَدِّمَ أَوْ يُؤَخِّرَ أَوْ يُنْقِصَ شَيْئاً أو يزيده أمر الله أَنْ يَمْحُوَ مَا يَشَاءُ ثُمَّ أَثْبَتَ الَّذِي أَرَادَ**.

قُلْتُ: وَكُلُّ شَيْءٍ عنده بمقدار مُثْبَتٌ فِي كِتَابه؟. قَالَ عليه السلام: **نَعَمْ**. قُلْتُ: فَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ بَعْدَهُ؟. قَالَ عليه السلام: **سُبْحَانَ الله ثُمَّ يُحْدِثُ الله أَيْضاً مَا يَشَاءُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»[2]. هكذا تبقى كلمة الله هي العليا، ومشيئته هي النافذة، ولكن الاتكال على البداء، وتفويت فرصة ليلة القدر نوع من السذاجة، بل من السفه والخسران.

البصيرة الثانية: أن الله يقدر لعباده تبعا لحكمته البالغة ولقضائه العدل، فلا يقضي لمؤمن صالح متبتل ما يقدر لكافر طالح، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦]. وهكذا يؤثر الإنسان في مصير نفسه بما فعله خلال العام الماضي، وما يفعله عند التقدير في ليلة القدر، وما يعلمه الله من سوء اختياره خلال السنة، مثلا: يقدر الله لطاغوت يعلم أن لا يتوب بالعذاب في هذه السنة لأنه سوف يظلم الناس خلالها، ولو افترضنا أنه وفق للتوبة ولم يظلم الناس خلالها،

(١) بحار الأنوار: ج٩٤، ص١٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٤ ص٩٩، تفسير القمي: ج١ ص٣٦٦.

فإن لله البداء في أمره، ويمحو عنه السقوط ويمد في ملكه، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

البصيرة الثالثة: أن الناس يزعمون أن هناك أحداثا تجري عليهم، لا صنع لهم فيها كموت عزيز، والاصابة بمرض عضال، والابتلاء بسلطان جائر، أو بالتخلف، أو بالجفاف، ولكن الأمر ليس كذلك إذ إن حتى هذه الظواهر التي تبدو أنها خارج إطار مشيئة الإنسان إنما تقع بإذن الله وتقديره وقضائه، وأن الله لا يقضي بشيء إلا حسب ما تقتضيه حكمته وعدالته، ومن عدله أن يكون قضاؤه وتقديره حسب ما يكسبه العباد، أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]. وإن في ذلك لكرامة بالغة لمشيئة الإنسان أن يجعل الله تقديره وفق قرار ما، أليس كذلك.

[٥] السلام كلمة مضيئة تغمر الفؤاد نورا وبهجة، لأنها تتسع لما تصبو إليه النفس، وتتطلع نحوه الروح، ويبتغيه العقل، فلا يكون الإنسان في سلام عندما يشكو من نقص في أعضاء بدنه، أو شروط معيشته، أو تطلعات روحه، فهل للمريض سلام، أم للمسكين عافية، أم للمحسود أمن؟ كلا.. إنما السلام يتحقق بتوافر الكثير.. الكثير من نعم الله التي لو افتقرنا إلى واحدة منها فقدنا السلام. أولم تعلم كم مليون نعمة تتزاحم على بدنك حتى يكون في عافية، وكم مليون نعمة تحيط بمجمل حياتك وتشكلان معا سلامتها، وليلة القدر ليلة السلام، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ حينما تنسب هذه الموهبة الإلهية إلى الزمن نعرف إنها تستوعبه حتى لتكاد تفيض منه، فالليل السلام كل لحظاته سلام لكل الأنام، كما اليوم السعيد كله هناء وفلاح، بينما اليوم النحس تتفجر النحوسة من أطرافه. فماذا يجري في ليلة القدر حتى تصبح سلاما إلى مطلع الفجر؟.

لا ريب أن الله سبحانه يغفر في تلك الليلة لفئام من المستغفرين، وينقذهم -بذلك- من نار جهنم، وأي سلام أعظم من سلامة الإنسان من عواقب ذنوبه في الدنيا والآخرة. من هنا يجتهد المؤمنون في هذه الليلة لبلوغ هذه الأمنية وهي العتق من نار جهنم، ويقولون بعد أن ينشروا المصحف أمامهم: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكِتَابِكَ الْمُنْزَلِ وَمَا فِيهِ وَفِيهِ اسْمُكَ الْأَعْظَمُ الْأَكْبَرُ وَأَسْمَاؤُكَ الْحُسْنَى وَمَا يُخَافُ وَيُرْجَى أَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ عُتَقَائِكَ مِنَ النَّارِ**»[1]. كذلك يقدر للإنسان العافية فيها، وإتمام نعم الله عليه، وقد سأل أحدهم النبي ﷺ: «أي شَيْءٍ يَطْلُبهُ مِن الله فِي هَذِهِ الليلةِ؟ فَأَجَابَهُ -حَسَب الرِوَاية- العَافِيةِ»[2]. وقد تدخل على فرد هذه الليلة وهو من الأشقياء فيخرج منها سعيداً،

(١) الكافي ج٢، ص٦٢٩.
(٢) الكافي: ج٢، ص ٢٢٦.

أوليست الليلة سلاما؟ من هنا ينبغي للإنسان أن يدعو فيها بهذه الكلمات الشريفة: «اللَّهُمَّ امْدُدْ لِي فِي عُمُرِي، وَأَوْسِعْ لِي فِي رِزْقِي، وَأَصِحَّ لِي جِسْمِي، وَبَلِّغْنِي أَمَلِي، وَإِنْ كُنْتُ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ فَامْحُنِي مِنَ الْأَشْقِيَاءِ، وَاكْتُبْنِي مِنَ السُّعَدَاءِ، فَإِنَّكَ قُلْتَ فِي كِتَابِكَ الْمُنْزَلِ عَلَى نَبِيِّكَ -صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ-: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]»[١].

وفي هذه الليلة يقدر الله الرزق لعباده، وهو جزء من السلام والأمن، وعلى الإنسان أن يطلب منه سبحانه التوسعة في رزقه. كما يقدر الأمن والعافية والصحة والذرية وكلها من شروط السلام. حقا.. إن المحروم هو الذي يحرم خيرها كما جاء في حديث مأثور عن فاطمة الزهراء عليها السلام أنها كانت تأمر أهلها بالاستعداد، لاستقبال ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان المبارك بأن يناموا في النهار لئلا يغلب عليهم النعاس ليلا وتقول: «مَحْرُومٌ مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا»[٢]. وقال البعض: «إن معنى السلام في هذه الآية: إن الملائكة يسلمون فيها على المؤمنين والمتهجدين في المساجد، وأن بعضهم يسلم على البعض»، وقيل: «لأنهم يسلمون على إمام العصر عليه السلام وهم يهبطون عليه».

ليلة القدر متى هي؟

إذا كان القرآن قد نزل في شهر رمضان وفي ليلة القدر حسب آيتين في القرآن،فان ليلة القدر تقع في هذا الشهر الكريم، ولكن متى؟ جاء في بعض الأحاديث: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ»[٣]. وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال في تفسير ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ قال: «نَعَمْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ وهِيَ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ فَلَمْ يُنْزَلِ الْقُرْآنُ إِلَّا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»[٤]. وجاء في حديث آخر تحديد واحدة من ليلتين: إحدى وعشرين وثلاث وعشرين، فقد روى أبو حمزة الثمالي، قال: كنت عند أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام فقال له أبو بصير: «جُعِلْتُ فِدَاكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي يُرْجَى فِيهَا مَا يُرْجَى؟ فَقَالَ عليه السلام: فِي إِحْدَى وعِشْرِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وعِشْرِينَ. قَالَ فَإِنْ لَمْ أَقْوَ عَلَى كِلْتَيْهِمَا. فَقَالَ عليه السلام: مَا أَيْسَرَ لَيْلَتَيْنِ فِيمَا تَطْلُبُ. قُلْتُ فَرُبَّمَا رَأَيْنَا الْهِلَالَ عِنْدَنَا وجَاءَنَا مَنْ يُخْبِرُنَا بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ أَرْضٍ أُخْرَى!. فَقَالَ عليه السلام: مَا أَيْسَرَ أَرْبَعَ لَيَالٍ تَطْلُبُهَا فِيهَا. قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وعِشْرِينَ لَيْلَةُ الْجُهَنِيِّ»[٥]، -قال عليه السلام:-

(١) بحار الأنوار: ج ٩٥، ص١٦٢.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٤٧٠.
(٣) رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله، راجع: مستدرك الوسائل: ج٧، ص٤٦٧. بحار الأنوار: ج٩٤ ص١٠.
(٤) الكافي: ج٤ ص١٥٧.
(٥) سوف نذكره إن شاء الله.

فَاطْلُبْهَا فِي لَيْلَةِ إِحْدَى وعِشْرِينَ وثَلاثٍ وعِشْرِينَ وصَلِّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِائَةَ رَكْعَةٍ وأَحْيِهِمَا إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَى النُّورِ واغْتَسِلْ فِيهِمَا.

قَالَ قُلْتُ فَإِنْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ وأَنَا قَائِمٌ!. قَالَ عليه السلام: **فَصَلِّ وأَنْتَ جَالِسٌ.** قُلْتُ فَإِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ. قَالَ عليه السلام: **فَعَلَى فِرَاشِكَ لا عَلَيْكَ أَنْ تَكْتَحِلَ أَوَّلَ اللَّيْلِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّوْمِ إِنَّ أَبْوَابَ السَّمَاءِ تُفَتَّحُ فِي رَمَضَانَ وتُصَفَّدُ الشَّيَاطِينُ وتُقْبَلُ أَعْمَالُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَ الشَّهْرُ رَمَضَانُ كَانَ يُسَمَّى عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله الْمَرْزُوقَ»**[1].

وقد استفاضت أحاديث النبي وأهل بيته في إحياء هاتين الليلتين، إلا إن حديثا يروي عن رسول الله يحدده في ليلة ثلاث وعشرين، حيث يرجى أن تكون هي ليلة القدر حيث قال عبد الله بن أنيس الأنصاري المعروف بالجهني لرسول الله صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ مَنْزِلِي نَاءٍ عَنِ الْمَدِينَةِ فَمُرْنِي بِلَيْلَةٍ أَدْخُلُ فِيهَا فَأَمَرَهُ بِلَيْلَةِ ثَلاثٍ وَعِشْرِينَ**»[2].

ويبدو من بعض الأحاديث: أن ليلة القدر الحقيقية هي ليلة ثلاث وعشرين بينما ليلة التاسع عشر وواحد وعشرين هما وسيلتان إليها، من وفق للعبادة فيهما نشط في الثالثة، وكان أقرب إلى رحمة الله فيها. هكذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال لمن سأله عن ليلة القدر: «**اطْلُبْهَا فِي تِسْعَ عَشْرَةَ وإِحْدَى وعِشْرِينَ وثَلاثٍ وعِشْرِينَ**»[3]. وجاء في حديث آخر: أن لكل ليلة من هذه الثلاث فضيلة وقدرا، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**التَّقْدِيرُ فِي لَيْلَةِ تِسْعَ عَشْرَةَ والْإِبْرَامُ فِي لَيْلَةِ إِحْدَى وعِشْرِينَ والْإِمْضَاءُ فِي لَيْلَةِ ثَلاثٍ وعِشْرِينَ**»[4].

وجاء في علامات ليلة القدر: «**أَنْ تَطِيبَ رِيحُهَا وإِنْ كَانَتْ فِي بَرْدٍ دَفِئَتْ وإِنْ كَانَتْ فِي حَرٍّ بَرَدَتْ**»[5]. وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**أَنَّهَا لَيْلَةٌ مُلْحَةٌ سَاكِنَةٌ سَمْحَةٌ لاَ بَارِدَةٌ وَ لاَ حَارَّةٌ تَطْلُعُ الشَّمْسُ صَبِيحَةَ لَيْلَتِهَا لَيْسَ لَهَا شُعَاعٌ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**»[6].

نسأل الله أن يوفقنا لهذه الليلة الكريمة ويقدر لنا السعادة فيها.

---

(١) الكافي: ج٤، ص١٥٦.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٦٢٦.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٠، ص٣٦٠.
(٤) الكافي: ج٤، ص١٥٩.
(٥) الكافي: ج٤، ص١٥٧.
(٦) مستدرك الوسائل: ج٧، ص٤٦٨.

سُورَةُ البَيِّنَة

* مدنية أو مكية.
* عدد آياتها: ٨.
* ترتيبها النزولي: ١٠٠.
* ترتيبها في المصحف: ٩٨.
* نزلت بعد سورة الطلاق.

فضل السورة

قال رسول الله ﷺ: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ لَعَطَّلُوا الأَهْلَ والمَالَ وتَعَلَّمُوهَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ مَا فِيهَا مِنَ الأَجْرِ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ ﷺ: لَا يَقْرَؤُهَا مُنَافِقٌ أَبَداً وَلَا عَبْدٌ فِي قَلْبِهِ شَكٌّ فِي الله عَزَّ وجَلَّ والله إِنَّ المَلَائِكَةَ المُقَرَّبِينَ لَيَقْرَءُونَهَا مُنْذُ خَلَقَ [الله] السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ لَا يَفْتُرُونَ مِنْ قِرَاءَتِهَا ومَا مِنْ عَبْدٍ يَقْرَؤُهَا بِلَيْلٍ إِلَّا بَعَثَ اللهُ مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَهُ فِي دِينِهِ ودُنْيَاهُ ويَدْعُونَ لَهُ بِالمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ فَإِنْ قَرَأَهَا نَهَاراً أُعْطِيَ عَلَيْهَا مِنَ الثَّوَابِ مِثْلَ مَا أَضَاءَ عَلَيْهِ النَّهَارُ وأَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٦٥)

***

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ كَانَ بَرِيئاً مِنَ الشِّرْكِ وأُدْخِلَ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ وبَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مُؤْمِناً وحَاسَبَهُ حِسَاباً يَسِيراً».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٩)

الإطار العام

الرسول ورسالة التوحيد، والوحدة

كلا.. لن يقدر الإنسان الخروج من نفق الضلال بغير هدى من الله (البتة)، ولا يكره الله الناس على اتباع البينة حينما تأتيهم، فترى بعضهم يهتدون بها، وأكثرهم يضلون عنها بأهوائهم وهكذا اختلفوا.

كلا.. ليست خلافاتهم في البينة، لأن البينة قد أمرتهم بعبادة الله وحده بعيدا عن أي خلاف.

حول هذه المحاور الثلاث جاءت آيات سورة البينة التي خصت بصائر كثيرة فصلت في الكتاب الكريم، وأوضحت كذلك صفات البينة: إنها تتمثل في رسول يحمل من الله كتاباً طاهراً من أي زيف أو باطل، وهو يدعو إلى توحيد الله الخالص من أي شائبة مادية.

وهذا الخلاف الذي انتشر بينهم يرجع إلى القرآن، وهو يحكم بأن شر البرية الذي يكفر برسالات الله، سواء كان من أهل الكتاب أو من المشركين، وأن خير البرية هم المؤمنون الذين يجزيهم الله بجنات عدن، ويرضى عنهم، ويرزقهم الرضا عنه، كل ذلك لخشيتهم من الله.

أولئك هم خير البرية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ
حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ
قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ
(٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ
رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾.

بينات من الآيات:

[١] لقد أنعم الله على الإنسان بالعقل، وفطر نفسه على الإيمان، بيد أنه ينفلت عن ظلال وغي، ولا يكفيه ما لديه من فطرة وعقل، بل يحتاج إلى تذكرة الوحي ودعوة الرسول، وأنى له ذلك وهو يتعرض لتيار عنيف من شهوات نفسه، ووساوس شيطانه، وتضليل أدعياء الدين، وقمع أولي السلطة والثروة. ألا ترى كيف لا يؤمن إلا نفر قليل بالرغم من أن الله ينزل الوحي، ويدعوهم إليه داعي الفلاح، ويخوض الرسول والمؤمنون صراعا شاملا في سبيل الدعوة.

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ويبدو أن الآية هذه التي صعبت على فهم بعض المفسرين حتى اعتبرها أعقد آية، إنما تذكرنا وبعبارات

بسيطة وبينة بضرورة الرسالة الإلهية، فمن دون رسالة الإسلام هل كان من الممكن إزالة تلك الحجب الكثيفة التي تراكمت عبر عصور الظلمات فوق بعضها، ومنعت إنارة العقل وهدى الفطرة، وحرفت تعاليم الدين، ومسخت شخصية الإنسان. كلا.. لأن الفساد كان قد أطبق على البشرية، فلم يعد أحد بقادر على مقاومته بسهولة، فبعث الله النبي برسالة طاهرة من دنس ضلالاتهم وخبث ثقافتهم.

[٢] لقد تنازع خطان قيادة الإنسان عبر العصور: خط الوحي المتمثل في أنبياء الله عليهم السلام والمؤمنون بهم، وخط الجاهلية المتمثلة في الطغاة والمترفين، وثقافة الخط الأول كانت نابعة من الوحي، بينما ثقافة الجاهلية قائمة على أساس الضلالة.

وكلما انحسر الوحي أو ضعف دعاته استشرت الجاهلية، وكانت المشكلة العاتية عندما يستسلم المؤمنون بالوحي تحت ضغط الجاهلية، كما حدث قبيل بعثة النبي إذ لم يعد أتباع آخر الأنبياء عيسى عليه السلام يشكلون قوة تذكر، لا بسبب قلة عددهم بل لأنهم بايعوا القياصرة في حقل السلطة، واتبعوا الفلاسفة في الحقل الثقافي، وداهنوا المترفين والمستكبرين في المجتمع، ولم يبق من الدين عندهم إلا طقوس فارغة، فبدل أن يناهضوا سلطات الجور، ويدافعوا عن المظلومين والمحرومين إلتهوا بمحاربة بعضهم، وخلق عداوات جانبية بين مذهب ومذهب. حقا.. أصبحوا كما كانت اليهود من قبل، وتفشت فيهم ذات الأخلاق الفاسدة التي بعث عيسى بن مريم عليه السلام لإصلاحها، وكذلك في حقل الثقافة، فلم يدافعوا عن قيم الوحي في مقابل مفاهيم الفلسفة الضالة، بل تراهم يلهثون وراء التوفيق بينهما، حتى ولو كان ذلك على حساب صفاء الوحي ونقائه. أرأيت كيف ذهبوا إلى فكرة التثليث اتباعا للأفلاطونية الجديدة. ومن هنا أصبحت الرسالة الإلهية أشد ضرورة من أي وقت مضى، ليس فقط لإصلاح البشرية من الفساد العريض الذي أحاط بها، وإنما أيضا لتطهير الرسالة مما لحق بها من زيغ وانحراف على أيدي أهل الكتاب الكافرين، ولإضاءة تلك المشاعل التي انطفأت أو كادت بسبب عصف الشهوات العاتية، فلم تعد تنير طريق السالكين، ولكي يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

وهكذا بعث الله رسوله الخاتم بصحف طاهرة من دنس الانحرافات الثقافية التي حرفت الديانات، وطاهرة من تأثير الحكام الظلمة والمترفين الأشقياء. ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وهكذا تتم البينة بالرسالة والرسول معا، إذ الرسول يدعو إليها بحكمة، ويمثلها في سلوكه لتتجلى للناس روعتها، ويدافع عنها بصبر واستقامة، ثم إن الرسالة التي يحملها مطهرة من شوائب الزيغ والانحراف، فتتقبلها الفطرة السليمة، والعقل الرشيد.

[٣] ماذا نقرأ في تلك الأوراق الطاهرة؟ نقرأ كتباً أحكمت آياتها وفصلت، لا تجد فيها

عوجا ولا زيغا. ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يبدو أن معناها: الحقائق المكتوبة التي لا شبهة فيها وريب، وهي واضحة لا لبس فيها ولا غموض، مستقيمة لا زيغ فيها ولا تحريف، وعلى هذا فالكلمة أشارت إلى الآيات المحكمة التي هي تكفي الإنسان هدى ونورا، والتي إليها يرجع ما تشابه من آيات الذكر بسبب تساميها عن مستوى كل الناس، وتخصصها بالراسخين في العلم منهم فقط.

[٤] ولعل البعض يتشابه عليه الأمر، فيظن أن تفرق أهل الكتاب واختلافهم في الدين كان من نقص في الحجة، فإذا تمت الحجة واكتملت البينة فلا أحد يختلف مستقبلا في الدين، كلا.. إن الكتاب يوفر للناس فرصة الهداية، ولكنه لا يفرضها عليهم فرضاً، فإن آمنوا به فقد اهتدوا، وإلا فهم المسؤولون عن ضلالهم وشقائهم ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ يبدو أن أشد الضلال عند أهل الكتاب تفرقهم، أليس الإيمان بالله ورسله وشرائعه يوحد أهله في إطار الغايات التي يرسمها، والمناهج التي يفرضها، والسلوك الذي يوصي به؟. «... لقد تفرق اليهود إلى اثنين وسبعين فرقة، أبرزهم طوائف (الصدوقيين) و(الفريسيين)، و(الآسيين)، و(الغلاة)، و(السامريين)، وكان لكل فرقة منهم ميزاتهم في الفكر والسلوك...»[1].

وبذات العدد تفرق النصارى وكان أبرز طائفتين منهم (الملكانية) الذين ذهبوا إلى عقيدة ازدواج الطبيعة عند السيد المسيح عليه السلام و(المنوفوسية) الذين زعموا أن طبيعته واحدة هي الألوهية... وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) بعد انتصاره على الفرس سنة (٦٣٨) جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها، وأراد التوفيق، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح، عما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان... ولكن القبط نابذوه العداء،... ووقع -جراء ذلك- اضطهاد فظيع على يد قيرس في مصر استمر عشر سنين،... فرجال كانوا يُعذبون ثم يقتلون إغراقًا، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض، ويوضع السجين في كيس مملوء من الرمل ويرمى به في البحر...[2].

واختلاف الأمم بعد رسل الله وتمام الحجة عليهم دليل على مدى حاجة البشر إلى الوحي، حيث تراهم يختلفون حتى بعد تنزل الوحي بينهم، وبمجرد أن يخبو ضوؤه عنهم، فكيف بهم إذا حرموه رأسًا؟!.

[٥] من أين ينتج الخلاف بين البشر؟.

---

(١) راجع عبقرية المسيح للعقاد: ص٤٠-٥٢.
(٢) ماذا خسر العالم.. للندوي: ص٤٣-٤٥، نقلًا بتصرف.

إنه الشرك بالله، حيث يقدس كل حزب شيئاً لم يأذن الله به، فتختلف المقدسات، وتتفاوت القيم، ويقع الخلاف، بينما إذا كانوا جميعاً يرجعون إلى تلك البصائر التي جاء بها الوحي ولم يقدسوا مصلحة أو أرضاً أو عشيرةً أو أشخاصاً من دون الله إذا توحدت كلمتهم، وصلحت أمورهم. ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دون الأنداد والشركاء الموهومين، ولا تتم العبادة إلا بالتسليم لله وحده، ونبذ الخضوع لأية قيمة أو سلطة من دونه. ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ يبدو أن معنى الدين هو: ما يخضع له الإنسان من تلقاء نفسه من شريعة أو نظام، وخلوصه رفض ازدواجية الولاء بين الله والرسل والأولياء، وبين سائر السلطات المادية، وهذا ما لم يستقم عليه أهل الكتاب، إذ تراهم ابتدعوا الكلمة الشائعة: ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، ومن اتبع هوى قيصر كيف يخلص دينه لله؟!.

وقد سبق منا اختيار معنى الطهر لكلمة الحنيف، فلماذا تأتي الكلمة بعد بيان الإخلاص في الدين؟ لعل التوحيد درجات: أولها الشهادة به لساناً، وعقد القلب به مجملا، وثانيتها: رفض الأنداد، ومواجهتهم، والتمرد ضد سلطانهم، والثالثة: تطهير القلب من حبهم أو الميل إليهم، وتطهير الفكر من رواسب ثقافتهم، وتطهير السلوك من آدابهم وأخلاقهم. وهذه درجة الحنيفية والله العالم. ومن أبعادها الالتزام بشرائع الله: من إقامة الصلاة على وجهها، إلى الخضوع فيها وتعاهدها دائما، وكذلك إيتاء الزكاة. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ قالوا: دين الكتب القيمة، بدلالة قوله: آنفا: ﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ بلى، إنها كتب لا عوج فيها ولا تعقيد، ولا تفاوت ولا اختلاف. ولا نشوز عن فطرة البشر أو حقائق الخلق.

[٦] لا يجوز الاختلاف بين أتباع دين واحد، كما لا يمكن توحيد دين الحق ومذهب الباطل، بل لا بد أن يبقى الخلاف ماثلا بين الحق والباطل وهو أساس توحيد الله، وحينما ينهار الخلاف بينهما هنالك يغلب الباطل ويهزم أهل الحق، وهكذا يذكرنا السياق هنا بأن الكفار هم شر البرية. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ لقد زعم بعض أحبار النصارى الأسبقون أنهم يخدمون دين الله لو أدخلوا فيه بعض التعديلات، واستخدموا كلمات الفلسفة لبيان مقاصده، حتى استقرضوا من الثقافات الشركية بعض مفاهيمها وألفوها مع حقائق الوحي، ثم داهنوا القياصرة والمترفين فتنازلوا لهم عن الدنيا ليسمحوا لهم بممارسة طقوسهم الدينية الفارغة.

كلا.. إن المشركين هم شر البرية، ومن كفر من أهل الكتاب بقيم الدين الحق وداهن المشركين فهو مثلهم تماما شر البرية، وفي ذلك إنذار بالغ الوضوح لنا -نحن المؤمنين بالقرآن- ألا نحذو حذو علماء اليهود والنصارى فنهادن الطغاة، ونصانع المستكبرين طمعاً في اعترافهم

ببعض الدين. وشر البرية تعبير بالغ الحدة لأنه يعني أنهم أضل سبيلا من كل ما خلق الله وبرأه، ولكن لماذا؟ لأنهم رفضوا الحق بعد البينة، وكفروا بأعظم رسول، الذي جاء بأفصح حجة وأبلغ إنذار.

[٧] وحتى لو كانوا مستضعفين في الأرض يأوون إلى رؤوس الجبال، وغور كهوفها، ويسيحون في الأرض فرارا بدينهم، فإن المؤمنين هم خير البرية. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ لأنهم آمنوا بأفضل نبي، واتبعوا أكمل منهج، واهتدوا بأبلج نور. لقد خلق الله كل شيء في الأرض للإنسان، ولكن أي إنسان، هل الذي يغتال كرامة نفسه، ويدسها في وحل الجهل والغرور؟ كلا.. إنه لا يساوي عند الله شيئا، بل الذي يؤمن بالله ورسالاته، ويعمل صالحا، فيصبح أكرم خلق الله جميعا.

وجاء في الأثر في تأويل هذه الآية عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: -لعلي عليه السلام- «هُمْ أَنتَ يَا عَلِيُّ وَشِيعَتُكَ تَأْتِي أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَاضِينَ مَرْضِيِّينَ وَ يَأْتِي أَعْدَاؤُكَ غِضَاباً مُقْمَحِينَ»[١]. وذكر الدر المنثور للسيوطي طائفة من الأحاديث المماثلة نذكر منها ما يلي:

١- أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله، قال: «كُنا عِنْدَ رَسُول الله ﷺ فَأَقْبَلَ عَلي، فَقَالَ النبي ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ هَذَا وَ شِيعَتَهُ لَهُمُ الْفَائِزُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، فَكَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذْ أَقْبَلَ عَلِيٌّ قَالُوا قَدْ جَاءَ خَيْرُ الْبَرِيَّة»[٢].

٢- وأخرج ابن عدوي وابن عساكر، عن أبي سعيد مرفوعا: «عَلِيٌّ خَيْرُ الْبَرِيَّة»[٣].

٣- وأخرج ابن عدي عن ابن عباس: لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قال رسول الله ﷺ لعلي: «هُوَ أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَاضِينَ مَرْضِيِّينَ»[٤].

٤- وأخرج ابن مردوية، عن علي، قال: «قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: أَلَمْ تَسْمَع قَوْل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ أَنت وَشِيعَتُكَ وَمَوْعِدِي

(١) بحار الأنوار: ج٣٥، ص٣٤٥.
(٢) الدر المنثور: ج٦، ص٣٧٩.
(٣) الدر المنثور: ج٦، ص٣٧٩.
(٤) الدر المنثور: ج٦، ص٣٧٩.

وَمَوْعِدُكُمُ الْحَوْضُ إِذَا جَاءَتِ الْأُمَمُ تُدْعَوْنَ غُرّاً مُحَجَّلِين»[1].

[٨] ما هو المقياس لخير البرية، هل كثرة الأموال والأنصار؟ كلا.. بل رضوان الله والجنة، أما الثروات والأولاد فإنها فتنة وابتلاء يقدرهما الله للناس جميعا. ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أليس قد صلحت طينتهم فأصبحوا أهل الجنة دائمين فيها، لأن الجنة هي ذاتها الصلاح، وقد أعدت لأهل الصلاح، وأعظم من الجنة رضوان الله الذي يغمر قلوبهم رضاً وسكينة ونوراً ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ كيف يبلغ الإنسان درجة الرضوان؟ إنما بمعرفة الله وخشيته، التي هي ميراث معرفته سبحانه، وعلامة القرب منه، وشهادة رفع حجب الذنوب بينه وبينهم.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ لذلك جاء في الدعاء المأثور عن النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشَاكَ كَأَنِّي أَرَاكَ وأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ»[2]. وجاء في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. فالخشية هي زينة العلماء بالله، وهكذا جاء في دعاء الصباح المأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، مَنْ ذَا يَعْرِفُ قَدْرَكَ فَلَا يَخَافُكَ، وَمَنْ ذَا يَعْلَمُ مَا أَنْتَ فَلَا يَهَابُك»[3].

نسأل الله أن يملأ قلوبنا خشية وفرقا منه، وشوقا إليه، حتى نكون من خير البرية، ومن شيعة علي التابعين لنهجه حقا. آمين رب العالمين.

(١) الدر المنثور: ج ٦ ص ٣٧٩.
(٢) الكافي: ج ٢، ص ٥٧٧.
(٣) بحار الأنوار: ج ٩١، ص ٢٤٢، من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

سُورَةُ الزَّلزَلَة

* مدنية.

* عدد آياتها: ٨.

* ترتيبها النزولي: ٩٣.

* ترتيبها في المصحف: ٩٩.

* نزلت بعد سورة النساء.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لَا تَمَلُّوا مِنْ قِرَاءَةِ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فَإِنَّهُ مَنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُ بِهَا فِي نَوَافِلِهِ لَمْ يُصِبْهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِزَلْزَلَةٍ أَبَداً ولَمْ يَمُتْ بِهَا ولَا بِصَاعِقَةٍ ولَا بِآفَةٍ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا حَتَّى يَمُوتَ وإِذَا مَاتَ نَزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ كَرِيمٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ فَيَقْعُدُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ارْفُقْ بِوَلِيِّ الله فَإِنَّهُ كَانَ كَثِيراً مَا يَذْكُرُنِي ويَذْكُرُ تِلَاوَةَ هَذِهِ السُّورَةِ وتَقُولُ لَهُ السُّورَةُ مِثْلَ ذَلِكَ ويَقُولُ مَلَكُ الْمَوْتِ قَدْ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أَسْمَعَ لَهُ وأُطِيعَ ولَا أُخْرِجَ رُوحَهُ حَتَّى يَأْمُرَنِي بِذَلِكَ فَإِذَا أَمَرَنِي أَخْرَجْتُ رُوحَهُ ولَا يَزَالُ مَلَكُ الْمَوْتِ عِنْدَهُ حَتَّى يَأْمُرَهُ بِقَبْضِ رُوحِهِ وإِذَا كُشِفَ لَهُ الْغِطَاءُ فَيَرَى مَنَازِلَهُ فِي الْجَنَّةِ فَيُخْرِجُ رُوحَهُ مِنْ أَلْيَنِ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِلَاجِ ثُمَّ يُشَيِّعُ رُوحَهُ إِلَى الْجَنَّةِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَبْتَدِرُونَ بِهَا إِلَى الْجَنَّةِ».

(الكافي: ج٢، ص٦٢٦)

***

عن أنس: «أنه سَأَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: يَا فُلَانُ هَلْ تَزَوَّجْتَ؟. قَالَ: لَا؛ ولَيْسَ عِنْدِي مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ. قَالَ صلى الله عليه وآله: أَ لَيْسَ مَعَكَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؟!. قَالَ: بَلَى. قَالَ صلى الله عليه وآله: رُبُعُ الْقُرْآنِ. قَالَ صلى الله عليه وآله: أَ لَيْسَ مَعَكَ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؟!. قَالَ: بَلَى. قَالَ صلى الله عليه وآله: رُبُعُ الْقُرْآنِ. قَالَ: أَ لَيْسَ مَعَكَ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾؟!. قَالَ: بَلَى. قَالَ صلى الله عليه وآله: رُبُعُ الْقُرْآنِ. ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وآله: تَزَوَّجْ تَزَوَّجْ تَزَوَّجْ».

(مستدرك الوسائل: ج٤ ص٣٦٧)

الإطار العام

قانون الجزاء الإلهي

ليست الحياة الدنيا التي تملأ أعيننا وقلوبنا بخيرها وشرها، بأنظمتها وأحداثها وظواهرها.. سوى ظلال باهتة لذلك الحَيَوان العريض الواسع الخالد، وإنما جيء بنا إلى هذه الدنيا لنستعد فيها، ونتزود منها بالصالحات.

ونحن في الدنيا نشهد أهوالاً تفزعنا وتكاد تقلع أفئدتنا، ومنها الزلازل العظيمة التي قد تبتلع في لحظات قليلة مدينةً كبيرة بناها الإنسان عبر قرون متمادية، وإنها -على ذلك- ليست سوى زلزال محدود يضرب ناحية من الأرض، فكيف إذا كان زلزالاً شاملاً للأرض كلها؟! فأي منظر رهيب، أم أي فزع عظيم، أم أية داهية كبرى يكون ذلك الزلزال؟!.

إن سنة الله في الجزاء تتجلى في البصيرة التي تبينها سورة الزلزلة؛ إن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وإن من يعمل مثقال ذرة شراً يره؛ لكي لا يستهين الإنسان بأعماله التي تتجسد له يوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل الذي تزلزل الأرض زلزالها، وتخرج الأرض ما في جوفها من أجساد ومعادن وأجسام مختلفة، ويستبد بالإنسان حيرة ويتساءل: ما لها؟وترى الناس يصدرون في مذاهب شتى، حسب أفعالهم وحسب درجاتهم.

وفي ذلك اليوم، لن يضيع حتى أصغر ما يتصوره الإنسان من عمل، من وسوسة الصدر، حتى لمحة بصر، ونصف كلمةونفضة من حركة.. فكلها مسجَّلة، وكلها يراها الإنسان.. من خير أو شر.

وإذا كانت كل ذرّة من خير تؤثر في مصيرنا، فعلينا أن نزداد منها أنّى استطعنا. وإذا كانت كل ذرّة من شر نحاسب عليها، فعلينا أن نتحذّر منها.

إذا زلزلت الأرض زلزالها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ
أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ
﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] ليست الحياة الأولى التي تملأ أعيننا وقلوبنا بخيرها وشرها، بأنظمتها وأحداثها وظواهرها سوى ظلال باهتة، لذلك الحيوان العريض الواسع والخالد، وإنما جيء بنا إليها لنستعد ولنتزود، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. ونحن في الدنيا نشهد أهوالا تفزعنا وتكاد تقتلع أفئدتنا، ومنها الزلازل العظيمة التي قد تبتلع في لحظات مدينة كبيرة بناها الإنسان عبر قرون متمادية، وإنها -على ذلك- ليست سوى زالزال محدود يضرب ناحية من الأرض، فكيف إذا كان شاملا للأرض كلها؟! أي منظر رهيب، أم أي فزع عظيم، أم أي داهية كبرى يكون ذلك الزلزال! ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ولعل ضمير « ها» العائد إلى الأرض يوحي بأن الزلزال لا يخص منطقة، وأنه يكون كأشد ما يقع في الأرض من زلزال.

[٢] ماذا يحدث عندئذ؟ هل تفور النواة المركزية للكرة الأرضية بعوامل غير معروفة لدينا فتهتز القشرة الفوقية للأرض هزات عنيفة ومتتالية، ثم تقذف فوقها المواد التي احتبست فيها منذ ملايين السنين؟ هكذا يبدو من الآيات التي تصرح بأن الأرض تلقي أثقالها. ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ و هكذا قال ربنا سبحانه في آية أخرى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾[الانشقاق:٤].

وقال بعضهم: الأثقال هي كنوز الأرض ومعادنها، وقال آخرون بل هي الأموات التي تخرجهم الأرض في النفخة الثانية، فإذا هم قيام ينظرون.

ويبدو أن الكلمة تتسع لكل هذه التطبيقات، على أن إخراج المواد الكامنة في مركز الأرض أقرب إلى ما نعرفه من سبب الزلزال، أليس سببه الغازات الأرضية المحتبسة في النواة المركزية. ألا ترى أن بعض الزلازل يكون من البراكين التي تخرج المواد الذائبة؟ ويؤيد ذلك ما جاء في حديث: «**تَقِيءُ الْأَرْضُ أَفْلَاذَ كَبِدِهَا مِثْلَ الْأُسْطُوَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**»(١).

[٣] ويبقى الإنسان حائرا مدهوشا! ماذا حدث للأرض حتى تزلزلت، وأخرجت ما في أحشائها، ولماذا وما هي الغاية؟ ﴿**وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا**﴾ قال بعضهم: هذا هو الكافر الذي جحد بالآخرة، فتساءل مع بروز أشراطها عنها وقال: ماذا حدث؟ ولكن يبدو أن تلك الحوادث المروعة تحمل كل إنسان على التساؤل.

[٤] ولن يطول التعجب لأن الأرض تشرع بالإجابة، مما يشهد بتحول عظيم في عالم الطبيعة، لا يختص بمظاهرها فقط وإنما يجري على طبائعها، فكيف تتحدث الأرض؟ وكيف يلتقط سمع الإنسان حديثها؟ لولا تغيير كبير يحصل فيها. ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾ وأول خبر تنطق به الأرض بحوادثها أو بلسانها: إن الساعة قد قامت، وإن الدنيا قد أدبرت، ولعل الخبر الثاني لها بيان حكمة الفزع الأكبر الذي يجري على ظهرها، أما أهم الأخبار فهي شهادتها على أفعال الناس فوق ظهرها، فقد جاء في حديث مأثور عن رسول الله ﷺ أنه قرأ هذه السورة فقال: «**أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا، قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا تَقُولُ عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فَهَذَا أَخْبَارُهَا**»(٢). وفي حديث آخر: روي عن رسول الله ﷺ: «**حَافِظُوا عَلَى الْوُضُوءِ، وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ وَتَحَفَّظُوا مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّهَا أُمُّكُمْ وَلَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ يَعْمَلُ خَيْراً أَوْ شَرّاً إِلَّا وَهِيَ مُخْبِرَةٌ بِهِ**»(٣).

[٥] ولعل الأرض تحدث الناس بأخبار أخرى أيضاً، أما كيف تتحدث، هل بكلام يخلق فيها، أم بما ينعكس عليها من آثار أعمال الإنسان فتظهر يومئذ كما الشريط الصوتي أو المصور، أم بأن الله يؤتي الإنسان ما يلتقط به إشارات الأرض؟ المهم إنها تتحدث بإيحاء الله لها. ﴿**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا**﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦ ص٣١٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٧ ص٩٧.
(٣) بحار الأنوار: ج٧ ص٩٧.

[٦] يبدو أن الأرض التي انعكست عليها أقوال الناس وأفعالهم منذ أن عاشوا عليها تبدأ بإعادة تمثيلها لهم كما الشريط المصور الذي تنعكس عليه صور الحوادث، ثم يعرض علينا لنراها من جديد، ولذلك قال ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ إننا نعرف كيف تنعكس ذبذبات الصوت على الشريط الكاسيت، ولكن لا نعرف كيف تنعكس أيضاً على ذرات التراب التي تحيط بنا، ولعل الإنسان يتقدم علمياً حتى يبلغ هذا السر في يوم ما، إنما علينا الآن أن نبقى حذرين من كل شيء محيط بنا، فإنه يسجل أفعالنا التي تحفظ إلى يوم القيامة لنراها، فأي يوم رهيب ذلك اليوم، حيث يرى الإنسان ما عمله خلال حياته محضرا. إن الإنسان قد يرتكب جريمة أو يقترف إثماً، فيلاحقه ضميره بالتأنيب، فيحاول جهده تناسي الأمر حتى لا يصاب بوخز الضمير فيما بينه وبين نفسه، فكيف إذا جيء به على رؤوس الأشهاد، وصورت له أفعاله! أي خزي يلحق المجرمين في ذلك اليوم، أم أيُ عار عظيم؟!.

قالوا: صدور الناس: نشورهم من قبورهم، وحركتهم باتجاه محكمة الرب، وقيل: أنه مستوحى من صدور الإبل من الماء، أما الأشتات فإنه يعني متفرقين، وأعظم ما يفرقهم الإيمان والكفر، فمن آمن اتخذ سبيلا مختلفا عن الكفار، كما قال ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[الروم: ١٤]، والآية التالية تشهد بهذا المعنى. وقال بعضهم: بل معنى الأشتات: أنهم يصدرون من مقابرهم وهي مبثوثة في أنحاء مختلفة من الأرض، كما أنهم مختلفون في المذاهب والنحل، ويبعث كل أمة منهم بإمامهم.

[٧] وليست الأعمال الكبيرة وحدها التي تتجسد ذلك اليوم، بل حتى أصغر ما يتصوره الإنسان من عمل، من وسوسة الصدر، حتى لمحة بصر، ونصف كلمة، ونفضة من حركة كلها مسجلة. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ قالوا: عن الذرة أنها النملة أو ما يلصق باليد من تراب إذا وضعها على الأرض، فكل حبة ذرة، أو ما يرى في شعاع إذا دخل من كوة صغيرة، ونقل نص مأثور يقول: «الذرة لا زنة لها»[1]. واليوم حيث عرف البشر الذرة وعرف أنها أصغر مما كان يتصوره الأقدمون، فأي حساب دقيق ينتظرنا يومئذ، فما لنا نغفل عما يراد بنا.

[٨] وإذا كانت كل ذرة من خير تؤثر في مصيرنا، فعلينا أن نزداد منها أنى استطعنا، وإذا كانت كل ذرة من شر نحاسب عليها، فعلينا أن نتحذر منها. ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ولذلك جاء في الحديث المأثور عن الرسول ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَوْم القِيَامَةِ إِلا

(١) القرطبي: ج ٢٠ ص ١٥٠.

وَيَلُومُ نَفْسَه، فَإِنْ كَانَ مُحْسِناً، فَيَقول: لِمَ لا ازْددتُ إِحْسَاناً، وَإِنْ كَانَ غَير ذَلِكَ يَقُولُ: لِمَ لَا نَزَعْتُ عَنِ المَعَاصِي»[1].

بلى، والإنسان يزداد حسرة يوم القيامة إذا رأى من أعماله الصالحة مثقال ذرة قد عمله لغير الله كما الكفار والمنافقون، هكذا نقرأ في نص مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله: «﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ يَقُولُ: إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَكَانَ قَدْ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسْرَةً إِنْ كَانَ عَمَلُهُ لِغَيْرِ الله، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ يَقُولُ: إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ رَأَى ذَلِكَ الشَّرَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ غُفِرَ لَه»[2]. وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْبَسُ عَلَى ذَنْبٍ مِنْ ذُنُوبِهِ مِائَةَ عَامٍ وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَى أَزْوَاجِهِ فِي الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمْنَ»[3].

حقا.. إذا وعى الإنسان هذه الآية من القرآن كفته وعظا وزكاة وطهرا، لأنه سوف يقيس من أفكاره وأقواله وأعماله كل صغيرة وكبيرة، ومن ضبط صغائره هانت عليه الكبائر، أوليست الكبائر تبدأ بسلسلة من الصغائر، أرأيت الذي يزني لا يرتكب الفاحشة إلا بعد أن يوسوس له الشيطان بفكرة الزنا، فإذا لم يردع نفسه عنها، فتش عن زانية وسعى إليها، ثم نظر إليها، ثم تحدث معها ثم زنى. إنها خطوات متدرجة، كل واحدة أنكى من سابقتها، وهي صغائر تنتهي إلى كبيرة، أو تصبح بمجموعها كبيرة. أليس كذلك؟.

من هنا رأى ابن مسعود هذه الآية أحكم آية في القرآن وروى المطلب بن خطب «أَنَّ إِعْرَابياً سَمِعَ النَّبي صلى الله عليه وآله يَقْرَؤُهَا، فَقَالَ: يَا رَسُول الله أَمِثْقَالَ ذَرةٍ؟ قَالَ صلى الله عليه وآله: نَعَمْ. فَقَالَ الأَعْرَابِيُ: وَاسَوأَتَاه مِرَاراً، ثُم قَامَ وَهوَ يَقُولُهَا فَقَالَ النبي صلى الله عليه وآله: لَقَدْ دَخَلَ قَلْبَ الإِعْرَابِي الإِيمَان»[4].

وروي أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: «عَلِمْنِي مِما عَلَمَكَ الله، فَدَفَعَهُ إِلى رَجُل يُعلمُهُ، فَعلمَهُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ -حَتى إِذَا بَلَغَ- فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ قَالَ: حَسْبِي، فَأَخبرَ النبي صلى الله عليه وآله: فَقَال: دَعُوه فَإِنهُ قَدْ فَقِه»[5].

(١) تفسير القرطبي: ج٢٠، ص١٥٠.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٢، ص١٦٩.
(٣) الكافي: ج٢، ص٢٧٢.
(٤) تفسير القرطبي: ج٢٠، ص١٥٣.
(٥) تفسير القرطبي: ج٢٠، ص١٥٣.

سُورَةُ العَادِيَات

* مكية.

* عدد آياتها: ١١.

* ترتيبها النزولي: ١٤.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٠.

* نزلت بعد سورة العصر.

فضل السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْعَادِيَاتِ وأَدْمَنَ قِرَاءَتَهَا بَعَثَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَاصَّةً وكَانَ فِي حَجْرِهِ ورُفَقَائِهِ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٥٩)

الإطار العام

درس في الإيثار والتضحية

لكي نفقه كرامة المجاهدين على الله عز وجل، وعظمة دور خيلهم العاديات في سبيله، يُقسم القرآن بها، لأنها من وسائل حمل نور الإسلام إلى الآفاق، وهي تحمل صفوة عباد الله الذين نذروا أنفسهم في سبيل نشر دعوته.

إن الخيل العاديات قد تجاوزت الحد في السرعة، اشتياقاً إلى إلحاق الهزيمة بأعداء الله وتحقيق الهدف الرباني.

بعد أن يصور السياق ببلاغة نافذة معركة منتصرة، يمتطي المجاهدون فيها الخيول التي تعدو وتحمحم، وتنقدح من حوافرها الشرار، ثم تغير مع بواكير الصباح على العدو، مثيرة غباراً كثيفاً، ثم تبلغ وسط الهدف.

بعد أن يصور السياق ذلك ويقسم به إكراماً له (لأنه غاية الجود والشهامة والإيثار) يبين أن الطبيعة الأولية للانسان (قبل أن يتربى ويتزكى) هو النكد، والبخل، وحب الخير لنفسه، والاستئثار به، ولكن متى يفقه حقاً خطأه؟ عندما تتكشف القبور عما سترتها من أجساد، وتتكشف الصدور عما خبأتها من أسرار.. يومئذٍ يعرف الإنسان أن ربه خبير به.

هكذا تربي هذه السورة الكريمة التي جاء في بعض الأحاديث أنها بمثابة نصف القرآن، تربي الإنسان على الإيثاروالتضحية في سبيل الله.

إن الإنسان لربه لكنود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا
﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ
لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ
﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ
﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] لكي نفقه كرامة المجاهدين على الله، وعظمة دور خيلهم العاديات في سبيله، يقسم القرآن بها، لأنها تحمل نور الإسلام إلى الآفاق، وتحمل صفوة عباد الله الذين نذروا أنفسهم في سبيل نشر دعوته. ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ يبدو أن العدو في الأصل تجاوز الحد، ويسمى العدو عدوا لأنه يتجاوز الحد في معاملته، ومنه العدوان لأنه تجاوز للحق، والسرعة القصوى في المشي تسمى عدوا لأنها أيضاً تجاوز للحد. وهكذا قالوا في الخيل سميت العاديات لاشتقاقها من العدو، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي، وأنشدوا لصفية بنت عبد المطلب:

فلا والعاديات غداة جمع   بأيديها إذا سطع الغبار

أما الضبح، فقالوا: أنه التنفس بقوة، وقيل: أنه حمحمة الخيل، والأقرب عندي: تغير الحال أو تغير اللون، ويقال: انضبح لونه إذا تغير، ولعله لذلك يسمى الرماد ضبحا لأنه يتغير لونه من أصله، وإنما تسمى الخيل ضابحة إذا تغير من العدو حالها مما ظهر على لونها وتنفسها وحمحمة صوتها، وقد استخدمت الكلمة في الثعلب، وقيل في الآية: أن الخيل كانت تكعم

(والكعم شيء يوضع في فم البعير) لئلا تصهل فيعلم العدو بهم، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة وأنشدوا:

والخيل تعلم حين تضـ ـبح في حياض الموت ضبحا

[٢] كانت الخيل تعدو بسرعة، ولكن من دون صهيل، وكانت الحركة في الليل -فيما يبدو- حيث تتطاير الشرر من حوافرها التي تحتك بالحصى، مما يظهر أن الأرض كانت وعرة، فجاء السياق يقسم بها وهي تنساب بين الصخور في رحم الظلام. ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ والإيراء: الاشعال، والقدح: ضرب الحجارة ببعضها طلبا للنار.

[٣] وتقترب خيل المجاهدين العادية من أرض العدو، وتنتظر انبلاج الفجر فتفاجئ العدو بغارتها الخاطفة. ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ وهكذا كانت الغارات الناجحة، فإذا أرادوا العدو ساروا إلى أرضه ليلا، وانتظروا الصباح للبدء بالهجوم، حيث لا تزال العيون نائمة، والأعصاب مخدرة.

[٤] وعند الهجوم المباغت تثير الخيل بحوافرها الغبار، وكلما ازداد الغبار كشف عن شدة المعركة. ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ ولعل النقع: الغبار الغليظ الذي يشمل الأرض، ذلك لأن أصل النقع، كما قيل -الغور في الماء أو غور الماء- ولهذا يسمى الماء الراكد بالنقيع، لأنه يغور في الأرض أو يغور فيه الغاطس، قالوا: لذلك سمي الغبار نقيعا فكأنه يغور فيه الإنسان.

وتساءلوا عن ضمير ﴿بِهِۦ﴾ أين مرجعه، فقال البعض: أنه يعود إلى العدو المفهوم من العاديات، وقال آخر: بل يعود إلى المكان الذي تقع فيه المعركة، والمفهوم من السياق، وأظن أنه يعود إلى قوله: ﴿صُبْحًا﴾ لأنه الأقرب، وإذا نسب إلى الزمان شيء كان أبلغ في معنى الشدة، كما نقول يوم نحس أو يوم سعيد، أي كله سعادة أو نحوسة. بلى، قد أثارت الخيول نقعا جعل الصباح مغبراً.

[٥] الغارة القاهرة هي التي تقع مفاجئة، وصباحا، وتبلغ أهدافها بسرعة خاطفة، وهكذا كانت تلك الغارة التي اخترقت قلب العدو ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ يقال: وسطت القوم أي صرت في وسطهم، والجمع بمعنى: تجمع العدو، وهو كناية عن قلب جيشهم، ومركز قوتهم، وضمير ﴿بِهِۦ﴾ يعود إلى العدو أو إلى المكان أو الصباح حسب ما سبق في الآية الماضية.

كان ذلك التأويل الأقرب إلى ظاهر الآيات، وهناك تأويل آخر ذكره طائفة من المفسرين، حيث قالوا: تعني الآيات خيل الحجيج أو إبلهم، حيث يفيضون إلى عرفات ثم مزدلفة فمنى

ويكون معنى الإيراء إشعال النيران لطعامهم، ومعنى الجمع: مزدلفة، أما معنى المغيرات صبحا -حسب التفسير- فهي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من منى إلى جمع، والسنة ألا تدفع حتى تصبح. ويبدو أن تأويل الآيات في الحج ومناسكه ومشاعره لا يتنافى مع تأويلها في الجهاد، أليس الحج جهاد المستضعفين؟ ويشبه مناسكهم وحركتهم.

وهكذا نجد الرواية التالية المأثورة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تجمع بين التأويلين، تدبر قليلا فيها: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «بَيْنَمَا أنا فِي الحِجْرِ جَالِس، إذْ أَتَانِي رَجُل فَسَأَلَ عَن ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ فَقُلْتُ لَهُ: الخَيلُ حِينَ تَغْزو فِي سَبيلِ الله، ثُم تَأْوي إِلى الليلِ، فَيَصْنَعُون طَعَامَهُم، وَيُورونَ نَارَهُم، فَانْفَتَلَ عَني وَذَهَبَ إِلى عَلي بن أَبِي طَالب عليه السلام -وَهوَ تَحْتَ سِقَايةِ زَمْزَم- فَسَأَلَهُ عَن ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ فَقَالَ عليه السلام: **سَأَلْت عَنْهَا أحداً قَبْلِي؟**. قَالَ: نَعَم، سَأَلْتُ عَنْهَا ابن عَبَاس، فَقَالَ: الخَيلُ حِينَ تَغْزو فِي سَبيلِ الله، قَال: **فَاذْهَب فَادعهُ لِي**.

فَلَمَا وَقَفَ عَلى رَأسِهِ قَال عليه السلام: **أَتفْتِي النَاسَ بِمَا لا عِلمَ لَكَ بِهِ، والله إن كَانَتْ لأول غَزْوةٍ فِي الإسلام بَدر، وَمَا كَانَ مَعَنَا إلا فَرَسَان: فَرَس للزُبير، وَفَرسٍ للمقداد بن الأسْوَد، فَكَيفَ يَكُون العَادِيَات الخَيل؟ بَل العَاديات ضَبْحَا الإبل مِن عَرَفة إِلى المُزْدَلفة، وَمِن مزدلفة إلى منَى**. قَالَ ابن عَبَاس: فَرَغبتُ عَن قَولِي وَرجعتُ إلى الذي قَالَه علي»(١).

ويؤيد الجمع بين التأويلين ما جاء في سبب نزول السورة: «**أَنهُ كَانَ فِي سَرِيةٍ** (ذات السلاسل) **قَادَهَا الإمامُ عَلي** عليه السلام **حَيثُ أَخبرَ جبرائيل** عليه السلام **النَبي** صلى الله عليه وآله**: أَن أَهْل وَادِي اليَابِس قد اجْتَمَعُوا فِي اثْنَي عَشَرَ أَلْف فَارِس، وَتَعاقَدُوا وَتَوَاثَقُوا أَنْ لَا يَتَخلف رَجُل عَن رَجُل. وَلا يَخْذل أَحَد أَحَداً حَتَى يَقتلوا مُحمداً وَعَلياً، فَبَعَثَ رَسُول الله إِلَيْهم بِسَرية يَقُودُهَا أَبُو بَكر فِي أَرْبَعَةِ آلافِ رَجُلٍ، فَلَمَا رَأى بَأسهم وَبُعْد دِيَارِهم لَم يُحَارِبهُم، فَأَرْسَلَ رَسُول الله عُمراً بِالمُهمةِ، فَعَادَ هُوَ الآخر لِذَاتِ السبب، فَلَما بَعثَ إليهم عَلياً مَشَى إليهم مِن غَيرِ الجَادةِ، وَأَعْنَفَ فِي السيرِ، فَمَا أَحَاطَ بِأَرْضِهِم، أَغَارَ عَلَيهِم صَبَاحاً وَهُم غَافِلون، فَلَمَا يَعْلَمُوا حَتى وَطَأَتْهُم الخَيْل، وَأَقْبَلَ بِالأَسَارَى وَالأَموال إِلى رَسولِ الله فَنَزَلَتْ السُورَة**»(٢).

[٦] قسماً بكل ذلك الإيثار العظيم الذي يتجلى في معارك المجاهدين، قسما بتلك القمم السامقة التي بلغوها بإيمانهم ويقين قلوبهم: إن الإنسان قد طبع على كفران النعمة، ولن

---

(١) نور الثقلين: ج ٥ ص ٦٥٦، ونجد روايات مشابهة في سائر التفاسير.

(٢) المصدر السابق: ص ٦٥٢: بتصرف واختصار، وراجع أيضاً بحار الأنوار: ج٢١، ص٦٦، وكذلك مجمع البيان: ج١٠، ص٥٢٨.

يتسامى إلى أفق الإيثار من دون جهاد نفسه وتزكيتها ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ كلما ذكرت كلمة ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أريد بها -فيما يبدو- طبيعة الإنسان الأولية قبل التزكية والتعليم، وقد ذكروا تفسيرات شتى للفظة ﴿لَكَنُودٌ﴾ أبرزها: الكفور، العاصي، البخيل، السيئ الملكة، وقال بعضهم: هو الذي يكفر باليسير ولا يشكر الكثير، وقيل: إنه الجاحد للحق، وأنشدوا:

كنود لنعماء الرجال ومن يكن   كنودا لنعماء الرجال يبعَّد

ويبدو أن الصفات السيئة يتسع بعضها، مما يجعل المعنى الأصلي للكلمة الدالة على واحدة منها ضائعا فيختلف فيه الناس، وقد تكون الكلمة موضوعة كشخصية متصفة بها جميعا، كما سبق في معنى كلمة ﴿عُتُلٍّ﴾ [القلم: ١٣] وإذا قلنا بأن لكلمة (كَنُودٌ) معنى واحدا، فليكن البخيل الذي يحس دائما بأن حقه أعظم مما أوتي فلا يشكر نعم الله عليه بالإنفاق، ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ: «**الكَنُودُ هُوَ الذِي يَأْكُلُ وَحْدَه، وَيَمْنَعُ رَفْدَه، وَيَضْرِبُ عَبْدَه**»[1].

وقال الشاعر:

دع البخلاء أن شمخوا وصدوا   وذكرى بخل غانية كنود

وهكذا يكون معنى ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ لفضل ربه ونعمه.

[٧] والكفران والجحود والبخل وسائر الصفات السيئة التي تجمعها كلمة كنود حقائق يعترف الإنسان بوجودها في نفسه، فعليه مسؤولية تخليص نفسه منها، ولا يمكنه التملص عن المسؤولية بأنه كان جاهلا: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أولم يقل ربنا سبحانه في آية أخرى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤ - ١٥] وقال بعضهم معنى الآية: إن الله على ذلك لشهيد وهو بصير، لأن السياق يُحدث عن الإنسان فالأولى عودة الضمير إليه تعالى.

[٨] ولكن لماذا لم يتخلص من كند نفسه؟! لأنه شديد الحب للخير، ومن شدة حبه له تراه يبخل به ولا يشكر ربه عليه بإنفاقه. ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ وحب الخير بذاته فضيلة، ولكنه يصبح رذيلة إذا اشتد في الإنسان، وطغى على حبه لله وللرسالة، وفضله الإنسان على الآخرة التي هي الخير حقا. ولكن أي خير هذا الذي يهدده الموت في أية لحظة، قال الشاعر:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي   عقيلة مال الفاحش المتشدد

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ١٦٠.

[٩] ولا يتخلص الإنسان من حب الدنيا إلا بذكر الآخرة فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن شهوات الدنيا، ومن أشفق من النار هانت عليه مصيبات الحياة ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ أي أثير وقلب، من قولهم: بعثرت المتاع أي جعلت أسفله أعلاه، ويبدو أن ذلك إشارة إلى البعث والنشور، حيث تثار القبور لاستخراج ما فيها.

[١٠] هنالك يحشر الناس للحساب، وتشهد عليها جوارحهم، وتظهر ما في جوانحهم، من نكد وحب للدنيا ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ حيث تبلى يومئذ السرائر، وتسقط الأقنعة، ويعرف الإنسان مدى خسارته للفرصة إذ لم يزك نفسه.

[١١] هنالك يعلم الناس يقينا أن الله محيط بهم، ذلك لأنهم يرون كيف يجازيهم بأفعالهم، بل ويسأل عن سرائرهم، وما اضمروا فيها من خير أو شر، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ ويفعل بهم ما يشاء بحكمة، فلذلك اليوم فليستعد الإنسان وليزك نفسه، وينمي فيها الفضائل، ومن أبرزها الجهاد في سبيل الله. وفقنا الله له.

سُورَةُ القَارِعَة

* مكيّة.

* عدد آياتها: ١١.

* ترتيبها النزولي: ٣٠.

* ترتيبها في المصحف: ١٠١.

* نزلت بعد سورة قريش.

فضلُ السُّورة

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ وأَكْثَرَ مِنْ قِرَاءَةِ الْقَارِعَةِ آمَنَهُ اللهُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ ومِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٩)

الإطار العام

وقرعت ساعة القيامة

خلق الله كل شيء بمقدار، كل ما حولك موزون بدقة، فهل يسمح للإنسان أن يعبث بحياته بلا نظام ولا حساب. كلا.. إن حياته هي الأخرى محسوبة عليه، كل وسوسة وفكرة وعزم، كل كلمة وكل حركة مسجلة عليه، وعليه أن يزيد من صالح أعماله ما يثقل ميزانه، وإلا فإن مصيره إلى نار حامية، متى؟ عندما تقرع ساعة القيامة، وعندها يكون الناس كالفراش المبثوث، وكالجراد المنتشر، وتكون الجبال كما الصوف المنفوش.

وما أدراك ما القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ
﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ
ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ
مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾
نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ تلك هي الساعة تقرع الخلائق بأهوالها، وتقول العرب قرعتهم القارعة، إذا نزل بهم أمر فظيع.

[٢] وكل داهية قارعة ولكن قارعة الساعة أمر عظيم، لا يبلغ وعي الإنسان مدى فظاعتها. ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

[٣] وأنى كانت عظمتها فعلينا أن نقترب من وعيها، لأننا بذلك نستطيع مقاومة لغفلة والجهالة والفوضى في أنفسنا. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ إن النفس البشرية شديدة الميل إلى الانفلات والتحلل والفوضى، لولا قرعها بنصائح الآخرة، وما فيها من أهوال تجعل الولدان شيبا، ولذلك جاءت آيات الذكر شديدة الإنذار، بالغة التحذير، لعلنا نعقل أن نسمع، ونوقظ عقولنا من السبات العميق.

[٤] الألقاب التي نخدع أنفسنا بها اليوم، والأسماء العريضة، والمفاخر والأمجاد تتلاشى

ذلك اليوم، ويحشر عشرات الألوف من بلايين البشر كما الهمج الطائر، الذي يكثر أيام الصيف، فتراه كالسحابة من شدة تراكمها فوق بعضها، أو الجراد الكثيف الذي يتداخل في بعضه كأنه غبار كثيف، فما قيمة بعوضة في الهمج، أو جرادة في سيل الجراد، أنا وأنت نصبح هكذا بين من يحشر من أبناء آدم، منذ كان آدم والى قيام الساعة. ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ قالوا: الفراش: الطير الذي يتساقط في النار والسراج، وقيل: كل همج طائر يسمى فراشا، ومنه الجراد، وروي عن رسول الله ﷺ: «مَثلي ومثلكُم كَمثلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً فَجَعَلَ الجَنَادِبُ يَقعنَ فِيهَا، وَهوَ يَذبهُنَ عَنهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحجركُم عَن النَارِ، وَأَنْتُم تفلتُونَ مِن يَدِي»(١). حالات مختلفة ومتدرجة في ذلك يذكرنا السياق بواحدة منها، كما سبق في آيات مشابهة. قالوا: المبثوث المنتشر المتفرق.

[٥] أكثر ما في الدنيا وهم، ويتلاشى الوهم في الآخرة، بل حتى حقائق الدنيا تتلاشى يومئذ، فترى الجبال التي تحسبها قوة ثابتة كما الصوف المتفرق، تحركها الرياح. ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ قالوا: أي الصوف الذي ينفش باليد، أي نعيدها هباء، ويبدو أن للجبال حالات مختلفة ومتدرجة في ذلك يذكرنا السياق بواحدة منها، كما سبق في آيات مشابهة.

[٦] بلى، ينتفع الإنسان يومئذ بشيء واحد، يعطيه قيمة بين الناس، إنه عمله الصالح الذي لو رجحت كفته في الميزان حسنت عيشته. ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ يبدو أن الموازين تعني الأفعال التي توزن وليست ذات الكفتين واللسان، وقال بعضهم: الموازين: الحجج، واستشهدوا بقول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة   عندي لكل مخاصم ميزانه

وقد سبق الحديث في سورة الرحمن: أن الميزان هو الإمام الناطق، الذي جسد قيم الوحي في حياته، وكان حجة على عباد الله.

[٧] وإذا كانت عاقبة الإنسان رهينة رجحان حسناته، وإذا كان حتى مثقال ذرة من أفعاله محسوبة له أو عليه، فينبغي ألا يقصر الإنسان فيها، فلعل حسنة واحدة ترجح كفة الحسنات، وتجعلك من أهل الجنة حيث العيشة التي ترضاها. ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ وحين تكون العيشة راضية، فإن كل جوانب حياتك تجلب رضاك وتكون في مستوى طموحك، وقالوا: معناها عيشة مرضية، وقيل: بل عيشة لينة منقادة.

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ١٦٥.

[٨] والويل لمن أضاع فرصة العمر، وقصر في استغلال فرص الخير، واستهان بالذنوب حتى تراكمت في ميزانه، واستخف بالحسنات حتى خفت موازينها عنده. ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾.

[٩] ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي مصيره الجحيم، قالوا: الأم ما يأوي إليها الإنسان، كما يأوي إلى الأم وأنشدوا:

فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها تولد

ولكن يبدو أن كلمة الأم من أم أي قصد، والأم هو المقصد يعيد إليه الإنسان باختياره وقيل الأم: هي أم الرأس، من قولهم: سقط على أم رأسه وقالوا عن الهاوية: إنها المهواة، أو الوادي بين جبلين، لأن قعر جهنم بعيد، قد يهوون فيها مئات السنين.

[١٠-١١] أوتدري ما الهاوية، إنها ليست مجرة مهواة يسقط الإنسان فيها فيموت، وينتهي كل شيء، كلا.. إنها النار المشتعلة. ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ إنها شديدة الحرارة، حتى إن نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً منها، نستجير بالله منها.

سُورَةُ التَّكاثُر

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٨.

* ترتيبها النزولي: ١٦.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٢.

* نزلت بعد سورة الكوثر.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فِي فَرِيضَةٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ ثَوَابَ (أَجْرِ) مِائَةِ شَهِيدٍ ومَنْ قَرَأَهَا فِي نَافِلَةٍ كَتَبَ اللهُ لَهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ شَهِيداً وصَلَّى مَعَهُ فِي فَرِيضَتِهِ أَرْبَعُونَ صَفّاً مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٤)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: مَنْ قَرَأَ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ عِنْدَ النَّوْمِ وُقِيَ فِتْنَةَ الْقَبْرِ».

(الكافي: ج٢ ص٦٣٢)

الإطار العام

ابن آدم بين الحرص والموت

بين حاجة الإنسان وحرصه مسافة كبيرة، وما يلهيه عن ذكر الله، وعن المكارم ليست حاجته، بل حرصه الذي يبعثه يحرضه على التكاثر في الأموال والأولاد، حتى إذا زار قبره لم ينفعه ماله وولده شيئا، وحوسب على نعيم الله، وتلاشى عنه ما يلهيه، لأنه سوف يرى الجحيم عين اليقين. وهكذا تعالج السورة حالة التلهي بالدنيا عبر التذكرة بالموت ثم العقاب والحساب.

ألهاكم التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)﴾.

بينات من الآيات:

[١] جاء في حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**ابْنَ آدَمَ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَكْفِيكَ فَإِنَّ أَيْسَرَ مَا فِيهَا يَكْفِيكَ وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ مَا لَا يَكْفِيكَ فَإِنَّ كُلَّ مَا فِيهَا لَا يَكْفِيكَ**»(١)، وجاء في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**»(٢).

وهكذا الذي يسعى نحو إشباع حرصه وطموحه يزور قبره قبل أن يحقق معشار حرصه، هل سمعت بقصة أصحاب البلايين؟ ألا فكرت في سبب اجتهادهم في الحصول على المزيد من حطام الدنيا وهم يملكون أضعاف ما قد يحتاجونه؟! إنهم لا يزالون -حسب ظنهم- في وسط الطريق، لأنهم يبحثون دوما عن أعلى رقم، والأرقام لا تنتهي، وقال لي أحدهم: أنه لا يحصي ما يملك، وقال آخر: إن سبب جهده البالغ ليس الحصول على الثروة، بل استباق غيره فيها، ولما سألته: وإلى متى؟ قال هناك دائما من هو أغنى مني، فأنا في بحث دائم! وهذا هو التكاثر الذي يستبد بمشاعر الإنسان ولا يدع متسعا للتفكير في الآخرة ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أي شغلكم

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٠ ص١٣٨.

الاهتمام بالتكاثر فأنساكم الآخرة، وقد اختلف المفسرون في الذي ألهاهم هل هو المفاخرة والمباهاة حسب ما يأتي في بيان شأن النزول، أم التجارة والتشاغل بأمر المعاش حسب ما جاء في رواية ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ وقال: «التكاثر: الأَموَال التي جَمَعَهَا مِنْ غَيرِ حَقِهَا، وَمَنَعَهَا مِن حَقِهَا، وَشَدهَا فِي الأَوعِيَة»(١).

يبدو أن الدافع النفسي إلى التكاثر، والتنافس في الأموال والأولاد هو الذي ألهاهم، سواء تجسد في السعي نحوهما أو في المباهاة بهما، لأن هذا الدافع موجود بالتالي هنا وهناك. ولذلك لا أجد تناقضا بين ما يظهر من معنى اللفظ من التشاغل بالتجارة وبشؤون الأولاد، وما ذكر في قصة نزول السورة من المباهاة والمفاخرة بذلك، لأنهما يدخلان تحت عموم اللفظ، وينتهيان إلى الدافع ذاته.

أما شأن النزول فإن المفسرين اختلفوا فيه كثيرا، مما يدل على أن مراد السابقين من شأن النزول أن السورة تنطبق على ما يقولون، ولا تدل بالضرورة أنها نزلت فيهم حقا، وهكذا قال بعضهم: إنها نزلت في اليهود، حيث تفاخرت قبائلهم على بعضهم، وقال البعض: بل في قبيلتين من الأنصار، وقال ابن عباس: بل في حيين من قريش وهما بنو عبد مناف وبنو سهم. وأضاف: تعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال: كل حي منهم: نحن أكثر سيدا، وأعز عزيزا، فكثر بنو عبد مناف سهما، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم سهم، فنزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ بأحيائكم، فلم ترضوا حتى ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ مفتخرين بالأموات.

بلى، لا يزال الناس يفتخرون بأمجاد الغابرين، ويتكاثرون بمن أمسوا ترابا، وكأنهم يغنون عنهم شيئا من أمور دينهم أو دنياهم، هيهات. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقد تلا هذه الآيات: «يَا لَهُ مَرَاماً مَا أَبْعَدَهُ وزَوْراً مَا أَغْفَلَهُ وخَطَراً مَا أَفْظَعَهُ لَقَدِ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدَّكِرٍ وتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلْكَى يَتَكَاثَرُونَ يَرْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَاداً خَوَتْ وحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ ولَأَنْ يَكُونُوا عِبَراً أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخَراً ولَأَنْ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذِلَّةٍ أَحْجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ وضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةِ جَهَالَةٍ»(٢).

من عبر التاريخ ما ينقله الرواة عن مصير هؤلاء المتكاثرين المتفاخرين، يقول قتادة: «كَانُوا يَقُولُون نَحْنُ أَكْثر مِنْ بَنِي فُلان، وَنَحْنُ أَعزّ مِن بَنِي فُلان، وَهُم كُل يَوم يَتَساقَطُون إِلى آخِرِهُم، والله مَا زَالُوا كَذَلِكَ حَتَى صَارُوا مِنْ أَهْلِ القُبورِ كُلِهم»(٣).

(١) تفسير نور الثقلين: ج٥، ٦٦٢.
(٢) نهج البلاغة: خطبة: ٢٢١.
(٣) تفسير القرطبي: ج٢٠، ص ١٦٩.

وكلمة أخيرة: إن الإنسان لا يني يكافح حتى يزداد مالا وولدا، حتى إذا انهارت قواه، ولما يبلغ مناه تراه يتفاخر بالغابرين، ويتكاثر بأهل القبور البالية. ما أكفر الإنسان، وما أبعده في الضلال! أفلا يعتبر بمن هلك من قومه، ويقول: إني من بعدهم لهالك، أفلا أرتدع عن التلهي بالدنيا، وأنا وارد موردهم، ونازل بمنازلهم.

[٢] ويبقى الإنسان سادرا في غفلته، لاهيا بالتنافس على حطام الدنيا، حتى يزور المقابر، ليرى بيت الوحشة مظلما لم ينوره بمصابيح الصلاح، ولم يمهده بحميد الفعال، فلا ينفعه يومئذ مال ولا بنون، ولا يغنيه مجد ولا فخر.

جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: **«إِذَا وُضِعَ المَيِّتُ فِي قَبْرِهِ مُثِّلَ لَهُ شَخْصٌ فَقَالَ لَهُ يَا هَذَا كُنَّا ثَلَاثَةً كَانَ رِزْقُكَ فَانْقَطَعَ بِانْقِطَاعِ أَجَلِكَ وكَانَ أَهْلُكَ فَخَلَّفُوكَ وانْصَرَفُوا عَنْكَ وكُنْتُ عَمَلَكَ فَبَقِيتُ مَعَكَ أَمَا إِنِّي كُنْتُ أَهْوَنَ الثَّلَاثَةِ عَلَيْكَ»**[١].

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ ولعل التعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ للدلالة على أن التكاثر الذي يضر بصاحبه هو الذي يتصل بالموت فلو تاب صاحبه من قبل نفعته توبته، وللدلالة أيضا على أن التكاثر يبقى يلهي صاحبه حتى الموت، فعلينا ألا نسترسل معه، ولا ينظر بعضنا إلى ما أنعم الله على الآخر من أزواج وأموال وأولاد، بل ينظر في أمور الدنيا إلى من دونه، وفي شؤون الآخرة إلى من هو فوقه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾[طه: ١٣١].

والسؤال: لماذا قال: ﴿زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ أجابوا: لأن العرب يقولون لمن مات قد زار قبره، ويبدو أن التعبير يوحي أيضا بأن من يموت لا يفنى، إنما ينتقل من عالم لآخر فهو كالزائر. و قيل: أن معنى زيارة المقابر: التفاخر بالأموات، والتكاثر بعددهم، حسب ما سبق في بيان نزول السورة، وقلنا هناك: أن الآية تتسع لهذا المعنى أيضا، ولذلك ذكر بعض المفسرين أهمية زيارة القبور وأنها تذكر الإنسان بالموت، وتزهده في الدنيا، وذكروا نصا مأثورا عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **«كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ، فَزُورُوا القُبُورَ، فَإِنَّهَا تُزَهِدُ فِي الدُنيَا، وَتُذَكِرِ الآخِرَةَ»**[٢]. وقد حث الإسلام على ذكر الموت، والذي يتم بعضه بزيارة القبور، حتى جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: **«يَا أَبَا عُبَيْدَةَ أَكْثِرْ ذِكْرَ المَوْتِ فَإِنَّهُ لَمْ يُكْثِرْ إِنْسَانٌ ذِكْرَ المَوْتِ إِلَّا زَهِدَ فِي الدُّنْيَا»**[٣] وحينما سُئِلَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: **«أَيُّ المُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ قَالَ أَكْثَرُهُمْ ذِكْراً**

(١) بحار الأنوار: ج ٦، ص ٢٦٥.
(٢) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص ١٧٠.
(٣) الكافي: ج٣ ص٢٥٥.

لِلْمَوْتِ وأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً»(١).

[٣] والذي يردع النفس من التلهي بالتكاثر خشيته من لقاء ربه عندما يزور قبره، ويواجه عمله. ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، والعلم ينقض الشك، كما ينقض الإنذار التلهي، وهذه الآية إنذار من رب العالمين بأن هذا التكاثر سوف يعلم أن من جمعه لم ينفعه.إن الغفلة ناشئةٌ من كثرة الانشغال بالأمور الدنيوية المحيطة بالإنسان ويبدو أن الآيات تشير لبعض جذور المشكلة:

١- الانغماس في الدنيا والانشغال بنعيمها حتى يغفل عما ورائها.

٢- طبيعة الإنسان التي تهفوا للعاجل وتغفل عن الآجل لما جبلت عليه من حب الخير.

وهذا ما أشارت له الآيات في اعتبار العلم مستقبلي بالرغم أن المسلمين يؤمنون بالآخرة. لكن حالهم حال من لا يؤمن بسبب انشغالهم بالدنيا.وهذا يهدينا إلى معرفة أمرين:

الأول: أن معالجة هذه الظاهرة هي بالزجر لا اللين المتمثلة في ﴿ كَلَّا ﴾ ومضمونها صدم الغفلة بالنتائج المستقبلية، وفتح كوة أمام ناظر الإنسان ليراه قريباً.

الثاني: معرفة اهتمام القرآن الكريم بتصوير مشاهد يوم القيامة حتى ليُخيل للقارئ أنه يعيشها، وذلك رعاية لطبيعة البشر المعجونة بالنسيان والانشغال بالعاجلة.

[٤] ولأن نزعة التكاثر عميقة النفاذ في النفس، بالغة الأثر في قرار الإنسان، وما أهلك الإنسان مثل الفخر، ولا أضله مثل التكاثر، لذلك عاد السياق وأكد الإنذار تلو الإنذار. ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعلى الإنسان أن يشتغل بإصلاح نفسه عن لهو التكاثر بذكر الموت هادم اللذات ومفرق الجماعات، حتى لا يفاجئه ملك الموت وهو لاه ساه.

وقد ذكر البعض: إن هذه الآية مجرد تأكيد للآية السابقة، بينما ذهب البعض إلى أن هذه الآية تذكرنا بعذاب الآخرة، بينما الأولى تنذر بعذاب الدنيا الذي يجري حين الموت وبعده في القبر على امتداد أيام البرزخ وإلى حين يبعثون، وقد ورد نص مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك، حيث روى زر بن حبيش عنه، قال: «مَا زِلْنَا نَشُكُّ فِي عَذَابِ القَبْرِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يُرِيدُ فِي القَبْرِ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بَعْدَ البَعْثِ»(٢). وهكذا حذرنا أولياء الله من فتنة القبر وعذابه، فهذا الإمام علي ابن أبي طالب

(١) الكافي: ج٣ ص٢٥٧.

(٢) نور الثقلين: ج ٥، ص٦٦١.

عليه السلام يكتب لمحمد بن أبي بكر: «يَا عِبَادَ اللهِ، مَا بَعْدَ الْمَوْتِ لِمَنْ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ أَشَدُّ مِنَ الْمَوْتِ، الْقَبْرُ، فَاحْذَرُوا ضِيقَهُ وَضَنْكَهُ وَظُلْمَتَهُ وَغُرْبَتَهُ، إِنَّ الْقَبْرَ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ، أَنَا بَيْتُ التُّرَابِ، أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، أَنَا بَيْتُ الدُّودِ وَالْهَوَامِّ، وَالْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرَانِ، إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا دُفِنَ قَالَتْ لَهُ الْأَرْضُ، مَرْحَباً وَأَهْلًا، لَقَدْ كُنْتَ مِمَّنْ أُحِبُّ أَنْ يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِي، فَإِذَا وُلِّيتُكَ فَسَتَعْلَمُ كَيْفَ صَنِيعِي بِكَ، فَتَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ الْبَصَرِ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا دُفِنَ قَالَتْ لَهُ الْأَرْضُ لَا مَرْحَباً وَلَا أَهْلًا، لَقَدْ كُنْتَ مِنْ أَبْغَضِ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي، فَإِذَا وُلِّيتُكَ فَسَتَعْلَمُ كَيْفَ صَنِيعِي بِكَ، فَتَضُمُّهُ حَتَّى تَلْتَقِيَ أَضْلَاعُهُ»[١].

[٥] لو علم الإنسان ما يصير إليه لما ألهاه التكاثر لأن المعرفة تورث الخشية، هكذا قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] ولكن حجب الشك والغفلة والشهوات تمنع عنه بصائر العلم واليقين. ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ إذا أسلمت النفس البشرية لهدى الله آمنت، وإذا طهرت من الشكوك والظنون أوتيت اليقين، ولليقين درجات، وما أوتي الإنسان أشرف من اليقين، هكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: «إِنَّمَا هُوَ الْإِسْلَامُ، وَالْإِيمَانُ فَوْقَهُ بِدَرَجَةٍ، وَالتَّقْوَى فَوْقَ الْإِيمَانِ بِدَرَجَةٍ، وَالْيَقِينُ فَوْقَ التَّقْوَى بِدَرَجَةٍ، وَلَمْ يُقْسَمْ بَيْنَ النَّاسِ شَيْءٌ أَقَلُّ مِنَ الْيَقِينِ، قَالَ قُلْتُ: فَأَيُّ شَيْءٍ الْيَقِينُ؟. قَالَ عليه السلام: التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ، وَالتَّسْلِيمُ للهِ، وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ، وَالتَّفْوِيضُ إِلَى اللهِ»[٢]. هكذا جعل الإمام أسمى درجات الإيمان وأشرفها اليقين، مما يدل على أن اليقين هو: طهارة القلب من دنس الشرك والشك والظنون، وسائر وساوس إبليس وهمزاته.

وجاء في حديث آخر تفسير اليقين بالتغلب على خوف المخلوق، قال الإمام الصادق عليه السلام: «لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَلَهُ حَدٌّ، قَالَ قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ فَمَا حَدُّ التَّوَكُّلِ، قَالَ الْيَقِينُ قُلْتُ فَمَا حَدُّ الْيَقِينِ، قَالَ أَلَّا تَخَافَ مَعَ اللهِ شَيْئاً»[٣]. واليقين يجعل عمل المؤمن مقبولا، بل ويعظم ثوابه، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْعَمَلَ الدَّائِمَ الْقَلِيلَ عَلَى الْيَقِينِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَمَلِ الْكَثِيرِ عَلَى غَيْرِ يَقِينٍ»[٤].

أرأيت الذي يصلي وقلبه متصل بنور الله، ونفسه طاهرة من الرياء، والعجب والاستكبار، ويجاهد، ونيته لله وحده، كمن يصلي وقلبه مليء بالوسواس، ويزكي رياء، ويجاهد للاستعلاء في الأرض؟! لذلك كان أئمة الهدى عليهم السلام يجأرون إلى الله في طلب الزيادة من اليقين، ويحثون

(١) بحار الأنوار: ج٦، ص٢١٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٦، ص٢١٨.
(٣) الكافي: ج٢، ص٥٧.
(٤) الكافي: ج٢ ص٥٧.

أتباعهم على مثل ذلك، هكذا جاء في الحديث: «كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام (الإمام زين العابدين) يُطِيلُ الْقُعُودَ بَعْدَ الْمَغْرِبِ يَسْأَلُ اللهَ الْيَقِينَ»[(١)]. وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في خطبة له: «أَيُّهَا النَّاسُ سَلُوا اللهَ الْيَقِينَ وارْغَبُوا إِلَيْهِ فِي الْعَافِيَةِ فَإِنَّ أَجَلَّ النِّعْمَةِ الْعَافِيَةُ وخَيْرَ مَا دَارَ فِي الْقَلْبِ الْيَقِينُ والْمَغْبُونُ مَنْ غُبِنَ دِينَهُ والْمَغْبُوطُ مَنْ غُبِطَ يَقِينَهُ»[(٢)].

ولا يبلغ الإنسان درجة اليقين إلا بعد العروج في درجات التسليم والإيمان والتقوى وكلها تقتضي المزيد من العمل الصالح والخالص لوجه الله والمنبث على سائر جوارح البدن، وجوانح النفس، وحتى بعد الحصول على اليقين عليه أن يسعى جاهدا حتى يتجاوز عقد الشك والارتياب بالتفكر والتعلم والدعاء. ألا ترى كيف سعى إبراهيم عليه السلام نحو اليقين حين سأل ربه سبحانه قائلا: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. فلما قال له ربه: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ولم يكن في قلبه ذرة شك ولكنه حسب حديث مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام «أَرَادَ مِنَ اللهِ الزِّيَادَةَ فِي يَقِينِهِ»[(٣)].

وعلامة صدق اليقين دوام الاستقامة على صراط الحق، وألا يتخذ الإنسان وليجة من دون الله ورسوله، ويكون مستعدا لكل تضحية وفي كل موقع. أولا سمعت قصة الأعرابي الذي جاء إلى رسول الله وقال: «يَا رَسُولَ اللهِ بَايِعْنِي عَلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ صلى الله عليه وآله: عَلَى أَنْ تَقْتُلَ أَبَاكَ. فَكَفَّ الْأَعْرَابِيُّ يَدَهُ وَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله عَلَى الْقَوْمِ يُحَدِّثُهُم»[(٤)].

وقد بين بعضهم درجات اليقين حسب فهمه بثلاث:

ألف: علم اليقين، وضرب مثلا له كمن يعلم بوجود النار لما يراه من ضوئها أو دخانها.

بـــاء: حق اليقين، ومثله كمن يرى النار بعينه مشاهدة.

جيم: عين اليقين، مثل الذي يلامس النار فيحس حرارتها.

وهذا -حسب ما يبدو لي- مجرد أمثلة، وإلا فقد يكون يقين من يعلم بوجود النار بسبب علائمها أشد من الذي يلامسها؛ لأن قلبه أوعى لحقيقتها من صاحبه. أرأيت الطبيب قد يكون أفقه بحالة المريض وخصائص دائه من المريض ذاته، ولذلك جاء في الحديث: «رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ»[(٥)] ولا ريب أن هناك في المسلمين الأواخر من كان أشد يقينا بصدق الرسالة من

---

(١) مستدرك الوسائل: ج٥ ص٩٨.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١١ ص١٩٥.
(٣) مستدرك الوسائل: ج١١ ص١٩٥.
(٤) تفسير العياشي: ج٢ ص٨٣.
(٥) الكافي: ج١، ص٤٠١.

بعض الذين عاصروا النبي وصاحبوه، كل ذلك لأن اليقين ليس مجرد علم بل روح في القلب، تجعله يطمئن إلى العلم ويسكن إليه، كما الإيمان والتقوى، وبتعبير آخر: إن اليقين -كما قلنا في بداية الحديث- نقطة التقاء العلم بالإرادة، كما أن الإيمان: التسليم والإذعان للعلم، وعزم وعقد عزمات القلب على قبول مشاهدات العلم مهما بلغ الثمن، وهذا لا يكون بمجرد ظهور آيات الحقيقة للنفس، بل وأيضا بتصديق النفس لها، والسكون إليها، ولذلك يكون يقين المؤمن بالغيب أشد من علم الكافر بالشهود، ويبلغ اليقين ببعضهم حدا يعايشون الغيب بكل جوارحهم، ويقول أميرهم الإمام علي عليه السلام: «**لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً**»[1] ويقول في صفة المؤمنين: «**فَهُمْ والْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وهُمْ والنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ**»[2].

جاء في الكافي، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد؛ وعلي، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن أبي محمد الوابشي وإبراهيم بن مهزم، عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله صَلَّى بِالنَّاسِ الصُّبْحَ فَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ فِي الْمَسْجِدِ وهُوَ يَخْفِقُ ويَهْوِي بِرَأْسِهِ مُصْفَرّاً لَوْنُهُ قَدْ نَحِفَ جِسْمُهُ وغَارَتْ عَيْنَاهُ فِي رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا فُلَانُ.**

قَالَ أَصْبَحْتُ يَا رَسُولَ الله مُوقِناً. فَعَجِبَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله مِنْ قَوْلِهِ، وقَالَ إِنَّ لِكُلِّ يَقِينٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ يَقِينِكَ. فَقَالَ إِنَّ يَقِينِي يَا رَسُولَ الله هُوَ الَّذِي أَحْزَنَنِي، وأَسْهَرَ لَيْلِي، وأَظْمَأَ هَوَاجِرِي فَعَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، ومَا فِيهَا حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي وقَدْ نُصِبَ لِلْحِسَابِ، وحُشِرَ الْخَلَائِقُ لِذَلِكَ، وأَنَا فِيهِمْ وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَنَعَّمُونَ فِي الْجَنَّةِ، ويَتَعَارَفُونَ وعَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ مُصْطَرِخُونَ وَكَأَنِّي الْآنَ أَسْمَعُ زَفِيرَ النَّارِ يَدُورُ فِي مَسَامِعِي.

فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله لِأَصْحَابِهِ هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: الْزَمْ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ. فَقَالَ الشَّابُّ: ادْعُ اللهَ لِي يَا رَسُولَ الله أَنْ أُرْزَقَ الشَّهَادَةَ مَعَكَ فَدَعَا لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فَاسْتُشْهِدَ بَعْدَ تِسْعَةِ نَفَرٍ وَكَانَ هُوَ الْعَاشِرَ»[3].

[٦] إن الكافر ليرى الجحيم بعينه، يلامسها بجوارحه، فيعلم يقينا أنه مواقعها، وأنه كان في ضلال عنها مبين، بينما المؤمن يعي وجود النار، ويشاهدها ببصائر قلبه، فيعلم يقينا بها.

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج٤٠، ص١٥٣.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

(٣) الكافي: ج٢ ص٥٣.

[٧] أوليس الأحجى بنا والأحرى أن نؤمن بها ونحن بعيدون عنها، وقبل أن نردها ثم لا نصدر منها؟! ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ قالوا: إن الآية تشير إلى أن كل البشر يردون النار أو يمرون عليها. لقوله سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١]. فيمر عليها بعضهم كالبرق، وبعضهم كالريح وبعضهم كالطير، ويتباطأ بعضهم بذنوبه حتى يحترق بنارها قليلا، وبينما يغط بعضهم فيها ويمكث المذنب فيها بقدر ذنبه، قبل أن يتطهر كليا ويدخل الجنة، ومنهم الخالدون فيها أبدا والعياذ بالله.

[٨] لكي لا يلهينا عن الآخرة التكاثر بحطام الدنيا لا بد أن نعرف أننا مسؤولون يومئذ عن النعيم، وكلما زادت نعم الله علينا طال وقوفنا للحساب عند ربنا، فهل نملك الجواب الصائب؟! يقال: أن النبي سليمان يختلف عن إخوانه الأنبياء ألف عام يوقف للحساب، يسأل عن ملكه ونعيمه بينما هم يتنعمون في الجنة.

قالت أم كلثوم بنت أمير المؤمنين عليه السلام: «لَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ تِسْعَ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ قَدَّمَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ طَبَقاً فِيهِ قُرْصَانِ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ، وَقَصْعَةٌ فِيهَا لَبَنٌ وَمِلْحٌ جَرِيشٌ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ أَقْبَلَ عَلَى فَطُورِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ، وَتَأَمَّلَهُ حَرَّكَ رَأْسَهُ، وَبَكَى بُكَاءً شَدِيداً عَالِياً وَقَالَ يَا بُنَيَّةِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ بِنْتاً تَسُوءُ أَبَاهَا كَمَا قَدْ أَسَأْتِ أَنْتِ إِلَيَّ، قَالَتْ وَمَا ذَا يَا أَبَاهُ، قَالَ يَا بُنَيَّةِ أَتُقَدِّمِينَ إِلَى أَبِيكِ إِدَامَيْنِ فِي فَرْدِ طَبَقٍ وَاحِدٍ، أَتُرِيدِينَ أَنْ يَطُولَ وُقُوفِي غَداً بَيْنَ يَدَيِ الله عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتْبَعَ أَخِي وَابْنَ عَمِّي رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله مَا قُدِّمَ إِلَيْهِ إِدَامَانِ فِي طَبَقٍ وَاحِدٍ إِلَى أَنْ قَبَضَهُ اللهُ، يَا بُنَيَّةِ مَا مِنْ رَجُلٍ طَابَ مَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ وَمَلْبَسُهُ إِلَّا طَالَ وُقُوفُهُ بَيْنَ يَدَيِ الله عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَا بُنَيَّةِ إِنَّ الدُّنْيَا فِي حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَفِي حَرَامِهَا عِقَابٌ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي حَبِيبِي رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله أَنَّ جَبْرَئِيلَ عليه السلام نَزَلَ إِلَيْهِ وَمَعَهُ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ الْأَرْضِ، وَقَالَ يَا مُحَمَّدُ السَّلَامُ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ إِنْ شِئْتَ صَيَّرْتَ مَعَكَ جِبَالَ تِهَامَةَ ذَهَباً وَفِضَّةً وَخُذْ هَذِهِ مَفَاتِيحَ كُنُوزِ الْأَرْضِ، وَلَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ حَظِّكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ يَا جَبْرَئِيلُ وَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ الْمَوْتُ.

فَقَالَ إِذاً لَا حَاجَةَ لِي فِي الدُّنْيَا دَعْنِي أَجُوعُ يَوْماً وَأَشْبَعُ يَوْماً فَالْيَوْمَ الَّذِي أَجُوعُ فِيهِ أَتَضَرَّعُ إِلَى رَبِّي، وَأَسْأَلُهُ وَالْيَوْمَ الَّذِي أَشْبَعُ فِيهِ أَشْكُرُ رَبِّي وَأَحْمَدُهُ فَقَالَ لَهُ جَبْرَئِيلُ وُفِّقْتَ لِكُلِّ خَيْرٍ يَا مُحَمَّدُ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام يَا بُنَيَّةِ الدُّنْيَا دَارُ غُرُورٍ وَدَارُ هَوَانٍ فَمَنْ قَدَّمَ شَيْئاً وَجَدَهُ يَا بُنَيَّةِ وَالله لَا آكُلُ شَيْئاً حَتَّى تَرْفَعِينَ أَحَدَ الْإِدَامَيْنِ فَلَمَّا رَفَعْتُهُ تَقَدَّمَ إِلَى الطَّعَامِ فَأَكَلَ قُرْصاً وَاحِداً بِالْمِلْحِ الْجَرِيشِ، ثُمَّ حَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَامَ إِلَى صَلَاتِهِ فَصَلَّى»[1].

(١) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ٢٧٦.

ولو وعى الإنسان هذه الحقيقة كبح شهوة التكاثر في نفسه، ولم يدع هذه الحالة تلهيه عن ذكر الله.

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ما هو النعيم؟ اختلف المفسرون، بل واختلفت النصوص، ويبدو أن الكلمة تتسع لكل الأقوال ولو بدرجات مختلفة، فقد ينفي نص أن يكون طعام الإنسان وشرابه مما يُسأل عنه يوم القيامة، فقد جاء في مجادلة الإمام الصادق عليه السلام مع أبي حنيفة: «قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: أَخْبِرْنِي جُعِلْتُ فِدَاكَ عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَل: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قَالَ عليه السلام: **فَمَا هُوَ عِنْدَكَ يَا أَبَا حَنِيفَةَ**. قَالَ: الأَمْنُ فِي السِّرْبِ، وَصِحَّةُ الْبَدَنِ، وَالْقُوتُ الْحَاضِر[1] فَقَالَ عليه السلام: **يَا أَبَا حَنِيفَةَ! لَئِنْ وَقَّفَكَ اللهُ أَوْ أَوْقَفَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَسْأَلَكَ عَنْ كُلِّ أَكْلَةٍ أَكَلْتَهَا وَشَرْبَةٍ شَرِبْتَهَا لَيَطُولَنَّ وُقُوفُكَ**. قَالَ: فَمَا النَّعِيمُ جُعِلْتُ فِدَاكَ؟ قَالَ عليه السلام: **النَّعِيمُ؛ نَحْنُ الَّذِينَ أَنْقَذَ اللهُ النَّاسَ بِنَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَهُمْ بِنَا مِنَ الْعَمَى، وَعَلَّمَهُمْ بِنَا مِنَ الْجَهْلِ**. قَالَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَكَيْفَ كَانَ الْقُرْآنُ جَدِيداً أَبَداً؟ قَالَ عليه السلام: **لِأَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ فَتُخْلِقَهُ الْأَيَّامُ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَفَنِيَ الْقُرْآنُ قَبْلَ فَنَاءِ الْعَالَمِ**»، بينما يثبت ذلك نص آخر، فما هو تفسير اختلاف النصين؟ يبدو أن أحدهما ينفي المسؤولية بمعنى العقاب بينما يثبت الثاني السؤال. أو أن الأول ينفي التشديد في السؤال، بينما الثاني يثبت السؤال. ويدل على ذلك ما جاء في الحديث المأثور عن النبي صلى الله عليه وآله: «**كُلُّ نَعِيمٍ مَسْئُولٌ عَنْهُ صَاحِبُهُ إِلَّا مَا كَانَ فِي غَزْوٍ أَوْ حَجٍّ**»[2].

ونعود ونتساءل: عماذا يُسأل العبد يوم القيامة؟ بلى، إنه يُسأل عن طعامه من أين اكتسبه، وكيف صرفه، وفي حديث مفصل قال النبي صلى الله عليه وآله لأبي بكر وعمر «**وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلُنَّ عَن نَعِيمِ هَذَا اليَوْمِ. يَوْمَ القِيَامَةِ**، وَكَانَا قَدْ خَرَجَا جَائِعَيْنِ فَصَاحَبَا رَسُول الله إِلَى ضِيَافَةِ مَالِك بن التَيهَان -أَحَد الأَنْصَار- فَأَكْرَمَهُم بِقِرَاه فَقَالَ لَهُمَا الرَّسُول ذَلِكَ، وَأَضَافَ: **أَخْرَجَكُم مِن بُيوتِكُم الجُوع، ثُم لَمْ تَرْجِعُوا حَتى أَصَابَكُم هَذَا النعِيم**»[3]. وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، في قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: «﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قَالَ: **الرُّطَبُ والمَاءُ البَارِدُ**»[4].

كما يسأل المرء عن مجمل ماله من أين اكتسبه وفيم صرفه، هكذا في الأحاديث المأثورة: سأله عن شبابه فيما أفناه، وماله فيما أنفقه، وعن أمنه وعافيته. أليست الصحة نعمة كبيرة فقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ والفَرَاغُ**»[5].

---

(١) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٢٠٩.
(٢) مستدرك الوسائل: ج١٦ ص٢٤٩.
(٣) القرطبي: ج ٢٠ ص ١٧٥.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٢ ص١٤٠.
(٥) مستدرك الوسائل: ج١٢ ص١٤٠.

وفي نص معروف: «نِعْمَتَانِ مَجْهُولَتَانِ الصحةُ وَالأَمَان». وعن جاهه عند الناس: فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ دَعَا الله بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ فَيوقِفَهُ بَينَ يَدَيهِ، فَيَسْأَلَهُ عَن جَاهِهُ، كَمَا يسْأَل عَنْ مَالِهِ»(١).

ولكن أعظم نعمة يسأل العبد عنها يوم القيامة هي نعمة الهداية والتي تتجلى في الرسالة وفي الرسول ﷺ وفي من استخلفه الرسول من أئمة الهدى عليهم السلام، أوليست نعمة الرسالة هي التي منَّ الله بها على عباده إذ قال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وهكذا كانت ولاية أئمة الهدى عليهم السلام أعظم مصداق للنعيم المسؤول عنها يوم القيامة، وبذلك استفاضت النصوص -مثل الحديث المأثور عن الإمام الرضا عليه السلام- قَالَ لَهُ بَعْض الفُقَهَاء: يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أما هَذِهِ النعيم فِي الدُّنْيا وَهوَ المَاءُ البَارِد. فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: وعَلَا صَوتُهُ وكَذَا فَسَّرْتُمُوهُ أَنْتُمْ وجَعَلْتُمُوهُ عَلَى ضُرُوب. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ هُوَ المَاءُ البَارِدُ، وقَالَ غَيْرُهُمْ هُوَ الطَّعَامُ الطَّيِّبُ، وقَالَ آخَرُونَ هُوَ النَّوْمُ الطَّيِّبُ، ولَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّ أَقْوَالَكُمْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فِي قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فَغَضِبَ، وقَالَ إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ لا يَسْأَلُ عِبَادَهُ عَمَّا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ، ولَا يَمُنُّ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ والامْتِنَانُ بِالإِنْعَامِ مُسْتَقْبَحٌ مِنَ المَخْلُوقِينَ. فَكَيْفَ يُضَافُ إِلَى الخَالِقِ مَا لَا يَرْضَى المَخْلُوقُونَ بِهِ ولَكِنَّ النَّعِيمَ حُبُّنَا أَهْلَ البَيْتِ ومُوَالَاتُنَا يَسْأَلُ اللهُ عَنْهُ عِبَادَهُ بَعْدَ التَّوْحِيدِ والنُّبُوَّةِ، ولِأَنَّ العَبْدَ إِذَا وَافَاهُ بِذَلِكَ أَدَّاهُ إِلَى نَعِيمِ الجَنَّةِ الَّذِي لَا يَزُولُ»(٢)

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج ٥ ص ٦٦٤، وهناك نصوص أخرى في هذا الحقل.
(٢) وسائل الشيعة: ج٢٤ ص٢٩٨، عيون الأخبار: ج٢ ص١٢٩.

سُورَةُ العَصْر

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٣.

* ترتيبها النزولي: ١٣.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٣.

* نزلت بعد سورة الشرح.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ فِي نَوَافِلِهِ بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُشْرِقاً وَجْهُهُ ضَاحِكاً سِنُّهُ قَرِيراً عَيْنُهُ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٤٧)

الإطار العام

الإيمان ينتصر للإنسان

يزعم ابن آدم أنه كلما طال عمره كبر وازداد.. بينما الحقيقة عكس ذلك تماماً، فكلما مضى من عمره شطرٌ، اقترب منه أجله، وتناقص رأس مال حياته، ونقص ما تبقى منه، فزيادة المرء في دنياه نقصان، وهو كبائع الثلج في يوم قائض يفقد رأس ماله كل لحظة.

لكي يتبصر الإنسان واقع الزمن، ويعلم كيف يهدم الزمن عمره لحظة بلحظة، ثم لكي يعرف بماذا يقاوم خسرانه،جاءت سورة العصر عصارةً لبصائر الذكر في هذا الموضوع الأساسي، الذي لو وعاه الإنسان لوعى حقيقة عمره،وحقائق العالم المحيط به.

قَسَماً بالزمن، إنك لولا الإيمان في خسران، وكل لحظة لا إيمان ولا عمل صالح فيها فهي جزء ضائع من كيانك. ولكن الإنسان في غفلة عن هذا العدو الخطير، بيد أن المؤمنين يُذكِّر بعضهم بعضاً بالحق، ويوصي بعضهم بعضاً بالصبر.

والعصر إن الإنسان لفي خسر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

بينات من الآيات:

[١] يزعم الإنسان أنه كلما طال عمره كبر وزاد، بينما الحقيقة عكس ذلك تماما، فكلما مضى من عمره شطر اقترب منه أجله، وتناقص رأسمال حياته، ونقص ما تبقى منه، فزيادة المرء -إذا- في دنياه نقصان، وهو كبائع الثلج في يوم قائض يفقد رأسماله كل لحظة. هكذا يحلف القرآن بالعصر ويقول: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ قال ابن عباس: أنه قسم بالدهر، ويبدو لي: إن أقرب العصور هو عصر أنت فيه، وأشرفها عصر الرسالة حيث انبعث النبي به، وعصر العدالة حين يقوم الحجة القائم به.و قال بعضهم: إنما سمي الزمن بالعصر لأنه يَعتصِر الإنسان كما يَعْصِرُ المرء غَسِيله، وإن القسم بالدهر إنما كان بلحاظ عصره للإنسان، وأنى كان فإن الحلف به يتناسب والموضوع التالي: أي خسارة الإنسان لعمره، أوليس الزمن هو سبب الخسارة؟!.

[٢] لو عرف الإنسان كيف تتبدل خلايا جسده، وكيف يستهلك كل يوم آلاف الخلايا من مخه، دون أن يستعيض عنها شيئا، وكيف تتسارع ما حوله من أشياء في سبيل الفناء، حتى البيت الذي يسكنه يستهلك بسرعة لا يتصورها. لو عرف الإنسان أن عمره بالقياس إلى عمر الأرض التي يعيش اليوم عليها ثم ينام في رحمها يكاد لا يكون شيئا مذكورا. إنه أقصر من نسيم يهب عليه في يوم قائض، وأسرع من سحابة في يوم عاصف، بل إنه كالبرق الخاطف أو كخيال عابر. لو عرف أن كل لحظة من عمره مسؤولية كبيرة، فإما هي خطوة إلى الجنة أو سقطة في النار. لو عرف ذلك كله لأصلح نفسه. ولما ضيع من عمره شيئاً. لأنه في خسارة لولا الإيمان.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ يحيط به الخسر كما تحيط بالإنسان الدار. وأية خسارة أعظم من أن يفقد كل يوم جزءاً من عمره وجزءاً من رأسماله، والتالي جزءاً من ذاته. أليست ذاته ممتدة على أيام حياته، فإذا مضى يوم فقد انقضى بعض ذاته. يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ والنَّهارَ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وإِنْ كَانَ وَاقِفاً»[1]. ولذلك يقول الشاعر:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

[٣] حينما يعي المؤمن هذه الحقيقة يبادر بالعمل الصالح حتى يستوعب كل لحظة وكل لمحة وكل سعرة حياتية من حياته بما يحول الخسار فلاحاً وأملاً، فإن أتعبه الكفاح من أجل العيش استراح إلى الصلاة ليتزود منها الحيوية، وإذا أرهق عضلاته الجهد البدني اشغل لسانه بالشكر، وقلبه بالفكر، ونفسه بالحب والشوق إلى لقاء ربه، وقد ترى أعضاءه غارقة في جهد بدني يفلح الأرض، أو يسعى على مناكبها طلباً للرزق، أو يسخّر ما فيها لتوفير العيش وفي ذات الوقت تجد قلبه في ذكر الله، والتدبر في آياته، ولسانه يلهج بحب الله. إنه متعدد الأبعاد، واسع النشاط، عريض الطموح، سامي الهمة؛ لأنه قد وعى حقيقة الزمن، وتزود بسلاح تحديه عبر العمل الصالح. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولكن تيار الزمن، وشهوات النفس، وعادات المجتمع يضغط عليهم باتجاه الغفلة والكسل، فكيف يعالج المؤمنون هذه الظاهرة؟ إنما بتكوين بيئة رشيدة تحيط بهم؟ ولا تدعهم يخلدون إلى الراحة والكسل. أوتدري كيف؟ بتطبيق التواصي. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ إن الكبير يوصي الصغير، والصغير بدوره يوصي الكبير، والعالم يوصي الجاهل، والجاهل أيضا يوصي العالم.. وهذا المبدأ يتسع لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يتسع لواجب الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالاته، وإرشاد الجاهل.. ويتسع للمزيد. ذلك أن التواصي: ومضة روح، وإشراقة أمل، وعتاب لطيف. إنه يصنع جوا إيمانيا يساعدك على ممارسة واجباتك. إنه يوجه حس التوافق الاجتماعي في الاتجاه الصحيح. والتواصي يكون بالحق وبالصبر، فما هما؟!.

إن معرفة الحق بحاجة إلى مساعدة الصالحين فهم يرشدونك إليه، ويرفعون الغموض الذي يسببه دعايات الضالين. وإذا تناقضت المذاهب، واختلفت الآراء، وتشابهت عليك الأفكار هناك لا بد من إرشاد العلماء الصالحين والمؤمنين الواعين وتواصيهم بالحق. فإذا عرفت الحق، كان الوقوف إلى جانبه والدفاع عنه والاستقامة عليه بحاجة إلى صبر عظيم، يتواصى به المؤمنون حتى لا ينهار بعضهم أمام شدائد الزمن.

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ٣١.

سُورَةُ الهُمَزَة

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٩.

* ترتيبها النزولي: ٣٢.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٤.

* نزلت بعد سورة القيامة.

فضلُ السّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ فِي فَرَائِضِهِ بَعُدَ عَنْهُ الْفَقْرُ وجُلِبَ عَلَيْهِ الرِّزْقُ ويُدْفَعُ عَنْهُ مِيتَةُ السَّوْءِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٥٠)

الإطار العام

التكبر خسارة عظمى

في تسع آيات مباركات تبين سورة الهُمَزة حالة المتكبر الخاسر التي تخالف حالة المؤمن المتواصي بالحق والصبر، حيث تتجلى صفة الخسارة. فمن يزعم أنه قد ربح الدنيا، يجمع مالها ويعدده، ويستكبر على الناس بهمزهم ولمزهم. وأية خسارة أعظم من نبذه في النار تحطم عظامه، أوليست تتقد وتتطلع على الأفئدة؟ إنها حقاً سجن مغلق في صورة أعمدة ممددة.

إنه الويل واللعنة لكل أولئك الذين يهمزون الناس في وجوههم علوّاً في الأرض واستكباراً، ويلمزونهم -إذاغابوا عنهم- إفساداً في الأرض وفتنة، لا فرق بين من يتجاهر منهم بالكفر أو يدّعي الإيمان، فليست هذه صفات المؤمنين، وليست بين الله وبين أحدٍ من خلقه صلة قرابة أو رحم تمنعه عن عقابه بسبب هذه الأفعال الإجرامية.

ويل لكل همزة لمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ
﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ
﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] كما صفات الخير تتداعى صفات السوء في أصحابها، لأنها تنبعث من جذر واحد، وهكذا ترى القرآن الكريم يذكرها معا، لكي نعرف الناس ونقيمهم على مجمل سلوكهم وليس ببعض ما تبدر منهم من صفات شاردة وشاذة.

إنه الويل واللعنة لكل أولئك الذين يهمزون الناس في وجوههم علوا في الأرض واستكبارا، ويلمزونهم -إذا غابوا عنهم- إفسادا في الأرض وفتنة، لا فرق بين من يتجاهر منهم بالكفر أو يدعي الإيمان، فليست هذه صفات المؤمنين، وليست بين الله وبين أحد من خلقه صلة قرابة أو رحم يمنعه عن عقابه بمثل هذه الأفعال الإجرامية.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قالوا: معنى الويل الخزي والعار، وقالوا: أنه واد في جهنم، ولاتناقض بينهما. وقالوا: أصل الهمز الدفع أو الكسر، يقال: همزت الجوز بكفي أي كسرته،وقيل لأعرابي: أتهمزون (الفارة) أي هل تجعلون فوق ألف لفظة الفارة همزة وتقرأونها فأرة. فقال: إنما تهمزها الهرة، أي الهرة تكسر الفأرة وتأكلها، ومن هنا أنشدوا لشاعر قوله:

ومن همزنا رأسه تهشما

وإنه هنا يعني أن يطعن المرء في وجهه، وأنشدوا لحسان قوله:

همزتك فاختضعت بِذُلّ نفس بقافية تأجج كالشواظ

وقال بعضهم: أن الهمز هو الاغتياب بالقول، بينما اللمز: هو الاغتياب بالإشارة، وأنهما معا بالتالي نوع الحديث عن غائب، وأنشدوا لشاعر قوله:

تدلى بودي إذا لاقيتني كذبا وإن أغيب فأنت الهامز اللمزة

أما اللمز فقال بعضهم: أنه الاغتياب، أو ذكر معايب الناس، والمشي بالنميمة.

ويبدو أن الهمز أشد من اللمز، فإذا كان الهمز بالوجه فاللمز بالغيبة، وإن كان الهمز بالنطق فاللمز بالإشارة، وإذا كان الهمز يهدف العلو في الأرض، فإن اللمز يبقى الفساد فيها. الأول سمة التكبر والتجبر، والثاني علامة المكر والاحتيال، وقطع الأرحام، وإثارة الفتن.

وجاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ: **«شِرَارُ عِبَادِ الله: الْمَشَّاؤُون بِالنَمِيمَةِ، الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الأَحِبَّةِ، البَاغُونَ للبَرَاءِ العَيْبَ»**[1].

[٢] هؤلاء الهمازون اللمازون يحسون بنقص في أنفسهم، حيث جاء في الحديث المأثور عن النبي ﷺ: **«أَذَلُّ النَّاسِ مَنْ أَهَانَ النَّاسَ»**[2]. وهذا الإحساس يجعلهم يستكبرون على الناس، ويبحثون عما يجبر نقص أنفسهم بجمع المال وتعداده، والافتخار به، والتعالي على الناس بسببه. ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ يبدو أن معنى ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أحصاه وعدده المرة بعد الأخرى مباهاة به، واعتمادا عليه، ولكي يرى هل بلغ مستوى طموحه أم لا؟ أرأيت الأطفال كيف يحسبون دراهمهم باستمرار فرحا وفخرا.

[٣] ما الذي يبعثه نحو جمع المال وعده؟ هل مجرد المباهاة به. والاستكبار عبره على الآخرين؟ لا بل وأيضا رغبة جامحة في الخلود، تلك الرغبة التي كانت وراء أكل أبينا آدم عليه السلام من الشجرة المحرمة، تلك الرغبة التي تدفع الملوك لبسط سلطانهم والبطش بمن يخالفهم، وتلك الرغبة التي تبعثنا نحو أكثر أفعالنا وأعمالنا. ولكن هل المال يخلد الإنسان في الدنيا؟ هيهات. ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ فأين قارون بكنوزه التي أرهقت مفاتحة الأشداء من الرجال؟! وأين فرعون الذين استبد بملك مصر، وافتخر بالأنهر التي تجري من تحته؟! وأين القياصرة والأكاسرة؟! أين من ملك المليارات من الأموال؟! كلهم أحبوا البقاء وولهوا بالخلود، ولكنهم

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ١٨١.
(٢) من لا يحضره الفقيه: ج٤ ص٣٩٤.

لم يحملوا معهم إلى قبورهم سوى الكفن، وذهبوا إلى غير رجعة.

[٤] تنعم الآخرون بجهدهم، بينما هم يعودون إلى ربهم محاسبون على كل درهم من أموالهم، من أين اكتسبوه وفيم صرفوه. ﴿ كَلَّا ﴾ لا يخلد المال أحدا، بل قد يعجل في وفاته، وإننا نسمع كل يوم عن بعض المعمرين الذين تجاوزا المئة عام فلا نجد فيهم إلا عادة البسطاء من الناس، ولو كانت الثروة سببا للخلود لكانت أعمار الناس تقاس بقدر أموالهم بينما قد نجد العكس. ثم إن جمع المال بكمية كبيرة لا يكون إلا بالحرام مما يجعل صاحبه أكبر خاسر، يجمع المال بكدح بالغ ثم يكون وبالاً عليه، جاء في الحديث المأثور عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «**لَا يَجْتَمِعُ الْمَالُ إِلَّا بِخَمْسِ خِصَالٍ بِبُخْلٍ شَدِيدٍ، وَأَمَلٍ طَوِيلٍ وَحِرْصٍ غَالِبٍ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ وَإِيثَارِ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ**»[1].

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ لقد أهانوا الناس بهمزتهم، وسخروا منهم بلمزهم، فاليوم يلقون نبذا في نار جهنم التي تحطمهم.

[٥] وهل تدري ما هي الحطمة؟ إننا نعرف أن التحطيم من شأن ارتطام شيء خشن بمثله، بينما النار سيالة فكيف تحطم؟﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ إن علم البشر بحقائق الآخرة محدود جدا، وعليه أن يتزود بمقاييس جديدة ليعرف أبعاد الحقائق فيها.

[٦] مثلا النار ذات طبيعة سيالة في الدنيا لأنها هنا مخففة سبعين مرة عنها هناك، أما نار الله التي أوقدها جبار السموات والأرض تجليا لغضبه فإنها - حسب ما يبدو - تتفجر وتفجر مما تجعل كل شيء فيها عظيما. ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ وكفى بك أن تعرف أنها نار الله بعظمته وجلاله، وشديد سطواته، وعريض كبريائه، ونسبتها إلى الله بسبب أن ربها هو الذي أوقدها، ولعل إيقاد النار غير إشعالها، بل إلهابها وتشديدها، قالوا: إن الله عز أسمه قد أوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام حتى اسودت، انتظارا لأعداء الله. أعاذنا الله منها.

[٧] ولشدة النار تراها تطلع على الأفئدة أن تحرق الجلود واللحم والعظام، قالوا: فإذا بلغت الفؤاد عاد إليهم جلودهم واللحم والعظام، فيعذبون من جديد. ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ قال بعضهم: إن نار جهنم تتجه رأسا إلى لب الإنسان فتحرقه، وقال بعضهم: بل إنها شاعرة، تعرف ماذا في قلوب المجرمين فتعذبهم بقدر ما فيها من كفر ونكد.

[٨] وبعد أن ينبذوا في نار جهنم تطبق عليهم، وتوصد أبوابها، فلا روح، ولا نسيم، ولا شكوى، ولا كلام. إنما هي شهيق، وزفير، وآهات، وأنات، وعذاب شديد.﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم

(١) وسائل الشيعة: ج٢١ ص٥٦٠.

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي مطبقة عليهم مغلقة أبوابها.

[٩] جاء في الحديث المأثور عن رسول الله ﷺ: «ثُمَّ إن الله يَبْعَثُ إليهم مَلائِكَةً بِأَطْبَاقٍ مِن نَارٍ، وَمَسَامِيرَ مِن نَارٍ، وَعَمَدٍ مِن نَارٍ، فَتُطْبِقُ عَلَيْهِم بِتِلكَ الأَطْبَاق، وَتَشُدُّ عَلَيْهِم بِتِلكَ المَسَامِير، وَتَمُدُّ بِتِلكَ العَمد، فَلا يَبْقَى فِيهَا خَلَل يَدْخُلُ فِيه رُوح، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ غَم، وَيَنْسَاهُم الرَّحْمَن عَلى عَرْشِهِ، وَيَتَشَاغَلُ أَهل الجَنة بِنَعِيمِهِم، وَلَا يَسْتَغِيثُون بَعْدَهَا أَبَدا، وَيَنْقَطِع الكَلَام، فَيَكُونُ كَلامُهُم زَفِيراً وَشَهِيقًا، فَذَلِكَ قَوله تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾»[1].

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ اختلفوا في هذه العمد الممدة ماذا تكون؟ هل هي أغلال في أعناقهم، أم قيود في أرجلهم، أم هي الأوتاد التي تشد الأطباق بها أم ماذا؟ وقال بعضهم: إنها كناية عن الدهر. فهي في دهور متطاولة، وقال أبو عبيدة: العمود كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصل للبناء مثل العماد. ويحتمل أن تكون في النار اسطوانات يدخل أهلها فيها، فهم في هذه العمد أي وسطها والله العالم.

وأنى كان فإن نهاية فظيعة تنتظر كل مستكبر في الأرض، هماز لماز، ولكي لا يغرنا الشيطان بما نملك من أموال وبنين نقرأ معا حديثا مفصلا عن الإمام الباقر عليه السلام يحذرنا بما في النار من عذاب رهيب، ونكتفي بذكر بعض مقاطع الحديث اختصارا.«وَيَغْضَبُ الحَيُّ القَيُّومُ فَيَقُولُ يَا مَالِكُ قُلْ لَهُمْ ذُوقُوا ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، يَا مَالِكُ سَعِّرْ سَعِّرْ فَقَدِ اشْتَدَّ غَضَبِي عَلَى مَنْ شَتَمَنِي عَلَى عَرْشِي، وَاسْتَخَفَّ بِحَقِّي، وَأَنَا المَلِكُ الجَبَّارُ، فَيُنَادِي مَالِكٌ يَا أَهْلَ الضَّلَالِ وَالِاسْتِكْبَارِ وَالنِّعْمَةِ فِي دَارِ الدُّنْيَا كَيْفَ تَجِدُونَ مَسَّ سَقَرَ.

قَالَ فَيَقُولُونَ قَدْ أَنْضَجَتْ قُلُوبَنَا وَأَكَلَتْ لُحُومَنَا، وَحَطَمَتْ عِظَامَنَا فَلَيْسَ لَنَا مُسْتَغِيثٌ وَلَا لَنَا مُعِينٌ قَالَ فَيَقُولُ مَالِكٌ وَعِزَّةِ رَبِّي لَا أَزِيدُكُمْ إِلَّا عَذَاباً، فَيَقُولُونَ إِنْ عَذَّبَنَا رَبُّنَا لَمْ يَظْلِمْنَا شَيْئاً، قَالَ فَيَقُولُ مَالِك ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يَعْنِي بُعْداً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ثُمَّ يَغْضَبُ الجَبَّارُ فَيَقُولُ يَا مَالِكُ سَعِّرْ سَعِّرْ فَيَغْضَبُ مَالِكٌ فَيَبْعَثُ عَلَيْهِمْ سَحَابَةً سَوْدَاءَ يَظَلُّ أَهْلَ النَّارِ كُلَّهُمْ ثُمَّ يُنَادِيهِمْ فَيَسْمَعُهَا أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ وَأَدْنَاهُمْ، فَيَقُولُ مَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أُمْطِرَكُمْ فَيَقُولُونَ المَاءَ البَارِدَ وَا عَطَشَاهْ وَا طُولَ هَوَانَاهْ فَيُمْطِرُهُمْ حِجَارَةً وَكَلَالِيباً وَخَطَاطِيفاً وَغِسْلِيناً وَدِيدَاناً مِنْ نَارٍ فَيَنْضَجُ وُجُوهُهُمْ وَجِبَاهُهُمْ وَيُغْضَى أَبْصَارُهُمْ، وَ يُحَطِّمُ عِظَامَهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يُنَادُونَ وَا ثُبُورَاهْ فَإِذَا بَقِيَتِ العِظَامُ عَوَارِي مِنَ اللُّحُومِ اشْتَدَّ غَضَبُ الله فَيَقُولُ يَا مَالِكُ

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ١٨٦.

اسْجُرْهَا عَلَيْهِمْ كَالْحَطَبِ فِي النَّارِ ثُمَّ يَضْرِبُ أَمْوَاجُهَا أَرْوَاحَهُمْ سَبْعِينَ خَرِيفاً فِي النَّارِ.

ثُمَّ يُطْبَقُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُهَا مِنَ الْبَابِ إِلَى الْبَابِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَغِلَظُ الْبَابِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ ثُمَّ يُجْعَلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثِ تَوَابِيتَ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ نَارٍ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَلَا يُسْمَعُ لَهُمْ كَلَامٌ أَبَداً إِلَّا أَنَّ لَهُمْ فِيهَا شَهِيقٌ كَشَهِيقِ الْبِغَالِ وَزَفِيرٌ مِثْلُ نَهِيقِ الْحَمِيرِ، وَعُوَاءٌ كَعُوَاءِ الْكِلَابِ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَلَيْسَ لَهُمْ فِيهَا كَلَامٌ إِلَّا أَنِينٌ فَيُطْبَقُ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُهَا وَيُسَدُّ عَلَيْهِمْ عُمُدُهَا فَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ رَوْحٌ أَبَداً، وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُمُ الْغَمُّ أَبَداً فَهِيَ عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ يَعْنِي مُطْبَقَةً لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ شَافِعُونَ، وَلَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ صَدِيقٌ حَمِيمٌ وَيَنْسَاهُمُ الرَّبُّ وَيَمْحُو ذِكْرُهُمْ مِنْ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَلَا يُذْكَرُونَ أَبَداً»[1].

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٣٢٣.

سُورَةُ الفِيل

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٥.

* ترتيبها النزولي: ١٩.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٥.

* نزلت بعد سورة الكافرون.

فضل السّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ فِي فَرَائِضِهِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ سَهْلٍ وجَبَلٍ ومَدَرٍ بِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ويُنَادِي لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنَادٍ صَدَقْتُمْ عَلَى عَبْدِي قَدْ قَبِلْتُ شَهَادَتَكُمْ لَهُ وعَلَيْهِ أَدْخِلُوهُ الْجَنَّةَ ولَا تُحَاسِبُوهُ فَإِنَّهُ مِمَّنْ أُحِبُّهُ وأُحِبُّ عَمَلَهُ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٥٥)

***

في بحار الأنوار: بِخطِّ الشَّهِيدِ رحمه الله عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام: «يُقْرَأُ فِي وَجْهِ الْعَدُوِّ سُورَةُ الْفِيلِ».

(بحارالأنوار: ج٨٩، ص٣٣٨)

الإطار العام

الأمن والإيمان

كثيرة عبر التاريخ التي لا تزال آياتها مرسومة على صفحات الزمن وفي ذاكرة الأجيال، ولكن قليلاً هم الذين ينسلون من ضوضاء حاضرهم إلى كهف التأريخ ليدرسوه بإمعان وتفتّح، ويعتبروا بحوادثه..

وكانت قصة الفيل الذي أناخ بالمغمس من أطراف مكة ففزعت منه قريش ولاذت بالجبال فراراً لاتزال عالقة في أذهان أهل مكة، إلاّ أن قريشاً التي أمنها الله من تلك الداهية كفرت بأنعم الله، وجحدت آياته، فجاء الوحي يذكّرهم بذلك.

فلقد كانت الجزيرة العربية تعجّ بالصراعات الدموية..، وبقيت مكة بلداً آمناً كمثل جزيرة ساكنة في بحر هائج، حتى أن ملك اليمن (أبرهة) عندما سعى إلى غزوها رد على أعقابه بفعل طير غريب رمت جيشه بحجارة من سجيل، أليس في ذلك دليلاً على حرمة البيت، وآية لإكرام الله لأهله، ونعمة عظيمة ينبغي أن يشكروا الله عليها بالإيمان به وبرسالاته؟.

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] كثيرة عبر التاريخ التي لا تزال آياتها مرسومة على صفحات الزمن وفي ذاكرة الأجيال، ولكن قليل هم الذين ينسلون من ضوضاء حاضرهم إلى كهف التاريخ ليدرسوه بإمعان، ويعبروا بحوادثه، وكانت قصة الفيل الذي أناخ بالمغمس من أطراف مكة ففزعت منه قريش، ولاذت بالجبال فرارا، كانت لا تزال عالقة في أذهان أهل مكة، حتى قيل: أن بعض من رافقوا حملة أبرهة المشؤوم كانوا لا يزالون أحياء، بيد أن قريشا التي أمنها الله من تلك الداهية كفرت بأنعم الله، وجحدت آياته، وجاء الوحي يذكرهم قائلا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ قد تكون الحادثة التاريخية شديدة الوضوح إلى درجة تكاد ترى، ولا تحتاج منا إلى أن نتوجه إليها بأعين بصيرة، وهكذا يبدو أن الرؤية هنا جاءت بمعنى العلم بها، والنظر إلى آثارها، وسماع أنبائها مما يجعلك كأنك قد رأيتها. وقد تجلت عظمة الله في ردع أكبر حملة قادها الأعداء ضد مكة، وبفعل خارج عن ظاهر السنن الجارية، حيث دمرهم بطير أبابيل.

[٢] لقد عبؤوا طاقاتهم، وجندوا اثني عشر ألفا بأفضل عتادهم -حسب التواريخ- وكان الفيل الذي استقدموه لإثارة الهيبة سلاحا جديدا في محيط الجزيرة العربية. زعمت العرب ألا قِبل لهم به، ولكن الله أضل كيدهم، وأفشل خُطتهم، فلم يحققوا به الغاية المطلوبة.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ قال بعضهم: تضليل كيدهم بمعنى فشلهم في هدم

الكعبة، وتصفية آثار الحنفية الإبراهيمية، وتوجيه العرب إلى بيت جديد كان أبرهة قد بناه في اليمن.

ولكن السؤال: كيف أضل الله كيدهم؟ هل بفعل طير الأبابيل فقط أم بأمر آخر؟! يبدو أن الآية تشير إلى حادثة أخرى لم يذكرها المفسرون، ولعلهم ابتلوا بأمراض فتاكة كالجدري، أو وقعت بينهم الفتنة، أو ضلوا السبل أو ما أشبه، أو أصيب فيلهم بعاهة بسبب اختلاف المناخ، وقد أشارت الروايات التاريخية إلى بعض هذه القضايا.

[٣] ولا ريب أن أخطر ما أصابهم وقضى على حملتهم، كانت الطير التي قدمت عليهم -حسب التاريخ- من ناحية البحر لم تعرفها المنطقة، فرمتهم بحجارة قاتلة. ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ لم تخطئهم الطير بل اتجهت مباشرة إليهم، وكانت تتلاحق عليهم أسراباً فأسرابا، وهذا ما فسرت به كلمة أبابيل، قالوا: تعني مجتمعة، وقيل: متتابعة، وقيل: متفرقة، تأتي من كل ناحية، وأصل الكلمة من قولهم: فلان يؤبل على فلان أي يعظم عليه ويكثر، واشتقاقها من الإبل.

[٤] بعد أن انتشرت فوقهم الطير كسحابة سوداء، أخذت تمطرهم بحجارة قاتلة، قالوا: كان كل طير يحمل ثلاث أحجار: واحدة في منقاره واثنتان بين أرجلها، وكانت الحجارة إذا أصابت جانبا من أبدانهم فرقته وخرجت من الطرف الآخر، فإذا أصابت بيضة الرأس اخترقت الدماغ وخرجت من الدبر، وقال بعضهم، إذا أصاب الحجر أحدهم خرج منه الجدري لم ير قبل ذلك، وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده، فكان ذلك أول الجدري.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قالوا: الحجارة من طين، طبخت بنار جهنم، وقال بعضهم: السجيل: أصله السجين، وأبدلت النون لاماً، ولا يبعد لك إذا كانت الكلمة معربة للتساهل فيما عربت من الكلمات، وقال بعضهم، بل السجيل من السجل حيث كتب عليهم ذلك، والأول أقرب. ولعل الحجارة كانت مسمومة أو تحمل جراثيم أمراض فتاكة كالجدري، حسب ما نقرأ في التفاسير كما جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام عن قوم كانوا يقطعون السبيل، ويأتون المنكر: **«مَعَ كُلِّ طَيْرٍ ثَلَاثَةُ أَحْجَارٍ حَجَرَانِ فِي مَخَالِبِهِ وَحَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ فَجَعَلَتْ تَرْمِيهِمْ بِهَا حَتَّى جُدِّرَتْ أَجْسَادُهُمْ فَقَتَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا وَمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ رَأَوْا شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ الطَّيْرِ وَلَا شَيْئاً مِنَ الْجُدَرِيِّ»**[1].

(١) بحار الأنوار: ج١٥، ص١٤٢.

[٥] يبدو أن مرض الجدري قضى على خلايا جسدهم، حتى غدوا كالقشور البالية. ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قالوا: جعلهم الله كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل، ذلك أن العصف عندهم: ورق الزرع، كجلب القمح والشعير، وقال بعضهم: العصف المأكول: الورق الذي أُكل لبه ورُمِي قشره.

قصة أصحاب الفيل

اهتمت قريش بقصة أصحاب الفيل، حيث إنها كانت تتخذ من هذه الواقعة ذريعة لسيطرتها على أهل الجزيرة، ولذلك جعلوها بداية لتاريخهم، وقد كانت ولادة النبي ﷺ في ذات السنة حسب أشهر الروايات، فأضفى عليها صبغة شرعية، وقد ذكروا تفاصيل كثيرة فيها اختلافا واسعا، ونذكرها: جاء في مجمع البيان ما نصه:

«أجمعت الرواة على أن ملك اليمن الذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم، وقيل: أن كنيته أبو يكسوم، ثم إن أبرهة بنى كعبة باليمن، وجعل فيها قبابا من ذهب، فأمر أهل مملكته بالحج إليها يضاهي بذلك البيت الحرام، وإن رجلا من بني كنانة خرج، حتى قدم اليمن، فنظر إليها، ثم قعد فيها -يعني لحاجة الإنسان- فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها، فقال: من اجترأ علي بهذا ونصرانيتي، لأهدمن ذلك البيت حتى لا يحجه حاج أبدا، ودعا بالفيل، وآذن قومه بالخروج ومن اتبعه من أهل اليمن، وكان أكثر من أتبعه منهم عك والأشعرون وخثعم، ثم خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلا من بني سليم ليدعوا الناس إلى حج الذي بناه، فتلقاه أيضا رجل من الحمس من بني كنانة فقتله، فازداد بذلك حنقا، وحث السير والانطلاق، وطلب من أهل الطائف دليلا، فبعثوا معه رجلا من هذيل يقال له: نفيل فخرج بهم يهديهم، حتى إذا كانوا بالمغمس نزلوه وهو من مكة على ستة أميال، فبعثوا مقدماتهم إلى مكة، فخرجت قريش عباديد في رؤوس الجبال، وقالوا: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء، ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته، وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول:

اللهم إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك

لا يغلبوا بصليبهم ومحالهم عدواً محالك[١]

لا يدخلوا البلد الحرام إذاً فأمر ما بدا لك»

(١) الحلال: القوم الحالون في المكان و المحال: التدبير و القوة.

ثم إن مقدمات أبرهة أصابت نعماً لقريش فأصابت فيها مئتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، فلما بلغه ذلك خرج حتى أتى القوم -وكان حاجب أبرهة رجلاً من الأشعرين وكانت له بعبد المطلب معرفة- فاستأذن له على الملك، وقال له: أيها الملك! جاءك سيد قريش الذي يطعم أنسها في الحي ووحشها في الجبل، فقال له: أئذن له -وكان عبد المطلب رجلا جسيما جميلا- فلما رآه أبو يكسوم أعظمه أن يجلسه تحته، وكره أن يجلسه معه على سريره، فنزل من سريره، فجلس على الأرض، وأجلس عبد المطلب معه، ثم قال: ما حاجتك، قال: حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدمتك، فقال أبو يكسوم: والله لقد رأيتك فأعجبتني، ثم تكلمت فزهدت فيك، فقال: ولم أيها الملك؟!. قال: لأني جئت إلى بيت عزكم ومنعتكم من العرب وفضلكم في الناس، وشرفكم عليهم، ودينكم الذي تعبدون فجئت لأكسره وأصيبت لك مئتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلمتني في إبلك ولم تطلب إلي في بيتكم! فقال له عبد المطلب: أيها الملك! أنا أكلمك في مالي ولهذا البيت رب هو يمنعه، لست أنا منه في شيء، فراع ذلك أبا يكسوم، وأمر برد إبل عبد المطلب عليه، ثم رجع وأمست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها، كأنها تكلمهم كلاماً لاقترابها منهم، فأحست نفوسهم بالعذاب، وخرج دليلهم حتى دخل الحرم وتركهم، وقام الأشعرون وخثعم فكسروا رماحهم وسيوفهم، وبرئوا إلى الله أن يعينوا على هدم البيت، فباتوا كذلك بأخبث ليلة، ثم أدلجوا بسحر، فبعثوا فيلهم يريدون أن يصبحوا بمكة، فوجهوه إلى مكة، فربض، فضربوه، فتمرغ، فلم يزالوا كذلك حتى كادوا أن يصبحوا، ثم إنهم أقبلوا على الفيل، فقالوا: لك الله أن لا نوجهك إلى مكة، فانبعث فوجهوه إلى اليمن راجعاً، فتوجه يهرول، فعطفوه حين رأوه منطلقا، حتى إذا ردوه إلى مكانه الأول ربض، فلما رأوا ذلك عادوا إلى القسم، فلم يزالوا كذلك يعالجونه حتى إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة، جعلت ترميم وكل طائر في منقاره حجر، وفي رجليه حجران، وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أخرى، فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقه، ولا عظم إلا أوهاه وثقبه، وثاب أبو يكسوم راجعا قد أصابته بعض الحجارة، فجعل كلما قدم أرضاً انقطع له فيها إرب، حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلا باده، فلما قدمها تصدع صدره وانشق بطنه فهلك، ولم يصب من الأشعريين وخثعم أحد، وكان عبد المطلب يرتجز ويدعوا على الحبشة يقول(١):

يا رب لا أرجو لهم سواكا   يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   إنهم لم يقهروا قواكا

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٢٩٢.

سُورَةُ قُرَيْشٍ

* مكية.

* عدد آياتها: ٤.

* ترتيبها النزولي: ٢٩.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٦.

* نزلت بعد سورة التين.

فضل السورة

عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَكْثَرَ قِرَاءَةَ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَرْكَبٍ مِنْ مَرَاكِبِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَقْعُدَ عَلَى مَوَائِدِ النُّورِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٩)

الإطار العام

بشائر الحضارة الإسلامية

إنها حقا إرهاصات رسالة، وبشائر حضارة، حيث كانت في قريش بقية من آثار الحنفية الإبراهيمية. ألم يحتفوا ببيت الله الحرام الذي آمنه الله من الدواهي، ألم يقدر الله أن يبعث فيهم رسول الله فيكونوا حملة رسالاته إلى الآفاق، ألم يجعل أئمة المسلمين من صفوة قريش بني هاشم، وصفوة الصفوة أولاد محمد وعلي عليهم السلام.

بلى، لقد آلفهم الله حول بيته، وآلفهم لرحلة الشتاء والصيف، وهيأ لهم مدينة راقية بين مثيلاتها في الجزيرة، إذاً ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾، ويتعالوا عن خرافات الجاهلية التي لا تتناسب ومستوى حضارتهم، أوليس رب هذا البيت قد أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف؟! فلماذا البقاء مع أساطير التخلف والخوف؟.

وتأتي السورة متممة لبصائر سورة الفيل السابقة حتى قيل: أنهما معا سورة واحدة.

فليعبدوا رب هذا البيت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] هل هما سورتان أم سورة واحدة تفصل بينها البسملة، أم البسملة هي الأخرى محذوفة؟ كما نقل عن مصحف أُبي، فيه أقوال مختلفة، أقربها أنهما -كما في عامة المصاحف- سورتان متقاربتا المحتوى، وإن جاز -حسب بعض النصوص- الجمع بينهما في الفريضة، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لَا تَجْمَعْ بَيْنَ سُورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، وَ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، وَ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾، ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾»[١].

ذلك أن ما فعله الله بأصحاب الفيل كان مثلاً واضحا لكرامة البيت الحرام عند الله سبحانه، وأنه قد استجاب فيه لدعوة مجدد بنائه إبراهيم الخليل عليه السلام فجعله بيتا آمنا، ورزق أهله من الثمرات، وكل ذلك وفر شروط المدنية عنده، حيث بنت قبيلة قريش حضارتها وإيلافها، وكانت تمهيدا لحضارة الإسلام المجيدة، فقال ربنا سبحانه تعليقا على قصة أصحاب الفيل: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ قالوا معناه: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل لكي يألفوا مكة، وتتوفر لهم شروط الرحلة إلى الشام واليمن. وقال البعض: بل الحديث في هذه السورة مستقل مستأنف، وإن كان مكملا -محتوى ومعنى- لما بينه القرآن في السورة السابقة، ومعناه: أن الله وفر الأمن لقريش حتى تتسنى لهم رحلة الشتاء والصيف.

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٦٩٥.

وهكذا فسروا الإيلاف: بإيجاب الألف، وهو الاجتماع المقرون. بالالتئام، ونظيره الإيناس، ونقل عن الأزهري أنه يشبه الإجارة والخفارة، يقال: ألف يؤلف: إذا أجار الحمائل بالخفارة[1] حيث أن الله وفر لقريش فرصة التجارة، بما كانت لهم من علاقات حسنة مع سائر العرب، وبما كانت لهم من هيبة في نفوس الناس باعتبارهم في جوار بيت الله.

وأنى كان أصل معنى الإيلاف فإن اللفظ يشير إلى معنى المدنية والحضارة، لأن كلمة المدنية مشتقة من المدينة، والإيلاف بدوره يوحي بالتواجد في مكان واحد، أما الحضارة فهي مشتقة من حضور الناس عند بعضهم، بينما الإيلاف يدل على الحضور والتآلف، ومعروف أن التآلف أهم من مجرد الحضور، وقد جعله الله سبحانه نعمة كبرى حين قال سبحانه: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ومعلوم أن هناك فرقاً بين هذه الألفة العميقة التي تكون بين القلوب، والتي لا يصنعها المال، وإنما الإيمان. وبين الألفة الظاهرة بين أفراد وفئات المجتمع لزوال عوامل التنافر بينهم، وهي المحققة للاستقرار في المجتمع. وهذه من عواملها الأساسية الرخاء الاقتصادي، فالاقتصاد أساس في الاستقرار لكنه ليس كل شيء.

وقريش كانت القبيلة العربية التي ظهرت فيها بوادر المدنية باستقرارها في منطقة استراتيجية، وأمنها، واشتغالها بالتجارة التي هي أكثر من مجرد علاقات اقتصادية، لأنها توفر أيضا فرصة التواصل الثقافي.

ولا ريب أن كل هذه الفرص لم تتوفر لقريش إلا بفضل ما بقيت لديهم من آثار الوحي، ومن تراث الحنفية الإبراهيمية، وحسب النصوص الشرعية: كان النبي ﷺ من سلالة طاهرة موحدة، لم تدنسها الجاهلية بشركها وفسوقها.

وكلمة قريش: جاءت من القرش بمعنى المال، باعتبارهم كانوا تجارا، والتقريش بمعنى الاكتساب، وقيل: بل جذر الكلمة من الاجتماع، حيث يقال تقرشوا: أي اجتمعوا، وإنما سموا بذلك حينما جمع قصي بن كلاب سائر قريش في الحرم وأنشدوا بعضهم:

أبونا قصي كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر

ويقال: إن الكلمة مأخوذة من سمك القرش، لأنه الأعظم بين أحياء البحر، وقريش

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠ ص ٢٠٤.

كانت الأعظم بين أحياء العرب.

وأنى كان الاسم ومصدره فإن القبائل التي كانت تنتمي إلى النضر بن كنانة بن خزيمة كانت تسمى بهذا الاسم.

وقد ذكر بعضهم قصة تعكس بداية اهتمام هذه القبيلة بأمر التجارة في عهد عمرو بن عبد مناف[1] المعروف بهاشم وهو جد النبي ﷺ، وهي تدل على أن ذلك كان بسبب مجاعة أصابتهم، كما إن تلك المجاعة دعتهم إلى تنظيم علاقاتهم الاجتماعية بصورة أفضل، حتى قال شاعرهم في صفة التواسي بينهم:

والخالطون فقيرهم بغنيهم حـ ـتى يصير فقيرهم كالكافي

[٢] ﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ﴾ أي ألفوا هذه الرحلة بفعل الله وفضله، وكانوا يرحلون في الشتاء إلى اليمن لأنها بلاد دافئة، بينما يتجهون صيفا إلى الشام لمناخها المعتدل. وقال بعضهم: بل كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف وأنشدوا:

تشتي بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وسواء كانت التشتي والاصطياف بهذه الأرض أو تلك أو بهدف التجارة أو المتعة، فإن ذلك يعكس مستوى رفيعاً من المدنية والغنى، أليس الإنسان كلما تحضر أكثر كلما بحث عن وسائل الراحة، حتى ولو اقتضى الأمر الارتحال من بلد لآخر؟.

[٣] ما الذي جعلهم في أمن وغنى، أليس جوارهم لبيت الله؟ فلماذا الشرك به والتمرد على رسالاته؟! وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟! وأي انتكاسة كبيرة في فطرة الإنسان تلك التي تجعل جزاء الإحسان كفرا وعصيانا؟! ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾ فلأجل شكر نعمة إيلاف الله رحلة الشتاء والصيف لقريش عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت، الذي كان محور إيلافهم ووحدتهم وحضارتهم، وكما تفاعل المجتمع مع محور تقدمه وحضارته، ومع أسباب رفاهه وغناه كلما كان ذلك سببا لدوام نعم الله عليه وزيادتها وتناميها.

[٤] بسبب الإيلاف الذي كان بدوره نابعا من جوار البيت الحرام، وفر الله لقريش أهم نعمتين: الغنى والأمن بالرغم من تواجدهم في بلاد قاحلة، لا زرع فيها ولا ضرع، بلاد قاسية دعت أهلها المعدودين إلى الصراع من أجل البقاء، فكانوا في حروب لا تنتهي، شعارهم الخوف، ودثارهم السيف. في هذه البيئة القاسية الفقيرة الخطيرة وفر الله لقريش الطعام والأمن.

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص ٢٠٤-٢٠٥.

ألا يدعوهم ذلك إلى الشكر والطاعة؟! ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ إن قريشا نسبت أن كل ذلك كان بفضل آثار الرسالة الإبراهيمية التي تجلت في دعاء مجدد بناء الكعبة المشرفة، الذي جار إلى الله قائلا: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

لكنهم أخطؤوا في تفسير هذه الظاهرة الفريدة في محيط الجزيرة العربية الذي كانت القبيلة في دوامة من الحروب الدامية، والأزمات الاقتصادية الخانقة، وكان خطأ قريش في تفسير ذلك حائلا إذ جعلهم يواجهون رسالة الإسلام، مما أزال سيادتهم على الجزيرة، وسلب منهم شرف سدانتهم للحرم، وفتح الله مكة لنبيه الكريم محمد ﷺ وجعلهم الطلقاء بعد أن كانوا سادة العرب!.

ويبدو أن هذه السورة الكريمة وفرت فرصة ذهبية لقريش لكي تصحح نظرتها إلى نفسها، حتى لا تفتخر بما تملك من متعة وغنى، ولا تتخذها وسيلة للطغيان والعصيان، ونشر الفساد في الأرض، والاستكبار على الناس. ولكن قريشاً لم تنتفع بذلك لا في عهد هبوط الآية ولا بعدئذٍ، حيث أنها كادت لرسول الله ﷺ، وحاربت رسالته، فلما نصره الله عليهم دخلوا في الإسلام وقلوبهم مليئة بأحقاد الجاهلية، ثم انضوا تحت راية الحزب الأموي الحاقد على الإسلام، وانتقموا من آل الرسول عليهم السلام، وقال شاعرهم يزيد بن معاوية[1] بعد قتله للإمام الحسين عليه السلام:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف إن لم انتقم ... من بني هاشم ما كان فعل

وهكذا أذلهم الله وجعلهم عبرة لكل معتبر.

واليوم إذا استمرت العرب تفتخر بثرواتها وبأمجادها بعيدة عن رسالات الله فإن مصيرها لن يكون أفضل من عاقبة قريش وحزبه الأموي، أما إذا اعتزوا بالإسلام فإن الله يرفع شأنهم، ويعيدهم إلى شرفهم الأسمى، ومجدهم التليد.

(١) لواعج الأشجان للسيد محسن الأمين: ص٢٢٦.

سُورَةُ المَاعُون

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٧.

* ترتيبها النزولي: ١٧.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٧.

* نزلت بعد سورة التكاثر.

فضلُ السّورة

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ فِي فَرَائِضِهِ ونَوَافِلِهِ كَانَ فِيمَنْ قَبِلَ اللهُ صَلاتَهُ وصِيَامَهُ ولَمْ يُحَاسِبْهُ بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا».

(بحار الأنوار: ج٨٢ ص٤٠)

الإطار العام

المسلم بين القول والفعل

القرآن ميزان ومن دونه لا يملك الإنسان بصيرة بنفسه ليعرف من هو وكيف هو؟ أليس حب الذات يجعله يزعم أبدا أنه على صواب؟! بينما هنالك مقاييس إن طبقت عليه كان صالحا، وإلا، لا يغنيه التنمي والتظني والادعاء شيئا.

ولا يكفي أن يدعي أحد أنه مسلم، وأنه يؤمن بالآخرة، إنما يجب أن يصدق عمله قوله. وسورة الماعون تذكرنا بهذه الحقيقة، وتبين صفات المكذب بالدين وإن ادعى التصديق به وهي: طرد اليتيم، الرغبة عن المسكين، الاستهانة بالصلاة والرياء فيها، ومنع الخير عن أهله.

وهكذا تأتي السورة المباركة فرقانا يميز المؤمن حقا بالدين والمكذب به.

أرأيت الذي يكذب بالدين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] تلك الصفات التي تَسوقها سورة الماعون هل تؤخذ مفردة أم جميعاً؟ نقل عن بعضهم الثاني، فالمكذب بالدين هو الذي يجمع الصفات الثلاث، وهذا هو الظاهر؛ لأن صفات الشر تتداعى كما تتداعى صفات الخير، وهكذا تُعرفنا السورة الكريمة بالذين يكذبون بالدين من هم، حتى نتقي تلك الصفات، وما يؤول إليها من التكذيب بالدين. ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ هل رأيته بشخصه وعرفته بصفاته؟ والدين هو الجزاء، وقيل: بل الإسلام والقرآن، ولكن محور أي دين هو الإيمان بالجزاء، الذي ينعكس على النفس بالإحساس بالمسؤولية، وهو معنى الدين بمعناه الشامل.

[٢] الإيمان بالدين يزكي نفس الإنسان، ويخرجها من شحها وضيقها وجهلها، ويستثير فيها فطرة الحب، وبواعث الخير، وحوافز المعروف، ويجليها بالعواطف الجياشة تجاه المستضعف والمحروم، بينما الذي يكذب الدين تراه يدع اليتيم، ذلك الطفل البريء الذي حرم حب والده (أو والدته) وحنانه وعواطفه ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ قالوا: الدع: الطرد والدفع بعنف وقوة، وهو يكشف عن قسوة القلب، وتبلد العاطفة، وقد لا يطلب اليتيم منهم شيئا سوى الترحم حتى يستعيض به ما فقده من بركات والده، ولكن القلب القاسي الذي يتمحور

حول المصالح لا يجد باعثا لاستقبال اليتيم، لأنه لا يتوقع من ورائه مصلحة دنيوية عاجلة. وقد حض الإسلام على احترام اليتيم وإيوائه، حتى روي عن رسول الله ﷺ: «مَنْ ضَمَّ يَتِيماً إِلَى طَعَامِهِ وشَرَابِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ عَنْهُ وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»(١).

[٣] من أسوأ ما يبتلى به الذي يكذب بالدين مسخ الشخصية، وانتكاسة الفطرة، فتراه لا يتأثر بمنظر المسكين الذي يتضور جوعا، ولا يحض أحدا على توفير نصيبه من الطعام، إنه لم يعد إنسانا ينبض قلبه بحب نظرائه من البشر. ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ قالوا: الحض بمعنى الترغيب، وقال بعضهم، الطعام هنا بمعنى الإطعام، وقال بعضهم: بل الطعام بمعنى ما يستحقه اليتيم من الطعام، إشارة إلى أنه من حقهم ومن مالهم، كما قال ربنا سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]. و هكذا لا يعتبر إطعام المسكين سوى رد حقه إليه، وعلى المجتمع أن يكون شاهدا على ذلك ورقيباً، كما يُراقب وضع السلطة والأمن والاقتصاد، وكما يشهد على سائر الحقوق أن ترد إلى أهلها، ومن لم يقم بشهادته، وترك المسكين يتضور جوعاً فإنه يستحق العقاب، لأنه ساهم في إفساد المجتمع، ونشر الفقر في أرجائه، كالذي يرى الطاعون ينتشر بين الناس فلم يمنعه وهو قادر على المنع، أو يترك الأسد ينهش طفلا فلا يردعه، أو يترك الصبي يتردى، والأعمى يصطدم ولا يحرك ساكنا. ومن هنا يصبح الحض على طعام المسكين واجباً بحد ذاته وتركه حراماً، وهو واجب يشترك في مسؤوليته القادر على إطعام المسكين وغير القادر عليه.

[٤] وطعام المسكين أبرز مصاديق الزكاة، والزكاة عدل الصلاة، وعادة ما يذكران معاً في القرآن، بيد أن الصلاة ليست مظهراً خارجياً من مظاهر الدين، بل هي قبل ذلك صلة العبد بالرب، فالذي يفسد هذه الصلة بالرياء، ويستخدم أقدس مقدساته في أمور الدنيا فإن له الويل واللعنة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ الذين اتخذوها وسيلة الدنيا، وهي معراج الآخرة، وهكذا تساهلوا فيها.

[٥] فتراهم ينشطون إلى الصلاة في الملأ، ويسهون عنها في الخلاء، والصلاة حقاً هي التي تُبتلك عن الخلق إلى الخالق، وعن الدنيا إلى الآخرة، وعن الجسد إلى الروح، والمؤمن ينبعث إليها في الخلوات في رحم الظلام عند سبات الطبيعة، حينما تحلو المؤانسة مع خير الذاكرين، والمناجاة مع رب العالمين، بينما المنافق يسهو عنها عندئذ ويخلو إلى الغفلة واللذة ووساوس إبليس ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ومن أبعاد السهو عن الصلاة تأخيرها عن وقتها لغير عذر، هكذا روي في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ عَنْ أَوَّلِ

(١) مستدرك الوسائل: ج٢ ص٤٧٤.

وَقْتِهَا لِغَيْرِ عُذْرٍ»[١]. وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «لَيْسَ عَمَلٌ أَحَبَّ إِلَى الله عَزَّ وجَلَّ مِنَ الصَّلَاةِ فَلَا يَشْغَلَنَّكُمْ عَنْ أَوْقَاتِهَا شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ ذَمَّ أَقْوَاماً فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ غَافِلُونَ اسْتَهَانُوا بِأَوْقَاتِهَا»[٢].

[٦] والصلاة تمد المسلم بزاد الإيمان الذي يحتاج إليه في كل شؤون الحياة، ومن اتخذها هزوا، أو عملها رياء فقد أفنى زاده وهلك. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾.

[٧] والصلاة الحقيقية تحرر الإنسان من شح ذاته، فتكون يده سخية، ينصر المظلوم، ويعين المحروم، بينما الذي يرائي في صلاته يمنع أبسط الحقوق المفروضة عليه. ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ قالوا الماعون: أصله المعنى وهو القليل، ومعناه كل ما فيه منفعة، وقالوا: إنه ما يتعاوره الناس بينهم من الدلو، والفأس والقدر، وما لا يمنع كالماء والملح[٣].

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «هُوَ الْقَرْضُ يُقْرِضُهُ والْمَعْرُوفُ يَصْطَنِعُهُ ومَتَاعُ الْبَيْتِ يُعِيرُهُ ومِنْهُ الزَّكَاةُ فَقُلْتُ لَهُ (الراوي) إِنَّ لَنَا جِيرَاناً إِذَا أَعَرْنَاهُمْ مَتَاعاً كَسَرُوهُ وأَفْسَدُوهُ فَعَلَيْنَا جُنَاحٌ إِنْ نَمْنَعْهُمْ فَقَالَ لَا لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ إِنْ تَمْنَعُوهُمْ إِذَا كَانُوا كَذَلِكَ»[٤].

وبالرغم من أنهم ذكروا اثني عشر قولا، فإن الأقوال تعود جميعا إلى أمر واحد هو المعروف كله، ولكن يبدو أنه المعروف الذي يعتبر الذي يمنعه خسيسا ومنبوذا اجتماعيا، لأنه من النوع الذي يقارن فيه الناس عادة، مثل إعارة الظروف، وإعطاء النار والملح وما أشبه.

والسورة - عموما تدل على أن مكارم الأخلاق ميراث التصديق بالدين، كما أن التكذيب بالدين يورث الرذائل التي يرفضها العقل والعرف، فترى الساهين عن الصلاة يمنعون عن الآخرين حتى الماعون الذي يتبادله الناس بينهم.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٤، ص١٢٤.
(٢) المصدر: ج٤، ص١١٣.
(٣) جاء في مجمع البيان أنه روي مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه وآله المصدر: ج ١٠ ص٧٠١.
(٤) الكافي: ج٣، ص٤٩٩.

سُورَةُ الكَوْثَر

* مكية.

* عدد آياتها: ٣.

* ترتيبها النزولي: ١٥.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٨.

* نزلت بعد سورة العاديات.

فضلُ السُّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ فِي فَرَائِضِهِ ونَوَافِلِهِ سَقَاهُ اللهُ مِنَ الْكَوْثَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وكَانَ مُتَحَدَّثُهُ عِنْدَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فِي أَصْلِ طُوبَى».

(وسائل الشيعة: ج ٦ ص١٤٥)

الإطار العام

ذرية الرسول ﷺ أمل الدين

يجمل القرآن في ثلاث آيات قصار معارف ربانية يبينها في مفصلات السور، فإذا بهما معاً معجزة في الحكمة والخطاب.

فهذا القرآن، وتلك الذرية الصالحة الذين يحملونه الخيرة بعد الخيرة، وتلك الأمة التي يباركها الله بالقرآن والعترة، إن كل ذلك كوثر أعطاه الله لمصطفاه الكريم محمد بن عبدالله ﷺ ومن يملك هذا الامتداد الميمون كيف يكون أبتراً؟!.

إنما الأبتر الذي يشنأ محمداً، وينقطع حسبه ونسبه، وتباد جاهليته، كما ظلام الليل يتبدد مع بزوغ الفجر.

وشكرا لنعمة الكوثر واستزاده منه يصلي الرسول لربه وينحر، ونصلي وننحر.

إنا أعطيناك الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

بينات من الآيات:

[١] لقد حبى الله ورسوله الكوثر، ذلك الخير العظيم الذي جعله رحمه مهداة إلى العالمين، ووسيلة بركات الله على المؤمنين.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالوا: إن الكوثر مشتق من الكثير، على صيغة فوعل، كما لفظة النوفل المشتقة من النفل، والجوهر المشتقة من الجهر، وهكذا عبرت العرب عن كل شيء كثير من الكمية، عظيم في النوعية بالكوثر. قالوا في تأويل كلمة الكوثر أقوالا شتى يجمعها القول: بأن الله قد حبى نبيه خيرا كثيرا يتسع لكل حقول الخير، ولكل أبعاد حياته، من الرسالة المباركة، إلى الذرية الطاهرة، إلى الأمة الشاهدة، إلى الذكر الحسن، إلى الشفاعة عند الله، وإلى الحوض الذي يستقبل ضيوف الرحمن قبل دخولهم الجنة.

بيد أن أعظم تأويلات الكوثر هو الكتاب والعترة، لأنهما الثقلان اللذان خَلَّفهما الرسول من بعده لامته، وأمرهم بالتمسك بهما، وأضاف: «**أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[(١)]. وهكذا يكون حوض الكوثر في الجنة أو على مداخلها تجسيدا للكوثر في الدنيا المتمثل بالكتاب والعترة. ويتناسب هذا التفسير مع سياق السورة حيث تنعت شانئ الرسول بأنه الأبتر، ومفهومه أن الرسول تمتد عترته وذريته من بعده، بعكس العاص بن وائل السهمي الذي قيل أن السورة نزلت بعد أن قال عن الرسول أنه أبتر.

(١) وسائل الشيعة: ج٢ ص٤١٤ وحديث الثقلين مشهور لدى الجميع.

وهكذا جاء في سبب نزول السورة: «إن رسول الله ﷺ دخل من باب الصفا، وخرج من باب المروة فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو آنفا؟ قال ذلك الأبتر، يريد به النبي ﷺ حتى أنزل الله هذه السورة»[١].

ونجد في النصوص التي تفسر هذه الكلمة إشارة إلى أهل بيت النبي، وكيف يذاد عن حوض الكوثر من ظلمهم من بعده. فقد أخرج ابن مردويه عن أنس قال: «دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: **قَدْ أُعْطِيتُ الْكَوْثَرَ**. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله وَمَا الْكَوْثَرُ! قَالَ ﷺ: **نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ عَرْضُهُ وَطُولُهُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَا يَشْرَبُ أَحَدٌ مِنْهُ فَيَظْمَأَ وَلَا يَتَوَضَّأُ أَحَدٌ مِنْهُ فَيَشْعَثَ أبداً، لَا يَشْرَبُهُ إِنْسَانٌ أَخْفَرَ ذِمَّتِي وَقَتَلَ أَهْلَ بَيْتِي**»[٢].

ومن هنا ذكر الفخر الرازي هذا القول وأيده ببعض الشواهد. فقال: القول الثالث: الكوثر أولاده، لأن هذه السورة إنما نزلت على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد، فالمعنى: «أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت عليهم السلام ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم»[٣].

ويبقى سؤال: هل الكوثر في القيامة حوض كبير في مدخل الجنة أم نهر كريم في عرصاتها؟ لعل الكوثر نهر يفيض خيره إلى مداخل الجنة ويصب في حوض عظيم. دعنا -في خاتمة الحديث عن الكوثر- نذكر بعض الأحاديث في صفة ذلك النهر والحوض.

جاء في حديث مسند إلى ابن عباس أنه قال: «لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: **مَا هُوَ الْكَوْثَرُ يَا رَسُولَ الله؟** قَالَ ﷺ: **نَهْرٌ أَكْرَمَنِي اللهُ بِهِ**، قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: **إِنَّ هَذَا النَّهَرَ شَرِيفٌ فَانْعَتْهُ لَنَا يَا رَسُولَ الله**، قَالَ ﷺ: **نَعَمْ يَا عَلِيُّ الْكَوْثَرُ نَهْرٌ يَجْرِي تَحْتَ عَرْشِ الله تَعَالَى مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، وَحَصَاهُ [حَصْبَاؤُهُ] الزَّبَرْجَدُ وَالْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ حَشِيشُهُ الزَّعْفَرَانُ تُرَابُهُ الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ قَوَاعِدُهُ تَحْتَ عَرْشِ الله عَزَّ وَجَلَّ**. ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ يَدَهُ فِي جَنْبِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَقَالَ ﷺ: **يَا عَلِيُّ إِنَّ هَذَا النَّهَرَ لِي وَلَكَ وَلِمُحِبِّيكَ مِنْ بَعْدِي**»[٤].

وأورد مسلم في صحيحه عن أنس أنه قال: «بَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا

(١) الدر المنثور: ج ٦ ص ٤٠١.
(٢) الدر المنثور: ج٦ ص ٤٠٢، شواهد التنزيل: ج٢، ص٤٨٧.
(٣) التفسير الكبير: ج ٣٢، ص١٢٤.
(٤) بحار الأنوار: ج٨ ص١٨.

إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً فَقُلْتُ مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ الله؟. قَالَ ﷺ: أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ. فَقَرَأَ: بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟. قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ ﷺ: فَإِنَّهُ نَهَرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْراً كَثِيراً هُوَ حَوْضِي تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ: ما تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ»(١).

[٢] لا يبلغ العبد كمال الانتفاع بنعم ربه إلا بمعرفة الله. والتقرب إليه زلفى. أرأيت الذي أسبغ الله عليه نعمة الأمن والعافية والغنى، ولكنه يجحد ربه كيف يفسد تلك النعم بكفرانها؟! فيستغل الأمن في إشاعة الفساد، والعافية في اتباع الشهوات، والغنى في الطغيان! كما يفسد النعم بالحرص والطمع والقلق والقنوط وسوء الخلق.

وأعظم نعم الله على الإنسان الرسالة لأنها تهديه إلى سبل السلام وتعينه في تسخير الحياة، وترشده إلى العيش الأفضل، ولكن الرسالة بدورها لا يحتملها إلا من عرف الله، وشكره عليها بالعمل والأداء.و الصلاة والزكاة هما عمودا الرسالة الإلهية، لأن الصلاة توصل الإنسان بنور ربه، والزكاة تطهر قلبه من الشح والاستئثار وعبادة الدنيا.. وهكذا أمر الله بهما بعد بيان نعمة الكوثر، فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فكلما ازداد الإنسان يقينا بربه -عبر الصلاة والزكاة- كلما ازداد هدى وفوزا وانتفاعا بنعم الله وبالذات بنعمة الكوثر، التي هي كتاب الله وعترة رسول الله. وأنى كانت الصلاة: صلاة العيد في اليوم العاشر من ذي الحجة، أو صلاة الصبح في المزدلفة، أو كل صلاة فريضة، فإنها بالتالي الشكر المناسب لنعمة الكوثر. وكذلك النحر سواء كان الأضحية في يوم العيد بمنى أو أية أضحية وأي نسك، فإنه يقوم بدوره في تطهير القلب.

وقد اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية كما في الآية السابقة على أقوال شتى، يمكن جمعها في معنى عام واحد، بيناه آنفا. بيد أن هناك نصوصا تصرح بأن النحر هنا رفع الأيدي باتجاه القبلة عند الصلاة.. إليك بعضها:

جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سُئل عن الآية: «فَقَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا، يَعْنِي اسْتَقْبَلَ بِيَدِهِ حِذَاءَ وَجْهِهِ الْقِبْلَةَ فِي افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ»(٢).

وأخرج البيهقي في سننه وغيره عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «لَمَّا نَزَلَتْ

---

(١) صحيح مسلم: ج٢، ص١٢.
(٢) وسائل الشيعة: ج٦، ص٣٠.

هَذِهِ السُّورَةُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ جَبْرَئِيلَ مَا هَذِهِ النَّحِيرَةُ الَّتِي أَمَرَنِي بِهَا رَبِّي؟. قَالَ: لَيْسَتْ بِنَحِيرَةٍ وَلَكِنَّهُ يَأْمُرُكَ إِذَا أَحْرَمْتَ لِلصَّلَاةِ أَنْ تَرْفَعَ يَدَيْكَ إِذَا كَبَّرْتَ، وَإِذَا رَكَعْتَ، وَإِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ، [وَإِذَا سَجَدْتَ، وَإِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنَ السُّجُودِ] فَإِنَّهُ صَلَاتُنَا وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ زِينَةً وَإِنَّ زِينَةَ الصَّلَاةِ رَفْعُ الْأَيْدِي عِنْدَ كُلِّ تَكْبِيرَةٍ»(١).

وإني لم أصل إلى معنى جامع يستوعب هذا التفسير، والتفسير السابق الذي ورد بعض النصوص تؤكده أيضاً، بلى، قد نقول: إن رفع اليد علامة الاستعداد للتضحية بالنفس كأن الإنسان يشير إلى نحره، وأنه يقدمه قربانا لربه، بينما نحر البدن في منى هو المعنى الحقيقي للكلمة.

وأنى كان فقد روي عن سعيد بن جبير أنه قال: «كَانَتْ هَذِهِ الآيَة يَوْم الْحُدَيْبِيَةِ، عِنْدَمَا صَالَحَ النبيُّ قُرَيْشاً، أَتَاهُ جَبرَائيل فَقَالَ: انْحَر وَارجع..» (٢).

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أن معنى النحر الاستعداد في القيام قال: «النَّحْرُ الِاعْتِدَالُ فِي الْقِيَامِ أَنْ يُقِيمَ صُلْبَهُ وَنَحْرَهُ»(٣).

وإلى هذا ذهب طائفة من المفسرين حيث قالوا: ﴿وَٱنْحَرْ﴾: بمعنى ابدأ النحر، ولا يبدأ النحر إلا عند الاعتدال، وقالوا أن منه التناحر بمعنى التقابل، ولكن يبدو أن المعنى الأول ينسجم مع ظاهرة قرآنية: فلا يذكر الصلاة إلا مقرونة بالزكاة أو الإنفاق.

[٣] من إعجاز القرآن أنه بشر رسوله بالكوثر، يوم كانت عصابات قريش تحاصره، وتعذب أنصاره، وتكاد تقضي عليه، واليوم أصبح دين الإسلام ظاهرا في الأرض، والرسول أعظم شخصية عبر العصور وفي كل الآفاق.. بينما انقطع نسل شانئيه، وأصبحوا أحاديث وعبر، كما قال ربنا سبحانه. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ لقد قطع ذكره إلا باللعنة والبراءة. سواء كان هذا الشانئ هو العاص بن وائل أو أبو جهل أو عقبة بن أبي معيط أو غيرهم، وسواء كانت مناسبة حديثهم عن الرسول بموت القاسم ابن رسول الله في مكة، أو إبراهيم ابنه في المدينة فإن الأمر لا يختلف، إذ أن ذلك الخط الجاهلي قد انقطع وانبتر، وبقي خط النبي ﷺ يضيء عبر العصور. والشانئ: هو العدو الحاقد، والأبتر: من البتر بمعنى القطع، وكانت العرب تسمي الذي لا ولد له بالأبتر، وقيل: اتهم النبي بهذه الصفة لأنه تركهم وانبتر عنهم وخالفهم، ولكنهم هم الذين انبتروا وأصبحوا شذاذا.

---

(١) السنن الكبرى: ج٢، ص٧٦، بحار الأنوار: ج٨١ ص٣٥١.
(٢) الدر المنثور: ج٦، ص٤٠٢.
(٣) الكافي: ج٣، ص٣٣٦.

سورة الكافرون

* مكية.

* عدد آياتها: ٦.

* ترتيبها النزولي: ١٨.

* ترتيبها في المصحف: ١٠٩.

* نزلت بعد سورة الماعون.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام: «مَنْ قَرأَ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فِي فَرِيضَةٍ مِنَ الْفَرائِضِ غَفَرَ اللهُ لَهُ ولِوَالِدَيْهِ ومَا وَلَدَا وإِنْ كَانَ شَقِيّاً مُحِيَ مِنْ دِيوَانِ الأَشْقِيَاءِ وأُثْبِتَ فِي دِيوَانِ السُّعَدَاءِ وأَحْيَاهُ اللهُ سَعِيداً وأَمَاتَهُ شَهِيداً وبَعَثَهُ شَهِيداً».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٨٢)

الإطار العام

براءة التوحيد من الشرك

هل تدري لماذا اعتبر الرسول الأكرم -حسب رواية معروفة- سورة الكافرين ربع القرآن؟ ربما لأن نصف القرآن أو يزيد يهدي إلى حقائق التوحيد، والتوحيد -بدوره- يتشكل من جزأين: الإيمان بالله، ونفي الشركاء، ونجد في هذه السورة عصارة رفض الشركاء في ربع القرآن.

وتتكرر في هذه السورة كلمات البراءة مما يعبد المشركون، وأن الرسول لن يؤمن بما يؤمنون به من الأصنام، لينفصل وبوضوح خط التوحيد عن خط الشرك.

لكم دينكم ولي دين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ
عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] هناك حقائق تكفينا معرفتها ووعيها والعمل بها، بينما لا يكفي ذلك في حقائق أخرى مثل نفي الشركاء إذ لا بد في مثلها من البراءة عنهم، والكفر الصريح بهم، وتحدي سلطانهم الثقافي والسياسي والاجتماعي حتى يخلص إيمان العبد، ولذلك جاءت بعض آيات التوحيد متوجة بكلمة ﴿قُلْ﴾ التي تطالبنا بموقف واضح فاصل حاسم من الشركاء، أي من القوى الجاهلية التي تتسلط على رقاب العباد، ومن القيم الفاسدة التي تحز في النفس، ومن السلوك الفاسد الذي يصبغ حياة الناس.

﴿قُلْ﴾ بكل وضوح، لأن كلمة الرفض قد تكون أشد من الرفض ذاته، لأنها تشجع الآخرين عليه، ألا ترى كيف أن الكثيرين قد يعارضون حكومة جبار في السر، ولكن القليل منهم يعلنون رفضهم له إعلانا. والله يأمرنا بإعلان الرفض وفي صيغة خطاب موجه إلى الكافرين جميعا، الغائبين منهم والحاضرين. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إنها الشهادة التي أمرنا بها، والتي نرددها من أعلى المنابر، في مواقيت الصلاة وعند خواتيم الفرائض، الشهادة بالتوحيد التي تعني صراحة رفض الأنداد والشركاء، كما تعني الحضور في ساحة المواجهة ضد هؤلاء الشركاء ثم الصراع الشامل معهم، ذلك أن الشركاء ليسوا أشباحا أو نظريات، أنهم حقائق ثقيلة تمشي على الأرض بالجبروت والفساد، فالشهادة على رفضهم تعني الحضور في

سوح الصراع معهم.

[٢] ورفض المجتمع الجاهلي، وهدم كيانه الظالم لا يكون إلا برفض مقدساته وقيمه، وما يعبدونه من دون الله، رفض تقديس الآباء الذي يعني الجمود والتقليد والاسترسال، رفض تقديس الأرض والمصالح العشائرية والطائفية والحزبية والإقليمية والقومية، رفض الثقافات والشرائع الباطلة التي أضفوا عليها القداسة. كلا.. ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ ذكر الرواة: أن سادة قريش لقوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! هلم فلنعبد ما تعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وان كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾[1] وأضيف -في رواية أخرى- فيئسوا منه، وآذوه وآذوا أصحابه.

ومعروف: أن الآية أوسع دلالة من تلك الواقعة، فإن نفي عبادة الرسول لما يعبدون يشمل تحديه لمجمل قيمهم الجاهلية، وكياناتهم الظالمة. وكلمة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يشمل كل شيء يعبد من دون الله، سواء تمثل في أشخاص أو أصنام أو قيم وهكذا كان نفي ﴿مَا﴾ أشد وضوحا وأشمل من نفي «من» وتدل على غير العاقل.

[٣] هل يشترك الكافرون في أمر العبادة مع المؤمنين شيئا؟ كلا.. إنهم يعبدون إلها يختلف كليا عن رب العالمين الذي يعبده المؤمنون. أولئك يعبدون ربا عاجزا أمام قوة الشركاء، محتاجا إلى دعم الأنداد، لا يهيمن على تدبير الكائنات، بينما المؤمنون يعبدون ربا قوياً مقتدراً، لا يعجزه شيء، رباً جباراً مهيمناً مدبراً. فليس ما يعبده الكافرون هو ما يعبده المؤمنون، بل إنه لمختلف جدا. ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ وأنى لقلب واحد أن يجتمع فيه معرفة الله المتكبر الجبار مع الإيمان بالجبت والطاغوت، أو هل يجتمع النور والظلام؟!.

[٤] والذي يعبد الجبت والطاغوت ولا يتحدى سلطة المستكبرين، وقيم الجاهلين لا يكون عابداً لله، وحاشا رسول الله ولمن اتبع هداه أن يختاروا الكفر بعد الإيمان، والضلال بعد الهدى، حتى لو تعرضوا الألوان العذاب. ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ إن من علامة صدق الإيمان، وأنه وقر مستقر في فؤاد صاحبه أنه يعقد عزمات قلبه على تحدي كل الضغوط في سبيله حتى يأتيه اليقين، فيلقى ربه بإيمان لا ظلم فيه، وإسلام لا استكبار معه. وإلا فإن كل الناس حتى أسوأ الجاحدين يمرون عادة بلحظات إيمانية، أوليسوا يولدون على فطرة الإيمان، أو لا ترى كيف يجأرون إلى ربهم في البأساء والضراء؟ بلى، ولكنهم سرعان ما يشركون بربهم بسبب

(١) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص ٢٢٥.

الشهوات، أو ضغط الطغاة والمجتمع الفاسد.

[٥] وكذلك يتمايز خط الإيمان والشرك ولن يلتقيا على محور واحد، فلا ترى أحدا من الكفار بالله أبدا عابدا له، كيف وأن أول ما يأمر به الله هو الكفر الطاغوت ومقاومة الجبت: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي أنهم حال شركهم بالله ليسوا من الله في شيء، لأن الشرك حجاب بين الإنسان وربه، حجاب في القلب وحجاب في السلوك، وإنما تتجلى قيمة الإيمان في كبح جماح التكبر في النفس، وكبح جماح المستكبرين في المجتمع، ليتحرر الإنسان من الجبت والطاغوت، ويعود إلى نور عقله وصفاء فطرته، ويمضي قدماً في تسخير الطبيعة في الدنيا، وابتغاء مرضاة الله ونعيم الجنة. أما المستسلم للضغوط، المسترسل مع شهوات النفس وأهواء المتجبرين، فإنه ليس بمؤمن بالله. أوليس الإيمان بالله يعطي الإنسان بصيرة وعزما، وحكمة وشجاعة، عقلا وتوكلا؟ وهل يمكن لمن أوتي تلك الصفات المثلى أن يتبع هواه ويطيع الطغاة؟.

[٦] وهكذا استبان طريق الضلال عن سبيل الله، ودين الكفار عن دين الحق. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ والدين هو المنهج المتكامل الذي يلتزم به الإنسان في حياته، ولا يجتمع منهج الله مع منهج الشرك، وقال بعضهم: الدين هنا بمعنى الجزاء، فمعناه: أن لكل شخص جزاء عمله وعبادته. إن خيرا فخير وإن شرا فشر. والمعنى الأول أوفق مع السياق؛ لأن جوهر الدين العبادة، فمن عبد الله دان بدينه، ومن عبد الشركاء دان بدينهم. وهذه البراءة الصريحة من دين الشرك هي التي ميزت دين الله عن دين الأدعياء، وميزت عباد الله عن عبد الطاغوت، وميزت خط الرسالة الأصيل عن سبل الضلال.

إن المشركين والمستكبرين والمترفين حاولوا عبر التاريخ التقاطع مع المؤمنين الصادقين بالترغيب والترهيب فلم يفلحوا، وكان هدفهم استخدام اسم الدين وشعاراته لتمرير فسادهم وظلمهم، وإضفاء الشرعية على تجبرهم واستغلالهم، ولقد بقي رجال الله المخلصون صامدين أمام تلك المحاولات بتوفيق الله، وبالرغم من تعرضهم لشتى ألوان الأذى.

وجاءت هذه السورة التي استفاضت على أهميتها النصوص الشرعية، وثيقة براءة من المشركين، وسدا منيعا أمام محاولاتهم التأثير في التجمع الإيماني.و إنما تكررت آيات النفي لتأكيد هذه البراءة وذلك الفصل، ومن عادة العرب التكرار للتأكيد وأنشدوا للشاعر:

يا أقرع بن حابس يا أقرع   إنك إن يصرع أخوك تصرع

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام عن سبب نزولها وتكرارها:

«أَنَّ قُرَيْشاً قَالَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ تَعْبُدُ آلِهَتَنا سَنَةً، وَنَعْبُدُ إِلهَكَ سَنَةً، وَتَعْبُدُ آلِهَتَنا سَنَةً، وَنَعْبُدُ إِلهَكَ سَنَةً، فَأَجَابَهُمُ اللهُ بِمِثْلِ مَا قَالُوا؛ فَقَالَ: فِيمَا قَالُوا تَعْبُدُ آلِهَتَنا سَنَة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ وَفِيمَا قَالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ سَنَة ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، وَفِيمَا قَالُوا تَعْبُدُ آلِهَتَنا سَنَة ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، وَفِيمَا قَالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ سَنَة ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾»[1].

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٤٤٥، بحار الأنوار: ج٩ ص٢٥٣.

سُورَةُ النَّصْرِ

* مدنيّة.

* عدد آياتها: ٣.

* ترتيبها النزولي: ١٠٢.

* ترتيبها في المصحف: ١١٠.

* نزلت بعد سورة الحشر.

فضل السورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فِي نَافِلَةٍ أَوْ فَرِيضَةٍ نَصَرَهُ اللهُ عَلَى جَمِيعِ أَعْدَائِهِ وجَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ومَعَهُ كِتَابٌ يَنْطِقُ قَدْ أَخْرَجَهُ اللهُ مِنْ جَوْفِ قَبْرِهِ فِيهِ أَمَانٌ مِنْ جِسْرِ جَهَنَّمَ ومِنَ النَّارِ ومِنْ زَفِيرِ جَهَنَّمَ فَلَا يَمُرُّ عَلَى شَيْءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بَشَّرَهُ وأَخْبَرَهُ بِكُلِّ خَيْرٍ حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ويُفْتَحُ لَهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ مَا لَمْ يَتَمَنَّ ولَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِهِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص١٤٥)

الإطار العام

منهاج النصر الإلهي

بعد جهاد دائب، وانتظار طويل يأتي نصر الله والفتح، الذي لا يبتغي المؤمنون من ورائه سوى هداية الناس إلى الحق.. وهكذا تراهم فرحين حين يجدون الناس يدخلون في دين الله أفواجا.. إنها بشارة عظمى ولكنها لن تدعوهم إلى الغرور، بل يتخذونها معراجا روحيا لنفوسهم الوالهة بحب الله، فيسبحونه ويحمدونه ويستغفرونه.

والتسبيح سبيل معرفة الله والتقرب إليه والحمد وسيلة منع الغرور والكبر عن النفس، والاستغفار طريق تكميل النواقص.. وهكذا توجز هذه السورة الكريمة برنامج المؤمن عند النصر وعند أي فضل يصيبه من عند الله.

سبح بحمد ربك واستغفره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

بينات من الآيات:

[١] وتتظاهر القوى السياسية والاقتصادية والإعلامية ضد الرسالة ويحاصرونهم من كل صوب، وتضيق بهم السبل، ويلقي الشيطان وساوسه في أفئدتهم، ويظنون بالله الظنون، ويطول ليل الانتظار، وينادي الجميع: متى نصر الله؟.

وجاء نصر الله، يسعى إليهم من ضمير الغيب، حيث يعرف المؤمنون بوعيهم السياسي والحركي، وببصائر قلوبهم العارفة أنهم كانوا أعجز من اقتناص النصر بقواهم الذاتية، وإنما هو نصر الله الذي هزم عدوهم بالرعب، وأيدهم بالثبات والاستقامة، وألف بين قلوبهم بالإيمان. وأتبع الله النصر بنصر آخر، وتلاحقت الانتصارات حتى جاءهم الفتح المبين، هناك بلغ المؤمنون أعظم أمانيهم، حيث رأوا الناس يدخلون في دين الله أفواجا. ثم يعاني الداعية حين يرى الناس في ضلال مبين، ويجد القوى الجاهلية تقف حاجزا دون انتشار هدى الدين إلى القلوب المظلمة، وربما بلغ الحزن ببعض الدعاة أن يموتوا كمداً، ولهذا ينهى الله رسوله من ذلك بقوله سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]. واليوم يعمهم الفرح حين يرون كيف تساقطت الحواجز وانتشر نور الهدى.

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ قالوا عن هذا النصر: أنه نصر الله رسوله على قريش في المعارك التي دارت بينهم، وقيل: بل نصره على سائر الكفار، أما الفتح، فقالوا: أنه فتح مكة،

وهذا يتناسب وما جاء في وقت نزول السورة، حيث روي: أنها نزلت بعد فتح مكة، وذكر في حديث آخر: إنها آخر سورة نزلت على الرسول، فقد جاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ** صلى الله عليه وآله **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ **وَآخِرُهُ** ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾»[1] وقيل: «**أنها نَزَلَتْ بِمِنَى فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ**»[2]

وقد كانت تسمى هذه السورة بسورة التوديع لأنها -حسب الرواية التالية- نعت إلى الرسول نفسه، هكذا يقول ابن عباس: «**لَمَّا نَزَلَت** ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ **قَالَ** صلى الله عليه وآله **نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي بِأَنَّهَا مَقْبُوضَةٌ فِي هَذِهِ السَّنَة**»[3].

وربما السبب في ذلك أن السورة قد أوحت إليه أن مسؤولية الرسول كمُبلِّغ وداعية إلى الله قد أُكملت، لذلك كان عليه أن يستعد للرحيل.

[٢] النصر أو الفتح ليسا هدفا بذاتها عند المؤمنين، إنما وسيلة إلى هدف أسمى هو هداية الناس إلى نور الرسالة. ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا﴾ فعندما تهاوت حجب الضلال ورأى الناس نور الدين فوجدوه دين الفطرة والعقل، دين الحكمة والسماحة دخلوا فيه فوجا بعد فوج، يقود كل فوج إمامهم وداعيتهم، والسابق منهم إليه، وقد قال المفسرون: أنها نزلت في أهل اليمن الذين توافدوا على النبي صلى الله عليه وآله أفواجا، تقول الرواية المأثورة عن ابن عباس: «**أَنَّ النبي** صلى الله عليه وآله **قَرَأَ** ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ **وَجَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ رَقِيقَةً أَفْئدَتُهم، لَيِّنَةً طِبَاعَهُم، سَخِيَّةً قُلوبُهُم، عَظِيمَةً خَشْيَتُهم، فَدَخلوا** ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجًا﴾»[4]. وهكذا انتشر نور الإسلام بعد فتح مكة في كافة أرجاء الجزيرة العربية، وبدأ المسلمون يتحفزون للانبعاث الكبير في أرجاء الأرض.

وتهدينا بصائر هذه السورة وهدى سيرة النبي صلى الله عليه وآله وعبر تاريخ الحركات الدينية: أن علينا أن نعقد العزم على تحطيم قلاع الكفر المتقدمة قبل نشر الرسالة، فما دامت تلك القلاع تدافع عن قيم الجهل والتخلف، وتمنع الناس بالترهيب والتضليل والترغيب عن التغيير والإصلاح، لا ينفع التبليغ والتبشير كثيرا، ومن أجل هذا قاتل كثير من الأنبياء والربانيون، ومن أجل هذا جاهد الرسول الأكرم، ومن أجل هذا ينبغي أن يجاهد ويقاتل كل مبلغ وداعية من يقف دون انتشار الدين.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٢٨.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٤٤٦، بحار الأنوار: ج٢٧ ص٦٨.

(٣) بحار الأنوار: ج٢١، ص١٠٠.

(٤) تفسير القرطبي: ج ٢٠، ص٢٣٠.

[٣] لأن النصر من عند الله ينبغي أن نشكر الله عليه، ونسبحه ونقدسه، ونطهر بذلك أفئدتنا من تلك الوساوس الشيطانية التي أصابتها أيام المحنة، فزعم البعض: أن الله تعالى قد أخلف وعده، أو أنه سبحانه لم يقدر على النصر أو ما أشبه، مما يعبر عنه القرآن الكريم بالزلزلة حيث يقول: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وها هو النصر قد أقدم، فلنغسل بمياهه المتدفقة آثار الهزيمة، ولنسبح الله. ثم إن للنصر كما للهزيمة آثاراً سلبية كالغرور والتكبر والتعالي والتطرف، وعبر الإيمان بالله، والمزيد من اليقين يمكن السيطرة على تلك الصفات.. من هنا أمر الله بالتسبيح والحمد وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ثم إن المؤمن يتخذ من كل حادثة أو ظاهرة معراجا لروحه، ووسيلة لتكامل نفسه، وتنامي صفات الخير فيها، والنصر واحد من أشد الحوادث أثرا في النفس البشرية، ولذلك يتخذه المؤمن وسيلة للتعرف على ربه، والتقرب إليه.

والتسبيح تقديس الله عن صفات المخلوقين وعن إحاطة علمهم به، بينما الحمد نعت لله بالأسماء الحسنى وما فيها من صفات الجلال والجمال، ويقدم التسبيح على الحمد لأن إثبات صفة لله قد يوحي ببعض آثاره السلبية، فإثبات القدرة قد توحي بالظلم، وإثبات الرحمة قد توحي بتجاوز الحكمة، بينما ربنا مقتدر عدل ورحيم حكيم.

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ويبقى طريق الكمال مفتوحا أمام الإنسان، وتبقى تطلعاته إلى التسامي مشروعة، والاستغفار أقرب وسيلة إلى تحقيقها؛ لأنه يوقف الإنسان على نقاط ضعفه، ومواقع عجزه، ويحسسه من جهة بمدى حاجته إلى الكمال. ومن جهة أخرى بإمكانية ذلك. وحينما يحس الإنسان بضعفه وعجزه ودرجات قصوره وتقصيره يعتريه شعور عميق باليأس من إصلاح نفسه لولا التوجه إلى الله، والتذكر بأنه تواب رحيم. وحينما يستغفر المنتصر ربه لا يخضع لحب الانتقام من أعدائه الذين انتصر عليهم، بل يتحلى بروح التسامح والعفو، أوليس يطلب الغفران من ربه والعفو، إذاً فليعفو وليغفر للمذنبين حتى يعفو عنه الله ويغفر له.

سورة المسد

* مكية.

* عدد آياتها: ٥.

* ترتيبها النزولي: ٦.

* ترتيبها في المصحف: ١١١.

* نزلت بعد سورة الفاتحة.

فضل السّورة

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذَا قَرَأْتُمْ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ فَادْعُوا عَلَى أَبِي لَهَبٍ فَإِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ الله».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٧٤)

الإطار العام

عاقبة الكفر الخائن

لقد قطع رحمه وخان، وكان عليه أن يدافع عن ابن أخيه في عرف العرب وقيمهم على الأقل، قطع الله يديه وقطعه، وأهلكهما وأهلكه.

فهل نفعته أمواله التي من أجلها خرج على أعراف العرب وقيم بني هاشم. كلا.. كان يُدعى أبا لهب، فأمسى يَصلى لهباً، وهكذا امرأته التي مشت بالنميمة، وأشعلت نيران الفتنة وكان عنقها محاطاً بحبل من مسد ومن ليف النخل.

تبت يدا أبي لهب وتبت

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

بينات من الآيات:

[١] كان من أشراف قريش، انتقلت إليه زعامة بني هاشم بعد أخيه الراحل أبي طالب عليه السلام وكان عليه أن يجسد قيم آبائه وعشيرته الذين ورثوا حنفية إبراهيم الخليل عليه السلام وأن يدافع عن ابن أخيه حسب أعراف العرب العشائرية. ولكنه -فيما يبدو- تحالف مع العشيرة المناوئة من بني أمية، وربما بسبب زوجته أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب، أو لأنه كان ذا ثروة طائلة، فمال إلى الطبقة الأثرى في قريش، أو لأي سبب آخر فقطع رحمه، وانسلخ عن حسبه، وعادى النبي بأشد ما تكون العداوة. كان يمشي في طرقات مكة وراء النبي ويحذر الناس منه ومما يزعم.. أنه ساحر، وكان الناس يعلمون أنه كبير بني هاشم وأنه يصدق في أمرهم فيرجعون إليه، ولكنه كان يخون موقعه، ويتهم النبي بالكذب حينا وبالسحر حينا، وقد يفحش له في القول ويقول: تبا له.

يقول بعض المفسرين: كان إذا وفد على النبي صلى الله عليه وآله وفد انطلق إليهم أبو لهب، فيسألونه عن رسول الله صلى الله عليه وآله ويقولون له: أنت أعلم به منا، فيقول لهم أبو لهب: إنه كذاب ساحر، فيرجعون عنه ولا يلقونه، فأتى وفد، ففعل معهم مثل ذلك، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه، فقال لهم أبو لهب: إنا لم نزل نعالجه، فتبا له وتعسا. وكان هو وزوجته ينشدون شعراً بذيئاً ضد النبي، ويقولون:

مـذ مما عصـينا وأمــره أبيــنا ودينــه قليــنا

وفي يوم الدار حيث جمع النبي عشيرته الأقربين لينذرهم حسب أمر الله له، فلما طعموا وشربوا، قال أبو لهب: «سحركم محمد ﷺ إن أحدنا ليأكل الجذعة (ولد الشاة في السنة الثانية) ويشرب العس (القدح الكبير) من اللبن فلا يشبع، وإن محمدا قد أشبعكم من فخذ شاة وأرواكم من عس لبن».

وفي يوم الإنذار العام، حينما صعد النبي ﷺ الصفا، فهتف يا صباحاه! فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال لهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟! «قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: ﴿نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، فقال أبو لهب: تبا لك أما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام»[١].

هكذا أصبح عم النبي من أشد الناس عداوة له، وأكثرهم إيذاء، أو ليس الناس يزعمون أنه أعرف بالنبي من غيره باعتباره عم النبي وسيد عشيرته؟و هكذا نزلت السورة الكريمة في شأنه:

أولاً: ليفصح للناس مدى عداوته للنبي، فلا يعتبرونه خبيرا بشأنه، بل حسوداً كنودا وعدواً لدودا، ولا يأبهون بكلامه في حق النبي.

ثانياً: لكي لا يزعم أحد أن قرابته للنبي تمنحه البراءة من النار، والتحلل عن مسؤوليات الشريعة، فهذا عم النبي يختص بالتقريع، وتنزل في ذمه سورة باسمه مما لا نجده في حق أي من أعداء النبي المعاصرين له.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ قالوا: تبت: أي هلكت، أو خسرت، أو خابت، أو صغرت، أو قطعت، ولا بأس بتصور معنى جامع للكلمة تشتمل كل هذه المعاني. وقالوا في كنية الرجل أنها كانت بديلا عن اسمه، فلم يكن ذكر كنيته شرفا له بل ذما، لأن اللهب يعني شرر النار، ونعت أحد به لا يشرفه، وقد جعله الله عليه لهبا يوم القيامة، ثم إن اسمه كان عبد العزى، ولم يكن مناسبا ذكر هذا الاسم في كتاب ربنا، الذي يفيض بنور التوحيد والحنفية الطاهرة. ﴿وَتَبَّ﴾ هلك الرجل وخاب وخسر. قالوا: الكلمة الأولى دعاء عليه، وذكر اليد إشارة إلى الشخص ذاته، وهكذا تكني العرب عن الشيء بجزء، فتقول مثلا يد الرزايا، أو يد الدهر، أو ما أشبه، قال الشاعر:

ولقـد مـررت عـلى ديارهـم أطلالهـا بيـد البـلا نهـب

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص١٦٤.

أما الكلمة الثانية ﴿وَتَبَّ﴾ فهي خبر، أي أن أبا لهب قد هلك فعلا، وبذلك وقعت اللعنة المتوقعة عليه. ويبدو لي أن الكلمة الأولى دعاء على صفقة يديه وما تكسبه من فعل، والثانية عليه شخصيا، أو أن الثانية توضيح وتأكيد للأولى، ذلك أن سبب هلاك الإنسان ما تجنيه يده، فاللعنة تتوجه إليها، ثم إليه لأنه المسؤول عن فعلها، ولعل في الآية الثانية إشارة إلى ذلك.

[٢] أبو لهب -كما سائر المستكبرين والمعاندين- يتكلون على أموالهم وإمكاناتهم في مواجهة الحق، ولكن عندما يحين ميعاد الجزاء العادل لا يغني عنهم ذلك شيئا.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ فلا ثروته تغنيه عن الله شيئا، ولا ما اكتسبه بها وبغيرها من جاه وقوة، ومكانة اجتماعية. وهكذا يكون ما كسب أعم من المال، لأن المال بدوره من مكاسب الفرد، وقيل: أن ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ هو أولاده، ولعل الولد يعتبر مما يكتسبه الإنسان.

[٣] كلا.. النار تنتظره وسيصلاها، ليتحسس مباشرة حرها وألمها، وإذا كان أبواه قد وجدوا في وجنتيه لهباً اجتذبهم حتى كنياه بأبي لهب، فإن هذا الجمال الظاهري لم ينفعه، بل تحول في العقبى إلى نار لاهبة تحرقه. ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

[٤] وامرأة أبي لهب كانت أخت أبي سفيان، وعمة معاوية، وكانت -حسب الروايات- عوراء ولكنها سميت أم جميل، وكانت بذيئة اللسان، متكبرة، وشديدة العداء للرسول ولدعوته، كعداء أخيها أبي سفيان. قالوا: «أنها كانت بالغة الثراء، ولكنها من بخلها وشحها كانت تحمل الحطب ولا تشتريه»، وربما ألقت الأشواك في طريق النبي وسائر المسلمين إيذاءً لهم، وهكذا ألحقها الله بزوجها. ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وجاءت كلمة ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ منصوبة للدلالة على ذمها، وقد اختلفوا في تفسير الكلمة: هل نعتت بالبخل، وكيف أنها تدعي الشرف، وتحمل الحطب؟ أو أنها ذمت لإلقائها الأشواك في طريق النبي؟ أو لأنها كانت تمشي بالنميمة، والعرب تسمي من يفعل ذلك بحامل الحطب لأنه يشعل نار الفتنة بين الناس؟ وأنشدوا:

إن بنـي الأدرم حمالـو الحطـب ... هم الوشاة في الرضا وفي الغضب

إن أم جميل امرأة أبي لهب أتته حين نزلت سورة تبت ومع النبي ﷺ أبو بكر بن أبي قحافة فقال: يا رسول الله هذه أم جميل محفظة أي مغضبة تريدك ومعها حجر تريد أن ترميك به فقال: إنها لا تراني فقالت لأبي بكر أين صاحبك؟ قال: حيث شاء الله. قالت: لقد جئته ولو

أراه لرميته فإنه هجاني واللات والعزى إني لشاعرة (وفي رواية إني لسيدة) فقال: أبو بكر يا رسول الله لم ترك. قال: لا ضرب الله بيني وبينها حجابا»[1].

[٥] وإن الفتاة لتتزين بقلادة من الدر واللؤلؤ وسائر الأحجار الكريمة، ولكنها قد جعلت في عنقها حبلا من ليف النخل حينما احتملت حطبا وألقته في طريق الرسول، فهل يدل ذلك إلا على الخسة والدناءة. ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ قالوا: «الجيد: العنق، والمسد: الليف، وأنشدوا: ما مسد الخوص تعوذ مني». وقال البعض: «إن ذلك عذاب، أوعدها الله أن يجعل في جيدها حبلا من ليف يوم القيامة، لأنها أنفقت قلادة لها من جواهر في محاربة النبي».

(١) بحار الأنوار: ج١٧، ص٢٣٤.

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

* مكية.

* عدد آياتها: ٤.

* ترتيبها النزولي: ٢٢.

* ترتيبها في المصحف: ١١٢.

* نزلت بعد سورة الناس.

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مِائَةَ مَرَّةٍ حِينَ يَأْخُذُ مَضْجَعَهُ غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَ خَمْسِينَ سَنَةً».

(الكافي: ج٢ ص٦٢٠)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ مَضَى بِهِ يَوْمٌ وَاحِدٌ فَصَلَّى فِيهِ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ ولَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قِيلَ لَهُ يَا عَبْدَ الله لَسْتَ مِنَ الْمُصَلِّينَ».

(الكافي: ج٢ ص٦٢٢)

***

عنه عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً فِي دُبُرِ الْفَجْرِ لَمْ يَتْبَعْهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ذَنْبٌ وإِنْ رَغِمَ أَنْفُ الشَّيْطَانِ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٤٧٩)

***

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَنْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَقَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إِحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً حُفِظَ فِي دَارِهِ وفِي دُوَيْرَاتٍ حَوْلَهُ».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٢٧)

***

عن أبي الحسن الإمام الرضا عليه السلام قال: «مَنْ قَدَّمَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بَيْنَهُ وبَيْنَ جَبَّارٍ مَنَعَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْهُ يَقْرَأُهَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِنْ خَلْفِهِ وعَنْ يَمِينِهِ وعَنْ شِمَالِهِ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ رَزَقَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ خَيْرَهُ ومَنَعَهُ مِنْ شَرِّهِ».

(الكافي: ج٢، ص٦٢١)

الإطار العام

حقائق العرفان

هل لله نسب، وماذا أعد الكتاب للعلماء المتعمقين في حقل التوحيد؟ وكيف تختصر بضع كلمات بصائر الوحي في معرفة الرب، حتى تصبح ثلث القرآن المجيد.

بلى، إن سورة الإخلاص تنسب ربنا إلى التوحيد النقي، الذي يروي غليل المتعمقين في آخر الزمان، وتختصر هدى الكتاب في حقائق العرفان.

إنها تأمرنا بأن نقولها صريحة ونقية: الله أحد.

وماذا تعني الأحدية؟. تقول السورة: ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ الذي لا جوف له ولا أجزاء، ونتساءل عن تأويل الصمد؟. فتقول الآية التالية: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فلا تدخله أجزاء من خارجه سبحانه، ولا تخرج منه أجزاء إلى الخارج سبحانه، وتستفهم: ما حقيقة أحديته وصمديته، وتعاليه عن التناسل، وتقول الآية الخاتمة، حقيقة ذلك: أنه لا شبيه له ولا نظير، ولو كانَ والداً لكان ولدهُ شبيههُ وكفوهُ، وكذلك لو كان مولوداً لكان والده أعلى منه أو مساوياً له. سبحانه عن مجانسة مخلوقاته.

قل هو الله أحد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾.

بينات من الآيات:

[١] لا تستطيع الخروج من ظلمة الشرك لو لم تخرج من سجن الذات، ومعتقل هوى النفس، وإذا أمعنت النظر لرأيت جذر كل كفر وشرك وعصيان حب النفس وهواها، وحتى الذي يعبد الطغاة أو الأصنام فإنما يعبد هواه في صورة الطغاة، وشهواته في هيكل الأصنام. فإذا خرجت من حب الذات، وتحديت ظلمات الهوى فإنك تنطلق في رحاب التوحيد بإذن الله، بلا قيود وبلا حدود. كيف تخرج -إذاً- من سجن الذات؟ إنما بتحدي إرهاب الطغاة، وضلالات المجتمع، وخرافات الغابرين وما لديهم من مقدسات زائفة.

وتاريخ الموحدين يختصر الصراع المرير بينهم وبين دعاة الشرك والضلال.. ألم تقرأ نبأ النبيين والصديقين كيف تحدوا ظلمات عصورهم بنور التوحيد.. كل ذلك التاريخ الحافل تختصره في هذه السورة كلمة واحدة هي كلمة: ﴿قُلْ﴾ ومن دون الاستجابة لهذا الأمر الصريح لن تستطيع التعالي في سماء التوحيد، لأن التوحيد ذاته كسر قيود الشرك، وفك أغلال الضلال، لا بد أن تنهض إرادتك في ضميرك، وتتبلور روح التحدي في عقلك، وتنبعث فطرتك النقية الأولى من تحت ركام الجهل والغفلة والنسيان، لا بد لك من ذلك كله إذا أردت معرفته، والزلفى إليه ورضوانه، وجنته.

﴿هُوَ﴾ إنه الغيب الذي لا ولن تحيط به علما، يكفيك من شعاع نوره قبس يغمر وجودك ثم لا تكاد تتحمله. أنه الله الذي احتار فيه قلبك، فهو قريب منه يراه في كل شيء،

ولكنه في ذات الوقت بعيد لا يعرف ذاته. وجاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام في معنى ﴿هُوَ﴾ قال: «اسْمٌ مُشَارٌ وَمَكْنِيٌّ إِلَى غَائِبٍ، فَالْهَاءُ تَنْبِيهٌ عَنْ مَعْنًى ثَابِتٍ، وَالْوَاوُ إِشَارَةٌ إِلَى الْغَائِبِ عَنِ الْحَوَاسِّ، كَمَا أَنَّ قَوْلَكَ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الشَّاهِدِ عِنْدَ الْحَوَاسِ»[1]. إنه الذي تهفو إليه نفوسنا، وتتعلق بحبه أفئدتنا ويهفوا الجميع إلى قبسات وجهه الكريم، ويتعطشون إلى كأس محبته، وورد قربه. إنه بكلمة واحدة ﴿هُوَ﴾ نشير إليه دون أن نحدده أو نقيده، أو ندعي معرفة ذاته، أو توهم إنيته ومائيته. وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «رَأَيْتُ الْخِضرَ عليه السلام فِي الْمَنَامِ قَبْلَ بَدْرٍ بِلَيْلَةٍ، فَقُلْتُ لَهُ عَلِّمْنِي شَيْئاً أُنْصَرْ بِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، فَقَالَ: قُلْ يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَصَصْتُهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله فَقَالَ لِي يَا عَلِيُّ عُلِّمْتَ الِاسْمَ الْأَعْظَمَ فَكَانَ عَلَى لِسَانِي يَوْمَ بَدْرٍ وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ اغْفِرْ لِي وَانْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»[2].

﴿اللَّهُ﴾ وكفى؛ الإله: المعبود الذي تسبح له السموات والأرض، الذي يتحير فيه المتحيرون، ويلجأ إليه المستجيرون. وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام علي عليه السلام: «اللهُ مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ الَّذِي يَأْلَهُ فِيهِ الْخَلْقُ وَيُؤْلَهُ إِلَيْهِ، وَاللهُ هُوَ الْمَسْتُورُ عَنْ دَرْكِ الْأَبْصَارِ، الْمَحْجُوبُ عَنِ الْأَوْهَامِ وَالْخَطَرَاتِ»[3]. وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «اللهُ مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ الَّذِي أَلِهَ الْخَلْقُ عَنْ دَرْكِ مَائِيَّتِهِ، وَالْإِحَاطَةِ بِكَيْفِيَّتِهِ، وَيَقُولُ الْعَرَبُ أَلِهَ الرَّجُلُ إِذَا تَحَيَّرَ فِي الشَّيْءِ فَلَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْماً وَوَلِهَ إِذَا فَزِعَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا يَحْذَرُهُ وَيَخَافُهُ فَالْإِلَهُ هُوَ الْمَسْتُورُ عَنْ حَوَاسِّ الْخَلْقِ»[4].و هكذا تكون كلمة ﴿اللَّهُ﴾ حسب هذه الرواية مشتقة من إله، التي تجمع معاني المعبود، الذي يتحير فيه الناس، ويلجأ إليه المتحيرون.

﴿أَحَدٌ﴾ بالرغم من أن كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ مشتقة من واحد كما قالوا، إلا إنها أبلغ دلالة على معنى الوحدانية، وأنه سبحانه لا نظير له ولا شريك، ولا أعضاء فيه ولا أجزاء، لا في الواقع ولا في العقل والوهم سبحانه، وليس معنى الأحد والواحد أنه ثاني اثنين، أو أنه نوع من الأنواع، كلا.. إنه الواحد بلا عدد، الأحد بلا مثل ولا شبه. هكذا جاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما سأله أعرابي في يوم الجمل فقد روى: «إِنَّ أَعْرَابِيّاً قَامَ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَقُولُ إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ!، قَالَ: فَحَمَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ، قَالُوا يَا أَعْرَابِيُّ أَمَا تَرَى مَا فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ تَقَسُّمِ الْقَلْبِ!. فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام:

---

(١) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٢٢١.

(٢) التوحيد للصدوق: ص٨٩.

(٣) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٢٢.

(٤) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٢٢.

دَعُوهُ فَإِنَّ الَّذِي يُرِيدُهُ الْأَعْرَابِيُّ هُوَ الَّذِي نُرِيدُهُ مِنَ الْقَوْمِ (من توحيد الله ومعرفته حقا المراد من القوم أعدائه). ثُمَّ قَالَ عليه السلام: يَا أَعْرَابِيُّ إِنَّ الْقَوْلَ فِي أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

فَوَجْهَانِ مِنْهَا لَا يَجُوزانِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَجْهَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ، فَأَمَّا اللَّذَانِ لَا يَجُوزَانِ عَلَيْهِ فَقَوْلُ الْقَائِلِ وَاحِدٌ يَقْصِدُ بِهِ بَابَ الْأَعْدَادِ فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّ مَا لَا ثَانِيَ لَهُ لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْأَعْدَادِ.

أَمَا تَرَى أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَقَوْلُ الْقَائِلِ هُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ يُرِيدُ بِهِ النَّوْعَ مِنَ الْجِنْسِ فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ وَجَلَّ رَبُّنَا عَنْ ذَلِكَ وَتَعَالَى، وَأَمَّا الْوَجْهَانِ اللَّذَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ فَقَوْلُ الْقَائِلِ هُوَ وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ شِبْهٌ كَذَلِكَ رَبُّنَا وَقَوْلُ الْقَائِلِ إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَدِيُّ الْمَعْنَى يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقَسِمُ فِي وُجُودٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا وَهْمٍ كَذَلِكَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ»(1).

وهكذا تشترك الكلمة بيننا وبين ربنا، فنقول: هذا واحد من الناس، ونقول: الله واحد، ولكن هيهات ما بينهما التقاء، فأحدية ربنا ليست كخلقه. إنها أحدية شاملة، بينما خلقه متكثر متشابه، تعال نستمع في توضيح هذه البصيرة إلى حديث عن الإمام أبي الحسن عليه السلام وهو يحدد التشابه المستحيل. أنه في المعاني لا في الأسماء فإنها مشتركة، قال: «إِنَّمَا التَّشْبِيهُ فِي الْمَعَانِي فَأَمَّا فِي الْأَسْمَاءِ فَهِيَ وَاحِدَةٌ وهِيَ دَالَّةٌ عَلَى الْمُسَمَّى وذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ وإِنْ قِيلَ وَاحِدٌ فَإِنَّهُ يُخْبِرُ أَنَّهُ جُثَّةٌ وَاحِدَةٌ ولَيْسَ بِاثْنَيْنِ والْإِنْسَانُ نَفْسُهُ لَيْسَ بِوَاحِدٍ لِأَنَّ أَعْضَاءَهُ مُخْتَلِفَةٌ وأَلْوَانَهُ مُخْتَلِفَةٌ ومَنْ أَلْوَانُهُ مُخْتَلِفَةٌ غَيْرُ وَاحِدٍ وهُوَ أَجْزَاءٌ مُجَزَّاةٌ لَيْسَتْ بِسَوَاءٍ دَمُهُ غَيْرُ لَحْمِهِ ولَحْمُهُ غَيْرُ دَمِهِ وعَصَبُهُ غَيْرُ عُرُوقِهِ وشَعْرُهُ غَيْرُ بَشَرِهِ وسَوَادُهُ غَيْرُ بَيَاضِهِ وكَذَلِكَ سَائِرُ جَمِيعِ الْخَلْقِ فَالْإِنْسَانُ وَاحِدٌ فِي الِاسْمِ ولَا وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى واللهُ جَلَّ جَلَالُهُ هُوَ وَاحِدٌ لَا وَاحِدَ غَيْرُهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ ولَا تَفَاوُتَ ولَا زِيَادَةَ ولَا نُقْصَانَ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ الْمَخْلُوقُ الْمَصْنُوعُ الْمُؤَلَّفُ مِنْ أَجْزَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ وجَوَاهِرَ شَتَّى غَيْرَ أَنَّهُ بِالِاجْتِمَاعِ شَيْءٌ وَاحِدٌ»(2).

وتتجلى أحدية الله في معرفة هيمنته الشاملة على كل شيء، وأنه الفعال لما يريد، وأن له العبادة، وأن ما يعبد من دونه ليس بشيء.

أما خرافات الجاهلية التي تزعم: أن هناك قوة أخرى مستقلة غير قوة الخالق فهي ناشئة من الجهل بالله، وبأن خالق الكائنات يستحيل عليه العجز، والحد، والقيد، فكيف يكون ربنا مثلا عاجزا عن التخلص من إبليس - حتى إنه إنما خلق الخلق حتى يتخلص من الطينة الخبيثة

(1) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٠٦.

(2) الكافي: ج١ ص١١٨.

التي لا زالت معه منذ الأزل، والتي هي طينة إبليس؟! كلا.. أنه سبحانه هو خالق إبليس، ومهيمن عليه، فلا يجوز لنا عقلا عبادة إبليس واحدا من إلهين. وأسطورة النور والظلمة، وأنهما إلهان قديمان، وأن الظلمة دخلت في النور، أو أن النور دخلها وجاء هذا الخلق من تركيبهما كما تقول المانوية. إنما هي الأخرى ناشئة من الجهل بالله وبقدرته التي لا تحد ولا تقيد، وكيف يعجز رب يوصف بالقدرة، وتتجلى قدرته في هذه الكائنات العجيبة، كيف يعجز عن السيطرة على الظلام سبحانه؟! بل هو الذي جعل النور والظلمات بقدرته؟.

وهكذا الأساطير التي كانت وراء عبادة غير الله، والتي دخلت في الديانات السماوية أيضا مثل: الاعتقاد بأن للكائنات آلهة صغارا ولدها الإله الأكبر، هم بمثابة أبنائه وبناته سبحانه، بعضهم أقرب إليه من بعض، وأن على الناس التقرب إليهم، وإقامة تماثيل لهم، ولتحل فيها أرواحهم، وهذه هي منشأ خرافة عبادة الأصنام منذ كانت وإلى عصرنا الحالي. إن كل هذه الأساطير نشأت من الجهل بمقام الألوهية وإن خالق السموات والأرض، وما فيهن وما بينهن لن يكون عاجزا أو محدودا سبحانه! وإنه لو كانت معه طينة أبدية لكانت تلك هي الأخرى في مقام الربوبية، مقتدرة عالمة، ولكن كيف تجتمع قدرتان مطلقتان متضادتان، لا تستطيع إحداهما القضاء على الثانية. وبالتفكر في صنع الله وعظيم قدرته تتلاشى هذه الأساطير الزائفة، وتتجلى للإنسان قدرة الله غير المحدودة، التي تظهر في خلقه وفي النظام الذي أجراه في العالم، كما يظهر بوضوح أن هذا النظام وهذا الخلق ليسا بالإلهين من دونه، يعبدان، كما فعلت الجاهلية الحديثة التي استسلمت وعبدت المادة وقوانينها، وهما من خلق الله، وتتجلى بهما عظمته وقدرته سبحانه.

[٢] ومن مظاهر الأحدية، الصمدية التي تشير إلى حقائق شتى تجمعها بصيرة واحدة هي أن الله بلا أعضاء وأجزاء، ولا حالات تطرأ عليه سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ هكذا فسر الإمام الحسين بن علي عليه السلام كلمة الصمد حيث قال: «**الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ، وَالصَّمَدُ الَّذِي قَدِ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ، وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا يَنَامُ، وَالصَّمَدُ الدَّائِمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ**»(١). وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ** رضي الله عنه **يَقُولُ: الصَّمَدُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ الْغَنِيُّ عَنْ غَيْرِهِ**»(٢).

وقد ذُكر لكلمة الصمد زهاء عشرين معنى: إلا إن أمثلها الذي ترجع إليه سائرها: المصمت، الذي لا جوف له، ومنه الصمود والصامد، ولأن السيد العظيم يوصف بالشجاعة

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٢٣.
(٢) التوحيد: ص٩٠.

فإنه يسمى بالصمد لأنه لا يتزلزل. ولأن صفات الدوام والأحدية وما أشبه ناشئة من صفة الصمد؛ فإنها ذكرت من معاني الصمد، كما جاء في حديث مأثور عن الإمام زين العابدين عليه السلام حينما سئل عن معنى الصمد فقال: «**الصَّمَدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُ شَيْءٍ وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ**»(١).

وصفة الصمدية تتجلى أيضا في أنه لم يلد ولم يولد، إذ ولادته دليل إضافة جزء إليه لم يكن فيه، أو انفصال جزء منه كان فيه، والصمد الذي لا أجزاء له، لا يتصور فيه زيادة (بالتولد) ولا نقيصة (بالإيلاد). من هنا فسر الإمام الحسين عليه السلام معنى الصمد في السورة بالآية التالية فقال: «**فَقَالَ ﴿اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَال ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيفٌ كَالْوَلَدِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْكَثِيفَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَلَا شَيْءٌ لَطِيفٌ كَالنَّفْسِ وَلَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ الْبَدَاوَاتُ**(٢) **كَالسِّنَةِ وَالنَّوْمِ وَالْخَطْرَةِ وَالْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالْبَهْجَةِ وَالضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالرَّغْبَةِ وَالسَّأْمَةِ وَالْجُوعِ وَالشِّبَعِ تَعَالَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ وَأَنْ يَتَوَلَّدَ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيفٌ أَوْ لَطِيفٌ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لَمْ يَتَوَلَّدْ مِنْ شَيْءٍ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ شَيْءٍ كَمَا تَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ الْكَثِيفَةُ مِنْ عَنَاصِرِهَا كَالشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وَالدَّابَّةِ مِنَ الدَّابَّةِ وَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَالْمَاءِ مِنَ الْيَنَابِيعِ وَالثِّمَارِ مِنَ الْأَشْجَارِ وَلَا كَمَا تَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ اللَّطِيفَةُ مِنْ مَرَاكِزِهَا كَالْبَصَرِ مِنَ الْعَيْنِ وَالسَّمْعِ مِنَ الْأُذُنِ وَالشَّمِّ مِنَ الْأَنْفِ وَالذَّوْقِ مِنَ الْفَمِ وَالْكَلَامِ مِنَ اللِّسَانِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّمْيِيزِ مِنَ الْقَلْبِ وَكَالنَّارِ مِنَ الْحَجَرِ لَا بَلْ هُوَ اللهُ الصَّمَدُ الَّذِي لَا مِنْ شَيْءٍ وَلَا فِي شَيْءٍ وَلَا عَلَى شَيْءٍ مُبْدِعُ الْأَشْيَاءِ وَخَالِقُهَا وَمُنْشِئُ الْأَشْيَاءِ بِقُدْرَتِهِ يَتَلَاشَى مَا خَلَقَ لِلْفَنَاءِ بِمَشِيئَتِهِ وَيَبْقَى مَا خَلَقَ لِلْبَقَاءِ بِعِلْمِهِ فَذَلِكُمُ اللهُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد**»(٣). وهكذا استوحى الإمام الحسين عليه السلام من كلمة الصمد معاني لطيفة في التوحيد، ولو تدبرنا في معنى الصمد اللغوي الذي قلنا: بأنه المصمت الذي لا جوف له عرفنا كيف أنها صفة يتمايز فيها الخلق عن الخالق، فلا شيء من الخلق إلا وهو مركب من أجزاء في الواقع، وفي العقل، وفي الوهم، والتصور إلا الله الذي جل عن تركيب الصفات في أي أفق من تلك الآفاق.

إننا حسب معلوماتنا المحدودة عن الجسم نعرف أن كل شيء مركب من ذرات صغيرة، وأن في هذه الذرات فراغات هائلة، بحيث لو تصورنا طنا من الخشب يقع في مساحة عدة أمتار مربعة، ثم افترضنا أننا أعدمنا الفراغات في ذراتها لأصبحت في حجم صغير لا يقاس مع

---

(١) التوحيد: ص٩٠.

(٢) لعل معناها الطوارئ من الحالات المختلفة.

(٣) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٢٣.

حجمها السابق، ولكنها سوف تحتفظ بوزنها السابق أي ألف كيلو غرام، ويدل على ذلك أن المواد الثقيلة كاليورانيوم تحتوي على مثل ذرات الخشب والقطن إلا إن هذه الفراغات تردم، فتثقل المعادن حتى إن ما مقداره عشرين سنتيمترا مكعبا من اليورانيوم يقدر وزنه بطن. ومحدود أيضا بأنه ليس بنافذ في كل أبعاد الشيء أليس كذلك؟ بينما رب العزة لا يزيد أو ينقص لأنه كامل، ولو افترضنا فيه نقصا إذاً ما الفرق بينه وبين الكائنات التي خلقها، وإذا تساوى الخالق والمخلوق فلماذا أساسا نبحث عن خالق؟ أليس إنما هدانا العقل إلى الخالق لما رأينا من النقص والحاجة في المخلوقين، وأظهر مصاديق النقص: التركيب والتأليف، والزيادة والنقصان. فكيف نزعم وجود ذلك أيضا في الخالق؟.

من هنا ذكر الإمام الباقر عليه السلام معاني عديدة استوحاها من كلمة الصمد ثم قال: «**لَوْ وَجَدْتُ لِعِلْمِيَ الَّذِي آتَانِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حَمَلَةً لَنَشَرْتُ التَّوْحِيدَ وَالْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالدِّينَ وَالشَّرَائِعَ مِنَ الصَّمَدِ**»[1]. ونختم حديثنا عن الصمد برواية شريفة عن الإمام علي عليه السلام جمعت الكثير من معاني الصمد قال: «**تَأْوِيلُ الصَّمَدِ لَا اسْمٌ وَلَا جِسْمٌ وَلَا مِثْلٌ وَلَا شِبْهٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا تِمْثَالٌ وَلَا حَدٌّ وَلَا حُدُودٌ وَلَا مَوْضِعٌ وَلَا مَكَانٌ وَلَا كَيْفٌ وَلَا أَيْنٌ وَلَا هُنَا وَلَا ثَمَّةَ ولا علا ولا خلاء وَلَا مَلَأٌ وَلَا قِيَامٌ وَلَا قُعُودٌ وَلَا سُكُونٌ وَلَا حَرَكَات وَلَا ظُلْمَانِيٌّ وَلَا نُورَانِيٌّ وَلَا رُوحَانِيٌّ وَلَا نَفْسَانِيٌّ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ مَوْضِعٌ وَلَا يَسَعُهُ مَوْضِعٌ وَلَا عَلَى لَوْنٍ وَلَا عَلَى خَطَرِ قَلْبٍ وَلَا عَلَى شَمِّ رَائِحَةٍ مَنْفِيٌّ عَنْهُ هَذِهِ الْأَشْيَاء**»[2].

[٣] حين عرفنا استحالة التركيب في خالق السموات والأرض، واهتدينا إلى استحالة تولد شيء منه، وكيف ينفصل عنه جزء وهو صمد لا يتصور فيه التأليف والتركيب والأجزاء والأعضاء؟! وإذا عرفنا أنه لم يلد، نعرف أنه لم يولد، أليس الذي ينقص منه شيء، ويحتاج إلى تكميله بجزء يضاف إليه، وربنا تعالى غني عن الإضافة فكيف بالولادة من غيره؟! ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لم يلد كما تلد الكائنات المخلوقة، الكثيفة منها واللطيفة، وقد سبق توضيح ذلك آنفا في حديث الإمام الحسين عليه السلام.

وهذه الآية تنسف أسس الخرافات الجاهلية التي تمثلت وبصور شتى في المذاهب والمبادئ المختلفة، فإنها تأسست على تصور ولادة الكائنات من رحم خالقها سبحانه، فقال بعضهم: إن الخالق تأذى من طينة خبيثة ملازمة له فدخل فيها وتكونت من امتزاجها الخلائق؟ وقال آخرون: بل إن إبليس (أو الظلمة) قفزت إلى النور (أي الله في ظنهم) فأراد

---

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٣ ص٢٣٠.

النور التخلص منها، فكان كمن دخل الوحل كلما أراد الخروج منها ارتطم فيها أكثر، فكانت الكائنات من تداخلهما. وتطورت هذه الفلسفة عند البعض فقالوا: إن الخالق تَنَزل من عرشه فأصبح المخلوقات، وقال بعضهم: إن الله سبحانه فاض بوجوده فكانت الكائنات وهكذا رققوا العبارات ولكنهم لم يغيروا من جوهر النظرية شيئا. إن كل هذه الفلسفات قائمة على أساس التولد يقتضي تطورا في ذات الشيء وهو يتنافى وتعاليه سبحانه.

ولا فرق إذا أن تكون الولادة كثيفة كما الثمر من الشجر أم لطيفة كولادة الفكر من القلب، أليس القلب تطور حتى يفرز الفكر، كما ينفعل الشجر حتى يخرج الثمر؟ كلا. أن الخالق سبحانه قد أنشأ الكائنات من دون كيفية ولا تعب ولا معالجة ولا تفاعلات في ذاته أو تطورات سبحانه، وحين ينتفي التولد منه ينتفي تولده من غيره، لأن ما لا ينقص لا يزيد، أو قل: لا يحتاج إلى زيادة. ونفي الولادة بكل جوانبها ومعانيها يضع المخلوق في موقع العبودية المطلقة وينفي إضفاء أي نوع من القداسة الذاتية على أي شيء أو شخص من خلق الله إلا قيم الوحي الناشئة من دين الله، وهكذا يتساوى الخلق أمام الخالق، وأمام دين الخالق ولا يجوز لأحد أن يتعالى على غيره بزعم أنه أقرب إلى القدوس ذاتياً، وتبطل كل المذاهب العنصرية الظاهرة منها، والخفية.

[٤] وإذا اهتدينا إلى أن الله صمد لا جزء له، ولا تطور، ولا ولادة، فقد ارتفع الحجاب الأكبر الذي بيننا وبين الله، حجاب التشبيه الذي ينشأ من جهل الإنسان، ونقص مداركه. فلأن الإنسان لا يرى إلا نفسه والمخلوقات، يقيس خالقه بنفسه طوراً، والكائنات أطواراً. غافلاً على أن هذا القياس يتنافى والاعتقاد بالخالق أصلاً. أما إذا تذكر الإنسان هذه الحقيقة فإن الشبهات تنهاث من ضميره حتى يتطهر من أدرانها، ويتهيأ قلبه لاستقبال نور المعرفة. ويبدو أن كلمات الذكر الأساسية تذكرنا بهذه الحقيقة، أوليس التكبير هو تعظيم الله من الوصف. «الله أكبر من أن يوصف» والتسبيح هو تقديسه عما يخطر ببال البشر. من نقص وعجز، وشبه ونظير، وكذلك التهليل: نفي الشريك له، وهكذا يقول ربنا في ختام سورة الإخلاص: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ فإذا أردت معرفته أسقط عن نفسك قياسه بخلقه، وتسام عن دائرة المخلوق إلى أفق الخالق، ومن محيط الشهادة إلى أفق الغيب، ومن البحث عن الذات إلى تلقي نور الأسماء. ونفي المثيل والنظير نفي لكل صفة عجز وحد ونقص في الخالق، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما سأله بعضهم عن معاني سورة الإخلاص قال: «**قُلْ هُوَ الله أَحَد بِلَا تَأْوِيلِ عَدَد، الصمَد بِلا تَبْعِيضِ بِدَد، لَمْ يَلِدْ فَيَكُونُ مَورُوثاً هَالِكاً، وَلَمْ يُولَدْ فَيَكون إِلهاً مُشَارِكاً، وَلَمْ يَكُن لَهُ مِن خَلقِهِ كُفُواً أَحَد**»[١].

---

(١) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٧٢٥.

وقال عليه السلام وهو يصف ربه لمن سأله عن ذلك وقال أين المعبود؟ فأجابه عليه السلام: «لَا يُقَالُ لَهُ أَيْنَ، لِأَنَّهُ أَيْنَ الْأَيْنِيَّةَ، وَلَا يُقَالُ لَهُ كَيْفَ، لِأَنَّهُ كَيَّفَ الْكَيْفِيَّةَ، وَلَا يُقَالُ لَهُ مَا هُوَ، لِأَنَّهُ خَلَقَ الْمَاهِيَّةَ سُبْحَانَهُ مِنْ عَظِيمٍ تَاهَتِ الْفِطَنُ فِي تَيَّارِ أَمْوَاجِ عَظَمَتِهِ وَحَصِرَتِ الْأَلْبَابُ عِنْدَ ذِكْرِ أَزَلِيَّتِهِ وَ تَحَيَّرَتِ الْعُقُولُ فِي أَفْلَاكِ مَلَكُوتِه»[1].

وقال عليه السلام «اتَّقُوا الله أَنْ تُمَثِّلُوا بِالرَّبِّ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ أَوْ تُشَبِّهُوهُ مِنْ خَلْقِهِ أَوْ تُلْقُوا عَلَيْهِ الْأَوْهَامَ أَوْ تُعْمِلُوا فِيهِ الْفِكَرَ وَتَضْرِبُوا لَهُ الْأَمْثَالَ أَوْ تَنْعَتُوهُ بِنُعُوتِ الْمَخْلُوقِينَ فَإِنَّ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ نَاراً»[2].

(١) بحار الأنوار: ج ٣، ص٢٩٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٣، ص٢٩٨.

سُورَةُ الفَلَق

* مكيّة/ مدنيّة (مختلف فيها).

* عدد آياتها: ٥.

* ترتيبها النزولي: ٢٠.

* ترتيبها في المصحف: ١١٣.

* نزلت بعد سورة الفيل.

فضل السورة

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَنْ أَوْتَرَ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ وَ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قِيلَ لَهُ يَا عَبْدَ اللهِ أَبْشِرْ فَقَدْ قَبِلَ اللهُ وِتْرَكَ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص١٣٢)

الإطار العام

جرعة شجاعة وومضة عزيمة

عندما تتزاحم الوساوس والمخاوف على فؤاد الإنسان، ويحتاج إلى جرعة شجاعة، وومضة عزيمة، هنالك يقرأ سورة الفلق، لتشيع بصائرنا روح السكينة في روعه، ونور العزيمة في قلبه، ليستعيذ عبرها بالله خالق كل شيء من شر كل ذي شر، ومن شر طارق الليل حين يقتحم، ونافثة العقد حين تبث الفساد والشر بكلماتها المسمومة، وأفكارها السلبية، وسهام سحرها، وعينها الناضلة. وأخيرا من شر الحسد حين يعتمل في فكر الحاسد.

قل أعوذ برب الفلق

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

بينات من الآيات:

[١] كلمات نطلقها ونتعامل معها ولكنها تبقى غامضة لو لم نتخيل معانيها الخارجية ومصاديقها الواقعية، أليست العبارات جسور المعاني، والكلمات إشارات إلى الحقائق، وكلمة الاستعاذة واحدة منها، فمتى يستعيذ الإنسان بشيء؟ عندما يفقد ثقته بنفسه في مواجهة خطر داهم، ويظن أن ما يستعيذ به قادر على أن ينجيه مما هو فيه، فيلجأ إليه كما يلجأ الذي يطارده الوحش إلى كهف أو حصن منيع. وقد تكون الأخطار التي يخشى منها الناس مجرد أوهام وظنون ووساوس شيطانية، وقد دفعت الحاجة البشر إلى التعوذ بالجن والسحر والأصنام، وكان عليهم الاستعاذة بالله الخالق كل شيء. وهكذا أمر الله بأن نستعيذ بالله وحده، نرفض الالتجاء بالأنداد والشركاء،و نعلن ذلك صراحة، وقال: ﴿قُلْ﴾ إذا كنتم أيها الكافرون تستعيذون بالناس وبالأنداد، بالسحرة والكهنة والجن وما أشبه، فإنني ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

ونتساءل:

أولاً: ما هي مفردات الاستعاذة وشروطها؟.

ثانياً: ما هو الفلق؟.

الاستعاذة حالة نفسية، قوامها الخشية من الخطر، والثقة بمن يستعاذ به، وهي إلى ذلك ممارسة عملية بابتغاء مرضاة من نستعيذ به، وهي -فوق ذلك- الثقة بأنه وحده القادر على درء الخطر، وإنقاذ الإنسان.

أما الفلق فقد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا، فمن قائل: أنه بئر في جهنم تحترق جهنم بناره. -أعوذ بالله منه- إلى قائل: بأنه الصبح، أو ما اطمأن من الأرض، أو الجبال والصخور ولكن القول الأمثل هو القول الأشمل الذي يقول: أن الفلق هو كل ما خلق الله، لأن الله يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ورب الفلق: هو الذي فلق الحبة، وفلق الصباح، وفلق الجبال بأنهر، وفلق السموات والأرض وكل شيء.

[٢] هل ما خلق الله خير مطلق أم شر مطلق، أم في كل شيء نسبة من هذا وذاك؟.

قال بعضهم: كيف يخلق الله شرا وهو سبحانه خير واسع؟! وقال آخرون: الوجود حالة غضب إلهي فهو شر مطلق! وكلا القولين هراء، يخالف وجداننا وفطرتنا. صحيح أن الله سبحانه خلق الكائنات برحمته وخلق البشر ليرحمه، ولكن المخلوق يبقى ذاته عدماً وعجزاً ونقصاً، ومن ذلك العجز تعزيز السلبيات، ولكن يبقى جانب الخير، حيث تتعلق به تجليات الرب وعطاؤه يبقى غالبا جانب الشر، لأن رحمة الله أوسع من غضبه، وفضله أعظم من عدله سبحانه. وقد زود الله كل حي بما يجعله يختار جانب الخير، ويحاذر جانب الشر من نفسه ومن الخلق المحيط به، والإنسان بدوره مزود بالوحي والعقل والغريزة لكي يتجنب الشر، والاستعاذة بالله صورة من صور الحذر من الشرور. ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ولا ريب أن تنفيذ واجبات الشريعة أحد أهم وأبرز صور الفرار من الشر، لأنها تهدينا إلى سبل السلام ووسائل النجاة.

[٣] الليل يهبط بظلامه ووسواسه وطوارقه، ويتحرك في جنحه الهوام وبعض الوحوش، وينشط المجرمون والكائدون، ويستولي المرض والهم على البعض، وتشتد الغرائز والشهوات في غيبة من الرقابة الاجتماعية، ويحتاج الإنسان إلى مضاء عزيمة وثقة، حتى يتغلب عليه وعلى أخطاره، وهكذا يستعيذ بالله منه. ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ قالوا: الغسق: شدة الظلام، والغاسق: هو الليل أو من يتحرك في جوفه،و الوقب: الدخول. وقال بعضهم: الليل غاسق لأنه أبرد من النهار، ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها، والهوام من أماكنها، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد.

[٤] هل للسحر حقيقة وما حقيقته؟ يبدو أن للسحر حقيقة، وأن حقيقته غير معروفة تماما بالرغم من عوامل مختلفة تتداخل فيه مثلا بعض القوانين الطبيعية غير المعروفة للناس، قد يكن وسيلة السحر تماما، كالزئبق الذي وضعه سحرة فرعون فيما يشبه الحبال فتحركت بحرارة

الشمس، وقد تكون حقيقته قوة الروح عند الساحر، أو استخدامه للأرواح الشريرة، وأنى كان فإن الاستسلام للسحر ولتأثيراته لا يجوز، بل ينبغي تحديه بالتوكل على الله والاستعاذة منه، فإنه ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، وإن تأثيره على الإنسان يعتمد الإيمان ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ قديما كانت العجائز يمتهنَّ السحر، ويخدعن الناس وبالذات النساء، وكانت هذه الحالة تبعث الخشية في نفوس الكثير مما اقتضى الاستعاذة بالله منهن. وقد قال بعض المفسرين: أن المراد بالنفاثات في العقد: اللاتي ينفثن بأفكارهنَّ السلبية في عقد العزيمة للرجال، والمعنى يتسع للنفث في العقد أي الذين يصنعون الفتن، ويفتشون عن مواطنها وهي نائمة فيذكونها سواء في السياسة والاجتماع والثقافة، فـ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ ليس مختص بالنساء كأنه على غرار (علّامة) أو بتقدير مؤنث يشمل الرجال مثل النفوس الشريرة. إلا إن أكثر المفسرين رأوا أن المراد بها الساحرات، وهذا قريب من سبب النزول المذكور لهذه السورة، على أن ما ورد من روايات في ذلك غير مؤكدة، لأنها تخالف نزول السورة في مكة، كما أنها تخالف عصمة الرسول، وأنه ﷺ بريء من السحر ومحفوظ منه.

[٥] قد تكون للأخطار التي تتوجه إلى الإنسان أسباب معقولة لو تنبه لها استطاع أن يتجنبها، إلا الحسد فإن سببه حالة في نفس صاحبه، ومن الصعب تجنبه في الوقت الذي يشكل سبباً رئيسياً لمشاكل الإنسان وللأخطار التي تحدق به، ولكن هل يعني ذلك التراجع عن العمل وعن الانتفاع بنعم الله والتقدم والرقي لمجرد أن هناك من يحسدني. كلا.. بل ينبغي الاستعاذة بالله سبحانه وتعالى من الحاسد وبالذات عندما يحسد ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فقد يصرف الله الحاسد عن تحويل حسده إلى عمل عدائي، لأن الحسد مرفوع عن الإنسان إن لم يظهره بقول أو فعل ولا يخلو الإنسان من حسد، إلا إن أغلب الناس ينصرفون عن الحسد إلى الغبطة والتنافس لما يعلمونه من ضرر الحسد على أنفسهم قبل من يحسدون، حتى قيل: «لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من الحاسد»[١]. وقد روي عن النبي ﷺ: «وَإِذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ»[٢].

والحسد كان سبب رفض إبليس السجود لآدم، كما أنه كان سبب أول جريمة وقعت على الأرض إذ قتل قابيل أخاه هابيل حسدا.

نستعيذ بالله من شر الحسد وشر من يحمله.

(١) جامع الجوامع، للشيخ الطبرسي: ج٣، ص ٨٧٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٥٥.

سُورَةُ النَّاس

* مكيّة/ مدنيّة (مختلف فيها).

* عدد آياتها: ٦.

* ترتيبها النزولي: ٢١.

* ترتيبها في المصحف: ١١٤.

* نزلت بعد سورة الفلق.

فضل السورة

قَالَ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ جَمِيعَ الْكُتُبِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ».

(مستدرك الوسائل: ج ٤، ص ٣٧٠)

الإطار العام

الاستعاذة من الضلالة

ذكرتنا سورة الفلق كيف نستعيذ بالله من شر الخلق، وتذكرنا هذه السورة الكريمة التي يختتم بها القرآن الكريم كيف نستعيذ الله من الضلالة.

فالشر -في الأولى- شر مادي فيما يبدو، والشر هنا معنوي، يؤدي إلى ألوان من الشر في الدنيا والآخرة، ذلك الخطر يتمثل في الوسواس الخناس، الذي يفقد الإنسان عزيمته وحكمته، والذي قد يكون نابعاً من الجن والشيطان، الذي يجري في ابن آدم مجرى الدم، أو من الناس الذين يتأثرون بإلقاءات الشيطان.

قل أعوذ برب الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾.

بينات من الآيات:

[١] لكي يدرأ الإنسان الخطر العظيم الذي يهدده خطر وساوس الشيطان الجني أو الإنسي، لا بد أن يعقد عزماته وأن يتحدى سلطان الشيطان، فيصرح علنا بأنه مخالف له، هكذا أمرنا الرب بأن نقول ذلك قولا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ والاستعاذة كما سبق حالة نفسية تنبعث من الإحساس بالحاجة من جهة، والثقة بمن يستعاذ به من جهة ثانية، وحينها تكون الاستعاذة بالله الذي خلق الناس طورا بعد طور، وشملهم برعايته، ورباهم فإن ذلك يعني أمرين:

أولاً: لأن الله ربي أنا الذي استعيذ به فهو أولى بالتوكل عليه، والثقة به، أليس هو الذي خلقني نطفة، ثم جعل النطفة علقة، وجعل العلقة مضغة... وهكذا، أنشأني خلقا بعد خلق، وحفظني من الأخطار والأضرار التي لن أحصيها عددا، حتى جعلني بشراً سويا، فهو الذي أستجير به الآن ليحفظني من خطر الضلال؟

ثانياً: لأن الله رب الذي أستعيذ منه، ومهيمن عليه وعلى أفعاله، فهو قادر على درء شره عني.

[٢] وإذا كان الناس يجأرون إلى أصحاب القوة والملك فإن الله أعظم ملكا، وأوسع

سلطة. دعنا نستعيذ به ونجأر إليه: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ والملك هو صاحب السلطة الحالية.

[٣] وحينما يصيب الناس الضر ضل من يدعون سواه فإليه يألهون، ويتضرعون، وبه يستغيثون: ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ فهو الذي ربى وملك، وإليه يجأر عند الخطوب أفلا نستعيذ به؟!.

[٤] الاستعاذة بالله من شر الأفكار الضالة، والكلمات الموهنة للعزائم، والإيحاءات المنحرفة.ومن الآيات يبدو أن ثمة ثلاث مسارات لمصادر الخطر التي تضغط على الإنسان وتكون منفذاً للوسوسة: الأولى تتعلق بشؤون حياته ومعاشه، والثانية تتعلق بالقوى المهيمنة والملأ والمستكبرين، والثالثة تتعلق بالأفكار والثقافات التي تكتنفه.ومربط الفرس في مواجهتها هو بالاستعاذة بالله [الرب الملك الإله] بالثقة به تعالى والخشية منه.إذ أن كوة الوسوسة هي القلب فإذا تمّ إحصانها بالاستعاذة فإنه لا سبيل لشياطين الإنس أو الجن بتوفيق الله تعالى.

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ قالوا: الوسوسة: حديث النفس، وأصله الهمس، ويقال لهمس الصائد وأصوات الحلي: وسواس، ويقال لإلقاءات الشيطان في النفس، وإيحاءاته وسوسة، لأنها تشبه حديث النفس، وقالوا: أنما سمي الشيطان بالوسواس لأنه صاحب وسوسة، وربما كان الوسواس بمعنى الموسوس أما ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ فقالوا: أنه من الخنوس، وهو بمعنى الاختفاء ومنه قوله سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥] سميت النجوم به لاختفائها بعد ظهورها، ولعل معنى الخنوس: التردد بين الظهور والكمون، أو بين التقدم والتأخر، فالنجوم تظهر وتختفي، ولذلك قال بعضهم: الخنوس بمعنى: الرجوع، وأنشدوا:

وصاحب يمتعس امتعاسا يزداد إن حييته خناسا

وعلى هذا تكون تسمية الشيطان بالخناس، لأنه دائم التردد، كلما طردته عاد إليك، فإذا ذكرت الله اختفى، وإذا غفلت عاد، من هنا حكي عن ابن عباس أنه قال في تفسير الآية وجهين: أحدهما: أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى، الثاني: أنه الخارج بالوسوسة من اليقين.

[٥] ويقوم الشيطان بإلقاءاته الضالة في القلب، مركز العزم واتخاذ القرار.﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ولا يترك أحدا إلا وألقى في صدره وساوسه لولا اعتصامه بالله دوما.

[٦] والوسواس من الجن، وذرية إبليس الذي لعنه الله وأبعده، وآلى على نفسه إغواء بني آدم وتضليلهم، وقد يكون من الإنس الذين أضلهم إبليس.﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾

وروي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لرجل: «هَل تَعَوذْتَ بِالله مِنْ شَيَاطِينِ الإنسِ، فَقَال: أَوَمِنْ الإِنْسِ شَيَاطِينٍ؟ قَالَ: نَعَم لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾» [الأنعام: ١١٢].

أتدري ما هي الحكمة في الاستعاذة التي أمرنا بها عند تلاوة الكتاب، حيث قال ربنا ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]؟ أوتدري ما هي الحكمة في أن ختام القرآن الاستعاذة بالله من شر الوسواس الخناس؟ دعنا للإجابة نذكر الحقائق التالية:

أولاً: قلب الإنسان يتعرض لموجتين متقابلتين، فمن اليمين تتنزل عليه موجة رحمة إلهية، تتمثل في ملائكة الله، ومن اليسار تعصف به موجة غضب ونقمة الشيطان، تتمثل في جنود إبليس أبعده الله. هكذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلِقَلْبِهِ أُذُنَانِ فِي جَوْفِهِ أُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ وأُذُنٌ يَنْفُثُ فِيهَا الْمَلَكُ فَيُؤَيِّدُ اللهُ الْمُؤْمِنَ بِالْمَلَكِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ»[1]. روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلاَّ وَلَهُ أُذُنَانِ عَلَى إِحْدَاهُمَا مَلَكٌ مُرْشِدٌ وَعَلَى الْأُخْرَى شَيْطَانٌ مُفْتِنٌ هَذَا يَأْمُرُهُ وَهَذَا يَزْجُرُهُ الشَّيْطَانُ يَأْمُرُهُ بِالْمَعَاصِي وَالْمَلَكُ يَزْجُرُهُ عَنْهَا وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾»[2].

ثانياً: وقلب الإنسان بيت مظلم متهاو، سراجه العقل، وعماده الإيمان، ونور العقل من نور الله، كما أن روح الإيمان من ذكر الله، وإذا غفل القلب عن الله عاث الشيطان فيه فسادا. لماذا؟ لأن طبيعة الإنسان الأولية هي الجهل والضعف، أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩-٢١]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]. أوليس بنو آدم من تراب وطبيعة التراب العجز والضعف، والجهل والغفلة. فإن لم يتصل القلب بنور الله لحظة بلحظة كيف يبصر الحقائق، وقد قال ربنا ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. وما لم يستمد العزيمة من الله بروح الإيمان أنى له تجاوز ضعفه وعجزه، وتحدي الشهوات والضغوط.

ثالثاً: من هنا يجأر المؤمنون إلى ربهم ألا يتركهم وشأنهم لحظة ويقولون: (ربنا لا تكلنا

(١) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص٤٧.
(٢) الكافي: ج٢، ص٢٦٦.

إلى أنفسنا طرفة عين أبدا). لأن في تلك اللحظة الخاطفة قد تقع الواقعة، ألم يترك الله نبيه يونس بن متى عليه السلام وشأنه ساعة، فدعا على قومه، وابتلي بالسجن في بطن الحوت.

وأظن أن ما صدر من الأنبياء من ترك الأولى إنما كان في اللحظات التي أوكلهم الله إلى أنفسهم، فغفلوا ونسوا، وسمى الله ما صدر منهم عصيانا، ثم تاب عليهم لكي لا يزعم أحد أنهم آلهة، ولكي يزدادوا يقينا واطمئنانا. وهكذا روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَه**(١) **عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ فَإِذَا ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ خَنَسَ وَإِنْ نَسِيَ الْتَقَمَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاس**»(٢).

وهكذا ندب الإسلام مداومة الذكر فقال ربنا سبحانه: ﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الجمعة: ١٠] وقال تعالى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**﴾ [آل عمران: ٤١]. وجاء في الحديث: عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُ بِشَيْءٍ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ خِصَالٍ ثَلَاثٍ يُحْرَمُهَا قِيلَ وَمَا هُنَّ قَالَ الْمُوَاسَاةُ فِي ذَاتِ يَدِهِ وَالْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِهِ وَذِكْرُ الله كَثِيراً أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَكِنْ ذِكْرُ الله عِنْدَ مَا أَحَلَّ لَهُ وَذِكْرُ الله عِنْدَ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**»(٣).

واعتبر الإمام الباقر عليه السلام ذكر الله صلاة: فقال: «**لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي ذِكْرِ الله عَزَّ وَجَلَّ قَائِماً كَانَ أَوْ جَالِساً أَوْ مُضْطَجِعاً إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ الْآيَةَ**»(٤). وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى عَبْدِيَ الِاشْتِغَالَ بِي نَقَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي مَسْأَلَتِي وَمُنَاجَاتِي، فَإِذَا كَانَ عَبْدِي كَذَلِكَ فَأَرَادَ أَنْ يَسْهُوَ حُلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَسْهُوَ، أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقّاً، أُولَئِكَ الْأَبْطَالُ حَقّاً أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُهْلِكَ أَهْلَ الْأَرْضِ عُقُوبَةً زَوَيْتُهَا عَنْهُمْ مِنْ أَجْلِ أُولَئِكَ الْأَبْطَالِ**»(٥). بلى، ولكن إذا ترك المؤمن ذكر الله فإنه ليس يتعرض فقط لغواية الشيطان والسقوط في أشراكه، بل وأيضا قد يتعرض لأخطار مادية. كذلك جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**يَمُوتُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ مِيتَةٍ يَمُوتُ غَرَقاً وَيَمُوتُ بِالْهَدْمِ وَيُبْتَلَى بِالسَّبُعِ وَيَمُوتُ بِالصَّاعِقَةِ وَلَا تُصِيبُ ذَاكِرَ الله عَزَّ وَجَلَّ**»(٦). وفي رواية أخرى: «**لا يصيبه وهو يذكر الله**».

---

(١) الخطم: أنف الإنسان، مقدم أنف الدابة.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٠ ص١٩٤.
(٣) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ١٥١.
(٤) وسائل الشيعة: ج٧ ص١٥٠، تفسير العياشي: ج١ ص٢١١.
(٥) بحار الأنوار: ج٩٠ ص١٦٢.
(٦) الكافي: ج٢ ص٥٠٠.

رابعاً: وتذكر الله وسلطانه وقوته ورحمته، والتوكل والاستعاذة بقوته وبتأييده لعباده، ووعي أسمائه الحسنى كل ذلك يقطع سياق الاسترسال مع وساوس النفس، وهمزات الشيطان، فتكون قرارات الإنسان خاضعة لمحاكمة عقله ومقاييس فطرته، دون أهوائه وتمنياته. إن أغلب الناس يتخذون قراراتهم بلا وعي منهم لأسبابها، حيث تنضج القرارات فيها سمي العقل بالباطن، ثم يبررونها لأنفسهم بشتى التبريرات، بينما المؤمن يمرر قراراته على منظار عقله، فيمحصها تمحيصا دقيقا، كل ذلك بفضل ذكر الله الذي يزيد من يقظة الذات، وتوهج العقل، واستنارة الفطرة.

خامساً: ومن أبرز فوائد الاستعاذة بالله تجنب تفسير كتاب الله ونصوص الشريعة حسب الهوى والرأي مما يسبب في تبديل كلمات الله عن مواضعها. إن أكثر الناس يتخذون مواقف مسبقة من القرآن، فترى الشيطان يوسوس في صدورهم، فيقول لهم مثلا: الآية هذه تعني أعداءك، وتلك الآية نزلت أساسا في الغابرين، أو أنها تخص الفئة الكذائية، المهم أنه يبعدك عن دائرة تطبيق الآية، فلا يدعك تنتفع بها. وربما أمرنا بالاستعاذة من الشيطان قبل تلاوة الذكر، وجاءت السورة الأخيرة من القرآن تأمرنا بالاستعاذة منه لكي لا نفسر آياته بالرأي، ولا نؤولها تأويلا خاطئا، ولا نتبع ما تشابه منها ابتغاء الفتنة، ونترك المحكمات.

سادساً: كيف نستعيذ بالله من وساوس الشيطان؟

ألف: بالتزود ببصائر الوحي في المعرفة، ومناهج الدين في العلم والتعلم وهي كثير ومبثوثة في النصوص المختلفة.

بـــاء: باستقبال المواعظ من أهلها، وذلك بمعاشرة العلماء الربانيين، والدعاة المجاهدين، وعباد الله الصالحين.

جيم: بتجنب دعايات أهل الضلال، ومقاطعة مجالسهم وكتبهم وأعلامهم، فإن من عرض نفسه للانحراف بالاستماع إلى أبواق الشيطان ثم انحرف وضل فلا يلومن إلا نفسه.

دال: بالتفكر المستمر في أمور الدين، والتدبر في كتاب الله، والتحري عن الخط السليم، وعدم الاستعجال في الحكم على شيء.

هـــاء: وأهم من كل ذلك بالدعاء إلى الله أن يهديه إلى الصراط المستقيم، وألا يكله إلى نفسه لحظة.

وهذا ما ندعو الله به في خاتمة تفسيرنا لهذه السورة الكريمة، ونسأل الله أن يتقبل من

عبده العاصي هذا اليسير من الجهد، وأن يجعله ذخرا له ليوم فاقته، وأن يغفر له تقصيره في أداء حق كتابه، وأن يجعل القرآن والعترة شفيعا له يوم القيامة. إنه سميع الدعاء، والحمد لله رب العالمين.

طهران: ٩ ذي القعدة الحرام ١٤٠٩ هـ

محمّد تقي المدرسي

خاتمة الكتاب

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله حَمْداً يَسْعَدُ بِهِ الحَامِدُونَ، وَيَسْمُو بِهِ المُؤْمِنُونَ، حَمْداً كَثِيراً كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَمُسْتَحِقُّهُ، حَمْداً يُوَازِي حَمْدَ مَلَائِكَتِهِ المُقَرَّبِينَ، وَأَنْبِيَائِهِ المُرْسَلِينَ، وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، حَمْداً مِنْ نَشْأَتِ الخَلَائِقِ إِلَى بَقَاءِ الخَالِقِ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى البَشِيرِ النَّذِيرِ وَالسِّرَاجِ المُنِيرِ، الَّذِي ابْتَعَثَهُ لِلْعَالَمِينَ رَحْمَةً، وَلِلْمُتَّقِينَ هُدىً، وَلِلْمَحْرُومِينَ كَهْفاً وَمَلَاذاً، وَلِلْمُذْنِبِينَ شَفِيعاً وَأَمَلاً، مُحَمَّدٍ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَعَلَى آلِ بَيْتِهِ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ، الأُمَنَاءِ عَلَى رِسَالَاتِهِ، المُخْلِصِينَ فِي طَاعَتِهِ، سَادَاتِ المُجَاهِدِينَ، وَقَادَةِ الصَّالِحِينَ، وَأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ.

وَالسَّلَامُ عَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ.

(١)

في الأسبوع الأخير من شهر ربيع الثاني من عام ١٤٠١هـ،وفي خضم المشاكل السياسية التي كنتُ أعيشها صدمتني وفاة زوجتي الفجائية، ومضت المصيبة كصعقة كهربائية في كياني.. وبدأت أتساءل: إذا كانت مطية الإنسان إلى العالم الآخر جاهزة أبدا، وقد تحمله إليه في أية لحظة ودون سابق إنذار في رحلة أبدية لا رجعة فيها، فلماذا الغفلة[1]؟.

وإذا كانت زوجتي التي كانت تقاربني سنًا، ولم تكن تشكو من مرضٍ سابق تموت بهذه

(١) بعد كتابة هذه المقدمة؛ بأشهر صدمتنا وفاة أخينا الفاضل الخطيب المجاهد سماحة الشيخ (شهاب) علي المهدي آل حيدر، الذي كان نعم العون لنا في دار الهدى، حيث ساهم بأدبه الرفيع، وذكائه المتقد، وعلمه الجم في بلورة رؤانا في التفسير وصياغته، وبالذات في الأجزاء الأربعة ما قبل الأخيرة.

فجاءت وفاته -التي كانت بحادثة سيارة- دليلًا جديدًا على أن فرصة العمر أقصر مما نتصور. وأنها تنتهي في أية لحظة فعلينا الاجتهاد في استغلالها.

الطريقة الغريبة، فلماذا لا أفترض ذلك لنفسي؟ وأثر ذلك بصورة مباشرة في شحذ عزيمتي لإنهاء التفسير.. قبل أن يفاجئني الموت.

في ذلك التاريخ كنت قد بلغت الجزء وقد قررت حين بدأت به أن أكتب كل يوم عدة صفحات من التفسير دون أن أخطط لإنهائه، وأساسا لم أكن أحلم -يوم شرعت فيه- بأني قادر على إنهائه، بسبب ظروفي التي حفلت بالعديد من المسؤوليات المتنوعة.

عند بداية التفسير كنت في الكويت، وكما ذكرت في مقدمة الجزء الأول كنت أستريح إلى بيت من بيوت الرحمن في منطقة (بنيد القار) لبعض الوقت، وأحاول أن أختفي خلالها من المراجعات الروتينية حتى أتفرغ للكتابة، وربما كنت أسبب بعض الضيق لإخواني الذين لم يعرفوا السبب، وفعلا كنت أحرج عندما يسألني بعضهم عن ذلك، ولكن ذلك كان الوسيلة الوحيدة للاستمرار في التفسير.

ويشهد الله أنها كانت ساعات شيقة تلك التي أجدني تلميذا صغيرا في مدرسة القرآن العظيم وكنت أسعى لاستنطاق كل آية، وكل كلمة من آية، وربما كل حرف في آياته الوضيئة، ثم أسجل بعض ما يمكن تسجيله.. بينما أكثر ما في القرآن كان أسمى من التسجيل، وهل كلمات مثلي قادرة على الإحاطة برفرفة الروح، وتموج النور، وانسياب الجمال الإلهي من خلال آيات الذكر الحكيم.

كانت وصية أحد الكتاب الكبار نصب عيني عندما أستمر في الكتابة، حيث أوصى بالتوقف عنها عند الإحساس بالتعب، ولذلك أصبحت مشكلتي بعد صدمة الوفاة مزدوجة، فمن جهة كنت أريد إكمال التفسير، ومن جهة لا أستطيع التسرع فيه تطبيقا لتلك الوصية، والذات لأن منهجي كان قائما على التدبر المباشر في آيات الذكر قبل مراجعة التفاسير ثم البحث عن صلتها بالواقع، مما يستدعي صفاء الذهن وفراغ البال، مما كان يتناقض وظروفي العامة.. فاتجهت نيتي نحو إلقاء المحاضرات في التفسير في محاولة لاستباق الأجل، وربما كنت في اليوم الواحد ألقي ثلاثة دروس ليقوم الإخوة بإعادة صياغتها وإعدادها للطبع.

وقد كنت يومئذ ألقي محاضرات في التفسير كل يوم تقريبا في القسم العربي من إذاعة الجمهورية الإسلامية في إيران، وفكرت في نفسي أنني سوف أحقق هدفين برمية واحدة: إنشاء مكتبة صوتية في كامل تفسير القرآن، والتسريع في تكميل مشروع التفسير، وقد حققنا بحول الله وقوته الهدف الأول، حيث استقرت محاضرات التفسير في خمسمئة شريط كاسيت، ولكن الهدف الثاني لم يتحقق بتلك الصورة التي حلمت بها.. وكان لذلك قصة أخرى.

(٢)

منذ بداية توجهي إلى التفسير لاحظت فراغاً فيه من بعدين هامين:

الأول: اتساع الفجوة بين التفاسير المكتوبة وبين الواقع المعاش للأمة، حيث كان هدف أغلب المفسرين إلا نادرا توضيح كلمات القرآن، وليس تطبيقها على حقائق الزمان، ولذلك لم يهتموا أكثر بتأويل القرآن وتنوير الواقع بضيائه، بينما الهدف الأسمى للآيات إنما هو تذكير الإنسان بالله واليوم الآخر ثم تبصيره نفسه وواقعه ليعيش بصورة أنبل وأفضل، ولعل الظروف السياسية لأغلب المفسرين وانغلاق بيئتهم الاجتماعية كانت تمنعهم من ذلك.

وقد حاولت أن أعالج الفراغ بقدر محدود من خلال التفسير والمحاضرات.

الثاني: وجود فجوة بين التفاسير والأحاديث المأثورة عن النبي وأهل البيت عليهم السلام اللهم إلا تلك التي تهتم بصورة مباشرة بتفسير آية كريمة، علما بأن كل أحاديث الرسول وأهل بيته في الواقع تفسير للقرآن، فليست سوى انعكاس نور الوحي على أفئدتهم، فلا بد إذاً أن نبحث عن منهج جديد لتوصيل التفسير بهذا الرافد العظيم من الروايات الشريفة، ولكن كيف؟.

إنما بإلغاء قيد اللفظ منها والتوجه إلى المعاني، فعندما نستوحي من آية كريمة حقيقة نبحث في النصوص عما يتصل بها من بصائر توضيحية فنثبتها في تفسير تلك الآية لتتكامل المعنى.. مثلا عندما نبحث عن آية كريمة تبصرنا بدور العلم والعلماء نثبت في توضيحها وتفسيرها نصوصا مأثورة حول العلم، بغض النظر عن ورودها حول تلك الآية أم لا، لأنها بالتالي تفسير للآية سواء ذكرت فيها الآية أم لا.

وبالذات الأدعية المأثورة التي هي بحق كنوز المعارف الإسلامية، وهي بالتالي قبسات من نور الوحي تجلت على السنة سادة العرفاء الميامين النبي وأهل بيته الهداة عليهم السلام. أفلا ينبغي أن نستفيد منها في تفسير آيات العرفان التي هي نصف القرآن أو تزيد؟.

كل ذلك دفعني والأخوة إلى تأسيس (دار الهدى) التي تعني بهدف تأليف تفسير موسع يعتمد على الأحاديث المأثورة بالمنهج الآنف ذكره (الاهتمام بالمعاني)، والاسم الذي أفضله لهذا التفسير أن خرج إلى النور هو: (من بينات القرآن) ليكون تفصيلا لهذا التفسير (من هدى القرآن).

وقد شقت (دار الهدى) طريقها بين غابة من الأشواك، لأننا كنا بحاجة إلى تربية بعض الإخوة على استخراج النصوص من مختلف المصادر، وعلى فهم عميق للآية المفسرة في إطار

تفسيرنا (من هدى القرآن)، ولصعوبة العمل، وقلة الإمكانات، وأيضا قلة الوقت الذي صرفناه على هذه المؤسسة الناشئة، فإن ثلاثة من بين حوالي خمسة عشر أخا دخلوها بقوا فيها وتقدموا بها، والحمد لله.

وأنى كان فقد مشينا معهم خطوات واسعة في طريق التفسير الموسع، حيث جمعنا بحول الله وقوته مواد تفسير سورة البقرة وآل عمران، ولعلنا نوفق لتكميل المسيرة بعد الفراغ من هذا التفسير إن شاء الله.

بيد أن العمل توقف في دار الهدى في هذا الاتجاه، حيث استقر الرأي إلى التفرغ لمحاضرات التفسير التي كنا قد أنهيناها في عام ١٤٠٢هـ ولم نفلح بتشكيل جهاز لإعادة صياغتها، ولكن بما أن الإخوة في (دار الهدى) كانوا قد تعودوا على أسلوب التوسع عبر ذكر النصوص ومراجعة سائر التفاسير استفادوا من هذا المنهج عندما اهتموا بالتفسير، فتغير الأسلوب بقدر أو بآخر.

كنت يومئذ قد أنهيت تفسير نصف القرآن تقريبا، وبالضبط إلى سورة النحل، فبدأ الأسلوب منذ تلك السورة يختلف، حيث اعتمدنا على المحاضرات ثم كانت تصاغ المحاضرات ثم أطلع عليها وأصححها من جديد.. وكان في هذا المنهج فائدة التوسع، حيث كان المعدل في تفسير النصف الأول صفحة لكل آية فغدا المعدل حوالي صفحتين لكل آية، إلا إن ذلك كان ثمنه التباطؤ حيث تعددت المراحل.. وهكذا جرى الأمر حتى بلغنا الخمس الأخير من القرآن فطورنا الأسلوب مرة أخرى حيث كان أحد الإخوة يراجع كافة التفاسير المشهورة ويكتب ملاحظات منها، وكنت بدوري أراجعها مع مراجعة بعض التفاسير، ثم ألقي محاضرة مفصلة تصاغ بعد مراجعة لملخص التفاسير، ثم أعيد النظر فيها لتأتي في صيغتها النهائية.

ولا ريب أن هذا الأسلوب نفعنا كثيرا في التمهيد للتأليف الجمعي، حيث أنه بالرغم من كوني بالتالي المسؤول عما كتب في كل الأجزاء إلا أن للإخوة مساهمات كبيرة، خصوصا في الخمس الأخير من القرآن.

وكانت تمر سنة بعد أخرى وكنا نحدد كل سنة لتكون سنة الحسم، إلا إن عقبات داخلية وخارجية كانت تمنعنا، حتى بقيت ثلاثة أجزاء من القرآن هذا العام (١٤٠٩هـ) الذي وفقنا الله لإكمال التفسير فيه، وما كدنا نفعل لولا أني استبقت الأخوة وخلال سفرة قصيرة إلى بعض البلاد بدأت بكتابة الجزء الأخير متجاوزا الأسلوب السابق.. وهكذا كان هذا الجزء كما الأجزاء الأولى بقلمي بصورة كاملة.

(٣)

من يبلغ الخامسة والأربعين سنة تكون شمس عمره قد دلكت وزالت عن نصف النهار، ولا ريب أن عنفوان حياته قد انتهى، ولا بد أن يحاسب نفسه حسابا عسيرا على ما مضى من أيامه.. وحين انظر إلى الوراء أتساءل: ماذا فعلت؟ لقد كانت السنين أسرع مما كنت احتسب؛ إنها كنبتة الربيع لا تكاد تزهر حتى تذوي. إن عمر البسيطة التي نحن عليها يتجاوز الأربعة ملايين عاما فما قيمة أربعين أو ثمانين سنة بالنسبة إليها؟ وإذا كانت هذه الفرصة تحدد حياتنا الخالدة فكم هي خسارة من يضيعها باللهو واللعب؟

نحن والزمن في سباق عنيف وحاسم، والزمن يعصرنا عصراً حتى يخرج آخر قطرة من ماء الحياة من كياننا.. وإننا لفي خسران كبير لو لم نتحد سرعته!.

لقد كنت أنتهز الفرص المتاحة في كتابة التفسير.. لقد تابعت التأليف في حوالي عشر دول مختلفة؛ كتبته وأنا في حالات صعبة.. استشهاد عزيز، أو وفاة قريب، أو مرض مؤلم، وربما كنت في مطار انتظر، أو كنت مستقلا طائرة أو سيارة أو قطارا، أو حتى متنزها في حديقة عامة، حيث أذكر أني كنت جالسا في بلد غريب مشغولا بكتابة التفسير في حديقة عامة إذ مر بي أطفال كانوا في رحلة مدرسية فلما رأوني التفوا حولي ينظرون مستغربين، ولم أكن أعرف لغتهم الغربية حتى أوضح لهم عملي، حتى جاء بعض مرافقي وطلب منهم الابتعاد. على العموم: كان المنظر غريبا بالنسبة إليهم، كما كان غريبا بالنسبة إلى جليسي في طائرة حلقت بنا ساعات طويلة ولم أتحدث إليه، حتى ملَّ مني لأني كنت أتابع كتاباتي.. ومضيفي في باريس كان يلح علي بالخروج من البيت للتفرج على معالم تلك المدينة، لكني كنت أفضل متابعة الكتابة إلا قليلا.. وهكذا كان علي أن أدفع الثمن لو أردت متابعة التأليف، والحكمة العربية تقول: لكل شيء آفة وللعلم آفات، وعلى المتعلم أن يتحدى كل الآفات.

ومع كل ذلك أحس بأن العمر قد ضاع في زحمة الآفات المتنوعة، كالمشاغل الكاذبة، والجلسات التافهة، والفراغات التي لم أملأها بجدية كافية. إنني أشعر أن اهتمامنا بأعظم مواهب الله علينا (العمر) أقل مما كان ينبغي، لذلك نضيعه فيما لا يغني شيئا، وقد نقضيه في اللهو واللعب ولا نعرف قيمته حقا إلا بعد أن نُوقَف للحساب ونسأل عن كل ساعة ساعة منهم فيم أفنيناها.

وقد كان سر التوفيق الذي حالف علماءنا الكرام فأنجزوا تلك المشاريع العظيمة معرفتهم بقيمة الوقت، وجديتهم في ألا يخسروا من عمرهم شيئا يحاسبون غدا عليه حسابا عسيرا.

حقا: كانت لهم انجازات رائعة نتضاءل أمامها، فكيف تسنى للعلامة الحلي -رضوان الله عليه- أن يؤلف ألف كتاب مع أمور مرجعيته وقيادته للمؤمنين؟! فلولا أنه كان يتحدى آفات العلم بإرادته الصلبة لما وفق لعشار ذلك! مثلا عندما دعي إلى حفل زواج في مدينة بعيدة سافر إليها في عطلة نهاية الأسبوع (الخميس والجمعة) عاد بكتاب (تبصرة المتعلمين) الذي أوجز فيه الفقه الإسلامي كله، ضمنه عشرة آلاف فرع فقهي (قانون إسلامي) ولا يزال الكتاب يعتبر قمة في موضوعه، وقد تناوله كبار فقهاء المسلمين بالشرح والتعليق، وكان يعتبر من أهم البنود الدراسية في الحوزات العلمية إلى وقت قريب.

وإذا عرفنا مدى صعوبة السفر على الدواب حيث كانت الوسيلة الوحيدة للسفر في ذلك العهد، وبالذات إذا أراد الراكب أن يؤلف عليها وبأقلام مصنوعة من القصب، نعرف مدى الجهاد الذي كان قد مارسه عند كتابته هذا المؤلف الكبير!.

والشيخ الكبير صاحب كتاب (جواهر الكلام) الذي وفقه الله لتأليف موسوعة فقهية تتسع لكل أبواب الفقه.. بأدلتها التفصيلية العمل الذي عزم عليه الكثير من الفقهاء الإسلام فلم يوفقوا.. فلولا تحديه للعقبات بإرادة فولاذية إذاً ما استطاع متابعة ذلك العمل الجبار.. حتى قيل أنه أُثكل بابنه الشاب فلم يترك ما قرره على نفسه من الكتابة كل يوم، بل انكب على الدراسة والبحث، ولم يميز أحد حتى اليوم تلك الصفحات التي ألفها في أيام مصابه مما دل على عدم حدوث تغيير في مستوى تأليفه!.

وهكذا سار الفقهاء الذين عاش الواحد منهم أكبر من عمره الزمني أضعافا مضاعفة ثم مضوا إلى ربهم راضين مرضيين. إنهم كانوا يعرفون قيمة كل ساعة بل كل لحظة من عمرهم، فما كانوا يستريحون حتى ينجزوا خلالها عملا صالحا ينفعهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ذلك اليوم الذي من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، ومن خفت موازينه فأمه هاوية!.

واليوم حين ننظر إلى سلوك المسلمين كيف فقدوا وعي الزمن، وضيعوا فرص العمر، وغرقوا في اللهو واللعب، نتساءل: كيف يمكن إعادة المسلمين إلى مناهج دينهم الحضارية، حتى يتغلبوا على مشكلة التخلف والتبعية التي هي أم المشاكل؟.

وهذا التساؤل يشغلني كثيرا، وقد قارنت بين منهج علمائنا السابقين القائم على تفجير الطاقات واستغلال الفرص وضغط الزمن بأي طريقة ممكنة... وبين منهج علماء الغرب القائم على العمل الجمعي وعلى أساس تكاتف جهود كثير من ذوي الاختصاص على عمل واحد،

وتساءلت كيف يمكننا التوفيق بينهما؟ دعنا نضرب مثلا بين المنهجين: العلامة الأميني كتب موسوعة (الغدير) بجهده الشخصي وميزانيته الخاصة المحدودة، والكتاب بحاجة إلى جهود العشرات من المحققين، بالإضافة إلى ميزانية كبيرة، والمحدث القمي ألف (سفينة البحار) التي قال عنها أحد المستشرقين -حسب ما سمعت- أنه لا يمكن أن يكون جهد شخص واحد أبدا، والشيخ آغا بزرك الطهراني كتب موسوعة (الذريعة) بجهده الشخصي، وهي فهرست واسع لكل ما ألفه علماء الشيعة عبر التاريخ وحتى اليوم.

إن هذه الأعمال الكبيرة ليست سوى انعكاس لمنهج الإسلام في التربية القائم على تحسيس الفرد بقيمة الزمن وقيمة الفعل عبره.

أما المنهج الغربي فإن الموسوعة الفرنسية والموسوعة البريطانية تعتبران من إنجازات العمل الجمعي التي لا ريب أنها كبيرة ورائعة.. وأخيرا أنجزت الموسوعة الصينية التي ساهم فيها مئة ألف عالم.

إن المقارنة بين ذلك تجعلنا نكتشف مفارقة غريبة حيث ترانا -نحن المسلمين- قد تركنا منهجنا القائم على أساس الأعمال الفردية الكبيرة، ولم نتعلم منهج الآخرين القائم على العمل الجمعي، فصرنا كمن ضيع المشيتين! ولو كنا نتبع في تفجير طاقاتنا الفردية، ووعي الزمن، والسعي وراء إنجاز العمل الصالح لوجه الله، نتبع في ذلك منهج علمائنا الكرام، وفي ذات الوقت نستفيد من المنهج الغربي في القيام بأعمال مشتركة، إذا لكنا نسبق الآخرين.

وهذا هو المطلوب اليوم، وقد أنشأنا مؤسسة دار الهدى وفقا لهذه النظرية.

(٤)

إلى وقت قريب لم يكن الذي يشتغل بتفسير القرآن أو كتابة التاريخ الإسلامي وما أشبه محترما بمستوى الذي يتمحض في دراسة الفقه الإسلامي، بينما اليوم مع عودة الوعي إلى الأمة نجد الكثير من المراجع والعلماء اهتموا بالقرآن، وقد كتب كثير منهم في التفسير كتباً مفصلة، وهناك العديد من المؤسسات القرآنية قد أنشئت بأمر من العلماء أو بتشجيع منهم، وهي بادرة طيبة تدعو إلى التفاؤل بمستقبل زاهر، لأن القرآن هو الشافع المشفع الذي من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار.

ولكن تبقى المسافة بيننا وبين واجبنا تجاه كتاب ربنا شاسعة، والمقترحات التالية قد تساهم في تقريبها:

ألف: أن تصبح دراسة القرآن (تلاوة، وتدبرا، وتفسيرا، وتأويلا) كما علوم القرآن قاعدة الدراسات الأخرى في المعاهد الدينية، والحوزات العلمية، حيث ينبغي البدء بها بعد دراسة اللغة وقواعد اللغة لكي يتربى الدعاة إلى الله وفق المنهج الرباني، فلا يتأثروا بالثقافات الدخيلة، كالفلسفة اليونانية أو الأفكار الهندية القديمة أو المبادئ الوافدة من الغرب أو من الشرق.

باء: أن نسعى جاهدين لاستنباط قيم الوحي ومقاصد الشريعة وأهداف الدين من القرآن الكريم، فتكون قاعدة فهمنا للفقه، وتحليلنا للتاريخ، ومواقفنا في السياسة. لا بد أن نقضي على الفجوة المصطنعة بين علمي الفقه والتفسير. أوليس كتاب ربنا بالنسبة إلى الفقه كما الدستور بالنسبة إلى القوانين واللوائح؟.

جيم: كيف ندعو الناس إلى الدين؟ كيف ننذرهم عاقبة الكفر والفسوق والعصيان؟ كيف نربيهم على التقوى والفضيلة؟.

لا ريب أن بعض مناهج التبليغ خير من بعضها، والدعاة يختلفون في هذه المناهج، ولكن أفضلها جميعا منهج القرآن الذي اتبعه النبي وآل بيته الكرام (صلوات الله عليهم)، فلا بد أن نتخذ آيات القرآن وتفسيرها وسيلة للوعظ والإرشاد، وكفى بها واعظا، ومن لم تنفعه آيات الذكر لن ينتفع بشيء.

والواقع: كانت هذه الأفكار التي اختصرتها هنا في صورة مقترحات على أمل أن أفصلها في مناسبات أخرى كوراء اتجاهي نحو التفسير قبل حوالي ١٢سنة. كم وفقت في تحقيقها؟ لا أدري، ولكن لازلت مقتنعا بأنني بحاجة إلى الاستزادة من القرآن، وقد سألت الله أن يجعلني مشغولا إلى نهاية عمري بتفسيره، فهل أوفق أم تحول مشاكل الحياة دون هذه الأمنية الشيقة؟ أنى كان فإن أملي بالله، ثم بهذا التوجه الجديد إلى القرآن من قبل العلماء والمفكرين، كما بإخوتنا في مؤسسة دار الهدى، الاستمرار في هذا الاتجاه إن شاء الله.

وكلمة أخيرة: إنني أشكر الله الذي هداني إلى كتابه فأصبحت أنظر إلى الحقائق بصورة أجلى... وأصلي على النبي محمد وآله، لا سيما الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام الذي طالما سألت الله عند ضريحه التوفيق في إتمام التفسير.

وأذكر بالخير إخواني الذين ساهموا بشكل أو بآخر في هذا التفسير، وأخص بالذكر الإخوة: سماحة الشيخ توفيق العامر، وسماحة الشيخ علي المهدي آل حيدر، وسماحة الشيخ محمد العوامي، والأستاذ طالب خان. من دار الهدى الذين ساهموا بصورة فعالة في إنجاز

التفسير، كذلك الأستاذ الحاج حسن الرضوي والأستاذ عبد الله أكبري وسائر الإخوة في مكتبي... والأستاذ حسنين في دار البصائر ممن ساهم في تهيئة وسائل طبع ونشر الكتاب بالصورة الجميلة التي عليها.

ولا أنسى أخيرا أن أذكر زوجتي المرحومة أم صالح، التي أهديت ثواب التفسير إلى روحها وفاء لصبرها معي في الشدائد.

أسأل الله العلي القدير أن يتقبل منا ذلك، وأن يغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا في أمرنا إنه غفور رحيم.

مشهد المشرفة

محمد تقي المدرسي

١٣ ذي الحجة الحرام ١٤٠٩هـ.

المحتويات